ريز إرليخ
REESE ERLICH

داخل سورية
INSIDE SYRIA

قصّة الحرب الأهلية وما على العالم أن يَتوقّع

تقديم:
نعوم تشومسكي



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

داخل سورية

قصة الحرب الأهلية وما على العالم أن يَتوقع

ريز إرليخ

Erlich Reese

تقديم

نعوم تشومسكي

ترجمة

رامي طوقان

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. s.a.l

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

:Syria Inside

Can World The What and War Civil Their of Backstory The Expect

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

Books Prometheus

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى

1436 هـ - 2015 م

ISBN: 978-614-02-2497-1

الدار العربية للعلوم ناشرون

Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: (1-961+) 785107 - 785108 - 786233

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: (1-961+) 786230 - البريد الإلكتروني: jchebaro@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

تصميم الغلاف: سامح خلف

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (+9611) 785107
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (+9611) 786233

مقدمة

تشكلت ثورات الربيع العربـي بداية عام 2011 من مجموعة من الأحداث المثيرة والتي ستكون لها بدون شك أهمية تاريخية. ورغم الانتكاسات التي عانت منها هذه الثورات إلاّ أنها حققت للشعوب مكاسب هامة أعتقد أنها ستكون دائمة، ومن المحتمل أن تكون مقدمة للمزيد من الأحداث والمكاسب.

ففي تونس مثلاً، كانت فرنسا هي القوة الاستعمارية المهيمنة، وقد دعمت ديكتاتور تلك البلاد بطرائق شكّلت لها مصدراً للكثير من الإحراج؛ إذ كان أحد وزراء الحكومة الفرنسية يقضي إجازته في تونس بينما كانت الثورة الشعبية تقصي الرئيس السابق زين العابدين بن علي عن الحكم.

أما في مصر، فقد كانت الهيمنة للولايات المتحدة وبريطانيا. وقد ساندت كلتا القوتين ديكتاتور البلاد الفريق أول طيار حسني مبارك حتى النهاية. وما تلى ذلك كان "السيناريو" المعتاد حين يواجه ديكتاتور تفضله قوى الغرب مشاكل داخلية: أي تقديم الدعم له لأطول فترة ممكنة، فإذا لم يعد الدعم مفيداً - وخاصة إذا انقلبت طبقات رجال الأعمال والجيش عليه - فستقوم هذه القوى بترحيل الديكتاتور إلى مكان ما، وبعد ذلك ستبدأ بإصدار بيانات طنانة عن محبتها للديموقراطية مع محاولتها إعادة النظام القديم كما كان وعلى أتم وجه ممكن. وقد دعمت الولايات المتحدة حكومة الإخوان المسلمين المنتخبة ورئيسها محمد مرسي، كما تركت هذه الحكومة الكثير من السلطات بيد الجيش. وحين أسقط الجيش الحكومة وسيطر على الحكم بشكل تام في تموز 2013 دعمته الولايات المتحدة؛ مع إبدائها تعليقاتها النموذجية المعتادة عن الديموقراطية.

لقد كنت على المستوى الشخصي متحمساً للثورة في سوريا، ولكن ردة الفعل القاسية التي قامت بها بعض القوى الأمنية والعسكرية حوّلت المطالب التي كانت سلمية في المرحلة الأولى من هذه الثورة إلى حرب أهلية دموية دمرت ولا تزال تدمر المجتمع السوري بكامله. وقد أظهر ريس إرلتش في الفصل الخامس من هذا الكتاب أنه بالرغم من أن هذا الصراع ظل في الأساس بين نظام الرئيس الأسد وشريحة كبيرة من الشعب السوري إلا أنه اتخذ طابعاً أكثر تعقيداً بسبب احتدام القتال بين السنة والشيعة والعلويين والطوائف الدينية والعرقية الأخرى، وبسبب دخول جماعات جهادية لديها أجندات مختلفة خاصة بها فيه.

لا شك طبعاً في أن الانقسام بين السنة والشيعة قد بدأ في فترة مبكرة من تاريخ الإسلام. وتعتبر الطائفة العلوية أحد فروع الإسلام الشيعية التي ظهرت في مرحلة مبكرة من هذا التاريخ. وقد حاول الأتراك العثمانيون والمستعمرون الفرنسيون من بعدهم استغلال الفروقات الدينية للمحافظة على سيطرتهم على الحكم. ولكنْ، حين غزت الولايات المتحدة العراق عام 2003، فاقم الاحتلال التوتر الطائفي الذي كان منخفض المستوى في الأصل، إلى أن تفجر ومزق البلد ومن ثم امتد منه إلى سائر أنحاء المنطقة؛ وخاصة إلى سوريا.

قد يكون هناك بعض الأمل في التوصل إلى تسوية سياسية مبنية على المفاوضات تتمخض عن نقاط تشبه تلك التي تم التوصل إليها في مؤتمر جنيف. وقد تمارس الولايات المتحدة وروسيا بعض الضغوطات للوصول إلى اتفاق كهذا لإنهاء الحرب الأهلية. ولكن فرص حصول هذا الأمر ضئيلة؛ مع أنه - وكما أرى - المخرج الوحيد الذي يُبقي على أي أمل بإنقاذ سوريا.

وكما أظهر إرلتش في الفصلين العاشر والحادي عشر، كانت الولايات المتحدة وإسرائيل حذرتين من الثورة السورية منذ البداية؛ فقد أبدى الرئيس الأسد تعاوناً جيداً نسبياً مع الولايات المتحدة في السنين الأخيرة؛ إذ شاركت بلاده معلوماتها الاستخبارية مع الولايات المتحدة، وامتصت صدمة لجوء عدد ضخم من الناس الهاربين من الخراب الذي أحدثه الغزو الأمريكي للعراق إليها، كما أن الرئيس التزم عموماً بمطالب الولايات المتحدة منه.

من المثير للاهتمام أن نلاحظ أن الولايات المتحدة وإسرائيل لم تتخذا أي خطوة واضحة وذات أهمية لمساعدة الثوار. فقد كان من الممكن لإسرائيل أن تحشد قواتها في الجولان المحتل، ممّا كان سيجبر الرئيس الأسد على تحريك قواته إلى الجنوب، وبالتالي سيخفف من الضغط عن الثوار. ولكن، وكما وثق إرلتش في الفصل العاشر من الكتاب - بعد مقابلة عدد من المحللين الإسرائيليين - إن إسرائيل سعيدة للغاية برؤية العرب يقتلون بعضهم بعضاً.

أما الولايات المتحدة فجلَّ ما فعلته هو أنها سهّلت تدفق الأسلحة من دول الخليج إلى الثوار، كما قامت بتدريب بعض من اختارتهم منهم في الأردن، ولكنها لم تفعل شيئاً ذا أهمية عدا ذلك. ومن الملاحظ أن الدعم الذي قدمته الولايات المتحدة لمبادرة السلام التي أطلقها مبعوث الأمم المتحدة الأخضر الإبراهيمي في جنيف كان فاتراً؛ مع أنها قد تكون طوق النجاة الوحيد الذي يتيح فسحة من الأمل في إنقاذ سوريا من

الكارثة التي وقعت فيها.

كان عجز الولايات المتحدة عن توجيه ضربات إلى سوريا في آب 2013 حدثاً في غاية الأهمية. فقد فشلت حكومة أوباما في الحصول على أي دعم دولي للقيام بهذه العملية، حتى إن بريطانيا رفضت مساندتها، كما أنها لم تحصل على دعم الكونغرس الأمريكي أيضاً؛ مما كان سيجعل حكومة أوباما في حالة من العزلة التامة لو قامت بهذه العملية منفردة. ولذلك، رأت إدارة أوباما في الخطة الروسية لنـزع الأسلحة الكيميائية من سوريا نوعاً من العناية الإلهية؛ إذ أنقذت تلك الإدارة من هزيمة سياسية في غاية الخطورة.

كانت هذه الأحداث ستشكل فرصة ذهبية لحظر الأسلحة الكيميائية في الشرق الأوسط برمته. فبخلاف موقف حكومة أوباما، لا تشير معاهدة حظر الأسلحة الكيميائية إلى مجرد حظر لاستخدام الأسلحة الكيميائية، بل تحظّر صناعة هذه الأسلحة وتخزينها واستخدامها من الأساس. ونظراً إلى أن إسرائيل تمتلك أسلحة كيميائية، فقد رفضت حتى اللحظة مجرد الاعتراف بمعاهدة حظر الأسلحة الكيميائية. ولذلك كانت ردة الفعل المناسبة هي الدعوة إلى فرض معاهدة حظر الأسلحة الكيميائية في الشرق الأوسط كله؛ مما سيعني إجبار أي دولة مخالفة لبنود هذه المعاهدة على التخلص من مخزونها من السلاح الكيميائي سواء أكانت تعترف بها أم لا؛ لأن الحفاظ على هذه المخزونات، وبالتالي تصنيع هذه الأسلحة سيعتبر خرقاً لبنود المعاهدة. وهذا بالطبع سيتطلب من إسرائيل التخلي عن أسلحتها الكيميائية، والسماح بحملات تفتيش دولية؛ وينطبق هذا الأمر على الأسلحة النووية أيضاً.

لا يعني هذا أن الولايات المتحدة سحبت ورقة التدخل العسكري في سوريا مستقبلاً، إذ يصف إرلتش في الفصل الحادي عشر من هذا الكتاب التبريرات المختلفة التي تقدمها الحكومة الأمريكية "للتدخل الإنساني". إذ يقول مناصرو هذا التوجه إن الحرب السورية - ومع وصول عدد ضحاياها المدنيين إلى مئات الآلاف - فيها من الفظاعة ما يوجب على المجتمع الدولي أن يتدخل بقواته المسلحة وقنابله؛ رغم أن كل الدلائل تشير إلى أن هذا التدخل وكما في حالات أخرى كثيرة لن يكون لصالح السوريين بل لصالح القوى المتدخلة، وسيجعل المأساة في سوريا أسوأ مما هي عليه الآن.

ما يجري في سوريا فظائع وحشية بكل ما للكلمة من معنى. ولكن هناك فظائع أسوأ منها في العالم. وأسوأ الفظائع التي حصلت في العقد

الماضي هي أحداث شرق الكونغو؛ إذ وصل عدد الضحايا إلى ما يقارب خمسة ملايين نسمة في حرب شاركت فيها الولايات المتحدة بشكل غير مباشر، كما شاركت فيها بكثافة حكومة رواندا المؤيدة للولايات المتحدة، وكذلك حكومة أوغندا إلى حدٍّ ما. وتكاد الحرب في أفريقيا ترقى إلى كونها حرباً دولية. ولكن، ما هو عدد الناس الذين علموا بوجود هذه الحرب؟ لم تجد هذه الأحداث طريقها إلى الإعلام، ولم يطالب أحد بتدخل الولايات المتحدة الإنساني لإنقاذ شعب الكونغو.

إن مفهوم "التدخل الإنساني" قديم جداً. ولكن، من الصعب للغاية أن نجد حالة حقيقية واحدة منه. فقد راج مفهوم التدخل في الغرب في تسعينيات القرن المنصرم، واعتبرت حالة كوسوفو جوهرة تاج هذا المفهوم. لكن هذا لم يجلب السرور للضحايا التقليديين، فقد أدانت قمة الجنوب العالمي (South Global) - التي تهملها دول الغرب عادة، بل وتسخر منها- ما يسمى "حق التدخل الإنساني" معتبرة إياه مجرد واجهة أخرى للاستعمار. وكانت نتيجة هذه المشاريع العظيمة مع ردود الفعل عليها هي تطوير مفهوم جديد؛ ألا وهو "مسؤولية الحماية" (Responsibility to Protect (R2P)). وتوجد صيغتان مختلفتان بشكل أساسي من هذا المبدأ. الأولى هي التي اعتمدتها الأمم المتحدة عام 2005، وعدا عن بعض الاختلاف في النقاط المركزية، فهي لا تكاد تتعدى الأسس المتعارف عليها للقوانين والممارسات الدولية.

أما الصيغة الثانية المختلفة جوهرياً عن الأولى فقد أصدرتها هيئة ترأّسها رئيس الوزراء الأسترالي السابق غاريث إيفانز، وقد نال على إثرها احتراماً واسعاً بصفته "الملاك الحارس" لفكرة مسؤولية الحماية. وتختلف صيغة إيفانز عن تلك التي اعتمدتها الأمم المتحدة في أنها تفوّض المجموعات الإقليمية بالقيام بأعمال عسكرية في مناطق صلاحياتها. لا شك في أن أكثر التجمعات الإقليمية قدرة على التصرف بهذه الطريقة هو حلف شمال الأطلسي (الناتو)، ويشمل نطاق الصلاحيات الرسمي لهذا الحلف العالم بأسره تقريباً. لذلك ليس من المفاجئ أن تعتمد القوى الاستعمارية التقليدية صيغة إيفانز؛ مبررةً ذلك بالقول إن الأمم المتحدة ذاتها قد اعتمدت مفهوم "مسؤولية الحماية"، ولكن هذه القوى تخفي حقيقة كونها تعتمد صيغة مختلفة بشكل جذري عن تلك التي اعتمدتها الأمم المتحدة.

وفي النهاية، أود أن أنوِّه بالدور التنويري الذي يلعبه عمل ريس إرلتش الصحفي والاستقصائي حول العالم. وأنا شخصياً قد استفدت منه كثيراً

في عملي في القضايا الدولية والأحداث الحالية.

نعوم تشومسكي

27 أيار 2014 - بوسطن

الفصل الأول
الثورة التي ما كان يفترض أن تحصل

بعد مرور قرابة سبعة أشهر على بدء الثورة السورية، رتبتُ لقاءً مع مجموعة من ناشطي المعارضة في مدينة دمشق. لم يكن الأمر سهلاً، إذ كان علينا أن نتواعد عند مستديرة كبيرة تمر حولها السيارات وهي تسابق الدراجات النارية في الحصول على المساحات الضيقة، وكان هناك عدد كبير من الناس الواقفين هناك، وبدا بعضهم ضباط مخابرات يرتدون معاطف جلدية ويضعون نظارات شمسية كبيرة حتى في الليل.

أخيراً، التقيت الشخص الذي تواصلت معه، وأخذني إلى دمشق القديمة، حيث مشينا في شوارع ضيقة مرصوفة بالحجارة لا يمكن للسيارات دخولها، وهناك كان من السهل اكتشاف إن كان هناك شخص ما يتبعنا. كنت على وشك أن ألتقي قادة في لجان التنسيق المحلية - المجموعات الواسعة وغير المتماسكة أحياناً التي كانت تقود الثورة ضد حكومة الرئيس بشار الأسد - وكان الناشطون الذين سألتقيهم يمثلون مجرد شريحة واحدة من المحتجين؛ إذ كانوا شباباً علمانيين من طبقة ذوي الدخل المتوسط.

أراد المتظاهرون قيام نظام برلماني حقيقي، وإجراء انتخابات حرة؛ هذا ما قاله أحمد بقدونس - وهو أحد قادة الناشطين - وتابع: "في البداية، أي في آذار 2011، لم تتعدَ مطالب المتظاهرين القيام بالإصلاح. إذ طالبوا بانتخابات حرة، وحكومة برلمانية، وحق التظاهر السلمي". وأضاف: "ولكنّ الحكومة رفضت هذه المطالب، وردت عليها بالعنف ضد المتظاهرين. ونتيجة لذلك، تصاعدت مطالبهم في غضون أسابيع لتصل إلى المطالبة بإسقاط الحكومة من أساسها. وحين بدأت الحكومة بقتل الناس، صعّد المتظاهرون مطالبهم؛ إذ لم يتقبل أحد الطريقة التي قتلونا واعتقلونا بها من دون سبب" [1] .

في بداية الربيع العربـي، أعلن الرئيس الأسد أن بلاده لن تشهد ثورة شعبية بسبب قيَم نظامه الوطنية، ولكن التاريخ اتخذ مساراً مختلفاً عما هو متوقع؛ حيث تسببت الحرب الأهلية التي تمخضت عنها الثورة عن مقتل أكثر من 150,000 شخص حتى تاريخ كتابة هذه السطور، ولا يزال الآلاف يتعرضون للقتل كل شهر، كما قتل الآلاف من عناصر الجيش

والشرطة أثناء هذه الأحداث، واضطر أكثر من تسعة ملايين سوري إما إلى الهجرة إلى خارج البلاد أو إلى النـزوح داخل البلاد.

وقالت ناشطة أخرى استخدمت اسم "لين" إن الجميع في سوريا انحازوا إلى طرف أو آخر، وإن بلدها أصبح في حال أشد خطراً من حال تونس أو مصر في أوج الثورات التي حصلت فيهما، "فالناس في مصر وتونس يتظاهرون ووجوههم مكشوفة وظاهرة، ويلتقطون صوراً فوتوغرافية لأنفسهم وهم يتظاهرون، وينشرون هذه الصور على الفيسبوك، في حين أنه لا يمكننا نحن فعل ذلك". وأوضحت لين أن المتظاهرين معرضون لخطر الموت في كل مواجهة، إذ قالت: "حين نطلب من شخص ما أن ينـزل إلى الشارع فسرعان ما يقول لنا: أنتم تطلبون مني الانتحار" [2] .

انتقلت وسائل الثورة تدريجياً من المظاهرات إلى الهجمات المسلحة. ولكن، بعكس الحركات الثورية في أمريكا اللاتينية أو إفريقيا، افتقدت الثورة السورية إلى قيادة سياسية وعسكرية موحدة ومتماسكة، فقد كان الشباب الذين ينتمون إلى القرية نفسها أو البلدة نفسها يجتمعون ليشكلوا ميليشيات مؤقتة، وكانوا يتسلحون ببنادق أو أعتدة غنموها من الجيش السوري.

مع بداية سنة 2012، بدأت القوى الأجنبية بتسليح الثوار، وحاولت كل من هذه القوى أن تجد جانباً يمثل أهدافها السياسية في ما تمّت تسميته: "سوريا ما بعد الأسد". وسرعان ما عبّر عدد كبير من المغامرين والصحافيين والجواسيس الحدود السورية-التركية سعياً إلى التواصل مع الميليشيات. وقد قمت شخصياً بزيارة أحد مراتع هذه المؤامرات الدولية؛ وهو مدينة أنطاكية في تركيا، القريبة من الحدود الشمالية الغربية لسوريا. تمت هذه الزيارة خلال شهر رمضان المبارك عند المسلمين، الموافق لشهر آب من تلك السنة. لم يكن من المفترض أن يأكل المنشقون السوريون المسلمون أو يشربوا أثناء النهار، فكانوا بدلاً من ذلك يسهرون طيلة الليل ليتمكنوا من الأكل، بعض ثوار الجيش السوري الحر كانوا يطلقون لحاهم ويصلون خمس مرات في اليوم ويصومون شهر رمضان؛ ليس نتيجة لقناعات دينية، وإنما ليظهروا بمظهر التقوى؛ لأن الحصول على التمويل من بعض دول الخليج يتطلب التوجه إلى الحساسيات الدينية لدى هذه الدول التي تنحاز في مساعداتها إلى الأتقياء.

وبينما تدّعي الولايات المتحدة أنها تدعم الثوار العلمانيين المعتدلين، تظل الحقيقة أن الأطراف الأقوى بين الثوار هي المجموعات الإسلامية

المتشددة. وسبب هذا الأمر أن مساعدات التسليح تصل أساساً إلى كلٍّ من الجيش السوري الحر والمجموعات الإسلامية المتشددة. وقد أرادت جماعات مثل جبهة النصرة، والدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش) أن يرتكز الحكم على مبادئ الشريعة، وأن تكون النصوص الدينية هي المرجع الأول والأخير للنظام القانوني التشريعي، ولكنها في المقابل احتقرت أصحاب الديانات الأخرى، وعارضت حقوق النساء فشابهت بذلك الجماعات اليمينية المتطرفة الموجودة في الولايات المتحدة وأوروبا؛ مع فارق واحد وهو أن هاتين الجماعتين تمارسان نشاطاتهما باسم الإسلام، في حين تمارس الجماعات الأوروبية والأمريكية نشاطاتها باسم المسيحية.

وفي الوقت ذاته، نشرت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية (CIA) عملاء على طول الحدود التركية-السورية لتستوثق من الميليشيات التي تتلقى الأسلحة من دول الخليج المختلفة، كما قامت بإرسال المزيد من العناصر إلى الأردن لتدريب عدد من الثوار الذين اختارتهم. وكان على الثوار أن يبدوا بمظهر التشدد في التقوى أمام الخليجيين، وبمظهر الإسلاميين المعتدلين أمام وكالة الاستخبارات الأمريكية.

كنت قد قابلت شخصياً إحدى هذه المجموعات المتلونة؛ وهي مجموعة تتألف من 150 رجلاً، وتعتبر واحدة من بين عشرات الجماعات المرتبطة بشكل أو بآخر بالجيش السوري الحر. وأثناء المقابلة، ازدحمت غرفة معيشة مؤثثة بشكل بسيط بثمانية رجال كانوا جميعاً ينقرون على حواسيبهم المحمولة، ويجيبون على بريدهم الإلكتروني عبر هواتفم الذكية؛ إذ توجد لدى هذه المجموعة صفحتها الخاصة على موقع فيسبوك.

أخبرني قائد المجموعة عبدول سلمان أنهم قد أطلقوا لحاهم ليتخذوا مظهراً متديناً. وبدا واضحاً أن أعضاء هذه المجموعة مثل الكثير من الفرق المسلحة الأخرى غاضبون على الولايات المتحدة لعدم توفيرها الدعم الضروري لهم. قال سلمان شاكياً: "لم نتلقَّ أي سلاح من الولايات المتحدة حتى الآن. ولو كانت لدينا أسلحة لكنا أسقطنا الأسد". وأعرب سلمان أيضاً عن تفضيله إنشاء منطقة حظر جوي فوق أجزاء من سوريا؛ مثل تلك التي فرضتها الولايات المتحدة والناتو فوق ليبيا [3] . في الوقت ذاته، تعارض هذه المجموعة وغيرها من مجموعات المعارضة سياسة الولايات المتحدة في المنطقة. فهي تريد استعادة هضبة الجولان السورية التي احتلتها إسرائيل في حرب عام 1967، وكذلك تدعم حقوق الفلسطينيين، وتعارض العدوان الأمريكي على العراق وأفغانستان.

ستؤثر الثورة السورية على كل منطقة الشرق الأوسط، ولكن الولايات المتحدة تواجه فيها تناقضاً كبيراً؛ فالكثير من السوريين في المعارضة يريدون من واشنطن أن تدعم قضيتهم، ولكن مخططاتهم المستقبلية لسوريا تختلف بشكل كبير عن أهداف واشنطن الاستراتيجية [4] . والغريب أن الجدل الجاري في واشنطن في ما يتعلق بسوريا بعيد كل البعد عن الحقيقة على الأرض، "فالحمائم" يفضلون عقوبات اقتصادية قاسية مع تسليح "الثوار المعتدلين"، في حين أن "الصقور" يفضلون إرسال المزيد من الأسلحة للثوار مع قيام الجيش الأمريكي بقصف جوي.

أما قادة المعارضة السورية الذين التقيتهم فيعتقدون أن هذه التباينات تكتيكية وحسب؛ إذ إن كلاً من الحمائم والصقور يريد استبدال الرئيس بشار الأسد برجل قوي يعمل لصالح الولايات المتحدة. وقد قال لي عمر مشوح القيادي في الإخوان المسلمين ومسؤول المكتب الإعلامي المقيم في اسطنبول: "لم يدعم الأمريكيون أحداً بالقوة الكافية بعد لأنهم لا يزالون يبحثون عمن يضمن مصالحهم في المستقبل" [5] . وأضاف مشوح أنه وبينما يساهم مسؤولو الولايات المتحدة في إنشاء ائتلافات للمعارضة، لا يتقبل الناس العاديون أهداف الولايات المتحدة؛ مشيراً إلى العراق وأفغانستان كمثلين لتدخّلين عسكريين قامت بهما الولايات المتحدة وكانت نتائجهما كارثية على المستوى السياسي. كما قال مشوح إنه لا يريد أن يرى سوريا تمر بهذه الطريق. وقد تكون وجهة النظر هذه أحد الأسباب التي أدت إلى برودة الولايات المتحدة تجاه الإخوان المسلمين وتقديمها الدعم لفئات مسلحة أخرى قامت بتدريبها في الأردن.

تُصَوِّر إدارة أوباما ووسائل الإعلام الأمريكية الكبرى سوريا وكأنها مستنقع من الفرق الدينية المتحاربة في ما بينها منذ قرون عديدة، لكن الواقع مختلف عن ذلك تماماً. فقد عاش السوريون معاً بسلام لسنين طويلة تحت حكم ديكتاتوري علماني قد يتعرض فيه المعارضون للنظام إلى التعذيب والسجن. ولكن الناس عموماً لم يكونوا مكترسين للاختلافات الدينية. وقد بدأت التفرقة الدينية مع بدء القتال؛ إذ استخدم كلٌّ من الطرفين الدين لتأمين الحشد والالتفاف حولهما؛ فاعتمد الثوار على غالبية سكان البلاد من المسلمين السنة، في حين استمال الرئيس الأسد الأقليات مثل العلويين والمسيحيين والمسلمين الشيعة. ولذلك، علينا أن نفهم أنه حين تشتكي الولايات المتحدة من "مستنقع من النـزاعات التي يعود عمرها إلى عدة قرون" فإن هذا يعني باختصار أنها لم تصل بعد إلى الوسيلة الناجعة

للفوز بهذه الحرب، أو أن مخططاتها قد انحرفت عن طريقها؛ وهذا هو واقع حال السياسة الأمريكية في سوريا.

من الطريف أنه يمكننا في الولايات المتحدة أن نتعلم الكثير عن السياسة السورية عبر النظر إلى طريقة التعامل مع قانون حزام الأمان في السيارات. إذ إن وضع حزام الأمان إجباري في سوريا، ولكن حين يقترب سائق سيارة عمومية من شرطي السير فإنه ينـزل حزام الأمان فوق صدره من دون أن يربط إبزيم الحزام، فيبدو أمام الشرطي وكأنه يضعه، في حين أنه لا أنه يستفيد فعلياً من "الأمان" الذي يجب أن يوفره له "الحزام". وتستمر هذه الممارسة حتى يومنا هذا؛ حيث أصبحت الحواجز العسكرية شائعة في دمشق. ووضع حزام الأمان نادر جداً لدرجة أن الكثير من الناس ينظرون إليك باستغراب إذا وضعته. وذات يوم، اكتشفت سبب ذلك حين أوصلتني سيارة مسؤول رفيع المستوى إلى الفندق الذي أقيم فيه. إذ وُضعت تحت تصرفي سيارة الرجل مع سائقها طوال الوقت، وحين جلست على المقعد الأمامي وضعت حزام الأمان بطريقة غير إرادية، فنظر إليّ السائق باستغراب من دون أن يقول شيئاً. ولو قال لي شيئاً فربما كان سيقوله لي بالعربية. ولكنني فسرت نظرته على أنها تساؤل: "ماذا تفعل؟! ألا تثق بقيادتي؟". كانت رحلتي إلى الفندق خالية من الأحداث. وحين وصلت إلى غرفتي في الطابق الثامن، مررت بجانب مرآة فرأيت علامة سوداء مستعرضة على كتفي وصدري تركها حزام الأمان المتسخ؛ بالتأكيد لم يكن حزام الأمان قد استخدم قط، ولذلك تجمّع عليه الغبار على مدار السنوات الأربع الماضية.

يشابه الجمود الذي تعاني منه الحرب الأهلية في سوريا تجربة حزام الأمان هذه بشكل كبير. وقد ادعى النظام السوري أنه يوفر الأمن للشعب، ولكن "حزام الأمان" الذي يستخدمه قد "اتسخ" نتيجة قلة استخدامه. أما الثوار المتطرفون فيدعون أنهم يقدمون الأمن والأمان من خلال أجواء التقوى الإسلامية، ولكنهم في الواقع يسعون وراء السلطة الديكتاتورية أيضاً. في حين تتظاهر الولايات المتحدة بأنها تتمسك بالقوانين وتحميها، ولكنها في الواقع لم تتوصل بعد إلى معرفة سبب فشل "أحزمة الأمان" في تأدية دورها.

مررت في مناسبة أخرى في دمشق بتجربة تتعلق بحزام الأمان؛ حين جاء سائق سيارة حكومية ليوصلني، ولكن حزام الأمان كان حينها نظيفاً بشكل كامل. وكنت يومها في طريقي لمقابلة الرئيس بشار الأسد. قد يبدو

هذا غريباً، ولكن المرة الأولى التي قابلت فيها الرئيس الأسد كانت عام 2006؛ حين كنت ضمن وفد أمريكي زائر من ولاية داكوتا الجنوبية. في ذلك اليوم، نظّم السيناتور الأمريكي السابق جيم أبو رزق جولة في سوريا لعدد من مواطني ولايته؛ فقد كانت زوجته سورية، وقد كان يرافقها للقيام بزيارات لأقاربهما في القسم الغربي من سوريا بشكل دوري. وقد نال احترام الرئيس الأسد بفضل تاريخه الطويل كسياسي تقدمي، وكقائد في حركة الأمريكيين ذوي الأصول العربية؛ ولذلك كان الرئيس يدعوه لزيارته والتحدث إليه في كل مرة كان يزور أقاربه فيها.

تقدمنا في صف وراء بعضنا بعضاً إلى قاعة اجتماعات ضخمة، وجلسنا على الكراسي الوثيرة. وجدت الرئيس الأسد طويل القامة، ونحيل الجسم، وذا وجه مستطيل يزينه شارب، وذا قصة شعر قصيرة؛ كتلك المعتادة عند القادة العرب. كانت شخصيته جذابة وبارزة، وكان يتكلم اللغة الإنكليزية بطلاقة، لذا سرعان ما اكتسب محبة الكثير من أفراد مجموعتنا كقائد حكيم يسعى إلى علاقات طبيعية مع الولايات المتحدة. اقتربت من الرئيس بعد الاجتماع لأسأله عما إذا كان بإمكاني الحصول على مقابلة منفردة معه للإذاعة العامة، فوافق على الفور، وقال لي إن المستشارة والناطقة الرئاسية بثينة شعبان ستقوم بترتيب جميع الأمور المتعلقة بهذه المقابلة.

كانت السيدة شعبان إحدى النساء القليلات التي تتولى مناصب رفيعة في الدولة، وكانت دائمة الاعتراض على الفساد المستشري في سوريا، وبدت لنا وكأنها واحدة من الأشخاص المعتدلين في النخبة الحاكمة في سوريا، ولكنها احتفظت بعد بدء الثورة بمنصبها كناطقة رسمية، ودافعت بحماسة عن الإجراءات القمعية التي مورست ضد المتظاهرين.

أصبح حافظ الأسد - والد بشار - رئيساً للبلاد بعد انقلاب عسكري عام 1970، وحكم بعد ذلك بقبضة حديدية. لم يكن من المفترض أن يخلف بشار الأسد أباه؛ فقد كان هذا الدور منوطاً بأخيه الأكبر باسل، ولذلك انصرف بشار الأسد إلى دراسة طب العيون. وكان يتابع دراساته العليا في لندن حين توفي أخوه في حادث سيارة عام 1994، فاستُدعي إثر ذلك إلى موطنه، وبدأت عملية تحضيره للرئاسة. أدت معرفة بشار الأسد بالغرب، ومستواه الجامعي العالي، بالإضافة إلى جاذبية شخصيته الطبيعية إلى تصاعد قناعة الكثيرين بأنه سيكون رئيساً إصلاحياً. كما مدح الكثير من القادة الغربيين سياساته الاقتصادية الليبرالية؛ إذ خصخص العديد من المشاريع التي تمتلكها الدولة، كما شجع القطاع الخاص والنمو الرأسمالي.

لكن، لم تؤدِّ أي من هذه التغييرات إلى إصلاحات جذرية؛ ناهيك عن إنهاء طريقة الحكم الاستبدادية وشديدة المركزية في سوريا.

بعد أيام قليلة من لقائي الأول بالرئيس بشار الأسد، جاءت السيارة الحكومية نفسها ذات حزام الأمان النظيف إلى الفندق الذي أقيم فيه، وأوصلني سائقها عبر طريق ملتوٍ وطويل إلى القصر الرئاسي. كان الرئيس الأسد يعمل عادة في مكتبه في وسط المدينة، ويستخدم القصر للأمور الرسمية فقط. لذا، لا بد أنهم قد اعتبروني شأناً رسمياً! مشيت عبر قاعة ضخمة بسط عليها السجاد الأحمر حتى وصلت إلى بوابتين يبلغ ارتفاعهما ثماني أقدام. فُتحت البوابتان، وكان الرئيس الأسد يقف خلفهما، فأخرجت مسجل المذياع "والميكروفون" الذي كان يبدو وكأنه مسدس مغطى بالإسفنج؛ وهو "ميكروفون" عادي للمقابلات الإذاعية والمتلفزة. ولكنْ لسبب أجهله، لم يكن الرئيس الأسد مرتاحاً أمام هذا "الميكروفون" وظل يتحرك بتوتر؛ ربما كان يبدو مثل مسدس بالفعل!

كنت قد طلبت من ناشطي المعارضة أن يزوّدوني بكل الأسئلة التي يجب عليّ طرحها على رئيسهم، فلم أحضر له لائحة الأسئلة المعتادة عن العلاقات الأمريكية السورية وحسب، بل جئته بالكثير من الأسئلة عن الشؤون المحلية مثل: متى تستطيع سوريا أن تحظى بانتخابات حرة وببرلمان؟ متى سيسمح بوجود أحزاب معارضة؟ لماذا لم يُمنح 300 ألف كردي سوري حق المواطنة بعد؟ متى ستنتهي حالة الطوارئ السارية في سوريا منذ العام 1963؟

تملص الرئيس من الإجابة عن هذه الأسئلة، قائلاً إن المطالبة بالتغييرات الديموقراطية مجرد محاولات من الولايات المتحدة لإضعاف حكمه، كما قال إنه بصدد بدء حوار بين المثقفين السوريين لمناقشة الإصلاحات المحلية. وأخبرني أنه "سيتطلّب منا تعريف إطار هذه المفاوضات سنة من الحوار" [6] ، وكان هذا عام 2006. ولكن، بعد مرور خمسة أعوام، لم يجرِ أي حوار ذي معنى بين السوريين، ناهيك عن أي إصلاحات.

وفي آذار من سنة 2011، وصل "الربيع العربـي" إلى سوريا، وطالب المتظاهرون بالكثير من الأمور التي كنت قد سألت عنها في تلك المقابلة. لم يكن السبب في ذلك أن لدي كرة بلورية تكشف المستقبل، ولكن لأن عدداً كبيراً من السوريين كانوا يطرحون الأسئلة نفسها منذ عقود. ذعرت الحكومة من تلك المظاهرات، وأجرت بعض الإصلاحات؛ حيث أنهت حالة الطوارئ، وأعطت معظم الأكراد المحرومين حق المواطنة، وفتحت أبواب

الحوار مع قادة المعارضة المعتدلين. ولو كان الأسد قد قام بهذه الإصلاحات عام 2006 لكان قد نال احترام العالم كقائد بعيد النظر. ولكنْ مع قدوم العام 2011، كان الوقت قد تأخر؛ إذ بدأت الثورة؛ ليس ضد الأسد وحسب، بل ضد النظام برمته؛ ولم يعد هناك مجال للتراجع. وعانت النخبة الحاكمة في سوريا من عزلة متنامية على المستويين الدولي والمحلي، حتى إن الجامعة العربية المكونة من اثنتين وعشرين دولة في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا صوّتت على فرض عقوبات غير مسبوقة على سوريا، ثمّ صوّتت معترفة بتمثيل المعارضة السورية للشعب، ومُقصية حكومة الرئيس الأسد عن الجامعة. كما أرسلت الأمم المتحدة العديد من المراقبين في مهام إلى سوريا، وحاولت التوسط للتوصل إلى اتفاقية سلام؛ ولكن كل هذه الجهود باءت بالفشل.

عانى النظام السوري من انشقاقات عدة على مستوى عالٍ؛ كانشقاق سفير له في العراق، وعميد في الحرس الجمهوري، ورئيس للوزراء. كما شهد كل أسبوع المزيد من الانشقاقات من قبل عناصر الجيش الأقل رتبة، وواجهت سوريا أيضاً مشاكل اقتصادية خطيرة. ولكن، في الوقت الذي تنامت فيه قوة الثوار الإسلاميين المتطرفين، اجتذب الرئيس الأسد عدداً أكبر من السوريين إلى صفه؛ بناءً على حجة أن رئيساً علمانياً قوياً خير من حكم إسلامي متطرف.

يبقى أمامنا سؤال كبير: هل سيلوم الشعب السوري نظام الأسد أم الثوار على أزمة البلاد؟ حصلت على إجابة جزئية عن هذا السؤال أثناء رحلة غير اعتيادية؛ إذ كانت الحكومة السورية قد رتبت رحلة إلى مدرسة ابتدائية جنوبـي مدينة درعا؛ مهد الثورة. فقد كان المسؤولون الحكوميون يريدون منا رؤية أن الحياة قد عادت إلى طبيعتها. سارت الزيارة كما خطط لها المسؤولون؛ إلى أن خرج الطلاب للفرصة الصباحية. فحين رأى أولئك الأطفال كاميرات التلفاز، بدأ بعضهم بالهتاف فجأة: "حرية! حرية!"؛ وهذه الكلمة من بين الشعارات الأساسية المناهضة للحكومة، كما هتف آخرون: "سوريا! سوريا!"، وشعارات مماثلة موالية للحكومة. عندها، شحبت وجوه مسؤولي الدولة؛ فقد ظهرت حقيقة الانقسام في سوريا واضحة وجلية أمام العالم. وقال المترجم الذي عينته الحكومة ليرافقتي أثناء هذه الزيارة: "لقد وصل الشقاق السياسي إلى المدارس! لقد أصبحت لدى طلبة الصف الأول الإبتدائي آراء سياسية!" [7] . وفي الواقع، إن تمتع أولئك الطلبة بالجرأة الكافية ليهتفوا ضد الحكومة أثناء زيارة رسمية أمر لا يبشر بالخير لمستقبل

نظام الرئيس الأسد في حكم سوريا.

لكن الثورات ليست أمراً جديداً في سوريا. ويحتاج الفهم الكامل للثورة التي بدأت عام 2011 إلى نظرة إلى التاريخ المضطرب الذي مرت به البلاد.

الفصل الثاني
لورنس السوريين

يستقي معظم الأمريكيين ما يعرفونه عن الشرق الأوسط في أوائل القرن العشرين من فيلم "لورنس العرب" (Arabia of Lawrence)، وهو فيلم ملحمي أنتج عام 1962، وظهر فيه عدد كبير من نجوم السينما في ذلك الوقت وهم يركبون الجمال ويحاربون الأتراك العثمانيين "الأشرار" أثناء الحرب العالمية الأولى. وقد شاهدتُ هذا الفيلم أيام مراهقتي واستمتعت به؛ وخصوصاً برؤية الطريقة البطولية التي مثّل بها بيتر أوتول دور ت. إ. لورنس. ولكنني حين شاهدته في مرحلة لاحقة من عمري أثناء سني دراستي الجامعية - وهو وقت كنت فيه ناشطاً ضد حرب فيتنام - بدأت أتساءل عما إذا كان هذا الفيلم يسرد التاريخ بشكل دقيق. وقد احتجت إلى عدة سنين للتوصّل إلى إجابة عن هذا السؤال. ورغم أن بيتر أوتول كان قد عرض صورة في غاية الإبداع للكولونيل توماس إدوارد لورنس؛ حيث بدا في الفيلم طويلاً ونحيفاً وأشقر إلا أن طول لورنس الحقيقي لم يتجاوز خمس أقدام ونصف القدم. لقد كان قصيراً جداً لدرجة أنه لم يبدُ وكأنه ضابط في الجيش البريطاني! ولكنّ الرجلين تشابها بالشعر الأشقر الفاتح والعينين شديدتي الزرقة.

ارتبطت حياة ت. إ. لورنس ارتباطاً وثيقاً بتاريخ سوريا الحديث. فقد ولد لورنس عام 1888، ودخل جامعة أوكسفورد عام 1907، وبدأ حياته المهنية عام 1909 حين قام بجولة مشياً على الأقدام في سوريا التي كانت جزءاً من الدولة العثمانية في ذلك الوقت. وبعد تخرجه، قام برحلتين إضافيتين إلى لبنان وسوريا ليعمل في حملات تنقيب أثرية أشرف عليها المتحف البريطاني. تعلّم لورنس التحدث باللغة العربية العامية أثناء تلك الرحلات، وكتب دراسة الدكتوراه الخاصة به عن القلاع الصليبية في سوريا. تحوّل لورنس إلى شخص مشابه لإنديانا جونـز [8] ، إذ استخدم تلك الرحلات للتجسس لصالح الاستخبارات البريطانية (رغم أن التاريخ لم يسجل لنا أنه كان يحمل سوطاً كذاك الذي اشتهر إنديانا جونـز بحمله). ويوجد جدل بين بعض المؤرخين حول ما إذا كان لورنس قد قام بالتجسس لصالح البريطانيين قبل الحرب العالمية الأولى أم لا. ولكن، لا شك في أن الاستخبارات البريطانية كانت في غاية الاهتمام بمجال دراسة لورنس بسبب

الجسور وخطوط القطار التي كان الألمان يبنونها لصالح الدولة العثمانية، والتي كانت قريبة من مواقع الآثار [9] ، كما كان أستاذ لورنس الذي حصل له على العمل في مجال علم الآثار يعمل لصالح الاستخبارات البريطانية. ولا يوجد شك مطلقاً في أن لورنس نفسه كان يحمل مسدس ماوزر ذا عيار تسعة ملمترات خلال رحلاته تلك.

بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى، انضم لورنس رسمياً إلى استخبارات الجيش البريطاني، وتم نقله إلى القاهرة. وكان قد نما داخل لورنس نوع من الارتباط الرومنسي مع سكان المنطقة من العرب؛ مما يناقض روح الاستعلاء الاستعمارية التي سادت في ذلك العصر. حتى إن رفاقه من الاستعماريين البريطانيين اتهموه بالإفراط في التعاطف مع أولئك السكان. حاول لورنس أن يميز نفسه عن الاستعماري البريطاني العادي، ولكنه في الوقت ذاته كان يعي التناقض الكبير الذي يحمله كونه مواطناً بريطانياً في أراضي العرب؛ وهو أمر ظل مصدر إزعاج له طوال حياته. كتب لورنس مرة: "يشعر البعض منا بعمق تأثير سكان الأرض الأصليين، فيحاولون التأقلم مع روح أولئك السكان، ويكيفون أنفسهم بتواضع مع صورتهم العامة؛ فيلغون كل شيء في أنفسهم إلا تقليد السكان الأصليين، وهم بذلك يتجنبون المشاكل في حياتهم اليومية. ولكن، ليس باستطاعة المقلدين تجنب نتائج التقليد؛ إذ لا يزيد التقليد عن كونه شيئاً أجوف لا قيمة له. فهم مثل السكان الأصليين، ولكنهم ليسوا من السكان الأصليين..." [10] .

كانت لدى قادة العرب أثناء الثورة ضد العثمانيين وجهة نظر مختلفة تماماً عن لورنس. فقد رآه معظمهم كضابط ارتباط بريطاني ثانوي الأهمية؛ حتى إن عبد الله بن الحسين - أحد قادة الثورة العربية - اضطر إلى إقناع أتباعه بفائدة لورنس العسكرية، ولكنه رغم ذلك حظّر على لورنس أن يقوم بأي تواصل مع القبائل التي كانت تحت إمرته [11] . يمكننا أن نتوصل إلى فهم أفضل لدور لورنس - الذي قد يبدو متناقضاً - إذا فهمنا أهدافه السياسية؛ فقد كان لورنس يدعم وجود دول عربية مستقلة، ولكن فقط إذا حكمها ملوك عرب يدعمون بريطانيا ويعارضون فرنسا. وفي نهاية المطاف، لم يكن لورنس أكثر من داعية إلى فكرة "الاستعمار الجديد".

حكم السلاطين العثمانيون ما يعرف اليوم بسوريا في الفترة الممتدة ما بين 1517 و1918، وضمّت المناطق التي تحولت الآن إلى البلاد سوريا ولبنان والأردن وفلسطين قبائل كثيرة، ومجموعات عرقية ودينية متعددة. سمحت الدولة العثمانية لبعض قادة القبائل العربية الإقطاعيين بنوع من

الحكم الذاتي على المستوى المحلي - وخاصة في المناطق الريفية - طالما أنهم يدفعون الضرائب للدولة، كما سمحت للمسلمين والمسيحيين واليهود بأن يتولوا قوانين أحوالهم الشخصية بأنفسهم؛ كالشؤون المتعلقة بالزواج والطلاق وما شابه ذلك.

كانت العلاقات التاريخية بين المسلمين والمسيحيين والدروز (وهم مجموعة عرقية ودينية متميزة انفصلت عن الطائفة الشيعية قبل أكثر من ألف سنة) متقلبة؛ حيث شهدت أوقاتاً من التعاون، كما شهدت أوقاتاً من الصراع. وقد حرصت الدولة العثمانية على تحريض هذه الجماعات على بعضها بعضاً للحفاظ على حكمها. ومما زاد الأمور تعقيداً أن القوى الأوروبية سعت إلى توسيع نفوذها؛ وذلك بدعم مجموعات مختلفة. فدعم الفرنسيون المسيحيين، فيما دعم البريطانيون الدروز.

استخدم السلاطين مثل كل القوى الاستعمارية القوةَ والبطش في بعض الأحيان. وكانت الإمبراطورية العثمانية في تلك الأيام تمتد إلى جنوب أوروبا؛ حيث قمع السلاطين بقسوة الثورات التي اندلعت في البوسنة والهرسك عام 1875، وفي بلغاريا عام 1876، وثورتي الأرمن عامي 1892 و1893؛ إذ تأثرت الدولة العثمانية بالحركات الوطنية والديموقراطية نفسها التي شهدتها دول أخرى مع بداية القرن العشرين حين اندلعت ثورات في روسيا (1905) وإيران (1906) والصين (1911) والمكسيك (1910).

وحين بدأت الحرب العالمية الأولى، انضم العثمانيون إلى صف ألمانيا والإمبراطورية النمساوية-الهنغارية ضد بريطانيا وفرنسا وروسيا. وكانت بريطانيا وفرنسا تأملان في استخدام الحرب كوسيلة لتقسيم الإمبراطورية العثمانية بينهما، وكذلك للاستيلاء على المستعمرات الألمانية؛ فلم يكن من المفاجئ أن تستغل الإمبراطورية البريطانية والإمبراطورية الفرنسية الاستعمارية التوجهات القومية عند العرب لهزيمة العثمانيين؛ فبعد تقديم وعود شفوية بمساندة استقلال العرب، قامت كلتا القوتين برسم مخططات لتوسيع إمبراطوريتيهما الاستعماريتين على حساب شعوب المنطقة. ويعرض فيلم "لورنس العرب" بدقة كيف سعت بريطانيا للتحالف مع الشريف الحسين بن علي، شريف مكة وأميرها أثناء الحرب؛ حيث مثَّل أليك غينيس دور فيصل أحد أبناء الحسين (رغم أن فيصل الحقيقي كان في التاسعة والعشرين من عمره أثناء هذه الأحداث، بينما كان أليك غينيس في الثامنة والأربعين أثناء تصوير الفيلم). كان الحسين هو الحاكم الرسمي لأكثر مدن الإسلام قدسية، كما كان كبير العائلة الهاشمية المنحدرة مباشرة من سلالة النبـي محمد (صلى

الله عليه وسلم)؛ مما جعله بديلاً سياسياً ذا مصداقية عن السلطان محمد الخامس كقائد للعالم الإسلامي، بالإضافة إلى كونه حليفاً لبريطانيا.

عرض الحسين دعم البريطانيين مقابل ضمانات بقيام دولة عربية مستقلة بعد نهاية الحرب تكون تحت حكمه، وتشمل تقريباً كامل منطقة الشرق الأوسط. كانت رؤية الحسين لهذه الدولة محافظةً؛ بما يتعارض مع الإصلاحات التي فرضها الأتراك. فقد كان يفضّل تطبيقاً أكثر صرامة للشريعة الإسلامية يشمل قطع يد مرتكب جريمة السرقة، ومنع النساء من العمل [12] ، ولم تمنع هذه الآراء السير هنري مكماهون من تأييد عرض الحسين. ولكنْ حتى في ذلك الوقت، كان الغرب يخشى قوة الحركات الإسلامية، فسعى لورنس - وكأنه قد رأى حجم الخطر الذي تمثله تلك الحركات - إلى تقسيم العالم الإسلامي؛ وذلك عبر تعزيز حدة الصراع بين الشريف حسين والسلطان محمد الخامس. وقد كتب لورنس مشيراً إلى ضرورة اللجوء إلى العنف لإسقاط الإمبراطورية العثمانية: "إذا قدرنا على ترتيب الأمور حيث يكون هذا التغيير السياسي مبنياً على العنف فسوف نقضي على الخطر الذي يمثله الإسلام عن طريق تقسيم المسلمين وجعلهم يتصارعون..." [13] .

أراد مكماهون أن يعطي الانطباع بأنه يساند استقلال العرب، ولكنه تقصد جعل دعمه هذا مبهماً عبر استخدامه لغة دبلوماسية غامضة؛ إذ لم تكن لدى الحكومة البريطانية أي نية في منح العرب استقلالهم [14] . ولكن حلفاء لورنس العرب لم يعلموا الكثير عن خطط بريطانيا طويلة المدى، فظن الحسين وأولاده وكل الوطنيين العرب أن البريطانيين سيلتزمون بوعودهم، وكان الشيخ عودة أبو تايه أحد أولئك الوطنيين. تظهر صورة قديمة لعودة أبو تايه في كوفية بيضاء وعباءة بنية حاملاً خنجراً معقوفاً وسيفاً على جانبيه. كان داكن البشرة، وذا شارب ولحية صغيرة، ويظهر عليه بأس محارب الصحراء؛ وقد مثّل أنتوني كوين دوره في فيلم "لورنس العرب". بالنسبة إلى عودة الحقيقي، فقد قاد عشيرة الحويطات البدوية المتنقلة في الصحاري التي تغطي الآن الأردن والسعودية، وفي عام 1908 كان شوكة في خاصرة الدولة العثمانية حين قتل مسؤولين من الحكومة في شجار يتعلق بتحصيل الضرائب. وقد حاولت الدولة العثمانية الإمساك به بعدها، ولكنها لم تفلح في ذلك.

حين اندلعت الحرب العالمية الأولى، أصبح عودة وعشيرته مشاركين أساسيين في الثورة العربية، وانضموا إلى لورنس في أول حملة عسكرية له

ضد الأتراك. كان عودة ورجاله معروفين كمحاربين متمرسين؛ حيث يمثل كل محارب وحدة عسكرية مستقلة. ورغم أن روح المبادرة الفردية هذه تتناقض بشكل كلي مع المبادئ العسكرية البريطانية التي تعتمد على حشد القوات بشكل كثيف، إلا أنها أثبتت فعاليتها في حرب العصابات الصحراوية. وقد أظهر فيلم "لورنس العرب" شخصية عودة كإنسان جلف وطماع لا يوالي غير عشيرته؛ فحين لم يجد الشخص الذي جسده أنتوني كوين أي غنائم هدّد بترك الحرب، لكن عودة الحقيقي كان مفكراً صحراوياً ومناصراً قوياً لقضية العرب ككل وليس لقضية العشيرة فحسب، فكما قال لورنس: "كان [عودة] يرى الحياة وكأنها ملحمة وكل الأحداث فيها هامة. وكان كل شخص يتواصل معه "بطلاً". وكان ذهنه مخزناً لقصائد عن غزوات قديمة ولقصص ملحمية عن القتال" [15] . كان عودة محارباً ملهماً ساعد في توحيد القبائل ضد العثمانيين، وكان أحد المقاتلين الأساسيين الذين ساهموا في استيلاء الثورة العربية على العقبة ودمشق، ولذلك قال عنه لورنس مرة: "إن عودة هو أعظم محارب في شمال الجزيرة العربية".

استغل البريطانيون عودة والقادة العرب الآخرين بكل سرور لتحقيق النصر في الحرب، ولكنهم اعتمدوا على عائلات نبيلة أخرى في حكم المنطقة؛ فأعطوا العائلة الهاشمية الحكم في العراق والأردن، وحكمت الأسرة السعودية مدينتي مكة والمدينة، وتحالف البريطانيون معهم أيضاً؛ ولا تزال عائلة ابن سعود تحكم المملكة العربية السعودية حتى يومنا هذا. لم يمانع البريطانيون مطلقاً التحالف مع حكام متشددين دينياً طالما أنهم يدعمون الحكم البريطاني سياسياً. وكان السياسي البريطاني الذي بدأ باعتماد هذه السياسة أحد الأشخاص الذين حققوا شهرة عالمية بعد سنين قليلة؛ ألا وهو ونستون تشرشل.

تتلخص الصورة التي أحتفظ بها في ذهني عن ونستون تشرشل في كونه رجلاً كبيراً في السن يرتدي بذلة فاخرة تكاد لا تناسب حجمه، بينما يقضم بفمه سيجاراً من النوع الذي اشتهر باسمه لاحقاً (حيث قامت شركة كوبية مختصة بتصنيع السيجار في خمسينيات القرن الماضي بتسمية نوع من السيجار الكبير "تشرشل"، وأصبح هذا الاسم المستحدث هو المعتمد لكل سيجار ذي حجم مماثل). كانت هذه هي الصورة الشعبية لتشرشل كرئيس وزراء لبريطانيا أثناء الحرب العالمية الثانية. ولكن قبل ذلك، كان لديه تاريخ طويل ومثير للجدل يعود إلى بدايات القرن العشرين حين كان نائباً في البرلمان، وبعد ذلك وزيراً.

كان تشرشل سياسياً محافظاً ومؤيداً لتوسع الإمبراطورية البريطانية. ولمّا كانت القوات البحرية البريطانية هي الكبرى والأكثر قوة في العالم، فقد لعبت دوراً محورياً في الحفاظ على قوة هذه الإمبراطورية. أصبح تشرشل أمير البحرية البريطانية - أي الوزير المسؤول عن شؤون البحرية - بين عامي 1911 و1915، وكان يرغب في تطوير الطائرات لتستخدم لغايات العسكرية، كما أراد تحديث محركات اسطول البحرية؛ حيث تعتمد على النفط بدلاً من الفحم، إذ إن النفط أخف وزناً وأكثر فعالية مما يعطي السفن البريطانية الأفضلية على الأسطول الألماني الذي كان لا يزال يعتمد على الفحم. لكن بريطانيا واجهت إشكالية مزعجة في ذلك الوقت؛ إذ لم تكن لديها أي مصادر نفط محلية. فقد كانت الولايات المتحدة المنتج الأكبر للبترول في العالم حينئذ، ولكن بريطانيا لم ترغب في الاتكال على أي قوة كبرى أخرى - حتى لو كانت حليفة لها - لأنه لم يكن كافياً بالنسبة إليها شراء النفط في السوق المفتوحة بسعره العادل، بل كانت بحاجة إلى ضمان السيطرة الاستراتيجية على مصادر النفط بشروط تكون لصالحها، وكان عليها أيضاً أن تمنع وصول النفط إلى أعدائها. قال أميرال بريطاني في ذلك الوقت: "يجب أن تكون هذه السيطرة مطلقة، ويجب ألا يكون هناك أي تدخل أجنبي فيها من أي نوع" [16] . ولا تزال كل القوى الاستعمارية - بما في ذلك الولايات المتحدة - تعتمد هذه السياسة عينها حتى يومنا هذا، ولكن بأشكال أكثر حداثة.

اكتشفت شركة بريطانية خاصة النفط في إيران عام 1908؛ بعد التوصل إلى اتفاق تفضيلي مع شاه إيران في ذلك الوقت. وفي سنة 1911، رتب تشرشل لعملية شراء الحكومة البريطانية غالبية أسهم هذه الشركة؛ والتي عرفت لاحقاً باسم "بريتيش بتروليوم" (شركة البترول البريطانية أو BP) فضمنت البحرية البريطانية وجود مصدر للنفط سيدوم لعشرين سنة مقابل شروط مالية ملائمة لمصالحها. ولكن بريطانيا احتاجت إلى المزيد. وقبل الحرب العالمية الأولى، أنشأت مع ألمانيا وتركيا شركة نفطية مشتركة تضخ النفط في ما أصبح شمال العراق الآن. وفي 3 تشرين الثاني 1918، أي بعد أربعة أيام من نهاية الحرب العالمية الأولى، احتلت القوات البريطانية الموصل في شمال العراق، وأنتج البريطانيون النفط من أول بئر لديهم هناك في تشرين الأول 1927 في مدينة كركوك القريبة من الموصل؛ بعد أن وضعوا يدهم على حصص ألمانيا وتركيا في الشركة، وقسموها بين شركات نفط بريطانية وفرنسية وأمريكية.

لكن، لا تزال كل هذه الأحداث على بعد عشرة أعوام في المستقبل. في عام 1914، كان النفط حلماً بعيد المنال بينما كانت قناة السويس حقيقة مباشرة وحاضرة. كانت القناة في غاية الأهمية لتجارة بريطانيا العالمية، وخصوصاً للوصول إلى الهند التي كانت المستورد الأول للبضائع البريطانية، ولذلك أراد البريطانيون السيطرة على المناطق المجاورة لمصر مثل سيناء وغزة وفلسطين والأردن.

أما الفرنسيون فقد كانت لديهم طموحاتهم الاستعمارية الخاصة بهم، وكثيراً ما أدت هذه الطموحات إلى تنافسهم مع البريطانيين منافسة شرسة. خسرت فرنسا عدة حروب أمام بريطانيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، لكنها استمرت في منافسة بريطانيا على مناطق النفوذ حتى بداية القرن العشرين. ورغم أن البلدين تحالفا أثناء الحرب العالمية الأولى، إلا أن الفرنسيين لم يثقوا بالبريطانيين قط؛ والعكس صحيح أيضاً.

دخلت فرنسا المنافسة على النفط بعد دخول بريطانيا ببضع سنين؛ لأنها تأخرت في تحويل آلاتها العسكرية والصناعية إلى الاعتماد على النفط. وكانت لا تزال تبحث عن مستعمرات منتجة للنفط حين بدأت الحرب العالمية الأولى. وقد أرادت فرنسا - مثل بريطانيا والولايات المتحدة قبلها - أن تكون لديها شركة النفط الخاصة بها وغير الملوثة بالملكية الأجنبية، ولذلك وبتشجيع من الحكومة الفرنسية أنشأ عدد من الرأسماليين الفرنسيين شركة البترول الفرنسية (Compagnie Française des Pétroles أو CFP) وهي التي تحولت لاحقاً إلى شركة توتال (Total). وبدأت هذه الشركة - والتي ظلت ملكية خاصة - أعمالها بالانضمام إلى البريطانيين في تطوير آبار النفط في شمال العراق، وقامت لاحقاً بتطوير آبار نفط في فرنسا والجزائر، ولكنها لم تحظَ بالسيطرة الدولية التي مارستها شركات النفط البريطانية أو الأمريكية.

أرادت فرنسا كذلك أن تسيطر على سوريا كبلاد تشكل البوابة إلى أوروبا. وقد قال لي مستشار الحكومة السورية مضر بركات في مقابلة أجريتها معه في دمشق: "إن هذه المنطقة تتحكم بطرائق وصول الشرق الأوسط إلى أوروبا. يبقى الحال الآن كما كان في ذلك الوقت؛ وهو أن كل شيء يتعلق بموقع سوريا نفسه" [17] . كانت لدى فرنسا أيضاً مصالح اقتصادية مباشرة تشمل التحكم بتجارة الحرير المربحة في سوريا، والوصول إلى ميناء بيروت على البحر الأبيض المتوسط. بررت فرنسا أطماعها عبر قراءة انتقائية للتاريخ؛ إذ إن السلطان العثماني كان قد عين فرنسا عام

1536 بصفتها "الدولة الحامية" للمسيحيين الذين يعيشون في الأراضي المقدسة، فتذرعت فرنسا بهذا التعيين لتعزيز روابطها مع المسيحيين الموارنة في لبنان - وهم طائفة مسيحية تعيش في سوريا ولبنان منذ ما قبل الفتح العربـي. ولدى هذه الطائفة بطريركها الخاص الذي يعيش قرب بيروت - فأصبحت اللغة الفرنسية هي الأوسع انتشاراً في الإمبراطورية العثمانية بعد التركية والعربية، كما بنى الفرنسيون شبكة سكك الحديد في سوريا، وشركتي الكهرباء والغاز في بيروت. ذهب الفرنسيون إلى حد القول إن لديهم حق استعمار هذين البلدين؛ لأنهم من بنى القلاع الصليبية فيهما قبل مئات السنين.

منذ بداية الحرب العالمية الأولى، تنافس الفرنسيون والبريطانيون على السيطرة على الشرق الأوسط ما بعد الحرب، ولكنهم أخفوا مخططاتهم لتقسيم "الغنائم" خلال سني الحرب. وفي فيلم "لورنس العرب"، يكتشف بيتر أوتول الصفقة البريطانية-الفرنسية المتعلقة بالشرق الأوسط قرابة نهاية الفيلم. وفي مشهد كلاسيكي، يخبره كلود رينـز - الذي مثل دور مسؤول سياسي بريطاني - أن "موظفاً حكومياً بريطانياً" يدعى سايكس قد التقى "موظفاً حكومياً فرنسياً" يدعى بيكو ليرسما حدود المستعمرات الجديدة. وفي الواقع، كان كلٌّ من سايكس وبيكو أكثر بكثير من مجرد "موظفين حكوميين"، وقد أدى تقسيمهما تلك المناطق إلى صراعات دموية فيها استمرت حتى يومنا هذا.

كان لدى السير مارك سايكس شارب كبير يتدلى فوق شفته العليا بعض الشيء، وقد كان هذا الشارب يلخص الطريقة التي يبدو فيها ضباط الجيش البريطاني في تلك الفترة. ولم يكن منظر سايكس مناسباً لدوره فحسب، بل كان قد اتخذ المسار المناسب لهذا الدور أيضاً؛ فقد درس في جامعة كامبردج، وانضم إلى الجيش البريطاني عام 1897. وبعد فترة قصيرة أمضاها في حرب البوير في جنوب أفريقيا، عُيِّن سايكس كقنصل شرفي في القسطنطينية بين عامي 1905 و1907، حيث كتب كتابين عن الشرق الأوسط أحدهما " **آخر ميراث للخلفاء: تاريخ مختصر للإمبراطورية العثمانية** " (The Caliphs’ Last Heritage: A Short History of the Turkish Empire). وفي بريطانيا نفسها، ورث سايكس أملاكاً بارونية [18] في شرق يوركشاير، كما فاز بالانتخابات البرلمانية في تلك المنطقة عام 1911. وحين اندلعت الحرب العالمية الأولى، أسهم سايكس في إنشاء المكتب العربـي تحت إمرة اللورد هوراشيو كتشنر الذي كان وزير الدولة للشؤون الحربية

في تلك الفترة. وقد كان شاربُ اللورد كتشنر هو الأكثر شهرة في ذلك الزمن؛ إذ زيّن وجهه الصارم الذي يبدو فيه شاربه مميزاً إعلانات التجنيد البريطانية خلال الحرب العالمية الأولى. وكان كتشنر في هذه الإعلانات يشير بإصبعه إلى الأمام، وقد كُتبت تحت صورته عبارة الرجاء التالية: "أيها البريطانيون، إن بلادكم تحتاج إليكم".

سرعان ما أثار سايكس إعجاب زملائه بمعرفته الواسعة المزعومة عن المنطقة. ورغم أن سايكس لم يكن يتكلم التركية ولا العربية، إلا أنه كان يحاول أن يعطي رؤساءه الانطباع بأنه قادر على ذلك. ورغم افتقاده إلى هذه القدرة، فقد عرف في الدوائر الحكومية بأنه خبير في شؤون الإمبراطورية العثمانية. وبينما كان سايكس يعمل تحت رئاسة كتشنر، قدّم مجموعة من الإسهامات غير المباشرة في التاريخ؛ فقد صمم العلم الأسود والأخضر والأحمر والأبيض؛ أي علم الثورة العربية المؤلف من ثلاثة خطوط أفقية، ومثلث إلى اليمين يشير رأسه إلى وسط العلم. وفي زمن لاحق، استخدمت تصاميم مختلفة من هذا العلم في العراق وسوريا والأردن.

وفي كانون الثاني من عام 1915، التقى سايكس بشكل سري رئيس الوزراء هربرت آسكويث وحكومته الحربية لاقتراح صفقة مع الفرنسيين في ما يتعلق بتقسيم الإمبراطورية العثمانية بعد الحرب. وقد عبّر سايكس عن الموقف البريطاني باختصار مفيد حين أشار إلى مدينتي عكا شمال فلسطين وكركوك شمال العراق قائلاً: "أود أن أرسم خطاً على الخريطة بين أول عكا وآخر كركوك" [19] . وكان هذا التقسيم سيعطي بريطانيا السيطرة على شمال العراق الغني بالنفط مع فلسطين والأردن، بينما ستنال فرنسا لبنان وسوريا وقطاعاً من جنوب تركيا وهو محافظة هتاي (لواء الإسكندرون). لم تحفل أيٌّ من القوتين بالأثر الذي سيخلفه هذا التقسيم على سكان المنطقة. وقد فوضت الحكومة البريطانية سايكس للقيام بمحادثات سرية مع الحكومة الفرنسية؛ وانتهى الأمر بتفاوض الطرفين لمدة عشرة أشهر قبل التوصل إلى اتفاق؛ فقد وجد سايكس نداً قوياً له في شخص رجل فرنسي أنيق، وهو دبلوماسي آخر أهم بكثير من مجرد "موظف حكومي"؛ ألا وهو بيكو.

يظهر فرانسوا جورج-بيكو في رسم يعود إلى مرحلة مبكرة من عمره كدبلوماسي شاب وهو يرتديسترة ذات ياقة مقلوبة - كما كان طراز الأناقة وقتها - تزيّنها ربطة عنق حريرية. كان بيكو جاداً بشأن مهامه الدبلوماسية بقدر ما كان جاداً بشأن أناقة ثيابه، فقد كان عضواً في لجنة آسيا

الفرنسية (Comité de l'Asie Française) وهي مجموعة ناشطين كانت تدعو إلى توسع الحكم الفرنسي في سوريا والشرق الأوسط، كما خدم في السلك الدبلوماسي الفرنسي في بيروت قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى؛ حيث رتب لعملية تزويد مسيحيي لبنان بخمسة عشر ألف بندقية حديثة لبدء ثورة ضد العثمانيين. لكن هذه الثورة باءت بالفشل، وكان أحد أسباب فشلها أن بيكو ربما ترك وراءه ملفات تحمل أسماء قادة الثورة اللبنانيين حين هرب إلى فرنسا لحظة اندلاع الحرب العالمية الأولى. وكانت النتيجة أن العثمانيين جمعوا القادة وسجنوهم، كما قاموا بإعدام الكثيرين منهم حين حصلوا على أسمائهم.

وفي آب 1915، عبر بيكو بحر المانش في رحلة سرية كانت بداية لسلسلة من اللقاءات المصيرية مع سايكس. وخاض الرجلان جدالاً مريراً حول عدد من القضايا مثل: البلد الذي سيتحكم بشمال العراق الغني بالنفط، وما إذا كانت بريطانيا ستحكم القدس بشكل مباشر أو ستخضع المدينة لإدارة دولية. وعكست الاتفاقية النهائية التي تم التوقيع عليها في 16 أيار 1916 الحل الوسطي الذي توصلت إليه القوتان الاستعماريتان. كان خط سايكس هو الغالب؛ ما عدا بعض الاستثناءات. فقد حازت فرنسا على لبنان وسوريا وجنوب تركيا وأجزاء من جنوب العراق، بينما نالت بريطانيا باقي أراضي العراق والأردن والسيطرة الكاملة على فلسطين؛ ما عدا القدس. وساندت اتفاقية سايكس بيكو اسمياً إنشاء دول عربية مستقلة، ولكن المادة الثانية من الاتفاقية تظهر نواياها الحقيقية بجلاء: "يسمح لفرنسا... ولبريطانيا العظمى بإنشاء ما ترغبان فيه من أشكال الحكم أو المراقبة المباشرة أو غير المباشرة، وما تريانه مناسباً لترتيبه مع الدولة العربية أو حلف الدول العربية" [20] .

ظلت اتفاقية سايكس بيكو سرية في ذلك الوقت نظراً إلى وقاحتها الاستعمارية؛ حتى بمقاييس ذلك الزمن، كما استمرت محاولات كلٍّ من الطرفين توسيع مناطق نفوذهما في الوقت الذي كان يفترض بهما التمسك ببنود المعاهدة. كانت بريطانيا وفرنسا كلتاهما تريدان من العرب أن يثوروا على العثمانيين، ولكنهما كانتا تعرفان أن العرب لن يقاتلوا فقط ليتحولوا إلى مستعمرات لقوى أخرى. وقد عكس فيلم "لورنس العرب" بدقة مشاعر العرب حين عرفوا بالخيانة البريطانية للمرة الأولى في مشاهد مثّل فيها عمر الشريف وآنتوني كوين دوري قائدين عربيين، وكذلك لم يسمع لورنس في الفيلم عن هذه الخيانة إلا في وقت متأخر. غير أن لورنس الحقيقي كان

يعرف بهذه الخديعة في مرحلة مبكرة، ولكن ذلك لم يمنعه من إعطاء حلفائه العرب وعوداً زائفة. وقد اعترف لورنس بعد الحرب: "بما أنني لست أحمق بشكل كامل، فقد كنت أرى أننا إذا انتصرنا في الحرب فلن تتجاوز وعودنا للعرب كونها أوراقاً جوفاء. ولو كنت مستشاراً أميناً لكنت قد صرفت رجالي إلى منازلهم بدون أن أخاطر بحياتهم لأجل أمور فارغة كهذه، ولكن الاندفاع العربـي كان وسيلتنا الأساسية لتحقيق النصر في الحرب الشرقية؛ ولذلك ظللت أطمئنهم إلى أن إنجلترا ستلتزم بكلمتها في حرفها ومعناها... ولكنني بالطبع... ظللت أشعر بالمرارة والخزي" [21] .

كان بيكو أيضاً على دراية بأن البريطانيين يقدّمون وعوداً لن يلتزموا بها أبداً. وقد برر الاستعمار بما أسماه "تخلف العرب"، كما كتب: "إن الوعود المقدمة إلى العرب بإعطائهم دولة كبيرة لا تزيد عن كونها ذر رماد في عيونهم. فهذه الدولة لن تتشكل أبداً، إذ لا يمكننا تحويل هذا الكم الهائل من القبائل إلى كل متوحد قابل للحياة" [22] . اعترف بيكو أيضاً بأن الفرنسيين بدورهم كانوا يكذبون: "ما يريده الفرنسيون هو أن يخدعوا العرب، وهم يفعلون ذلك عبر تقديمهم الكثير لهم، في حين أنهم يعلمون أن هذا البناء الذي يشيدونه لن يبقى بعد الحرب" [23] .

بعد الثورة الروسية عام 1917، نشر البولشفيون الشيوعيون عدداً من المعاهدات الأوروبية السرية بما في ذلك اتفاقية سايكس-بيكو. وقد أدى نشر هذه المعاهدات إلى موجة غضب دولية عارمة، ولكنه لم يؤدِّ إلى أي تغيير في السياسة الاستعمارية. ففي معاهدات السلام التي تم الاتفاق عليها بعد الحرب العالمية الأولى، أُجبر العثمانيون على التخلي عن كل أراضيهم العربية، ومضى البريطانيون والفرنسيون قدماً في مخططاتهم؛ حيث أنشأوا مناطق "انتداب"، وهو الاسم الذي أطلقوه على مستعمراتهم الجديدة حارمين العرب أثناء ذلك من حق تقرير المصير.

لعب سايكس دوراً مهماً آخر في تلك المرحلة؛ إذ مهّد لعدد من الاجتماعات بين القائد الصهيوني حاييم وايزمان وأبرز القادة البريطانيين، وكانت للدعم المتبادل والمتنامي بين الاستعمار البريطاني والحركة الصهيونية نتائج مصيرية بالنسبة إلى سوريا ومنطقة الشرق الأوسط كلها.

ولد حاييم وايزمان عام 1876 في قرية صغيرة في روسيا البيضاء (بيلاروس). وحين بلغ السادسة عشرة من عمره، هرب من حياته القروية، وتابع دراسته إلى أن نال شهادة الدكتوراه من سويسرا، ثم انتقل بعد ذلك إلى مانشستر في إنجلترا عام 1906 حيث عمل كبروفيسور في الكيمياء. كان

وايزمان قد التزم بالحركة الصهيونية في ذلك الوقت؛ وهي حركة علمانية قومية تدعو اليهود في العالم إلى مغادرة البلاد التي ولدوا فيها والهجرة إلى وطن قومي يهودي. لكن غالبية اليهود لم يحفلوا بها آنذاك؛ فهم إما بقوا في بلادهم الأصلية، أو هاجروا إلى بلاد تقدّم فرصاً سياسية واقتصادية أفضل، وانضم الكثيرون منهم إلى نقابات العمال والحركات اليسارية. وكان الافتقاد إلى الدعم واضحاً في مراسلات وايزمان؛ إذ كتب في رسالة وجّهها إلى صديق له يشتكي فيها من الاستقبال الذي تلقاه من يهود الطبقة العاملة في مانشستر: "أنت تتعامل مع حثالة يهود روسيا؛ مع حشد من الجهلة الأغبياء الذين لا يعلمون شيئاً عن أمور مثل القضية الصهيونية. لا يمكنك تصوّر ما يعنيه كونك مثقفاً يعيش في المحافظات الإنجليزية ويعمل مع اليهود المحليين. إنه عذاب جهنمي!" [24] .

ورغم أن وايزمان نفر من يهود الطبقة العاملة، إلا أنه حظي بصداقة رجال الأعمال المحليين؛ مثل سايمون ماركس وإسرائيل سيف اللذين حوّلا لاحقاً متاجر "ماركس آند سبنسر" إلى سلسلة وطنية كبيرة. عمل القادة الصهاينة منذ البداية مع القوى الاستعمارية للحصول على رعايتها لقيام دولة يهودية، وكانت بريطانيا أكثر تلك القوى تجاوباً، لكن الطريق نحو دعم المسعى الصهيوني كان طويلاً وصعباً. وفي عام 1903، اقترحت وزارة الخارجية البريطانية إنشاء مستوطنة صهيونية في المستعمرات البريطانية شرق أفريقيا - وهو ما عرف لاحقاً باسم "مشروع أوغندا" - فقامت المنظمة الصهيونية العالمية - وهي المجموعة الصهيونية الرئيسة - بإرسال وفد صغير إلى أراضي ما يعرف اليوم بكينيا لتفقد الوطن المقترح. وقال بعض الصهاينة إن كينيا "تشرف" على أرض فلسطين، ولذلك يجب القبول بها كوطن قومي يهودي. لكن، كان من الواضح أن البريطانيين كانوا يريدون زرع جماعة مضطهدة أخرى وسط مستعمراتهم كجزء من استراتيجية "فرّق تسد" التي كانوا يتبعونها؛ إذ نجحوا في هذه الخدعة من قبل حين أرسلوا هنوداً شرقيين إلى البحر الكاريبي، وحين أرسلوا البيض والهنود إلى جنوب أفريقيا.

وفي نهاية المطاف، رفضت المنظمة الصهيونية العالمية مشروع أوغندا، ولكن بقيت فيها مجموعة من داعمي هذا المشروع الذين انفصلوا ليشكلوا منظمة صهيونية جديدة. كان على الصهاينة أن ينتظروا اثني عشر عاماً قبل أن يروا ثمار جهودهم. وفي تلك الأثناء، استقر عدد من اليهود الأوروبيين في فلسطين التي كانت لا تزال تحت الحكم العثماني. وفي عام 1907، زار

وايزمان هذه المجموعة، حيث ساهم في إنشاء "شركة تطوير أراضي فلسطين" (Company Development Land Palestine) التي بدأت بشراء الأراضي للاستيطان اليهودي.

كان الكثيرون من النخبة الحاكمة البريطانية متعصبين في معاداتهم لليهود على المستويين المؤسساتي والشخصي؛ فلم يسمحوا إلا لعدد محدود من اليهود بالتسجيل في الجامعات المرموقة، كما منعوا اليهود من الانضمام إلى نواديهم الخاصة. ولم يكن الأرستقراطي البريطاني في تلك الفترة ليرغب في تزويج ابنته بيهودي. إذاً، لماذا فكروا في دعم الصهيونية؟ الجواب ببساطة هو الجغرافية السياسية (geopolitics). وقد بدأ هذا الأمر مع اندلاع الحرب العالمية الأولى؛ إذ كان لإنشاء أقلية استيطانية يهودية في الشرق الأوسط عدة فوائد: كان هذا سيساعد في الدفاع عن قناة السويس التي تسيطر عليها بريطانيا، كما أمل البريطانيون في أن دعم الصهيونية سيستجلب لهم دعم اليهود الأمريكيين الذين قد يضغطون بدورهم على الرئيس وودرو ويلسون ليشارك في الحرب العالمية الأولى. وكان البريطانيون يرغبون أيضاً في إنشاء مستعمرة موالية لبريطانيا لتكون حاجزاً ضد الفرنسيين. كما قال هربرت صامويل؛ وهو صهيوني عمل كمفوض سامي في فلسطين: "لا يمكننا أن نستمر بافتراض أن علاقتنا السعيدة الحالية مع فرنسا ستستمر دائماً" [25] .

حظي وايزمان ولسنين طويلة بصداقة آرثر بلفور؛ وهو عضو طموح في البرلمان البريطاني، ومن منطقة مانشستر، وواحدٌ من مجموعة من القادة المسيحيين الذين تقبلوا الصهيونية كحليف شرعي - ولكن غير مساوٍ - للإمبراطورية البريطانية. كان بلفور عميق الإيمان بالمسيحية، وأصبح هو ورئيس الوزراء المستقبلي ديفيد لويد جورج أول الصهاينة المسيحيين؛ والصهيونية المسيحية هي نـزعة يمينية لا تزال موجودة حتى يومنا هذا، وتؤمن بأن عودة اليهود إلى أرض إسرائيل كما يصفها الكتاب المقدس ستسبق المجيء الثاني للسيد المسيح؛ ولذلك يدعم المنتمون إلى هذه النـزعة توطين اليهود في فلسطين لتعجيل هذه العملية. وإذا لم يعتنق اليهود وكل أصحاب الديانات الأخرى المسيحية، عندها سيحترقون جميعاً في نيران جهنم. ورغم أن هذه المبادئ اللاهوتية المعادية لليهود والتي تطلب منهم التخلي عن ديانتهم، فقد أقبل قادة الحركة الصهيونية على حلفائهم المسيحيين أولئك بأذرع مفتوحة.

في صباح أحد أيام عام 1915، تناول ديفيد لويد جورج - الذي كان

وزير المالية في ذلك الوقت - طعام الفطور مع حاييم وايزمان لمناقشة الدعم البريطاني للقضية الصهيونية. ومع أنه كانت لدى لويد جورج دوافع متعلقة بالصهيونية المسيحية إلا أن الجغرافية السياسية هي التي لعبت الدور الحاسم في هذا النقاش؛ إذ كتب في وقت لاحق أن اليهود "قد يقدمون لنا مساعدات أكثر من العرب" [26] . وفي وقت لاحق، التقى وايزمان آرثر بلفور الذي طلب من المنظمة الصهيونية العالمية عام 1917 التقدم بمسودة لبيان الدعم البريطاني للاستيطان اليهودي في فلسطين.

كانت أول مرة علمت فيها بوجود وعد (أو تصريح) بلفور الشهير حين كنت أدرس من أجل حفل "البار متسفا" (Mitzvah Bar) [27] حين كنت في الثالثة عشرة من عمري. ما تعلمته حينها هو أن هذا الوعد كان إنجازاً هاماً لليهود في كل مكان؛ إذ كان الخطوة الأولى نحو إنشاء دولة يهودية. وبعد سنين عديدة، فوجئت بأن طول نص وعد بلفور الذي صدر في 2 تشرين الثاني من العام 1917 لا يتجاوز ثلاث فقرات، ولا تحتوي إلا فقرة واحدة منه على مضمون ذي فائدة وهي التالية:

إن حكومة صاحبة الجلالة تنظر بعين العطف إلى إقامة موطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وستبذل أقصى جهودها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جلياً أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين، ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في أي بلد آخر [28] .

نشأ وعد بلفور أصلاً من جذور صلف القوى الاستعمارية تجاه سوريا وفلسطين والمنطقة ككل وعنصريتها؛ فبريطانيا لم تتكبد حتى عناء التظاهر باستشارة سكان المنطقة من العرب، واستطلاع آرائهم. وبالنسبة إلى آرثر بلفور - الذي يفترض أن يكون مسيحياً متديناً وتقياً - فقد تغاضى عن آراء الشعب الفلسطيني الذي يشكل المسيحيون 10 في المائة من تعداده. لم يكن هذا القرار متعلقاً بالدين بقدر ما كان مستنداً إلى حسابات تتعلق بالسلطة والقوة. وقد اعترف اللورد بلفور نفسه بهذا حين كتب عام 1919: "إن القوى الأربع الكبرى ملتزمة بالصهيونية. فبغض النظر عما إذا كانت الصهيونية مبدأ صحيحاً أم خاطئاً، وبغض النظر عن كونها أمراً خيراً أم شريراً، فهي متجذرة في تقاليد تعود إلى دهور خلت، وتحمل بالنسبة إلى حاجاتنا الحالية وآمالنا المستقبلية أهمية تفوق رغبات وميول العرب البالغ عددهم سبعمئة ألف، والذين يقطنون الآن في هذه الأرض القديمة" [29] .

إن وعد بلفور والسياسات البريطانية التي تلته هي الأسباب المباشرة للصراع الذي تمر به المنطقة في الوقت الحاضر. وقد قال وزير خارجية بريطانيا، وقائد حزب العمال جاك سترو عام 2002: "نتج الكثير من المشاكل التي نتعامل معها الآن من ماضينا الاستعماري... [مثل] وعد بلفور، والضمانات المتناقضة التي كانت تعطى للفلسطينيين سراً، في حين أعطيت ضمانات مثلها في الوقت ذاته للإسرائيليين. أكرر، إنه تاريخ مثير للاهتمام ولكنه ليس مشرِّفاً" [30] .

ادعت كلتا القوتين الاستعماريتين وجود روابط تاريخية بينهما وبين الأراضي العربية؛ فقد رأينا لجوء الفرنسيين إلى حجة أن لهم حقوقاً في سوريا بسبب القلاع الصليبية المشيدة هناك قبل قرون عديدة. وبعد وعد بلفور، صار من الممكن أن يدعي البريطانيون بأنهم يساندون حق الشعب اليهودي الذي عاش في فلسطين قبل ألفي سنة. لم تحمل أي من هذه الادعاءات أي وزن بالنسبة إلى شعوب سوريا وفلسطين، وسرعان ما اشتعلت الثورات في المنطقة برمتها.

لقد نحت سياسيو فترة الحرب العالمية الأولى شخصياتهم العملاقة في كتب التاريخ؛ وإن كانت مصائرهم متباينة. وبالنسبة إلى ديفيد لويد جورج، فقد أصبح لاحقاً رئيس وزراء بريطانيا، ثم رئيس الوفد البريطاني لمؤتمر السلام الذي تلى الحرب العالمية الأولى في باريس، ولكنه تورط عام 1922 في فضيحة بيع ألقاب الفروسية؛ فهُمِّش سياسياً إلى أن مات عام 1945. أما آرثر بلفور فمات عام 1930، ولم تذكر مقالات نعيه في الصحف البريطانية الكبرى وقتها أي شيء يتعلق بوعد بلفور. أصبح حاييم وايزمان أول رئيس لإسرائيل من سنة 1949 إلى سنة وفاته عام 1952. أما السير مارك سايكس فقد مات بعد إصابته بوباء الإنفلونـزا الإسبانية عام 1919 حين كان عضواً في الوفد البريطاني لمؤتمر باريس للسلام.

ما جذبني إلى فيلم "لورنس العرب" في بداية الأمر كان تصويره السينمائي الصحراوي الأخاذ، والمعارك المثيرة فيه، ودعم لورنس للقضية العربية. لكنني لم أفهم حتى وقت لاحق أن مشهداً أساسياً في الفيلم قد شوّه التاريخ. فقبيل نهاية الفيلم، كانت الجيوش العربية قد دخلت دمشق وأنشأت مجلساً للحكم في مبنى بلدية المدينة، وقد بنى صانعو الفيلم هذا المشهد على وصف لورنس لهذا الحدث في كتابه "أعمدة الحكمة السبعة"، ولكنهم خالفوا رواية لورنس الحقيقية في الفيلم؛ إذ صوروا القادة العرب وهم يتخاصمون في ما بينهم، من دون أن يُبدوا أي فهم في ما يتعلق

بقضايا توليد الطاقة الكهربائية ومحطات المياه والتقنيات الحديثة الأخرى. بل كان كلٌّ من أولئك القادة يلوم الآخرين على مشاكل المدينة؛ مهددين بعضهم بعضاً. وقد تنحى البريطانيون جانباً وهم ينتظرون أن تدمر التباينات القائمة بين العرب وحدتهم. وفي نهاية المشهد، غادر البدو مفسحين المجال أمام البريطانيين ليمسكوا بزمام السلطة، بينما أصيب بيتر أوتول بالذهول أمام عجز العرب عن حكم أنفسهم.

وما حدث في الواقع هو أن الجيش البريطاني بقيادة الجنرال ألنبي حاول أن يفرض سيطرته، ولكن المؤتمر السوري رفض ذلك وانتخب الملك فيصل حاكماً للمملكة العربية التي تحررت من الأتراك. وقد حكم المؤتمر السوري دمشق قرابة العامين، إلى أن سلّم البريطانيون سوريا إلى فرنسا منفذين بذلك بنود اتفاقية سايكس-بيكو. لقد كانت هناك بعض الصراعات الداخلية بين العرب؛ حتى إن ثورة قصيرة الأمد قد اندلعت بينهم، ولكن رغم ذلك، تمكن العرب من إعادة توليد الكهرباء وتوفير المياه النظيفة والخدمات الحيوية الأخرى؛ مستخدمين موظفي الإمبراطورية العثمانية السابقين وتقنييها لتحقيق هذه الغاية. وقد دافع لورنس عن المؤتمر السوري في الفصل الأخير من "أعمدة الحكمة السبعة" قائلاً: "كان هدفنا هو الوصول إلى حكومة عربية كبيرة ومحلية بما فيه الكفاية؛ حيث تعكس روح الحماسة والتضحية بالنفس التي قامت الثورة عليها" [31] ، ثم أضاف قائلاً إن الحكومة العربية "استمرت متماسكة لمدة سنتين في بلاد محتلة مزقتها الحرب، وضد إرادة عناصر هامة من بين قوى الحلفاء".

ورغم معارضة لورنس لحكمٍ بريطانيٍ استعماريٍّ مباشرٍ إلا أن تركة هذه الشخصية لا تزال موضعاً للكثير من الجدل بين العرب. فكما قال لي د. إيلي الهندي رئيس قسم العلوم السياسية في جامعة "سيدة اللويزة" الواقعة قرب بيروت: "ينظر الناس إلى تلك الحقبة على أنها فترة استغلال الدول الغربية التام لنا. وهم ينظرون إلى لورنس وأمثاله من العملاء البريطانيين والفرنسيين والأمريكيين على أنهم استغلاليون حاولوا إمساكَ كل ما قدروا عليه من بقايا الإمبراطورية العثمانية، ونقلَه إلى مناطق نفوذ تابعة لهم" [32] . اعترف د. الهندي بوجود مفارقة صارخة في هذا الأمر؛ وهي أن السبب الأساسي وراء معرفة أهالي الشرق الأوسط بلورنس هو فيلم "لورنس العرب" نفسه، ولكنهم يفسرونه بشكل مختلف تماماً عن المشاهدين الغربيين. فقد ساعد الفيلم على تخليد أسطورة أن العرب غير قادرين على حكم أنفسهم نتيجة معاناتهم لمدة قرون من التفرقة الدينية والمذهبية

والعرقية؛ وتستمر هذه الأسطورة حتى يومنا هذا.

ينتهي فيلم "لورنس العرب" بمشهد يظهر فيه بيتر أوتول وهو يشعر بالتعاسة، فيما هو يترك دمشق عائداً إلى لندن. أما في الحياة الحقيقية، فقد عاد لورنس إلى لندن ولكنه لم يكن يشعر بالتعاسة قطّ؛ بل تابع نضاله من أجل فكرته عن الاستعمارية الحديثة، وخلال فترة قصيرة من الزمن أصبح ت. إ. لورنس اسماً معروفاً لدى عامة الناس بفضل مراسل حربـي أمريكي كان مغموراً وقتها.

الفصل الثالث

اتفاقيات وثورات واستقلال:

1946-1919

لم تتجاوز الفترة التي أجرى فيها المراسل الصحفي لويل توماس مقابلاته مع ت. إ. لورنس الأسبوع الواحد، ولكنه نجح عبر السنين التالية في أن يصنع منها أسطورة "لورنس العرب"؛ مستخدماً إياها في تعزيز مسيرته المهنية كمراسل صحفي خارجي جريء، وناشراً معها العديد من الأساطير الأخرى عن العرب. لم يكن لورنس يركب جملاً حين تقابل الرجلان، بل جرت سلسلة اللقاءات بينهما في مدينتي العقبة والقدس بعد أن احتلهما البريطانيون ووضعت الحرب أوزارها فيهما، لكن توماس افتتن بقصة الضابط البريطاني القصير الذي يرتدي عباءة تقليدية موشاة، ويضع كوفية على رأسه وخنجراً معقوفاً تحت حزامه. كان توماس يبحث عن بطل حرب أمريكي، وكان المواطن الإنجليزي لورنس مناسباً. وفي الفترة التالية لهذه المقابلات، حوَّل توماس ضابطَ الارتباط البريطاني المغمور إلى شخصية عالمية مشهورة. وقد ابتدع لويل توماس نسخة شاعرية من قصة لورنس خلّدها لاحقاً الفيلم الذي أنتج عام 1962، والذي ظهرت فيه شخصية توماس؛ حيث أدى الممثل آرثر كينيدي دوره. صنع توماس بمفرده أسطورة لورنس العرب، وفي الوقت ذاته رسّخ الكثير من الأفكار المغرضة ضد العرب والمسلمين؛ والتي استمر تأثيرها في سوريا والمنطقة بأسرها لسنين طويلة بعد ذلك، والتي لا تزال سائدة حتى في عصرنا الحديث.

كان لويل توماس مراسلاً صحفياً ومغامراً لا يتجاوز الثانية والعشرين من عمره حين اندلعت الحرب العالمية الأولى. وكان صاحب موهبة في مجال الإعلام، وقد انتهى قبل الحرب بقليل من تصوير أحد أول أفلام الرحلات في التاريخ. ساند توماس الحرب العالمية بقوة، في الوقت الذي كان فيه معظم الأمريكيين لا يزالون يعارضونها. وشاءت الأقدار أن يجتمع حبه للحرب وصناعة الأفلام بطريقة غير مألوفة؛ إذ جمعت إدارة الرئيس الأمريكي وودرد ويلسون فريقاً لاستكشاف الحقائق عام 1917 كانت مهمته المفترضة هي إرسال التقارير عن تطور أحداث الحرب، ولكن هدف الفريق الحقيقي كان ترويج الجهد الحربي للجمهور الأمريكي. وقد انضم توماس إلى هذا الفريق بحماسة وسرور.

كان توماس خطيباً موهوباً شديد الاهتمام بالترويج لنفسه، كما كان يفهم تأثير الأفلام على الدعاية بشكل عام، ولكنه كان أيضاً يواجه المشكلة ذاتها التي يواجهها كل مراسل حر؛ وهي أنه كان يفتقد إلى التمويل، ولذلك أجرى اتصالاته ببعض أصدقائه القدامى العاملين في سوق تعليب اللحم في شيكاغو التي كان مراسلاً فيها خلال فترة سابقة من حياته. كان المديرون التنفيذيون في شركات معالجة لحم العجل أمثال آرمور وسويفت وغيرهما متلهفين لمساعدة المجهود الحربـي؛ حرصاً على الأرباح التي كان بيع اللحم إلى الجيش سيدرها عليهم [33] ، ولذلك فقد جمع 18 مديراً تنفيذياً يعملون في تلك الشركات 100,000 دولار لتمويل رحلة توماس؛ وهي ميزانية ضخمة بمقاييس تلك الأيام. وفي بداية الرحلة، ذهب توماس مع زوجته فران والمصور البارع هنري تشيس إلى الجبهة الغربية قبل أن يتابعوا رحلتهم إلى الشرق الأوسط. وحين قابل توماس لورنس في القدس، وجد ما اعتبره المزيج الكامل بين بطل الحرب والرحالة الغامض في العالم العربـي. لم تدم المقابلات بين توماس ولورنس أكثر من بضعة أيام حسب ما قاله لورنس، أو بضعة أسابيع حسب ما قاله توماس. وفي عام 1919، عاد توماس إلى وطنه لترتيب المادة الإعلامية التي جمعها.

في نهاية المطاف، أنشأ توماس أول سلسلة من الاستعراضات متعددة الوسائل. وخلال تلك "الاستعراضات"، استخدم توماس ثلاث آلات عرض (projectors)، وشرائح ودعامات للمسرح، وراقصين وموسيقى حية، كما رسمت بلاغته المزخرفة صوراً لرمال الصحراء اللامتناهية التي تسكن فيها نساء منقبات ورجال بدو يحملون سيوفهم المعقوفة. نال استعراض توماس نجاحاً واسعاً، وقدمه أمام جماهير غفيرة في ماديسون سكوير غاردن في نيويورك وفي دار الأوبرا الملكية في لندن وغيرهما. وصف توماس بتواضع استعراضه المثير بقوله:

أثناء افتتاحي الاستعراض في لندن، استخدمت فرقة مؤلفة من ستين آلة موسيقية يعزف عليها أفراد الحرس الويلزي بزيهم القرمزي. أما على المسرح، فقد عرضت مشهد ″ضوء القمر على نهر النيل″؛ ففتحت الستائر على خلفية النيل التي ينير فيها ضوء القمر الخافت الأهرام البعيدة. وقد أدى راقصونا ″رقصة الحجب السبعة″ على المسرح برشاقة لمدة دقيقتين، ورافقهم مغنون إيرلنديون.... وفي نهاية هذه المقدمة، دخلت تحت أضواء المسرح بدون حتى أن أحيّي الحضور، بل كنت أبدأ الاستعراض فوراً بقولي: ″تعالوا معي إلى أراضي الغموض والتاريخ والشاعرية″، وقد كانت تلك أول

مقدمة تستخدم بالترابط مع فيلم، وكانت أيضاً إحدى أفكاري المجنونة. وعندئذ كانت الصور تبدأ بالتحرك" [34] .

لم يشرح توماس قط علاقة "رقصة الحجب السبعة" المثيرة بالثورة العربية الكبرى. ولكن هذه الرقصة وغيرها من المشاهد التي لا علاقة لها بموضوع الثورة شقت طريقها بذكاء لتشكل صورة نمطية للعرب والمسلمين في الغرب؛ وكان لهذه الصورة أثر طويل الأمد على نظرة الأمريكيين إلى سوريا؛ بل وإلى كل المنطقة. روّج توماس للورنس بصفته "المنقذ الأبيض" للشرق الأوسط. وكما لاحظ مؤلف سيرة حياة لورنس، الكاتب ريتشارد ألدينغتون، لم تكن الجماهير البريطانية والأمريكية التي شاهدت استعراض توماس تعرف الكثير عن الشرق الأوسط، وقد قام توماس "بدون أدنى شك حسب توماس أن مصادر القليلة للمعلومات التي كانت هذه الجماهير تعتقد أنها تمتلكها عن الشرق الأوسط تنبع من ذكريات ضبابية عن قصص ألف ليلة وليلة وغيرها....

تحول توماس بسرعة إلى آخر حلقة في سلسلة طويلة من المستشرقين؛ وهم مجموعة من المثقفين غير المحترفين الذين بدوا وكأنهم يفسرون ألغاز الشرق الأوسط، بينما كانوا في الواقع يتعاملون مع الحضارة العربية بتعالٍ مروجين لتفوق الحضارة الغربية. فعلى سبيل المثال، قال توماس في كتابه "مع لورنس في بلاد العرب" (With Lawrence in Arabia) إن القادة المسلمين سعوا إلى توحيد العرب، لكن "لم ينجح منهم أحد في ذلك. ولكن حيث فشلوا هم، نجح توماس إدوارد لورنس عالم الآثار البريطاني المغمور. لقد تطلب الأمر ذهاب لورنس إلى أراضي العرب المحرمة على الأجانب، ليقود حملتهم العسكرية الباهرة والمظفرة" [35] . ولكن الحقيقة - وكما شرحنا في الفصل السابق - هي أن القادة العرب قد نجحوا في التوحد، وساهموا بقوة في هزيمة الإمبراطورية العثمانية. كما أن تشخيص توماس للإسلام كدين يدعو إلى العنف والتعصب هو بعينه ما تردده الآراء اليمينية المعاصرة؛ إذ كتب يقول: "مكة وأختها المدينة هما أكثر مدن العالم غموضاً. وأي رجل في تلك المنطقة يجرؤ على القول إن المسيح هو ابن الله يعرض نفسه لأن يمزق إرباً" [36] .

لم يُنـزّه توماس نفسه عن الكذب لتلميع أسطورة لورنس؛ ففي مقالة نشرها في مجلة عام 1919، روى كيف كان مع لورنس حين استخدم الديناميت لتفجير خط الحديد التركي خلف خطوط العدو. لقد كتب توماس "عن الحملة العسكرية بتفاصيل حية زاهية، ولكن هذه الحملة لم تحصل

قط". وكما قال المؤرخ جيريمي ويلسون: "تُظهر مفكرات توماس مع الوثائق الأخرى التي واكبت أحداث تلك الحقبة أنه لم يكن مع لورنس في العقبة لأكثر من يوم أو يومين خلال إحدى أكثر فترات الثورة العربية هدوءاً" [37] .

بعد الحرب، أدى توماس استعراضه متعدد الوسائل في الولايات المتحدة وأوروبا وآسيا؛ حيث شاهده ما يقارب أربعة ملايين شخص في القارات الثلاث. وقد ذهب لورنس نفسه لمشاهدة تلك الاستعراضات في لندن عدة مرات، وصرح بأنه لم يعجبه. ورغم ذلك، لم يمانع الوقوف أمام الكاميرا ريثما يلتقط له توماس المزيد من الصور في الثياب العربية. لقد كان من الواضح أن لورنس قد استفاد في حياته العملية من الشهرة التي نالها نتيجة جهود توماس، وقد كتب توماس نفسه عن لورنس في وقت لاحق قائلاً إنه: "كان عبقرياً في الدخول إلى دائرة الضوء" [38] .

جنى توماس الملايين من استعراضاته تلك، كما ساهمت في انطلاقه في حياته المهنية التي استمرت حتى أصبح كاتب رحلات مشهوراً وأحد أكبر مذيعي الأخبار في الراديو. كما كان توماس رائداً في استخدام الأفلام الإخبارية القصيرة والتلفزيون، وتابع نمط تصرفاته في تنفيذ احتياجات أصحاب الأعمال الكبيرة. كما حصل على تمويل لرحلته إلى الشرق الأوسط من شركة آرمور. وفي وقت لاحق من حياته، قام بإذاعة الأخبار في محطتي NBC و CBS ، ولكنه كان يتلقى معاشه من ممول البرنامج شركة النفط العملاقة سانوكو. في عام 1947، كان توماس أهم مؤسسي شركة إذاعة كابيتول سيتيز (Broadcasting Cities Captial) التي استمرت في النمو حتى بعد أن تركها توماس، حتى اشترت شركة ABC عام 1980 وأصبحت أحد أكبر المجمعات الإعلامية في العالم. بالنسبة إلى توماس، لقد توفي بعد سنة واحدة من هذا الحدث، أي عام 1981.

في نهاية فيلم "لورنس العرب"، يترك بيتر أوتول دمشق وهو يشعر باليأس والخذلان نتيجة فشل الثورة العربية. أما في الحياة الحقيقية، فقد ترك لورنس دمشق عائداً إلى لندن، ولكنه كان بعيداً كل البعد عن المشاعر السلبية؛ فقد غاص فوراً في السياسات الاستعمارية، حيث قابل رئيس الوزراء ديفيد لويد جورج وأعضاء وزارته واعداً إياهم بأن حليفه أثناء الحرب الأمير فيصل بن الحسين وحلفائه الهاشميين الآخرين سيساندون البريطانيين في حال تقلص سلطة فرنسا في الشرق الأوسط أو زوالها. كما حضر لورنس مؤتمر باريس للسلام؛ حيث عمل كوكيل وزارة تحت إدارة

ونستون تشرشل الذي كان وزير الحربية وقتئذ.

افتتح مؤتمر باريس للسلام أعماله في 18 كانون الثاني 1919 وأنهاها بعد سنة تقريباً. وتمخض هذا المؤتمر عن اتفاقية فرساي التي اشتهرت بفرضها عقوبات قاسية على ألمانيا تتطلب منها تغطية تكلفة الجهود الحربية الذي قام بها الحلفاء. ولكن باريس كانت تضج أيضاً بالمناقشات حول تقسيم الإمبراطورية العثمانية، ولم تجد الخلافات المتعلقة بهذا الموضوع طريقها إلى الحل إلا بعد أربع سنوات أخرى؛ فقد تنافست بريطانيا وفرنسا بشراسة حول المستعمرات ومناطق النفوذ الجديدة، وكان لكل منهما حلفاؤها بين القادة العرب والصهاينة.

وبعد نهاية الحرب العالمية الأولى، ترأس الأمير فيصل بن الحسين مملكة الحجاز العربية التي كانت تشمل الكثير من المقاطعات العربية الواقعة تحت الحكم العثماني. وحين ألقى الأمير خطابه الشهير الذي طالب فيه باستقلال العرب، كان لورنس هو من يترجم له. تلقى الأمير فيصل دعماً شفوياً من بريطانيا والولايات المتحدة؛ حيث دعمت الدولتان مطالبه في سوريا ولبنان. ولكن الآراء التي طرحها فيصل أغضبت فرنسا التي كانت تطمع بحكم هذه المنطقة بنفسها. ومنذ إصدار وعد بلفور المساند للتواجد اليهودي في فلسطين، أصبح القادة الصهاينة طرفاً جديداً وهاماً في الشرق الأوسط. وبناءً على طلب الحكومة البريطانية، اصطحب لورنس فيصل معه من باريس إلى لندن قبل افتتاح المؤتمر بقليل، حيث توسط البريطانيون لتنظيم لقاء سري بين فيصل والقائد الصهيوني حاييم وايزمان. كان البريطانيون يقدمون مساعدات بقيمة 150,000 جنيه إسترليني في الشهر لفيصل [39] ، بينما كان الصهاينة يرسلون مستوطنين يهوداً إلى فلسطين، وكانت بريطانيا تأمل في استخدام الطرفين لحصر تأثير الحركات الشعبية والقومية العربية.

التقى فيصل وايزمان في 3 كانون الثاني 1919، واتفقا على رسم للحدود يضمن وجود بلدين: بلد عربي وبلد يهودي؛ حيث يتم إنشاء دولة تحكمها الحركة الصهيونية في فلسطين، بينما يحكم الهاشميون باقي البلاد. كان يفترض بالاتفاقية أن تؤدي إلى حصول الصهاينة على الأرض والسلام، وفي المقابل يحصل الملوك الهاشميون على مناطق حكم شاسعة، كما حصلوا على وعود بنيل مساعدة الحركة الصهيونية في التنمية الاقتصادية [40] . تشير الحركة الصهيونية في بعض الأحيان إلى أن هذا الاتفاق يشير إلى وجود قبول عربي مبكر لتشكيل الدولة اليهودية، لكن حقيقة الأمر

هي أن الأمير فيصل أضاف إلى هذا الاتفاق ملحقاً بخط يده صرّح فيه بوضوح أن هذا الاتفاق لن يسري إلا إذا وفى البريطانيون بوعودهم وقت الحرب بإعطاء العرب دولتهم المستقلة. وما كتبه الأمير فيصل في الملحق هو التالي: "إذا نال العرب استقلالهم كما طلبناه في تقريرنا المؤرخ في 4 كانون الثانية سنة 1919 المقدم لنظارات خارجية حكومة بريطانيا العظمى فإنني موافق على ما ذكرنا طي هذا من المواد وإن حصل أدنى تغيير أو تبديل فلا أكون ملزماً أو مربوطاً بأي كلمة كانت بل يعد هذا الاتفاق وكأنه لم يكن ولا حكم له ولا اعتبار ولا أطالب بتنفيذه بأي صورة كانت" [41] .

بالإضافة إلى ما سبق، لقد أصدر المؤتمر السوري - الذي حكم سوريا ولبنان لفترة قصيرة بعد الحرب العالمية الأولى - بياناً رفض فيه الاتفاقية، وشجب الحركة الصهيونية. كما أن بريطانيا لم تنوِ قط إنشاء دولة عربية مستقلة، ولا حتى أن تكوِّن دولة صهيونية. ولذلك، سرعان ما تحولت اتفاقية وايزمان-فيصل إلى حروف جوفاء خلال بضعة أيام من توقيعها. لكن ما ذكر فيها وجد استمرارية في سياسات إسرائيل. فبعد قيام دولة إسرائيل عام 1948، أتاح القادة الصهاينة لملك الأردن عبد الله بن الحسين بأن يحكم الضفة الغربية على أمل أن يتعاون معهم. كان عبد الله أخا فيصل الأكبر، ولا تزال عائلته تحكم الأردن حتى يومنا هذا. وهكذا، حبّذت إسرائيل دائماً التوصل إلى مقايضة مع القادة العرب بدلاً من الاستجابة لمطالب الفلسطينيين بالحصول على الحرية.

بينما كانت القوى الاستعمارية تجري صفقاتها ومقايضاتها، كانت هناك محاولة واحدة لا ثاني لها لتحديد الآراء الشعبية في المنطقة. فقد اتفقت بريطانيا وفرنسا وأمريكا على إنشاء لجنة لاستطلاع الرأي العام في المنطقة العربية التي كانت تحت حكم الإمبراطوية العثمانية؛ لمعرفة ما إذا كان الناس يفضلون الاستقلال أم السلطة الاستعمارية أم شيئاً ما بينهما؟ لكن فرنسا وبريطانيا انسحبتا من المشروع، فمضت فيه الولايات المتحدة بمفردها، وشكّل الرئيس وودرو ويلسون ما سمي "لجنة ما بين الحلفاء لمناطق الانتداب في تركيا"، والتي اشتهرت باسم "لجنة كينغ-كراين". وكانت النتائج التي وجدتها هذه اللجنة مفاجئة.

ولكن، لنلقِ نظرة على الشخصين اللذين سُمّيت اللجنة باسميهما أولاً. كان هنري تشرشل كينغ الذي ولد عام 1858 عالم لاهوت أكاديمي حين تم اختياره كأحد رؤساء اللجنة. يبدو كينغ في الصور الفوتوغرافية رجلاً وسيماً

يرتدي ياقة رجال الدين المسيحيين وبذلة أنيقة، ويضع نظارة ذات العدستين المستديرتين كتلك التي كان مثقفو ذلك الزمن يحبون وضعها. درس كينغ في كلية أوبرلين في أوهايو، ومن ثم تابع دراسته العليا في هارفرد، ثم عاد ليدرس الرياضيات والفلسفة في أوبرلين قبل أن يصبح رئيساً للكلية. كان كينغ متعاطفاً مع آراء رجال الدين التبشيريين البروتستنت الذين كانوا يمارسون ضغوطاً قوية سعياً إلى تدخل الولايات المتحدة بشكل أكبر في الشرق الأوسط. وقد أنشأ هؤلاء التبشيريون مدارس أمريكية وكنائس ومستشفيات بهدف تحويل أكبر عدد ممكن من سكان المنطقة إلى الدين المسيحي. إذ كانوا يريدون توسيع وجودهم فيها، ولكنهم للقيام بذلك كانوا يحتاجون إلى تدخل أكثر فاعلية من حكومة الولايات المتحدة.

أما بالنسبة إلى تشارلز ر. كراين الذي ولد أيضاً عام 1858، فقد كان صناعياً ثرياً ووريثاً للثروة التي جنتها عائلة كراين نتيجة عملها في مجال التمديدات الصحية (السمكرة). وقد تنامت اهتمامات كراين في الشؤون الدولية إلى أن عُيّن مبعوثاً للولايات المتحدة إلى الصين عام 1909، كما كان ضمن وفد الولايات المتحدة الذي ذهب إلى الاتحاد السوفياتي أول تكوينه بعد ثورة 1917. وبالإضافة إلى ما ذكر، كان كراين متعصباً ضد اليهود؛ وقد كتب مسانداً سياسات هتلر ضدهم في وقت لاحق [42] ، كما قام بتمويل أولى عمليات استكشاف النفط في اليمن والسعودية في ثلاثينيات القرن الماضي. وحين عينت لجنة كينغ-كراين مثَّل كراين رجال الأعمال الناشطين الذين كانوا يدعون إلى وجوب بناء قرارات السياسة الدولية على مصالح وأرباح المؤسسات التجارية الكبرى.

ذهب كينغ وكراين مع مجموعة من المستشارين في رحلة طويلة في أرجاء الشرق الأوسط في صيف عام 1919، حيث سافروا بحراً إلى يافا (وهي مدينة فلسطينية ضمتها إسرائيل لاحقاً إلى تل أبيب)، وبعد ذلك بواسطة السيارة عبر طرق بلاد العرب البرية المليئة بالحفر. وأجرى أعضاء اللجنة مقابلات في 36 مدينة وبلدة؛ في ما أصبح اليوم سوريا ولبنان والأردن وإسرائيل وفلسطين، وقدّم أهالي المنطقة ما مجموعه 1863 عريضة بمطالبهم، كما قام أعضاء اللجنة بإجراء مقابلات شخصية للمتابعة. لم يكن المسح علمياً بكل معنى الكلمة؛ إذ لم يتمكن أعضاء اللجنة من الحصول على استجابات تتناسب مع أعداد كل فئات المنطقة الدينية والاجتماعية. فعلى سبيل المثال، كان تمثيل المسلمين السنة في المسح أقل مما ينبغي؛ باعتراف أعضاء اللجنة أنفسهم [43] ، كما أن الكثير من العرائض تشابهت

بشكل مثير للريبة؛ مما قد يدل على وجود جهود منظمة للتأثير في نتائج المسح. ولكن، إذا أخذنا بعين الاعتبار عدم وجود أي نوع آخر من المسح واسع النطاق لآراء سكان المنطقة في ذلك الزمان، فإن أعمال اللجنة تقدم لنا لمحة عامة عن الرأي العام وقتئذ؛ إذ عكس المسح الذي أجرته اللجنة مدى معارضة سكان المنطقة لأي حكم استعماري فيها؛ فقد فضل 73 بالمئة من الناس "الاستقلال التام" لسوريا والعراق. أما حين أجبر المشاركون في المسح على الاختيار بين القوى الاستعمارية التي يمكنها "مساعدتهم"، فقد اختار 60 بالمئة الولايات المتحدة، و55 بالمئة بريطانيا. اعترفت اللجنة في ملاحظة هامشية مثيرة للاهتمام: "تعود هذه النسبة العالية المعطاة للمساعدة الأمريكية والبريطانية إلى... أن الناس يطالبون أول الأمر بالاستقلال التام" [44] .

عارض 72 بالمئة من المشاركين في المسح إنشاء دولة صهيونية في فلسطين، وأشار التقرير أيضاً إلى أن قادة الحركة الصهيونية كانوا بعيدين كل البعد عن الرغبة في العيش بسلام مع العرب، بل كانوا ينوون سرقة العرب؛ وذلك عبر شراء الأراضي وهجرة اليهود إليها: "وإذا كانت الحكومة الأمريكية راغبة في دعم إنشاء دولة يهودية في فلسطين، فإنها تلزم الشعب الأمريكي باستخدام القوة في تلك المنطقة؛ إذ لا يمكن لإنشاء الدولة اليهودية في فلسطين والحفاظ عليها أن يحصلا إلا بالقوة".

ورغم الرغبة العربية الجارفة بالحصول على الاستقلال، إلا أن اللجنة قبلت الأسطورة الاستعمارية التي تتحدث عن عدم جهوزية العرب لحكم أنفسهم بدون مساعدة خارجية. وعندها، اقترحت اللجنة بتواضع على الولايات المتحدة أن تقدم هذه المساعدة؛ ليس فقط للشرق الأوسط العربـي، بل للأمة التركية التي منيت بالهزيمة في الحرب. فقد صرح التقرير أن للولايات المتحدة: "ملاءمة خاصة... للمهمة المطروحة أمامنا؛ ملاءمة نشأت من خبرتها كدولة ديموقراطية عظيمة ونامية متحررة عموماً؛ وحتى اللحظة من الورطات الأوروبية" [45] . ولكن، لم يكن من المفاجئ أن القوى الأوروبية الاستعمارية وكذلك العرب لم يقبلوا بهذه "الملاءمة الخاصة" الأمريكية. وقد أثار هذا التقرير الكثير من الجدل، ولم ينشر للعموم حتى عام 1922، ولم يعتبره أحد وثيقة هامة في ذلك الحين. ولكن، بالرغم من ذلك، عكس هذا التقرير حالة الغليان التي تمر بها الدوائر الحاكمة في الولايات المتحدة وهي تبحث عن الوسيلة المثلى لتوسيع إمبراطورية الولايات المتحدة.

لم تدخل الولايات المتحدة لعبة "بناء الإمبراطوريات" إلا عام 1898؛ حين استعمرت بورتوريكو وكوبا والفيليبين، وأراد بعض القادة تمديد هيمنتها إلى الشرق الأوسط. لكن، عام 1919، كانت الولايات المتحدة تفتقر إلى الثقل العسكري والاقتصادي والسياسي الكافي للسيطرة على المزيد من المستعمرات. وكانت مصالح الولايات المتحدة في المنطقة تتمثل بالسماح لشركات الولايات المتحدة بالوصول إلى النفط، وحرية عمل الإرساليات التبشيرية البروتستنتية في المنطقة، والحفاظ على مؤسسات الولايات المتحدة مثل المدارس والمستشفيات. وعلى المستوى الكلامي، ساند الرئيس وودرو ويلسون "حق تقرير المصير" في الشرق الأوسط، ولكن الولايات المتحدة كانت تسعى في الواقع إلى مد نفوذها في المنطقة؛ وذلك عبر إنشاء دول مستقلة بالاسم، مع كونها فعلياً خاضعة لسيطرة الولايات المتحدة؛ كما فعلت في أمريكا اللاتينية قبل ذلك. ولذلك ساند ويلسون إنشاء دولة مستقلة في سوريا تحت حكم الملك فيصل الذي كان حليفاً لبريطانيا ولأمريكا.

وفضّل أمريكيون متنفذون آخرون اتباع سياسة استعمارية أخرى؛ وكان هنري كابوت لودج أحد أولئك الأشخاص. كان لودج جمهورياً محافظاً ورئيساً للجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ، وأصبح أحد أشهر مناوئي سياسات ويلسون. فقد كان في الأصل من داعمي الحرب الإسبانية الأمريكية (1898)، والحرب العالمية الأولى بعد ذلك، ولكنه عارض اتفاقية فرساي وعصبة الأمم بقوة لأنه كان يرى أنها سمحت للقوى الأوروبية بالكثير من السلطة، بينما حدت من قدرة الولايات المتحدة على السعي وراء مصالحها الخاصة.

شكّل كابوت تحالفاً مع أعضاء مجلس الشيوخ الانعزاليين المعارضين لتدخل الولايات المتحدة؛ ليس في الشرق الأوسط فحسب بل في أي مكان آخر. مما أدى إلى تقليص اهتمام الولايات المتحدة بشؤون أوروبا والشرق الأوسط، وزيادة اهتمامها بشؤون الأمريكيتين. وفي تشرين الثاني 1919، صوّت مجلس الشيوخ الأمريكي ضد انضمام الولايات المتحدة لعصبة الأمم، كما لم يصدق على اتفاقية فرساي قط. وأثناء هذه الأحداث، كانت كل من بريطانيا وفرنسا قد نشرت قواتها العسكرية بشكل دائم في الشرق الأوسط. وقد أدى مجموع هذه الظروف المحلية والدولية إلى ابتعاد الولايات المتحدة عن ممارسة دور فعال في المنطقة حتى نهاية الحرب العالمية الثانية.

وبينما كانت القوى الاستعمارية تتصارع في ما بينها بعد نهاية الحرب

العالمية الأولى، كان العرب مشغولين بممارسة حريتهم واستقلالهم؛ فقد نادى المؤتمر السوري بالأمير فيصل ملكاً على الدولة العربية التي اتخذت من دمشق مقراً لها. لقد حكم العرب البلاد التي حرروها بادئ الأمر، لكن مع قدوم عام 1919 كانت القوى الاستعمارية جاهزة لاقتسام غنائمها في المستعمرات، وكانت النتائج دموية الفعل.

في 21 تشرين الثاني 1919 نـزل الجنرال الفرنسي هنري غورو في بيروت على رأس جيش المشرق الفرنسي. نال غورو شهرته في فرنسا نتيجة إخماده ثورة ضد الاستعمار الفرنسي في السودان عام 1894، وشارك لاحقاً في القتال في الحرب العالمية الأولى حيث خسر ذراعه. كان الجنرال غورو يرتدي دائماً زياً عسكرياً متجعداً، كما كان يطلق لحيته وشاربه. بدأ الجنرال غورو بعملية غزو سوريا بسرعة؛ ليبسط الحكم الفرنسي الاستعماري فيها. ولكن الأمر لم يكن سهلاً، فقد كانت حكومة الملك فيصل تسيطر على سوربا وجزء من لبنان، بينما كانت بريطانيا تسيطر على العراق والأردن وفلسطين. وفي بداية عام 1920، قررت بريطانيا سحب قواتها؛ مما عنى التسليم الفعلي للسلطة في دمشق ولبنان إلى فرنسا. وكان الملك فيصل يأمل في الوصول إلى اتفاق مع جورج كليمنصو للبقاء في الحكم، ولكن الوطنيين في سوريا عارضوه. وقد منعت حكومة فيصل القوات العسكرية الفرنسية من استخدام خطوط الحديد في حلب والمناطق الأخرى التي كانت تحت سيطرتها، وقام الوطنيون المعادون لفرنسا بتفجير خطوط الحديد الأخرى؛ وهكذا بدأت الحرب ضد الاستعمار.

لكن القوات العربية كانت ضعيفة سياسياً واقتصادياً وعسكرياً؛ فقد كانت تفتقر إلى مصادر ثابتة للدخل، كما كانت تحارب من دون أسلحة ثقيلة. وفي 25 تموز 1920، دخلت القوات الفرنسية دمشق، فهرب فيصل إلى فلسطين الواقعة تحت الحكم البريطاني. عيّن الجنرال غورو نفسه حاكماً سياسياً وعسكرياً لسلطة الانتداب الفرنسي. ولكنه قبل أن يفعل ذلك دخل مدينة دمشق القديمة بكامل غطرسته الاستعمارية ليزور قبر صلاح الدين الأيوبـي؛ القائد العربـي الذي طرد الصليبيين من بلاد الشام، وليقول أمام القبر: "صلاح الدين، ها قد عدنا!" [46] .

كان السبب الرئيس لهزيمة قوات الملك فيصل هو تفوق القوات الفرنسية الساحق على قواته العسكرية. ولكن، كان هناك سبب آخر؛ وهو أن القومية العربية كانت لا تزال في مهدها. إذ كان لدى الكثير من العرب شعور بالولاء والانتماء إلى قبائلهم أو جماعاتهم العرقية أو المنطقة

التي ينحدرون منها، وكان هذا الانتماء يفوق بكثير الشعور بالانتماء إلى فكرة الوطن والدولة حديثة النشأة. وقد دعا مناصرو الوحدة العربية إلى قيام دولة عربية واحدة تجمع كل شعوب المنطقة، كما دعا القليل من الإسلاميين إلى قيام إمارة إسلامية موحدة، بينما أرادت مجموعة أخرى من القوميين بناء دول مستقلة ومنفصلة عن هذه الأفكار الوحدوية.

تشمل "الأمة العربية" شعوب شبه الجزيرة العربية وفلسطين وجبل لبنان وسوريا والعراق وشمال أفريقيا، لكن هذه الشعوب كانت تتصارع كثيراً في ما بينها؛ كما قال لي الأكاديمي المختص في العلوم السياسية الدكتور إيلي الهندي أثناء مقابلتي معه: "كانت شعوب الشرق الأوسط في غاية التفرق. إذ كانت لديهم آراء متباينة وكثيرة عن هويتهم ومعنى قوميتهم". وقد استغلت فرنسا وبريطانيا هذه التفرقة. وكما قال لي الدكتور الهندي، إن كلتا القوتين "لم تكونا تحفلان برأي أهالي المنطقة، ولا بمصالح أولئك الأهالي. فكل ما كان يعنيهما هو تقسيم المنطقة، وقد فرضتا هذا الأمر بالقوة. وقد اضطر الفرنسيون إلى قصف دمشق لطرد فيصل منها" [47] .

ومع حلول عام 1920، بدا وكأن القوى الاستعمارية قد حلت خلافاتها حول تقسيم الشرق الأوسط؛ إذ تم توقيع معاهدة سيفر التي وضعت لبنان وسوريا تحت حكم فرنسا، بينما أمسك البريطانيون بزمام الحكم في باقي المناطق العربية، كما أعطيت فرنسا الحكم على محافظة هتاي (لواء الإسكندرون) في جنوب غرب تركيا الحالية بجانب الحدود السورية. لكن ضباط الجيش التركي بقيادة مصطفى كمال أتاتورك سرعان ما رفضوا هذه المعاهدة؛ لإعطائها الكثير من الأراضي للقوى الاستعمارية. بعد ذلك، قاد أتاتورك حملة عسكرية لاستعادة تلك المناطق، وأنشئت جمهورية تركيا إثر تلك الحملة، وحلت معاهدة لوزان التي سرى مفعولها من 6 آب 1924 محل معاهدة سيفر؛ وهي التي حددت معظم حدود تركيا الحديثة، بينما تنازلت تركيا عن مطالبها الإقليمية بالشرق الأوسط العربي - والذي كان تحت سيطرة بريطانيا وفرنسا على جميع الأحوال - وظلت محافظة هتاي تحت الانتداب الفرنسي. وفي عام 1938، انفصل سكان هتاي عن سوريا وانضموا إلى تركيا عام 1939. ونظراً إلى وجود روابط حضارية ولغوية واقتصادية قديمة بين هذه المحافظة وباقي أراضي سوريا، أثارت عملية الانفصال هذه الكثير من الجدل.

قال لي الدكتور مضر بركات أثناء مقابلتي معه في دمشق: "لقد سرق الأتراك هتاي! لقد حرموا المسيحيين والعلويين من حقوقهم فيها، ثم

استبدلوهم بسكان من تركيا" [48] . وبما أن الدكتور بركات اقتصادي ومستشار للحكومة، فهو يعكس وجهة نظر الكثير من السوريين في هذه المسألة. وقد طالبت الحكومات السورية المتعاقبة بهتاي كجزء من سوريا، ولا تعترف الخرائط السورية الرسمية بحدود الأمر الواقع التي فرضت عليها؛ ولا يزال الخلاف على الحدود يكدر صفو العلاقات بين تركيا وسوريا حتى يومنا هذا.

خلال كل تلك المؤتمرات والمعاهدات، لم تسمح القوى الاستعمارية لأهالي المنطقة بتحديد مصائرهم. ولكن، حين حاول الفرنسيون حكم سوريا ولبنان أصبحت آراء سكان المنطقة المستعمرة شديدة الوضوح خلال السنوات القليلة التالية.

بعد دخول القوات الفرنسية دمشق، واجهت مشكلة في الحفاظ على السلطة. وقد كتب روبير دو كيه سكرتير الجنرال غورو أن فرنسا أمام خيارين: إما أن "تبني دولة سورية غير موجودة بعد"، أو بإمكانها "تشجيع كل المظاهر... التي تؤدي إليها هذه الانقسامات والإبقاء عليها. وعلي أن أقول إن الخيار الثاني فقط يثير اهتمامي" [49] . وما عناه كلام دو كيه باختصار هو أن فرنسا قد اختارت استخدام سياسة "فرق تسد".

قسّم المسؤولون الفرنسيون المناطق العثمانية القديمة بهدف زيادة حدة التوترات الدينية والعرقية؛ فرسموا حدود مناطق إدارية سموها: دولة لبنان الكبير، وحلب، ودمشق، ودولة العلويين، ودولة الدروز. ضمت دولة لبنان الكبير الكثير من المسيحيين الموارنة الذين كانت فرنسا تعاملهم بتفضيلية، عكس تعاملها مع المسلمين والعلويين والدروز؛ محافظة بذلك على وجود أيدٍ عاملة رخيصة مع زراعة بذور التفرقة الدينية. لم يكن السوريون سعداء بنير الاحتلال الاستعماري الجديد بأي شكل من الأشكال، فبينما كانت فرنسا تفخر بأنها تجلب الحضارة إلى سوريا على شكل طرقات وسكك حديد جديدة، كان بناء هذه الطرقات والسكك الحديدية يتم عبر إجبار الفلاحين على العمل فيها من دون مقابل [50] ، كما كان المسؤولون الإداريون الفرنسيون مشهورين بفسادهم؛ حيث كانوا يتوقعون تلقي الرشوة مقابل أدنى المهام الحكومية.

أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها، نشأت مجموعة جديدة من الوطنيين السوريين. لم تكن هذه المجموعة تنتمي إلى القبائل الغنية التقليدية مثل الملك فيصل وإخوانه، بل نشأت في الطبقة البرجوازية الصغيرة مثل التجار والفلاحين الأثرياء والعرب الذين خدموا في الجيش العثماني.

وكان سلطان باشا الأطرش أحد أولئك المخضرمين في الجيش. كان سلطان الأطرش فارساً مندفعاً يضع الكوفية مربوطة بإحكام، بينما يزدان وجهه بشارب كث؛ مثلما هو سائد بين شيوخ العرب والبروقراطيين العثمانيين. وفي صورة فوتوغرافية له، ظهر سلطان باشا وهو يقف أمام جيش الثوار، رافعاً الأعلام والرايات عالياً. ففي عام 1925، كان سلطان باشا أحد القادة الرئيسين للثورة السورية الكبرى على الحكم الفرنسي.

ولد سلطان باشا الأطرش عام 1891، وكان أبوه شيخاً للقرية التي ولد فيها. ترعرع سلطان الأطرش في مجتمع درزي ريفي قبل أن يتجند في الجيش العثماني حين كان في العشرين من عمره. تعلم القراءة والكتابة هناك؛ إذ كان الجيش يقدم فرصة للقرويين العرب لنيل نوع من التعليم بأكاديمياته الحربية، كما تعرض بعض الضباط العرب للفكر القومي الذي كانت مجموعة من زملائهم تنشره في تلك الأكاديميات. عاد سلطان الأطرش إلى قريته في أحد الأيام ليجد أن الأتراك قد شنقوا أباه وأربعة شيوخ آخرين بسبب نشاطاتهم المعادية للحكومة، فتحول سريعاً إلى ثوري ملتزم. حارب سلطان باشا إلى جانب ت. إ. لورنس وعودة أبو تايه خلال الثورة العربية، وساعد في تحرير دمشق من الأتراك عام 1918. وقد كافأ الأمير فيصل سلطان الأطرش على شجاعته بأن أعطاه لقب باشا الذي يدل على منصب عسكري رفيع. لكن، سرعان ما تصادم سلطان باشا مع لورنس و"أبو تايه"؛ مما أدى إلى صرفه إلى منطقة جبل الدروز الواقعة في الجولان اليوم. ومن الجدير بالذكر أن الدروز فئة في الإسلام منذ القرن العاشر الميلادي. وقد عاشت هذه الطائفة في مناطق جبلية منعزلة؛ في ما أصبح الآن سوريا والجولان السوري. وقد حظي رجال هذه الطائفة بسمعة مستحقة كمقاتلين أشداء.

بدأت ثورة عام 1925 في القرى الدرزية، ولكنها امتدت بسرعة إلى كامل أرجاء البلاد. وفي نهاية الأمر، ضمّت محاربين من كل الفئات الدينية والعرقية في البلاد؛ مما عكس نشوء توجه قومي في سوريا. وكانت تلك الثورة مشابهة بشكل مدهش للأيام الأولى من ثورات الربيع العربي عام 2011. ففي الحالتين، نهض الشباب ضد الأنظمة السياسية القائمة متحدين آراء كبرائهم، وفي كلتا الثورتين انضمت النخبة الاقتصادية إلى جانب السلطات الحاكمة، وفي الحالتين أيضاً لجأت الحكومة إلى محاولة تقسيم الثوار من ناحية، بينما كانت من ناحية أخرى تقمع ثورتهم بوحشية مستخدمة أحدث الأسلحة المتوفرة لها.

بدأت الثورة المناهضة للاستعمار عام 1925؛ حين تظاهر الدروز في إحدى القرى، مما أدى إلى تبادل إطلاق النار مع السلطات الفرنسية. وسرعان ما وصل سلطان باشا الأطرش على رأس مجموعة من الرجال المسلحين، وأجبروا رجال الدرك الفرنسيين على التراجع. بعد هذا الحادث بقليل، أصدر سلطان باشا بياناً طالب فيه بزوال الحكم الاستعماري، وقال فيه: "هبّوا إلى المنافحة عن أوطانكم؛ أوطان آبائكم وأجدادكم، وحطموا أغلال الاستعمار في دياركم" [51] . لم يكن لدى فرنسا أكثر من 7,000 جندي في سوريا في ذلك الوقت، فلم يواجه الثوار الكثير من المقاومة في بادئ الأمر، وأحكموا سيطرتهم على سلسلة من البلدات والقرى. فقد دخل الفرسان من دون أن تواجههم أي مقاومة الساحة المركزية في القرية أو البلدة مطالبين بإنهاء الاحتلال الفرنسي، ثم قاموا بتجنيد المزيد من الثوار هناك. وفي 22 تموز، هاجم الثوار معسكراً للجيش الفرنسي في السويداء، وأبادوه عن بكرة أبيه في معركة لم تدم أكثر من نصف ساعة؛ فلم ينجُ تقريباً أي جندي فرنسي من تلك المعركة.

سعى الثوار إلى الفوز بمساندة المدن الكبيرة أيضاً؛ فوزعوا منشورات في دمشق تحت عنوان: "إلى السلاح أيها السوريون!"، وبدأ البيان في المنشورات كالتالي: " يا أحفاد العرب الأمجاد. هذا يوم ينفع المجاهدين فيه جهادُهم، والعاملين في سبيل الحرية والاستقلال عملُهم... لنأخذ حقنا بحد السيوف، ولنطلب الموت توهب لنا الحياة" [52] . سعى سلطان باشا الأطرش إلى نيل مساندة جميع الفئات الدينية والعرقية في البلاد، منادياً بأن الجميع أبناء الأمة العربية؛ فأرسل الرسائل إلى القرى المسلمة والمسيحية مطالباً بالاتحاد ضد الفرنسيين. والطريف في الأمر أن الثورة حظيت بدعم كبير من اليساريين في فرنسا؛ إذ أرسل الحزب الشيوعي الفرنسي رسائل مساندة للثورة إلى آلاف السوريين واللبنانيين عبر نظام البريد الفرنسي الحكومي!

كانت النـزعة القومية التي تحرك الثوار براغماتية، ولكنها افتقدت في المقابل إلى أيديولوجية متماسكة ومتناسقة. فكما أوضح المؤرخ مايكل بروفانس في كتابه "الثورة السورية الكبرى ونشأة القومية العربية" (The Great Syrian Revolt and the Rise of Arab Nationalism): "كان همُّ الثوار الأكبر طرد الفرنسيين من سوريا. وقد مزجوا هذا أحياناً مع نظرة دينية إسلامية شعبية، وهيجان معادٍ للمسيحيين... وحرب الطبقات الأدنى مع الإقطاعيين من أهل المدينة وأعيان الريف" [53] . زعمت الحكومة الفرنسية

أن قادة الثورة من زعماء الدروز الإقطاعيين الذين كانوا يحاولون فرض عادات رجعية، في حين أن فرنسا كانت تحاول جلب التقدم إلى سوريا عبر بنية تحتية حديثة ونظام تعليم فرنسي. وقد سعت الحكومة الفرنسية إلى تصوير الثوار كمجموعة من المتخلفين المعادين للمسيحية.

في الواقع، لقد تجاوزت مساندة الثوار المجتمع الدرزي بكثير. لكن ما عقّد من وضع الثورة هو أن الكثير من مسيحيي البلاد اصطفوا إلى جانب الفرنسيين؛ مما أدى إلى تعرضهم لهجمات الثوار. كما تخوف سوريون آخرون من الثورة لأنهم اعتقدوا أنها ستفيد الدروز فقط؛ إذ ستعطيهم نصيباً من السلطة لا يتناسب مع حجمهم كطائفة في البلاد. وقد عملت السلطات الحاكمة على زرع الشقاق بين السنة والشيعة والعلويين والمسيحيين للحفاظ على السلطة، وكان الثوار المتفرقون يفتقدون إلى التخطيط الموحد؛ إذ لم تكن لديهم أي غاية جامعة إلا إنهاء الحكم الفرنسي.

ومن الأمور الملحوظة والمثيرة للاهتمام أن المدن التي ساندت ثوار عام 1925 بقوة هي نفسها التي ساندت ثوار عام 2011. إذ إن الميدان - وهي من ضواحي دمشق الجنوبية - معقل لكلتا الثورتين، وقد كانت حماة مدينة محافظة ومتدينة حين ساندت ثورة عام 1925، وظلت كذلك حين ساندت ثورة عام 2011. إن ثوار عام 2011 يعرفون أحداث عام 1925 جيداً؛ كما قال لي بشر الليسا، وهو قيادي في الحراك السلمي السوري ويعيش في المنفى: "إن الثورتين شعبيتان. ويستخدم بشار الأسد استراتيجية فرنسا نفسها للتحكم بالفرق الدينية" [54] .

وبعد النجاحات الأولية في المناطق الريفية والمدن الصغيرة، واجه ثوار عام 1925 تدفقاً كبيراً من القوات الفرنسية المسلحة بأحدث أسلحة ذلك العصر؛ بما في ذلك المدافع الرشاشة والمدفعيات الثقيلة والطائرات الحربية. ومع أن الثوار نجحوا في السيطرة على دمشق، إلا أن الفرنسيين قصفوا المدينة من الجو من دون رحمة؛ وكانت تلك الغارة إحدى الغارات الجوية الأولى على المدنيين في التاريخ. ومع حلول ربيع عام 1927، كان الثوار قد هُزِموا، واضطر سلطان الأطرش إلى الهرب إلى الأردن، ولم يعد إلى وطنه حتى عام 1937 بعد أن عفا الفرنسيون عنه؛ حيث استقبل استقبالاً شعبياً حاشداً. حارب سلطان الأطرش مجدداً عام 1946 سعياً لاستقلال سوريا، وحافظ على توجهه العروبي العلماني؛ ملتزماً بالشعار الذي رفعه ثوار العشرينيات من القرن الماضي: "الدين لله والوطن للجميع". امتد العمر بسلطان الأطرش حتى سنة 1982، حين توفي في سوريا نتيجة نوبة قلبية

وهو في التسعين من عمره.

ظل سلطان باشا الأطرش بطلاً قومياً في نظر السوريين حتى يومنا هذا، ويزين تمثال برونـزي له ولأتباعه الساحة المركزية في مجدل شمس في الجولان المحتل من إسرائيل حالياً. ولكن، وكانعكاس للسياسة المعاصرة، يظل الأطرش شخصية مثيرة للجدل أيضاً كما قال الدكتور إيلي الهندي: "ينظر الدروز والقوميون السوريون إلى سلطان باشا الأطرش على أنه بطل حارب الانتداب الفرنسي بكل طاقته. أما مسيحيو لبنان فينظرون إليه نظرة أكثر حذراً؛ نتيجة محاولته توحيد سوريا ولبنان، ولذلك هم أكثر تردداً في اعتباره بطلاً" [55] .

سألت الدكتور الهندي السؤال القديم الذي حيّر العرب لعقود طويلة: ما الذي كان سيحصل لو لم ترسم القوى الاستعمارية على الخرائط الحدود الاعتباطية التي أوجدت الدول العربية الحديثة؟ وهل كان العرب سيقومون بأداء عمل أفضل؟ فقال الهندي إنه وبعد سنين قليلة من التحضيرات، كان الناس سيصوتون على استفتاء لتحديد المصير؛ مما كان سيوجِد لهم دولاً خاصة بهم. كما قال إنه كان من الممكن لسوريا والعراق أن تكونا دولتين مستقلتين تحت نظام فدرالي يعطي الأقليات العرقية والدينية حريات أكبر بكثير من تلك الموجودة الآن. وحين سألته عما إذا كان هذا السيناريو سيوجِد حدوداً أكثر عدالة وأمناً، ابتسم وهز كتفيه قائلاً: "ليست لديّ أدنى فكرة". لكننا نعلم بالتأكيد أنه حين رسم المستعمرون خطوطهم الاعتباطية ومن ثم زادوا حدة التوتر العرقي/الديني، فقد زرعوا بذور المشاكل التي استمرت حتى يومنا هذا.

وبينما هيمنت ضروب مختلفة من القومية على المنطقة، بدأ نوع آخر من المعارضة يختمر في مصر. فبعد هزيمة الثورة السورية الكبرى بسنة واحدة، أي سنة 1928، أسّس حسن البنا جماعة الإخوان المسلمين في القاهرة. ورغم أن البنا لم يزر سوريا قط، إلا أن أثره عليها كان عميقاً. ولد حسن البنا عام 1906 لعائلة عميقة التدين والتقوى. وكان أبوه صانع ساعات وإماماً، فسار حسن على خطاه ليصبح بدوره أستاذ مدرسة وإماماً أيضاً. كانت لحسن البنا لحية مشذبة، كما كان يرتدي الطربوش التقليدي، ولا شك في أنه كان قائداً ملهماً؛ إذ سرعان ما تنامى عدد تابعيه المخلصين في مصر، ومن بعدها في أماكن أخرى في العالم العربـي، إلى أن وجدت أفكاره طريقها إلى سوريا. جمع الإخوان المسلمون بين النـزعة الشعبية المعادية للاستعمار والتوجه الإسلامي المحافظ. وفي حين ركّز القوميون

أمثال سلطان الأطرش على القمع السياسي والاقتصادي، كان تركيز حسن البنا الأكبر على الأثر الحضاري والديني للاستعمار. وقد كتب حسن البنا في رسالة له: "ولكن هذه الحضارة الغربية قد غزتنا غزواً قوياً عنيفاً بالعلم والمال، وبالسياسة والترف، والمتعة واللهو وضروب الحياة الناعمة العابثة المغرية التي لم نكن نعرفها من قبل" [56] . ومن هذا المنطلق، دعا حسن البنا إلى رفضِ الفساد والإثم الذي تدعو إليه الحضارة الغربية، والعودةِ إلى جذور الدين؛ فكان شعار الجماعة على هذا الأساس: "الإسلام هو الحل".

كان الإخوان المسلمون في تلك الحقبة يسعون إلى إنشاء دولة إسلامية. وقد صرحوا بأن هذه الدولة ستكون متسامحة تجاه "أهل الكتاب"؛ أي المسيحيين واليهود. ولكن الإخوان المسلمين لم يكونوا متسامحين تجاه المسلمين غير السنة مثل الشيعة والعلويين. مع حلول ثلاثينيات القرن الماضي، انجذب عدد من المسلمين السنة في طرابلس (لبنان) وأجزاء أخرى من منطقة الانتداب الفرنسي إلى أفكار حسن البنا. لكن غالبية المسلمين السنة في ذلك الوقت كانوا أقرب إلى مساندة الأيديولوجيات القومية اليسارية. فكما قال الدكتور الهندي: "لم يفكر المسلمون السنة في الإسلام كهويتهم الأساسية، بل فكروا في هويتهم القومية وهويتهم الإقليمية" [57] . لذا، لم تحظَ الحركات التي أثرت فيها أفكار حسن البنا بقاعدة شعبية واسعة لسنين طويلة.

في تلك الأثناء، عملت القوى الاستعمارية بجد لتأمين أرباحها النفطية. وبعد أن أسقط الفرنسيون الملك فيصل عن حكم سوريا، نصّبه البريطانيون ملكاً على دولة العراق التي أنشأوها حديثاً. ورغم أنهم قاموا باستفتاء شعبـي ليؤكدوا شرعية حكم فيصل، إلا أن السلطة الحقيقية كانت بيد القوات العسكرية البريطانية. وفي عام 1927، بدأت حقول النفط العراقية بجانب كركوك بإنتاج النفط، لتنتهي عملية "البحث عن الذهب الأسود". وقد شكلت القوى الاستعمارية شركة نفط دولية؛ شركة نفط العراق، لضخ هذا النفط وتسويقه، وتوزعت ملكية هذه الشركة بين شركات النفط البريطانية والفرنسية والأمريكية.

تسببت الحرب العالمية الثانية في توقف قصير للثورات المعادية للاستعمار في سوريا ولبنان، ولكن ليس في المشاعر المعادية للاستعمار. وقد سعى البريطانيون والفرنسيون إلى تحريك العرب ضد الألمان مجدداً، فانضم عدد كبير من المصريين إلى الجيش البريطاني، وعارض العرب في لبنان وسوريا حكومة فيشي الفرنسية الموالية للألمان، والتي أنشأها الألمان حين

احتلوا فرنسا عام 1939. نالت هذه الحكومة مساندة الضباط الفرنسيين المحافظين، واستمرت في إدارة إمبراطورية فرنسا الاستعمارية. قد يكون أشهر ضباط جيش حكومة فيشي هو الشخصية التي أدى الممثل كلود رينـز دورها في فيلم "كازابلانكا"، حيث خطط بطل الفيلم همفري بوغارت مع كلود رينـز للهرب إلى الكونغو التي تسيطر عليها قوات "فرنسا الحرة" الموالية لشارل ديغول.

ساعدت بعض الأفلام - مثل فيلم "كازابلانكا" - على تثبيت الانطباعات السائدة لدى الرأي العام عن كون قوات "فرنسا الحرة" المتحالفة مع الأمريكيين أفضل من استعماريي حكومة فيشي الأشرار المتحالفين مع الألمان. لكن الشعوب المستعمرة لم تجد فرقاً كبيراً بينهما. وفي حالة سوريا ولبنان، كانت قوات فرنسا الحرة أسوأ حتى من الحكم القصير الذي مارسته حكومة فيشي. ففي عام 1941، احتلت القوات البريطانية لبنان وسوريا وطردت قوات حكومة فيشي، وأعطت قوات فرنسا الحرة ضمانات بقبول استقلال سوريا ولبنان. ولكن تلك الوعود والضمانات لم تكن أصدق من وعود البريطانيين للثورة العربية عام 1915 وضماناتهم. إذ كان ديغول محافظاً على المستوى السياسي، ومدافعاً متشدداً عن الإمبراطورية الفرنسية، وكان ينوي إعادة تثبيت الدور الفرنسي الاستعماري في آسيا وأفريقيا؛ وخاصة في الشرق الأوسط الغني بالنفط بعد هزيمة ألمانيا النازية.

بعد وصول القوات العسكرية البريطانية، بدّل إداريو مستعمرات حكومة فيشي ولاءهم، معلنين أن هذا الولاء قد أصبح الآن لديغول؛ في الوقت نفسه الذي زادوا فيه قمعهم لسكان المنطقة. عارض ديغول فكرة الاستقلال. وفي عام 1943، رفض علناً السماح بانتخابات نيابية في مناطق الانتداب الفرنسي. لكن الحكومة البريطانية شعرت بالقلق؛ إذ إن منع الانتخابات قد يتسبب في دفع العرب إلى التحالف مع هتلر. وبالإضافة إلى ذلك، كانت لدى البريطانيين طموحات في السيطرة على كامل المنطقة بعد الحرب. كان ديغول يعيش في لندن في ذلك الوقت، وكان يعتمد على البريطانيين بالكامل، فاستغل وينستون تشرشل الفرصة، وأصدر أوامره بمنع اتصالات ديغول اللاسلكية مع كل معاونيه في "قوات فرنسا الحرة" حول العالم. وبعد مضي أسبوع على ذلك، ليّن ديغول مواقفه، وتم إجراء الانتخابات في آب 1943.

لم يكن ديغول وإدارة "فرنسا الحرة" مستعدين لنتائج تلك الانتخابات؛ فقد فاز فيها قوميون مناهضون للاستعمار الفرنسي في لبنان، وعدّل مجلس

النواب اللبناني الدستور فوراً لإرساء القواعد لاستقلال لبنان. وقد أغضب تأكيد السيادة والاستقلال هذا ديغول والاستعماريين الآخرين في إدارة فرنسا الحرة [58] ، وفي 11 تشرين الثاني 1943 اعتقل الفرنسيون الرئيس بشارة الخوري وأعضاء حكومته؛ إذ اقتحم رجال الدرك الفرنسيون منـزل الرئيس، ووضعوا مسدساً على رأس ابنه مطالبين باستسلامه، وأعلن مندوب فرنسا السامي جان هللو تعليق العمل بالدستور الجديد فوراً [59] .

لكن اللبنانيين تدفقوا إلى شوارع بيروت وطرابلس في مظاهرات شعبية ضخمة، تحولت إلى مواجهات دامية في بعض الأحيان؛ حين هاجمت القوات الفرنسية المتظاهرين بالذخيرة الحية، مما تسبب في مقتل وجرح أكثر من مئة مدني. وأدرك البريطانيون الأثر المدمر للقمع الفرنسي، فهددوا بفرض الأحكام العرفية ما لم يطلق سراح الرئيس وأعضاء الحكومة. وفي 22 تشرين الثاني 1943، أعاد الفرنسيون الحكومة المنتخبة، فتظاهر أربعون ألف شخص في بيروت احتفالاً بالمناسبة.

في الوقت ذاته، فازت الكتلة الوطنية في سوريا في انتخابات المجلس النيابـي عام 1943، ودعت إلى سياسات استقلالية شبيهة بتلك التي مارسها القوميون في لبنان. وقد حاول شكري القوتلي - الذي كان دمشقياً إقطاعياً ثرياً، وقائداً للكتلة الوطنية - التفاوض للحصول على الاستقلال من الفرنسيين، ولكن ديغول طالبه بتوقيع معاهدة استعمارية تحافظ على الأمر الواقع؛ وهو السيطرة الفرنسية على البلاد. وفي أيار 1945، اندلعت تظاهرات في دمشق، وأصبحت المدينة مركزاً للنشاط المناهض للاستعمار في كل سوريا. عندها، شنّ الفرنسيون هجمات شرسة بالطيران والمدفعية على دمشق، مما أدى إلى مقتل أكثر من 400 شخص؛ فتدخل البريطانيون مجدداً لوقف القتال.

لم تزد وحشية الهجمات على دمشق قوى الاستقلال إلا عزيمة وتصميماً؛ مما أدى إلى خضوع فرنسا لطلباتهم في آخر الأمر. ومع نهاية عام 1945، أنهت فرنسا حكمها لسوريا، وانضم كل من سوريا ولبنان إلى الأمم المتحدة عام 1945، بينما سحبت فرنسا كل قواتها من مناطق الانتداب في عام 1946. كان استقلال سوريا ولبنان هزيمة نكراء لفرنسا، وبداية لنهاية إمبراطوريتها؛ إذ مهد الطريق أمام هزائم فرنسا اللاحقة في فيتنام وتونس والجزائر.

ورغم أن الاستقلال السوري كال ضربة قاسية إلى فرنسا، إلا أنه لم يجلب الاستقرار إلى البلاد؛ فقد كانت المعركة على السلطة فيها لا تزال في

بدايتها.

الفصل الرابع
حروب وانقلابات - ثم يحكم الأسد
1947 - 2011

واجهت سوريا بعد حصولها على الاستقلال بفترة قصيرة أزمة كبرى عصفت بالشرق الأوسط بأسره؛ ألا وهي قيام دولة إسرائيل. فقد عارضت سوريا إنشاء دولة صهيونية في فلسطين لسنين طويلة، وكانت إحدى الدول الأعضاء المؤسسة لجامعة الدول العربية التي دعت إلى طرد الصهاينة من فلسطين - شملت الدول المؤسسة الأخرى مصر والعراق ولبنان والسعودية والأردن - ومارست سوريا ضغوطاً قوية لتحثّ العرب على القيام بعمل عسكري لوضع هذا الأمر حيز التنفيذ.

في عام 1948، كانت بريطانيا لا تزال محافظة على حكمها الاستعماري في فلسطين، ولكن الأمم المتحدة كانت قد صوتت في العام السابق على إنشاء دولتين على الأراضي الفلسطينية: دولة عربية، ودولة يهودية؛ مع وضع القدس تحت الحكم الدولي. وكان الكثير من قادة الحركة الصهيونية غير راضين عن الخطة؛ لأنهم أرادوا ضم المزيد من الأراضي، كما أنهم لم يرغبوا في قيام دولة عربية فلسطينية. وعارض العرب الخطة أيضاً؛ لأنها أعطت اليهود أكثر من نصف أراضي فلسطين، في حين لم تتجاوز أملاك اليهود 7 في المائة من تلك الأراضي. لذا، أرسلت دول الجوار العربية جماعات مسلحة لحصار القدس. وفي أيار 1948، شنت القوات العسكرية اليهودية هجوماً واسع النطاق على كل من القوات البريطانية والجيوش العربية.

أرسلت سوريا قواتٍ من جيشها لمحاربة الصهاينة، وشجعت الدول العربية الأخرى على القتال؛ رغم معرفة جميع الدول بتفوق الصهاينة الكبير عليها عسكرياً. وقد كتب جوشوا لانديس مدير مركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة أوكلاهوما:

نحن نعرف الآن أن التقييمات العسكرية الأولية التي قدّرت من خلالها جامعة الدول العربية ككل، والدول الأعضاء فيها بشكل مستقل قدرتها على هزيمة القوات الصهيونية في ذلك الصراع الوشيك كانت قد أجمعت على التحذير من تفوق الآلة العسكرية الصهيونية. وقد تفوقت القوات الصهيونية عددياً على القوات العربية بالفعل في كل مرحلة من مراحل الحرب. كانت القيادة السورية تعي بكل تأكيد الواقع المؤلم لضعف

الجيش السوري، كما أنها كانت قليلة - إن لم نقل عديمة - الثقة في قدرة القادة العرب على التعاون في ما بينهم بشكل فعال أو على الانتصار بتلك الحرب في فلسطين [60] .

خلال ما يقارب ثلاثة أشهر من القتال، قلبت الميليشيات الصهيونية المتفوقة عسكرياً كفة المعركة لصالحها. ومع النهاية الرسمية للحرب في آذار 1949، كان الصهاينة قد أخرجوا البريطانيين من فلسطين، وهزموا الجيوش العربية، وشردوا عدداً هائلاً من المدنيين الفلسطينيين. كانت الهزيمة التي تعرضت لها سوريا والدول العربية الأخرى مذلة للغاية، وكان لها أثر مدمر على السياسة السورية؛ إذ أسهمت في تسريع الانقلاب العسكري الذي أدى إلى إسقاط الرئيس السوري شكري القوتلي. ورغم أن سوريا وافقت على اتفاقية وقف لإطلاق النار مع إسرائيل إلا أنها لم تعترف بشرعية الدولة اليهودية قط؛ فاستمر الصراع.

أدت هذه الحروب مع الصهيونية والإمبريالية الغربية إلى نشوء موجة حادة من القومية العربية في المنطقة. وكان أحد آثار هذه الموجة اجتماع عدد من مثقفي الطبقة الوسطى في أربعينيات القرن الماضي وتشكيلهم حزب البعث العربـي الاشتراكي. وقد كوّن بعض قادة الحزب من أمثال ميشيل عفلق حركة يسارية علمانية شاءت لها الأقدار أن تصل لاحقاً إلى السلطة في كل من سوريا والعراق. ويظهر عفلق في الصور العائدة إلى فترة شبابه مرتدياً طربوشاً كبير الحجم؛ وهو من مخلفات الزي الذي كان سائداً أيام الدولة العثمانية. وفي صور لاحقة، نراه رجلاً وسيماً ذا نظرة عابسة، يرتدي بذلة. وقد أصبح هذا الرجل أحد أشهر المفكرين السياسيين والقادة السوريين. ولد عفلق في دمشق عام 1910، ودرس في جامعة السوربون في باريس بين عامي 1929 و1934، وسرعان ما تحوّل إلى ماركسي مستقل. فلدى عودته إلى سوريا، كوَّن مع زملائه المثقفين منظومة فكرية جمعت بين الماركسية والنـزعة العروبية؛ داعية إلى قيام دولة عربية اشتراكية واحدة. كما عارض هؤلاء المثقفون القوى الاستعمارية وطبقة التجار البورجوازيين؛ أي طبقة النخبة من السوريين.

كان ميشيل عفلق أحد مؤسسي حزب البعث العربـي عام 1946. وقد اتحد البعثيون بعد ذلك بقليل مع حزب آخر ليتحول اسم الحزب إلى حزب البعث العربـي الاشتراكي . وكان شعار الحزب الجديد هو: "وحدة، حرية، اشتراكية". حقّق البعثيون بعض النجاحات الانتخابية في بداية الخمسينيات من القرن الماضي، حيث أصبح حزبهم ثاني أكبر حزب في

سوريا. وحظي البعثيون والماركسيون والأحزاب اليسارية على العموم بدعم كبير من المثقفين والفلاحين والعمال، وحتى من بعض الأوساط العسكرية، ولكن هذا الدعم الشعبي تعرض لاختبار جدي نتيجة تطور الأحداث في مصر.

عام 1956، أمم الرئيس المصري جمال عبد الناصر قناة السويس؛ مما أغضب بريطانيا التي كانت تسيطر على القناة منذ عام 1888. وقد ساندت كل الدول العربية بما في ذلك سوريا عبد الناصر في تلك الأزمة التي تفاقمت حين شنت إسرائيل وفرنسا وبريطانيا عدواناً على مصر بهدف إسقاط النظام المصري، وإعادة القناة إلى السلطة البريطانية. لكن الولايات المتحدة ضغطت على الدول الثلاث لوقف الحرب، وكانت النتيجة أن عبد الناصر بقي في السلطة، كما ظلت قناة السويس تحت السلطة المصرية.

استنتجت الدول العربية ذات الطابع القومي أن الولايات المتحدة ستظل مساندة لإسرائيل، بينما لن يفعل الاتحاد السوفييتي ذلك. ولذلك، وقعّت سوريا اتفاقية عسكرية مع الاتحاد السوفييتي فور انتهاء حرب السويس (العدوان الثلاثي)، وبدأ السوفييت بشحن الطائرات الحربية والدبابات إلى سوريا. ومن الجدير بالذكر أن التحالف بين البلدين قد استمر؛ حتى بعد انهيار الاتحاد السوفييتي. وهو لا يزال قائماً بين سوريا وروسيا.

بعد ذلك بقليل، مهد ميشيل عفلق وغيره من العروبيين الطريق لأول - وحتى الساعة، آخر - وحدة بين دولتين عربيتين حديثتين. كان ذلك عام 1958؛ حين اتحدت مصر وسوريا لتكونا الجمهورية العربية المتحدة. افترض البعثيون أنهم سيكونون الحزب الحاكم في الجزء السوري من الجمهورية الجديدة، لكن عبد الناصر كان يريد أن يحكم الجمهورية المتحدة وحده، بل وحاول سحق البعثيين. لم تعجب الطريقة التي تم بها تقاسم السلطة في الجمهورية العربية المتحدة ضباط الجيش البعثيين، لذا سرعان ما قاموا بانقلاب عسكري أدى إلى انفصال سوريا عن الجمهورية عام 1961.

بعد الانقلاب والانفصال، حافظت الحكومة السورية على دعمها للرعاية الصحية والتربية والتعليم والخدمات الاجتماعية الأخرى المقدمة بحسب مبادئ الاشتراكية العربية، كما تم تأميم الصناعات الكبرى. لكن هذه التغييرات لم تجلب الكثير من الحقوق للعمال، ولم تعطهم أي سلطة على المصانع التي يعملون فيها. وظلت سوريا دولة رأسمالية تحت الحكم العسكري، كما تحرك البعثيون إلى اليمين سياسياً؛ إذ طرد الجناح العسكري من الحزب

الفئة الماركسية منه. وفي عام 1963، وصل البعثيون إلى السلطة بعد انقلاب عسكري آخر. وبعد ذلك، أدت الخلافات الداخلية بين أعضاء الحزب إلى انقلاب آخر عام 1966، ثم إلى انقلاب آخر عام 1970. وفي الوقت الذي حافظ فيه ضباط الجيش الذين حكموا سوريا خلال السنوات الخمسين التالية على أدبيات وخطابيات حزب البعث، فهم لم يحافظوا في الواقع إلا على القليل من غاياته ومثله.

ومع مجيء عام 1967، كانت كل من البلاد العربية وإسرائيل تحضر نفسها لجولة جديدة من الحرب. إذ لم تتقبل القيادات العربية وجود إسرائيل في المنطقة قط، بينما لم يكن القادة الإسرائيليون راضين بحدود بلادهم؛ فأصبح الصدام العسكري محتماً، ولا يمنع حصوله إلا عدم رغبة أي من الطرفين في أن يلام على كونه من بدأ القتال. ازداد التوتر حين أغلق جمال عبد الناصر مضائق تيران - وهي مضائق عرضها ثلاثة عشر كيلومتراً تتحكم بوصول السفن إلى البحر الأحمر - أمام السفن الإسرائيلية، وفي الوقت ذاته وقع اتفاقيات عسكرية مع سوريا والأردن والعراق. وقد اقترحت إدارة ليندون جونسون إرسال سفن حربية أمريكية وإسرائيلية عبر المضائق لإجبار الجيش المصري على إطلاق الطلقة الأولى، ولكن أعضاء الكونجرس في الولايات المتحدة رفضوا الاقتراح [61] .

وفي 5 حزيران 1967، بدأت إسرائيل بالقتال؛ إذ شنت هجوماً جوياً كاسحاً تحت ذريعة الدفاع عن النفس أمام عدو يسعى لإبادتها. وبعد ذلك، احتلت إسرائيل هضبة الجولان من سوريا زاعمة أنها تعطي السوريين القدرة على قصف إسرائيل بالمدفعية، كما احتلت الضفة الغربية لنهر الأردن من المملكة الأردنية، وقطاع غزة من مصر؛ وهي قطعة صغيرة نسبياً من الأرض تقع على شاطئ البحر المتوسط وكانت تحت الحكم المصري قبل الحرب. احتوت الأراضي المحتلة مليون فلسطيني على الأقل [62] ، ولم تستمر الحرب الجديدة أكثر من ستة أيام، وانتهت بهزيمة مذلة أخرى للدول العربية. أما بالنسبة إلى إسرائيل، فقد وعد قادتها بالانصياع لقرار الأمم المتحدة رقم 242 والقاضي بإعادة الأراضي المحتلة إلى العرب مقابل اعتراف العرب بإسرائيل - وهو ما سمي "بالأرض مقابل السلام" [63] - ولكن الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة لم تتخذ أي خطوات عملية في هذا المجال، بل أرسلت أعداداً متزايدة من المستوطنين إلى الأراضي الفلسطينية والقدس الشرقية المحتلة، وفي نهاية الأمر ضمت الجولان إلى أراضيها. لم تنوِ إسرائيل إعادة كامل الأراضي المحتلة قط.

بالنسبة إلى الولايات المتحدة وإسرائيل، كانت حرب 1967 نصراً سريعاً على العرب الذين كانوا ينوون إزالة إسرائيل من الوجود. أما بالنسبة إلى سوري صغير كان يعيش في الجولان وقتها، فلم تكن إلا مجرد جولة غير مفهومة من العنف. كان طالب إبراهيم طفلاً في الرابعة من عمره يعيش في القنيطرة غير البعيدة عن الحدود الإسرائيلية حين اندلعت هذه الحرب. وكما أخبرني في مقابلتي معه: "استيقظت في وقت مبكر جداً في الصباح وأنا أسمع أصوات طائرات. رأيت الطائرات تحلق على علو منخفض جداً، وكنت سعيداً برؤيتها. قلت لعمي: "انظر". فقال لي: "لا، هذه الطائرات سوف تقصف". وبعد فترة قصيرة، سمعت صوت انفجار هائلاً لم تتمكن أذناي من سماع أي شيء بعده" [64] .

احتلت إسرائيل القنيطرة خلال حرب 1967 لكونها جزءاً من منطقة قالت إسرائيل إنها تشكل تهديداً عسكرياً لها. وفي عام 1973، خاضت سوريا ومصر وإسرائيل حرباً أخرى استعادت خلالها سوريا جزءاً من الجولان يشمل القنيطرة. قمت بزيارة حطام مدينة القنيطرة عام 2006، ووجدت أنها لم تتغير بعد الحرب؛ لأن الحكومة السورية لم تعد بناءها قط. كانت أسقف المباني لا تزال سليمة، ولكن المباني نفسها كانت قد دمرت، كما أن المستشفيات والكنائس تعرضت للنهب. أقر محمد علي المتحدث باسم الحكومة السورية أن أجزاء من المدينة ربما تكون قد تضررت جراء المعارك التي جرت فيها، ولكنه قال لي أيضاً إن الجنود الإسرائيليين دمروا أجزاء كبيرة من المدينة قبل انسحابهم: "لقد هدمت المباني الإسمنتية بالبلدوزرات. ما يفعله البلدوزر هو أنه يهدم أركان المبنى، وبعد ذلك يتهاوى السقف على الأرض. جاءت لجنة استقصاء من الأمم المتحدة إلى هنا، وقد وجدت أن التخريب كان منهجياً ومتعمداً" [65] .

كان لدى مسؤولي الحكومة الإسرائيلية تفسير رسمي خاص بهم. إذ قالوا إن القنيطرة تعرضت للتدمير من جراء القتال بين الجانبين، وإنهم ينفون تماماً وقوع أي تخريب متعمد [66] . ولكن تقرير الأمم المتحدة الرسمي كان يتناقض مع هذه المزاعم [67] ، كما صرّح هذا التقرير أيضاً أن الحكومة السورية منعت العائلات من العودة إلى القنيطرة وإعادة بنائها؛ بهدف إبقائها كمعلم تاريخي للتجاوزات الإسرائيلية أثناء الحرب. ومنذ نهاية حرب 1967، ظلت سوريا ثابتة في مطالبها باسترجاع كامل أراضي الجولان. ولكن، رغم الخطابات النضالية التي حافظت عليها سوريا، فقد حافظت على حدود آمنة مع إسرائيل من دون أن يتجاوزها أي جندي أو حتى متمرد

منشق واحد حتى ثورة 2011.

وأثناء مقابلتي مع طالب إبراهيم - الذي أصبح في الخمسين من عمره الآن - أقر أن الصراع العربي-الإسرائيلي قد استمر لسنين أكثر مما ينبغي، وأن محاولات الطرفين لحل النـزاع بالطرائق العسكرية لم تجدِ نفعاً في الوصول إلى حل دائم، وأن حل هذا الصراع لن يتم إلا بالطرائق السياسية وليس العسكرية: "فلينبذ جانباً الصراع العنف. أيريد الإسرائيليون اعترافنا بوجودهم والشعور بالأمن؟ حسناً! أيريد العرب أن يتعايشوا مع إسرائيل من دون أن يشعروا بأن الإسرائيليين يهيمنون عليهم؟ فلنحاول إذاً تحقيق هذين الأمرين. فمن دون الوصول إلى هذين الأمرين لن نتمكن من الحصول على السلام أبداً". لسوء الحظ، تظل سوريا وإسرائيل بعيدين عن هذه التسوية السياسية الهامة للجميع.

هزت هزيمة سوريا العسكرية في حرب 1967 دعائم الحكم البعثي في سوريا. وفي سنة 1970، أسقط اللواء الطيار حافظ الأسد الدكتاتو-ر البعثي صلاح جديد. في ذلك الوقت، لم يكن أحد يعلم أن الأسد سيجلب فترة استقرار طويلة نسبياً لسوريا دائمة التعرض للانقلابات العسكرية. ولكن حافظ الأسد نجح في ذلك بالفعل؛ مستخدماً لتحقيق ذلك سياسات ذكية مزجت بين التوصل إلى صفقات سياسية والقسوة القمعية.

كان حافظ الأسد طويل القامة، وذا وجه كالصقر، وأنف بارز العظام، وشارب مشذب بأناقة. لم يكن لدى الأسد تهذيب ابنه الجامعي بشار، ولكنه كان سياسياً ذكياً بالفطرة وحاكماً عسكرياً. ولد حافظ الأسد عام 1930 لعائلة علوية فقيرة. وكما صارت عادة الشباب العلويين الطموحين منذ أيام الانتداب الفرنسي، التحق حافظ الأسد بالأكاديمية العسكرية في حمص عام 1952، حيث أمضى ثلاث سنوات أصبح خلالها ناشطاً في حزب البعث. ترقى الأسد في الرتب العسكرية بعد تخرجه حتى أصبح لواء طياراً. وبعد انقلاب البعث العسكري عام 1966 عُيّن وزيراً للدفاع. كان الأسد راسخ الاعتقاد بفكرة العروبة التي تدعو إلى وحدة العالم العربي برمته. ولكن على المستوى العملي، كانت الأولوية لسوريا ولمستقبله السياسي. وبعد أن وصل إلى سدة الرئاسة عام 1970 احتفظ بالسلطة حتى وفاته عام 2000.

قابل السيناتور الأمريكي جيمس أبو رزق - الذي كان ممثلاً لولاية داكوتا الجنوبية بين عامي 1974 و1980 - الرئيس الأسد مرات كثيرة بدءاً من عام 1973. وكما أخبرني أبو رزق في مقابلتي معه: "وجدت [حافظ الأسد] ذكياً جداً. كان ذكياً لدرجة أن حكومات مختلفة من العالم كانت

تتسابق للوصول إلى بابه أثناء الجهود الكثيرة التي بذلت لصنع السلام بين إسرائيل والدول العربية" [68] .

أضاف أبو رزق أن الرئيس الأسد كان يتمتع بقوة تحمل هائلة: "كان الدبلوماسيون الأمريكيون يسمون لقاء الرئيس الأسد "دبلوماسية المثانة"؛ فقد كانت لدى الرئيس الأسد القدرة على الجلوس ومناقشة القضايا المختلفة لثماني ساعات أو تسع متواصلة من دون أن تظهر عليه أيٌّ من علامات الإرهاق الجسدي، بينما كان الدبلوماسيون الأمريكيون يجلسون على مقاعدهم وهم يتلوون، من دون أن يجرؤ أحدهم على مغادرة الغرفة للذهاب إلى الحمام".

وبحسب رأي الدكتور إيلي الهندي، إن حكم حافظ الأسد الطويل عكس قدرته على الإيقاع بين الفئات الدينية والعرقية المتعددة في بلاده، كما قال لي: "كانت لدى حافظ الأسد شخصية متميزة وكاريزما فريدة، أضف إلى ذلك ذكاءه الذي أهله للسيطرة على سوريا. اعتقد بعض الناس أن وجود حكم ديكتاتوري في سوريا أفضل من وقوع صراع داخلي أو حتى احتلال إسرائيلي". وأشار الهندي أيضاً أن الأسد أقنع الأقليات الدينية بأنه من سيحميها من الغالبية السنية، كما قال: "كان الأسد ذكياً في اللعب على وتر الانقسام في المجتمع وجعل الناس يخافون بعضهم بعضاً".

كما لعب الأسد لعبة شطرنج الحرب الباردة مع كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ببراعة. فلسنين طويلة، أبقى على تحالف سوريا مع السوفييت. ولكن، حين وقع الاتحاد السوفييتي في الدوامة التي أدت إلى انهياره، حوّل ولاءه مؤقتاً، واصطف مع الولايات المتحدة منضماً إلى التحالف الذي شكلته في حرب الخليج عام 1991. كانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي وحتى إسرائيل راغبة في التعاون بشكل مؤقت مع سوريا في تلك الحقبة؛ كما شرح الدكتور الهندي قائلاً: "كان الأسهل بالنسبة إلى القوتين العظيمتين أن تتعاملا مع شخص واحد في السلطة، وهذا ما سهّل وصول رجال عسكريين إلى الحكم في معظم الدول العربية".

في تلك الحقبة، اعتقد بعض القوميين العرب أن القادة العسكريين الحاكمين في سوريا والعراق وليبيا وبعض البلاد العربية الأخرى سيكونون أكثر ثباتاً وقدرة على حمل لواء القضايا العربية. ولكن، كما قال الدكتور الهندي، أثبت التاريخ خطأ هذا الاعتقاد: "إذ تلاشت بسرعة الخرافة القائلة إن الرجال العسكريين سيكونون أفضل من الملوك والرؤساء السياسيين في إدارة الحرب مع إسرائيل وتحقيق أحلام القومية العربية. وقد فشل القادة

العسكريون العرب في الوصول إلى ذلك بقدر أي قائد سياسي آخر في ذلك الوقت" [69] .

تظهر "الأسطورة" التي أشار إليها الدكتور الهندي بوضوح إذا نظرنا إلى علاقة سوريا مع الفلسطينيين. إذ لطالما أعلن الأسد والبعثيون عموماً مساندتهم القوية والصلبة للقضية الفلسطينية. ولكن واقع الحال لم يكن بهذه البساطة. فمثلاً، لا يمكن إنكار أن سياسة سوريا تجاه اللاجئين الفلسطينيين كانت أفضل من تلك التي اعتمدتها بعض دول الجوار الأخرى. وقد أدت الحروب العربية-الإسرائيلية المتلاحقة في الأعوام 1948 و1967 و1973 إلى لجوء عدد كبير من الفلسطينيين إلى دول الجوار، ولكن حكومة لبنان مثلاً عزلتهم في مخيمات للاجئين، ومنعت عنهم أبسط حقوق المواطنة، أما الحكومة السورية فقد عاملتهم بطريقة أفضل نسبياً؛ فرغم أنها لم تعطهم الجنسية السورية إلا أنها لم تفرض عليهم البقاء في مخيمات اللاجئين، وأتاحت لهم المجال للحصول على خدمات اجتماعية مثل التعليم المجاني والرعاية الصحية. ومع حلول سنة 2011، قُدّر عدد الفلسطينيين الذين يعيشون في سوريا بنصف مليون نسمة بما في ذلك اللاجئين الأصليين وذرية كل منهم [70] .

ولكن من ناحية أخرى، حاول القادة السوريون السيطرة على الحركات الثورية الفلسطينية عبر تقديم اللجوء السياسي والمال والسلاح لها. وقبيل حرب 1967 [71] . ولكن بعد حرب 1967، بدأ الفلسطينيون بممارسة استقلالية أوسع من تلك التي يمنحهم إياها رعاتهم العرب، فتوسعت منظمة التحرير لتضم كل المجموعات الفلسطينية، وانتخبت ياسر عرفات رئيساً لمجلسها التنفيذي. في تلك الحقبة، كان الفلسطينيون وقادة البلاد العربية يعتبرون إسرائيل كياناً غير شرعي، وأيدوا جميعهم حل الدولة الواحدة الذي تسمح إسرائيل بمقتضاه للفلسطينيين المطرودين من بلادهم بالعودة، وبعد ذلك ينتخب الشعبان حكومة مشتركة. ولكن إسرائيل رفضت هذا الحل من دون تردد؛ بذريعة أن عدد العرب سيزيد على عدد اليهود بكثير، مما سيفرض عليهم تغيير طبيعة دولتهم؛ هذا إذا وجد الشعبان طريقة للتعايش أصلاً.

لكن الظروف كانت تتغير بسرعة بالنسبة إلى إسرائيل. ففي عام 1973، شنّت مصر وسوريا هجوماً مفاجئاً على إسرائيل بهدف استرجاع الأراضي التي خسرها البلدان عام 1967. وبعد حرب طاحنة هزمت إسرائيل؛ ولم تحافظ على وجودها إلا نتيجة الدعم القوي الذي حصلت عليه من

الولايات المتحدة. فكانت النتيجة أن الدول العربية أعلنت حظر بيع النفط للولايات المتحدة وخفضت الإنتاج؛ مما أدى إلى ارتفاع عالمي للأسعار. وأدى نقص موارد الوقود في الغرب الناتج عن الحظر إلى مشاكل اقتصادية جدية هناك. وقعت مصر اتفاقية سلام مع إسرائيل عام 1979، وتبعتها الأردن عام 1994. ولكن أياً من هاتين الاتفاقيتين لم تؤدِّ إلى عودة هضبة الجولان أو إلى قيام دولة فلسطينية مستقلة.

انضمت سوريا إلى الدول العربية القليلة والجماعات الفلسطينية التي رفضت هاتين الاتفاقيتين مع إسرائيل، وقدّم حافظ الأسد سوريا كدولة قائدة لما أسماه "جبهة الممانعة". ألقى قادة سوريا، وصدام حسين في العراق، ومن بعدهم حكومة الثورة الإسلامية الجديدة في إيران خطباً نارية معادية لإسرائيل؛ لكن أياً منهم لم يفعل الكثير لمساعدة الفلسطينيين، بل حاول الرئيس الأسد السيطرة على الحركات الفلسطينية، فساند سعيد موسى مراغة المعروف باسم "أبو موسى" (وهو أحد قادة منظمة التحرير الفلسطينية البارزين) حين انفصل عن عرفات عام 1982. ولد مراغة في فلسطين، والتحق بصفوف الجيش الأردني، ولكنه انشق عنه في ما بعد ليصبح أحد قادة لمنظمة التحرير الفلسطينية في لبنان؛ حيث حارب إلى جانب القوى اليسارية والإسلامية أثناء الحرب الأهلية اللبنانية (1975-1990). غزت إسرائيل لبنان لسحق منظمة التحرير الفلسطينية، ولكن الحرب انتهت بتسوية سمحت لعرفات وقياديين آخرين بمغادرة لبنان والذهاب إلى تونس؛ حيث أعادوا هيكلة المنظمة. حينها، أعلن مراغة أنه يجب على منظمة التحرير البقاء ومحاربة إسرائيل بدلاً من الهرب إلى تونس، ولكنه لم يتمكن من تحويل أدبياته النضالية إلى أفعال، فهرب بدوره لاحقاً إلى دمشق. كان حافظ الأسد يأمل في استخدام مراغة لتكوين تحالف فلسطيني موالٍ لسوريا، فشجّع مراغة على تشكيل مجموعة جديدة: "فتح الانتفاضة"، ووضعت سوريا كامل ثقلها الإعلامي لتلميع صورة مراغة، في الوقت الذي كانت تحط فيه من قدر عرفات. ولكن هذه الجهود لم تجد نفعاً؛ إذ لم ينجح مراغة في إيجاد قاعدة شعبية واسعة لجماعته، ومات مغموراً في دمشق عام 2013 [72] .

لاحقاً، استخدمت سوريا أساليب مشابهة في دعم جماعات متباينة؛ مثل اليساريين المتطرفين والإسلاميين الفلسطينيين الذين لا يجمعهم أي شيء باستثناء معارضة منظمة التحرير. اتخذت الجماعات اليسارية المتطرفة من دمشق مقراً لها، وأصدرت بيانات صحفية، ولكنها لم تفعل الكثير لمساعدة

القضية الفلسطينية.

وقد حرص الأسد إجمالاً على تقديم نفسه كداعم ثابت للفلسطينيين، وكمحارب صلب للإمبريالية الأمريكية، لكنه في الحقيقة كان أفضل في مساندة نفسه، وكان أوضح مثال على هذا الأمر تدخلَ سوريا العسكري في لبنان. ازدهر لبنان في منتصف سبعينيات القرن المنصرم، وأصبحت بيروت عاصمة مالية للمنطقة، حتى إنها سميت: "باريس الشرق". لكن ازدهار النخبة في هذا البلد كان يخفي وراءه واقعاً من اللامساواة. وما زاد الأمر تعقيداً هو نظام الحكم "المرقع" في البلد والقائم على الدين والعرق. فقد بدأت الحرب الأهلية في لبنان عام 1975 لأسباب عديدة؛ تشمل التواجد الكثيف لمنظمة التحرير الفلسطينية في لبنان، والصراع بين المسلمين والمسيحيين. وقد وضعت الحربُ مسلمي البلد الأفقر اقتصادياً والذين ينقصهم التمثيل السياسي الكافي في مواجهة أثرياء البلد من المسيحيين الموارنة؛ والموارنة طائفة مسيحية مرتبطة بالكنيسة الكاثوليكية في روما. وقد عامل الفرنسيون الموارنةَ معاملة تفضيلية في فترة الانتداب، ولم يتغير تقسيم السلطات السياسية والاقتصادية كثيراً منذ ذلك الوقت وحتى قيام الحرب.

سيطر الموارنة المحافظون على الحكومة على أساس اتفاقية 1943 التي أعطت البلد استقلاله، ولكن تعداد المسلمين فيه تزايد بشكل مطرد منذ ذلك الوقت. ورغم هذه الزيادة، ظل الموارنة يمسكون بحوالى 40 في المئة من أفضل الوظائف في البلد، بينما كان نصيب المسلمين السنة 27 في المئة، والمسلمين الشيعة 3.3 في المئة. وكان أطراف الحرب الرئيسون في مراحل الحرب الأولى هم المسلمين المنتمين بغالبيتهم إلى الأحزاب اليسارية ضد الأحزاب المسيحية اليمينية. وقد دخلت منظمة التحرير الفلسطينية التي كانت قد اتخذت من بيروت مقراً لها الحربَ إلى جانب الأحزاب اليسارية، وخاضت الأطراف حرباً مريرة عامي 1975 و1976، انقسمت خلالها بيروت إلى مناطق إسلامية وأخرى مسيحية. وأعطت جامعة الدول العربية - التي صارت تضمّ غالبية الدول العربية في ذلك الوقت - سوريا الحق في إرسال قوات كبيرة لها كجزء من قوات "ردع" إلى لبنان لإيقاف القتال. دخلت القوات السورية لبنان عام 1976 وساندت المسيحيين المحافظين في بادئ الأمر، لكن الأسد غير موقفه لاحقاً وساند الأطراف اليسارية متحالفاً مع الميليشيات الشيعية والسنية والعلوية. ساند الكثير من اللبنانيين التدخل السوري في بداية الأمر؛ لأنه أدّى إلى انخفاض أعمال العنف في البلد إلى حدّ كبير، ولكن عدد القوات السورية في لبنان تزايد إلى أن وصل في

ذروته إلى أربعين ألف جندي، بالإضافة إلى الآلاف من رجال الاستخبارات؛ فوقع لبنان تحت السيطرة السورية سياسياً وعسكرياً، حيث تواجدت نقاط تفتيش يشرف عليها سوريون يرتدون ثياباً مدنية ويحملون رشاشات الكلاشينكوف في كل طريق رئيس في لبنان، بينما جنى المحسوبون على الجيش السوري ملايين الدولارات وذلك بفضل عقود حكومية فاسدة وصفقات مصرفية مشبوهة.

لم تكن إسرائيل سعيدة بالتواجد السوري في لبنان، ولا بتنامي قوة منظمة التحرير الفلسطينية. لذا، قامت بضربة وقائية؛ إذ غزت جنوب لبنان عام 1978، ثم غزته مجدداً في حملة عسكرية أوسع عام 1982 زاعمةً - في كلّ منهما - أنها تقوم بحملة محدودة تهدف إلى إيقاف إطلاق الصواريخ عليها من منظمة التحرير، ولكن قوات الجيش الإسرائيلي في حملة 1982 تابعت تقدمها إلى الشمال حتى حاصرت بيروت، وانتهى بها الأمر بتمهيد الطريق للمجزرة التي ارتكبت بحق المدنيين الفلسطينيين في مخيمي صبرا وشاتيلا [73] . خلال هذه الحملة، حصلت أيضاً مواجهات كبيرة بين الجيشين الإسرائيلي والسوري، دمّر خلالها الجيش الإسرائيلي 500 دبابة سورية، كما أسقط مئة طائرة لسلاح الجو السوري [74] . وانتهت الحملة باحتلال إسرائيل جزءاً من جنوب لبنان. بدت حملة 1982 وكأنها نصر لإسرائيل والولايات المتحدة، ولكنها في الواقع فشلت في تحقيق هدفي إسرائيل الأساسيين منها؛ ألا وهما إخراج سوريا من لبنان، وتدمير منظمة التحرير الفلسطينية، بل أسّست هذه الحرب لهزائم إسرائيلية مستقبلية.

أدى الغضب الذي اجتاح اللبنانيين إلى تشكيل حزب الله؛ وهو مجموعة من الثوار الشيعة المتحالفين بقوة مع إيران وسوريا. وتُحمِّل الولايات المتحدة حزب الله المسؤولية عن تفجير معسكر القوات البحرية الأمريكية (المارينز) في بيروت، والذي أدى إلى مقتل 241 جندياً أمريكياً، بينما أدى حادث تفجير منفصل في اليوم نفسه إلى مقتل 58 جندياً فرنسياً. أجبرت هذه الهجمات القوات الأمريكية والفرنسية على الانسحاب من لبنان، وتابع حزب الله حرب العصابات ضد الاحتلال الإسرائيلي إلى أن أجبر الجيش الإسرائيلي على الانسحاب من جنوب لبنان عام 2000. وكان هذا الحزب أول جماعة عربية مسلحة تهزم إسرائيل.

بالعودة إلى سوريا، كانت نيران الصراع الأهلي في لبنان تتسبب في الغليان في سوريا أيضاً. فقد حاول البعثيون أن يحكموا سوريا على أسس ديكتاتورية علمانية، وبدا وكأن أهالي المدن الكبرى في سوريا يتعايشون مع

بعضهم بعضاً من دون إشارة ظاهرة إلى الفروقات الدينية؛ حيث نشأت علاقات صداقة وعمل بين السنة والشيعة والمسيحيين والعلويين. تنتمي عائلة الأسد إلى الطائفة العلوية، وهي طائفة إسلامية عانت من الفقر والتمييز تحت حكم الأنظمة السابقة. وكان تفسير العلويين للدين الإسلامي أقل تشدداً، وتحوّل الكثيرون منهم إلى علمانيين. قبل الحرب السورية الأهلية عام 2011، شكّل السنة 74 في المئة من الشعب السوري، بينما شكّل المسيحيون 10 في المئة من السكان، في حين شكّل العلويون والدروز 16 في المئة [75] . لكن، تحت واجهة هذه العلاقات الطيبة، كان الدين والعرق لا يزالان يحملان أهمية كبرى؛ فالأكراد في شمال سوريا مثلاً والذين يشكلون 10 في المئة من السكان يعتبرون أنفسهم سوريين، ولكنهم ليسوا عرباً، ويعانون من مشاكل كثيرة من جراء ذلك (انظر إلى الفصل التاسع). كما أن العلويين هم الذين يشغلون المراكز العليا في الجيش والمخابرات، أما المسلمون السنة فتمثيلهم في الوظائف الحكومية ضئيل للغاية؛ وهذا بحد ذاته كافٍ لجعل الجوّ مشحوناً.

في ثمانينيات القرن الماضي، استغلت جماعة الإخوان المسلمين جو البغضاء هذا لتحظى بنفوذ أكبر، وقد تزايد هذا النفوذ حتى شكّل تهديداً كبيراً للحكم البعثي. وقد نالت جماعة الإخوان الدعم الشعبي عبر تقديمها الطعام والخدمات الاجتماعية للفقراء. ولكن قادتها ودعمها الأكبر جاءت من طبقة تجار المدن المسلمين السنة الذين احتفظوا بكراهيتهم للعلويين لأسباب دينية؛ إذ لم يكونوا يعتبرونهم مسلمين حقيقيين. ولكن حقيقة الكراهية هذه كانت طبقية، إذ كان العلويون يحكمون البلاد أما السنة فلا يحكمونها [76] .

وحين تنامى دعم جماعة الإخوان المسلمين بين السنة المحافظين في حلب وحماة والمدن الكبرى الأخرى، انقسمت الجماعة بدورها إلى فئات مختلفة؛ وقد دعا الشباب المتحمسون إلى الصراع المسلح، وعارضوا تكتيكات القادة التقليديين القائمة على الوسائل السلمية. وكانت دمشق تعتبر معقل الآراء التقليدية، أما حماة وحلب فكانتا تفضلان الطرائق الأكثر تشدداً، كما أصبح الجناح الذي يفضّل الكفاح المسلح أكثر محافظة على المستوى السياسي؛ رافضاً الاشتراكية العروبية من أساسها، فدعا أحد قياديّي مشايخ الإخوان إلى الجهاد ضد اليساريين والشيعة بل وحتى الصوفيين - وهم مجموعة سنية تمارس الدين بطريقة أكثر روحانية، وتعتمد على التأمل والذكر، ولا تمانع استخدام الموسيقى لتحقيق ذلك الغرض - بينما حثت

جماعة الإخوان المسلمين أتباعها على عدم مشاهدة التلفاز وعدم الاستماع إلى الموسيقى أصلاً، بل ذهب بعضهم أيضاً إلى أن النقر على الدفوف ممارسة غير إسلامية [77] .

في سنة 1979، نفذ متشددون إسلاميون هجوماً على مدرسة المدفعية في حلب، مما أدى إلى مقتل 83 طالباً عسكرياً من الطائفة العلوية وجرح العشرات. ورغم أن جماعة الإخوان المسلمين نفت مسؤوليتها عنه وألقت باللائمة على جماعة منشقة عنها تدعى "الطليعة المقاتلة"، إلاّ أن الحكومة السورية لامت الجماعة على الحادث، واستغلت الاشمئزاز الشعبـي منه لتبدأ بحملة دعائية هائلة ضد الإخوان المسلمين. اعتبر المتمردون العملية نصراً على الآلة العسكرية البعثية، ولكن الكثير من السوريين نظروا إلى الحادث على أنه عملية قام بها متشددون مسلمون من السنة ضد الطائفة العلوية. وقد مهّد هذا الحادث الطريق لكيفية تقديم كل من الحكومة السورية وجماعات الثوار المسلحين القضايا الدينية والعرقية بعد اندلاع ثورة 2011.

بعد حادثة مدرسة المدفعية، هرب الكثير من قياديي الإخوان المسلمين من البلد، أو لجأوا إلى النشاط السري؛ مما أفسح المجال أمام الأعضاء الشباب لاتخاذ القرارات، فكانت النتيجة أن هؤلاء الشباب لجأوا إلى تخزين المزيد من الأسلحة، وازدادت أعمال العنف. وفي سنة 1980، أعلنت جماعة الإخوان الإضراب العام في عدد من المدن، كما كانت هناك محاولة لاغتيال حافظ الأسد. وانتقمت الحكومة عبر قتل أكثر من 600 سجين سياسي في سجن تدمر؛ كان الكثيرون منهم إما أعضاء في جماعة الإخوان أو داعمين لها.

ولكن، حتى أعمال العنف الرهيبة تلك لم تكن إلا مقدمة للصراع الحقيقي. ففي سنة 1982 اندلعت ثورة شاملة في مدينة حماة؛ إذ أحكم شباب الإخوان - أي الجناح الداعي إلى القتال - السيطرة على المدينة، وبدأ شباب ذوو لحى كثة ويعتمرون القلنسوات الإسلامية التقليدية ببناء متاريس حول المدينة، كما دعا أئمة المساجد الناس إلى التمرد والثورة عبر إذاعات المآذن، وقتل جهاديو الإخوان المسؤولين البعثيين في منازلهم.

وضعت ثورة الإخوان سؤالاً سياسياً جوهرياً أمام الشعب السوري: هل يفضّل هذا الشعب حكماً ديكتاتورياً علمانياً، أم حكماً إسلامياً محافظاً؟ وجاء الجواب سريعاً؛ فقد أمر حافظ الأسد بإرسال قواته المسلحة إلى حماة، وأعطى السكان فرصة لا تزيد عن بضع ساعات لإخلاء المدينة، ومن ثم قام بقصف المناطق السكنية التي كان يُعتقَد أنها تساند جماعة الإخوان.

ومع تطور الأحداث، بلغ عدد القوات التي أرسلها الأسد 12,000 جندي، واستمر القتال سبعة وعشرين يوماً. من المستحيل الآن معرفة العدد الدقيق لضحايا تلك الأحداث، ولكن الجيش ربما يكون قد قتل أكثر من عشرة آلاف نسمة في حماة [78] .

أساءت جماعة الإخوان المسلمين تقدير مستوى الدعم الشعبي لها؛ إذ لم تنضم أي من المدن الأخرى إلى حماة خلال تلك الثورة. فالسوريون لم يكونوا مستعدين للثورة على الأسد، كما أن الكثيرين منهم كانوا رافضين لفكر الإخوان الإسلامي المتشدد. أما البعثيون فلم يخفوا مباهاتهم بنصرهم الوحشي، فكما أخبر رفعت الأسد - أخو حافظ الأسد، وقائد قوات "سرايا الدفاع" - الصحافي البريطاني روبرت فيسك: "عليكم أن تشكرونا في الغرب؛ فقد سحقنا التشدد الإسلامي هنا" [79] .

بعد هزيمة عام 1982، سُجِن بقية قياديي الإخوان، أو اضطروا إلى العيش في المنفى؛ ومرت عقود قبل أن يستردوا قاعدتهم الشعبية من المناصرين. ورغم أن حافظ الأسد بدا وكأنه وقد أمَّن سلطته في سوريا، إلا أن الأحداث الدولية تدخلت مرة أخرى لتغيّر معادلات المنطقة. ففي سنة 1990، غزا صدام حسين الكويت واحتلها، فشكّلت الولايات المتحدة تحالفاً واسعاً من الدول الأوروبية الغربية وبعض الدول العربية لطرد القوات العراقية من الكويت. كان موقف الولايات المتحدة الرسمي أن التحالف يهدف من ناحية إلى حماية السعودية من أي غزو أجنبي، وإلى تحرير الكويت من ناحية أخرى. ولكن الولايات المتحدة في الحقيقة كانت تأمل أن تسقط نظام صدام حسين وتضع مكانه رجلاً قوياً وموالياً للولايات المتحدة. وعلى هذا الأساس، ألقى الرئيس الأمريكي جورج إتش بوش (جورج بوش الأب) خطاباً في شباط 1991 دعا فيه العراقيين إلى الثورة على صدام حسين [80] .

لو كان الاتحاد السوفييتي في أوج قوته السياسية حينها، لربما حاول منع وقوع كل تلك الأحداث في العراق . ولكنه كان يعاني من الهيجان الداخلي الذي أدى إلى انهياره السياسي. وقد استقرأت سوريا المؤشرات التي تدل عليها أحداث غزو الكويت ونشوء التحالف الدولي بعد ذلك. ولم يكن الأسد يُكِنُّ أي حب لصدام حسين؛ والدليل على ذلك أنه ساند ايران في حربها مع العراق في ثمانينيات القرن الماضي، ولذلك غيَّر الأسد سياسته الخارجية عام 1991، وانضمّ إلى التحالف الدولي في حرب الخليج مرسلاً 14,500 جندي ليشاركوا في عملية عاصفة الصحراء ضد العراق. كما قاده

ذكاؤه في استقراء الأحداث إلى تغيير موقفه في ما يتعلق بفلسطين؛ كي يكسب ود البلاد الغربية، فوافق على حضور سوريا مؤتمر مدريد للسلام عام 1991 الذي حضرته أيضاً الولايات المتحدة وإسرائيل وبلاد أخرى - وهو المؤتمر الذي أدى لاحقاً إلى اتفاقية أوسلو - حيث دعا إلى إنشاء دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة مقابل اعتراف العرب بإسرائيل، كما أجرت سوريا وإسرائيل محادثات جدية في ما يتعلق بعودة هضبة الجولان إلى سوريا. وهكذا، انقلب الأسد على جبهة الممانعة التي أنشأها سابقاً، وقبلت سوريا بحل الدولتين. ولكنّ المحادثات المتعلقة بهضبة الجولان فشلت في نهاية الأمر؛ إذ لم تشمل سوريا في اتفاقية أوسلو. غير أن مشاركة الأسد في المؤتمر صرفت أنظار الغرب عن دور سوريا في لبنان، والقمع الذي يمارسه نظام البعث في سوريا نفسها.

أمضى حافظ الأسد عدة سنوات وهو يحضّر ابنه بشار لخلافته في رئاسة سوريا، ولكنّ وفاته في حزيران عام 2000 فرضت على الدولة إيجاد الحلول لبعض المسائل الشكلية؛ فالدستور السوري يحدد أن أي مرشح لرئاسة البلاد لا بد أن يكون قد بلغ الأربعين من عمره، في حين أن بشار الأسد لم يكن حينها قد تجاوز الخامسة والثلاثين؛ فتم تعديل الدستور بما يتيح له المجال لاستلام منصب الرئاسة. عندها، أشار منتقدو الحكومة إلى أنه إذا طُلِب من الحكومة تعديل الدستور حيث يصبح تشكيل الأحزاب السياسية قانونياً فإن الرد سيكون بأن الأمر سيستغرق سنين طويلة، ولكن تعديله ليضمن وراثة بشار الأسد للرئاسة لم يشكل أي عائق؛ فقد اجتمع مجلس الشعب فوراً، ووافق بالإجماع على تعديل الدستور؛ خافضاً السنّ اللازمة للترشح إلى رئاسة الجمهورية إلى أربعة وثلاثين عاماً، فترشح بشار الأسد للرئاسة من دون منافس، وفاز بالانتخابات الصورية التي أجريت بعد ذلك بنسبة 97.29 في المئة.

ورغم كل ذلك، كانت لدى الناس آمال كبيرة بأن يقوم الرئيس الشاب بإصلاحات في نظام الحكم. فقد كانت لديه شهادة عليا في طب العيون، كما كان يتحدث الإنجليزية بطلاقة، وقد تزوج امرأة بدت أنها تقدمية. ولكنْ من ناحية أخرى، ورث بشار الأسد نظاماً قمعياً ومتصلباً؛ حتى إنه اعترف بنفسه في خطاب القسم الذي ألقاه في تموز من سنة 2000: "فلا تتكلوا على الدولة... لا توجد لدى أي منا عصا سحرية لحلّ كل المشكلات دفعة واحدة... [علينا] الاستغناء عن أفكار قديمة لا يمكن أن نجددها ولم يعد ممكناً الاستفادة منها، بل أصبحت معيقة لأدائنا" [81] .

خلال سنين قليلة، قام الأسد بإصلاحات فعلية، ولكنها كانت من النوع الذي يجلب السعادة إلى قلوب أصحاب المصارف الدولية؛ فقد "حرر" الاقتصاد عبر بيع بعض مؤسسات الدولة، وسمح لرجال الأعمال بإنشاء شركات في مجالات عدة، مثل الهواتف الخليوية - وهي مجالات كانت مملوكة للدولة في الماضي - كما رفع الأسد بذكاء آمال القوى الغربية بأن رجال الأعمال فيها قد ينتفعون من الخصخصة التي تجري في سوريا، فأجّلت الولايات المتحدة والبلاد الأوروبية انتقاداتها لنظامه. لكن، سرعان ما تبيّن أنه لن يستفيد أحد من الخصخصة إلا عائلة الأسد والمقربين منها.

كان رامي مخلوف أحد أولئك المتنفعين؛ فهو ابن خال الأسد وأغنى رجل في سوريا؛ إذ تقدر ثروته بخمسة مليارات دولار. يمتلك مخلوف عدة أعمال في مجالات شتى؛ بما في ذلك فنادق سياحية وسوقاً حرة ومتاجر فاخرة [82] . كما نال سمعة سيئة نتيجة دوره كصاحب شركة الاتصالات الخليوية العملاقة سيرياتيل، والتي كبرت حتى سيطرت على 55 في المئة من السوق السورية. في الأشهر الأولى من ثورة 2011، اتهمت المعارضة مخلوف بتمويل المظاهرات المؤيدة للأسد، ثم تناهى إلى علمها لاحقاً أن الشركة تعاون النظام عبر مراقبة هواتف الناشطين؛ فأحرق المتظاهرون دعايات الشركة، وحطموا بطاقات الهاتف الخليوية لخطوطها احتجاجاً [83] .

انتفع بعض السوريين من الرأسمالية العائلية الجديدة في سوريا، حيث بدأت بعض الثروات ترشح إلى عامة الشعب، وصار بإمكان الناس شراء الهواتف الخليوية والاتصال بالإنترنت - رغم أن هذا كان يجري تحت رقابة حكومية لصيقة لشبكات التواصل الاجتماعي - لكن ذلك لم يكن كافياً؛ فقد أثارت الحالة الاقتصادية الرديئة غضب غالبية الشعب السوري.

قبل الثورة السورية بفترة طويلة، وفي مساء دمشقي حار، التقيت معارضاً للحكومة يدعى "حمد" ومجموعة من أصدقائه أمام أحد المقاهي. رفض "حمد" إعطائي اسم عائلته؛ كما هي حال الكثير من معارضي الحكومة وقتها. وبيّن لي حمد أنه تابع الدراسة كي يتجنب التجنيد الإجباري في الجيش، موضحاً أن "الحصول على عمل أمر في غاية الصعوبة؛ معظم أصدقائي عاطلون عن العمل، والذين يعملون منهم يحصلون على رواتب ضئيلة للغاية. لا يحصل على الوظائف إلا الناس الذين لديهم وسائط [في الدولة]" [84] .

أيّدت الإحصائيات تعليقات حمد. ففي العقد الأول من هذا القرن، بلغت معدلات البطالة 20 بالمئة، بينما وصل عدد السكان تحت خط الفقر

إلى 44 بالمئة [85] . لقد قابلت شخصياً عدداً كبيراً من الشباب الذين وقعوا ضحايا سياسات الأسد الاقتصادية. وكما أخبرني الخبير الاقتصادي السوري الإصلاحي أيمن عبد النور: "إنها حالة خطيرة جداً. لقد بنى مسؤولو الدولة بعض الخطط للتغلب على هذه المشكلة؛ مثل إطلاق برنامج للتغلب على مشكلة البطالة، وتمويل المشاريع الصغيرة ومتوسطة الحجم. إنهم يحاولون الوصول إلى حل، إلا أن الحلول تظل حتى الآن حبراً على ورق" . [86]

خاب أمل السوريين أيضاً بعدم قيام الأسد بالتخفيف من سياسات أبيه الديكتاتورية؛ فالدستور السوري يحدد أن حزب البعث هو الحزب السياسي الوحيد المصرح به في البلد. وقد وعد الرئيس بشار الأسد بإصلاح الدستور، والسماح بإنشاء أحزاب سياسية متعددة. وخلال الأشهر الأولى من حكمه، أطلق سراح عدد من السجناء السياسيين، ورخص لإنشاء صحف جديدة وتشكيل منظمات غير حكومية. وقد عرفت هذه الأشهر "بربيع دمشق".

ولكن ضباط الجيش والمخابرات البعثيين الممسكين بزمام السلطة الحقيقية - أي الحرس القديم - رأوا حتى في هذه التلميحات الطفيفة للتغيير تهديداً لهم، وكان عليهم الحفاظ على سلطة النظام بأي ثمن؛ فالانفتاح السياسي والشفافية كانا سيكشفان ماضياً من الأعمال القمعية والفساد، لذا مارسوا ضغوطاً على الرئيس الأسد لكي يتخذ إجراءات صارمة مع المعارضة السياسية. وبغض النظر عن رأي الأسد الشخصي، فقد اصطف معهم؛ فانتهى "ربيع دمشق" بسرعة. وتكرّر هذا النمط من التعامل الذي قام به الأسد وقتها مرات كثيرة أثناء حكمه.

وفي مقابلتي معه عام 2006، أخبرني الأسد أن المطالب بإنشاء أحزاب معارضة ليست إلا مؤامرة من الولايات المتحدة. كما قال إن تحديد جدول زمني لمناقشة الأمر سيتطلب وحده سنة كاملة:

الأسد : بعد الحوار عندها نقرر. سنبدأ بطرح بعض الأفكار والاقتراحات للمثقفين، وستكون هذه الطروحات هي الأسس التي يقوم عليها الحوار الوطني.

إرلتش : هل لديك أي فكرة متى سيبدأ هذا الحوار؟

الأسد : حين يتوقفون عن ممارسة الضغوط علينا وشغلنا بأمور تافهة.

إرلتش : إذاً، إن الضغط الذي يمارسه بوش قد أدى إلى نتيجة معاكسة تماماً، أهذا ما تعنيه؟

الأسد : بكل تأكيد. فنحن لا نعيش منعزلين عن المنطقة من حولنا، ونتأثر بكل المشاكل فيها [87] .

كان التعدد الحزبي، والصحافة الحرة، والنقابات الحرة، وإنهاء حالة الطوارئ التي فرضت على البلد منذ عام 1962، وإعطاء الأكراد المواطنة السورية الكاملة كلُّها قضايا حيوية للشعب السوري. ولكن، بالنسبة إلى الرئيس الأسد، لم تكن إلا قضايا تثيرها الولايات المتحدة لتسيء إلى سمعة نظامه.

وافق الشيخ نواف البشير بشار الرأي في ما يتعلق بأنه يجب على الولايات المتحدة التوقف عن ممارسة الضغوط على البلد، ولكنه قال أيضاً إن هذا لا علاقة له بمطالب الشعب السوري الشرعية بإنهاء الحكم الديكتاتوري. انتُخِبَ الشيخ نواف زعيماً لإحدى أكبر عشائر سوريا. وهو شيوعي سابق، وأحد قياديي المعارضة. قال لي الشيخ نواف: "تحدثت الدولة عن إقرار قانون يسمح بالتعددية الحزبية، ولكنه مبني على فكرة أن حزب البعث سيظل مسيطراً على كل شيء؛ ما نريده قانونٌ حقيقيٌ للتعددية الحزبية" [88] .

لجأ نظام الأسد إلى التعذيب والاعتقالات العشوائية بشكل روتيني لقمع معارضيه. ومن سخرية الأقدار أن ما قدم الدليل الحاسم على قيام النظام السوري بذلك هو حالة نادرة من التعاون الأمريكي-السوري. ففي عام 2002، طلبت إدارة الرئيس جورج دبليو بوش (جورج بوش الابن) من السلطات السورية التحقيق مع ماهر عرار؛ وهو مواطن كندي من أصول سورية احتجزته الحكومة الأمريكية في مطار جون ف. كينيدي عام 2002 لشكها في انتمائه إلى تنظيمات إرهابية، ومن ثم تمّ نقله إلى دمشق بالإكراه. أصبحت هذه واحدة من حالات "العودة الاستثنائية إلى الوطن" سيئة السمعة التي قامت بها سلطات الولايات المتحدة بعد اختطاف المتهمين بالقيام بأعمال إرهابية ونقلهم إلى سجون سرية لتعذيبهم. عذبت أجهزة نظام الأسد الأمنية عرار بوحشية لسنة كاملة قبل أن تتوصل إلى نتيجة مفادها أنه بريء؛ فاعتذرت له الحكومة الكندية وقدمت له تعويضاً بقيمة 12.5 مليون دولار [89] ، لكن حكومتي الولايات المتحدة وسوريا لم تعتذرا لعرار قط؛ باستثناء بعض أعضاء مجلس النواب الأمريكي الذين اعتذروا له بشكل غير رسمي [90] .

وبينما كان الاستياء من الفقر والتعذيب وانعدام الديموقراطية يغلي تحت السطح، وجدت الحكومة السورية نفسها فجأة وجهاً لوجه مع أزمة

غير متوقعة في جارتها لبنان. ففي شباط 2005، دوّى انفجار هائل في بوليفار "الكورنيش البحري" الأنيق في بيروت أدى إلى مقتل رئيس وزراء لبنان السابق رفيق الحريري مع 21 شخصاً وجرح 226 آخرين. بدا الشارع المليء بالنوادي الليلية الجذابة والمطاعم وكأنه تحوّل إلى ساحة حرب تناثر فيها الإسمنت المهشم والقطع المعدنية المشوهة والسيارات المحترقة؛ كانت عملية اغتيال احترافية.

فوراً اتهمت الولايات المتحدة وأوروبا الأسد بالاغتيال كما فعل الكثير من اللبنانيين. ورغم أن الحريري كان حليفاً لسوريا إلا أنه اختلف مع الأسد في الأشهر السابقة لاغتياله؛ إذ كان يرفض التمديد لرئيس لبنان الموالي لسوريا. نفى لي الأسد شخصياً أي علاقة لسوريا باغتيال الحريري أثناء مقابلتي معه، وألقى باللائمة على أعداء الحريري [91] . وبعد بضع سنين من التحريات التي كانت تستمر تارة وتتوقف تارة أخرى، أصدرت المحكمة الدولية الخاصة بلبنان التي أنشأتها الأمم المتحدة قرارها الاتهامي في حق خمسة أعضاء من حزب الله - الحليف القريب لسوريا - ولكنها لم تتهم الأسد شخصياً أو أياً من مسؤولي الدولة السورية [92] .

كان الأسد قد أخفض عدد الجنود السوريين المتواجدين في لبنان إلى النصف مع مطلع عام 2005، ولكن بقي فيه ما بين 14,000 و16,000 جندي. وبعد الاغتيال بفترة قليلة، خرج اللبنانيون في تظاهرات شعبية ضخمة في وسط مدينة بيروت، وطالبوا بخروج كل القوات السورية. كان الكثير من قياديي تلك التظاهرات من مجموعات محافظة وداعمة للولايات المتحدة، إلا أن المظاهرات عكست شعور غالبية الشعب اللبناني بأن الجيش السوري قد بقي في لبنان فترة أطول مما ينبغي؛ بل كان الكثير من السوريين أنفسهم يشعرون بذلك أيضاً. تحت هذا الضغط الهائل، أُجبر الأسد على سحب ما تبقى من قواته من لبنان في نيسان 2005، ولكن بعض عملاء المخابرات السوريين ظلوا فيه.

قال لي الشيخ نواف البشير إن قوات الأسد كانت قد دخلت لبنان أصلاً لإيقاف الحرب الأهلية الدموية فيها، ولكنها ظلت في البلد ثلاثين سنة؛ مما أثار استياء اللبنانيين. وقال الشيخ نواف: "لقد دعمنا انسحاب القوات السورية من لبنان لأن لبنان بلد مستقل. إذا كان لديك رجل مريض وجاء طبيب لعلاجه فهل يعني هذا أن الطبيب سيعيش معه في المنـزل نفسه؟" [93] .

وبينما ادعت حكومة الأسد أنها تحافظ على الاستقرار السياسي في

لبنان، وجدت احتلالها للبلد مربحاً. وقد قال الشيخ البشير: "كان لبنان المخرج الرئيس للتجارة السورية، كما أن 800,000 سوري كانوا يعملون في لبنان ويرسلون المال إلى ذويهم في سوريا كل شهر. وقد تناقص عدد السوريين هناك بشكل كبير الآن". هزّ انسحاب القوات السورية القسري هذا الأحوال السياسية داخل سوريا نفسها أيضاً.

بعد رحلة صعبة بالسيارة في الصحراء خارج مدينة دير الزور، بدت أمامنا من بعيد عزبة الشيخ نواف البشير. كانت العزبة تحتوي على منـزل كبير وقاعة استقبالات ضخمة ومسجد. يعتبر توجيه النقد اللاذع إلى نظام الأسد في سوريا مجازفة كبيرة، وكان البشير من الأشخاص الذين قاموا بهذه المجازفة. رحب بـي الشيخ البشير في قاعة استقباله الكبيرة والفسيحة المؤثثة بالمقاعد المنجدة والسجاد المحاك يدوياً.

في تشرين الثاني 2005، كان البشير واحداً من المثقفين السوريين واللبنانيين الثلاثمئة الذين وقعوا على "إعلان بيروت-دمشق" المثير للجدل، والذي انتقد الحكومة السورية واصفًا إياها بالقمعية والمنغلقة [94] . كما دعا الإعلان إلى الإصلاح السلمي وليس إلى الثورة، وووقعه ناس ينتمون إلى جماعات إسلامية وعلمانية وكردية. أهملت الحكومة السورية مطالب الإعلان، وسجنت 12 شخصاً من الموقعين عليه. بالنسبة إلى البشير، حققت السلطات معه لكنه لم يسجن. وكما أخبرني: "سألتني الشرطة: لماذا وقعت على إعلان بيروت-دمشق؟ لقد تعرضنا للمساءلة بسبب وجود مقاطع تنتقد الحكومة السورية، كما تم تحذيري من جعل قضية اغتيال رئيس الوزراء اللبناني السابق رفيق الحريري قضية دولية" [95] .

بالنسبة إلى الرئيس الأسد، لقد رأى في الإعلان - الذي لم يكن أكثر من تأكيد خفيف اللهجة لحقوق الإنسان - جزءاً من مخطط أمريكي وإسرائيلي لزعزعة الاستقرار في المنطقة، وندّد بالإعلان أثناء مقابلتي معه:

الأسد : لقد كتبته في لبنان المجموعة نفسها التي دعت الولايات المتحدة إلى احتلال سوريا. لقد تم هذا بالتعاون معهم. هذه خيانة، وبحسب القانون السوري يجب أن يحاكموا.

إرليتش : هل سيتهمون بجرائم؟

الأسد : هذا يرجع إلى القضاء.

إرليتش : إذاً، لا توجد نية لإطلاق سراحهم حالياً؟

الأسد : لا يمكن فعل ذلك. حين يكونون تحت سلطة القضاء لا يمكن لأحد مساعدتهم [96] .

أُطلِق سراح السوريين الذين وقعوا على الإعلان في نهاية الأمر. وبالنسبة إلى الشيخ البشير، لقد سجن في الأشهر الأولى من ثورة 2011 "لحمايته"؛ حسب ما قالته الحكومة. وفي وقت لاحق، هرب إلى المنفى.

يشكل الجدل حول قوات الجيش السوري في لبنان وحول إعلان بيروت-دمشق مثالين آخرين على قدرة بشار الأسد على القيام بخطوات إصلاحية استجابة للرأي العام، ولكنه بدلاً من ذلك ألقى اللوم في هذه المشاكل على القوى الخارجية.

في آذار 2003، غزت الولايات المتحدة العراق واحتلته. وأظهرت دراسة أجرتها جامعة واشنطن أن حرب الولايات المتحدة في العراق قد تسببت بمقتل 461,100 عراقي بين 2003 و2011 [97] ، بينما أفادت دراسات أخرى أن عدد الضحايا المدنيين قد يزيد عن 900,000 قتيل [98] . وبحسب الإحصائيات الرسمية، لقد قتل 4,486 جندياً أمريكياً خلال تلك السنوات أيضاً [99] . وبغض النظر عن الهرج والمرج الذي أذاعته واشنطن عن الدعم الدولي لها في حربها في العراق، فإن الغالبية العظمى من بلاد العالم عارضت الغزو الأمريكي؛ بما في ذلك بعض حلفاء أمريكا التقليديين مثل فرنسا وألمانيا وتركيا.

ومع أن صدام حسين كان عدواً لدوداً لنظام الأسد في سوريا لعقود طويلة، إلا أن سوريا عارضت الحرب منذ البداية. فقد كان الأسد يعلم تمام العلم أن الحرب ستزيد حدة الصراع العرقي والديني في المنطقة، وسيمتد تأثيرها إلى بلده. قدرت الحكومة السورية أن عدد اللاجئين العراقيين إلى سوريا قد بلغ مليون لاجئ، وقد اعتمدت الحكومة على سياسة الباب المفتوح؛ رغم العبء الاقتصادي الهائل الذي فرضه هذا عليها. لم تأخذ سوريا جانب الثوار المحاربين للاحتلال الأمريكي رسمياً، ولكنها سعت إلى ممارسة تأثيرها على أي حكومة تظهر في العراق؛ فقابلت أجهزة مخابرات الأسد مجموعات المعارضة العراقية السنية، وعبر بعض الثوار المسلحين إلى العراق عبر الحدود السورية؛ مما دفع بعض مسؤولي الحكومة الأمريكية إلى الزعم بأن سوريا ترعى عمليات التسلل تلك، بل وقام الجيش الأمريكي أيضاً بإرسال طائرات مروحية إلى داخل سوريا للقضاء على خلية إرهابية مزعومة في السكرية، وكانت نتيجة تلك العملية أن الولايات المتحدة قتلت ستة عمال بناء وجرحت اثنين آخرين. كان هذا هو "الغزو الأمريكي لسوريا" الذي لا يكاد أحد يتذكره [100] .

وبالنسبة إلى حكومة الأسد، لقد صرحت بأنها بذلت كل ما في وسعها

لإيقاف نشاط الثوار الحدودي. وبغض النظر عن صحة هذا الزعم أو خطئه، فإن عمليات التسلل تلك لم يكن لها أثر كبير. وكان جيش الولايات المتحدة يبحث عن كبش محرقة يلومه على خسائره في العراق؛ كما قال ديفيد ليش، بروفيسور دراسات الشرق الأوسط في جامعة ترينيتي في سان أنطونيو: "حتى لو كانت سوريا أكثر دول العالم إطاعة للولايات المتحدة وتعاوناً معها، فذلك ما كان ليغير الوضع في العراق كثيراً" [101] .

كان من المفترض لغزو الولايات المتحدة للعراق أن ينشر الديموقراطية في المنطقة، ولكنه في الواقع أدى إلى نتيجة معاكسة تماماً؛ فقد زادت حرب العراق حدّة الصراع السني-الشيعي، وأدت إلى فوضى سياسية شاملة. وبالمقارنة مع ذلك الوضع المتردي، فضّل الكثير من السوريين أن تكون حكومتهم مستقرة وعلمانية نسبياً.

أثناء مقابلتي مع طالب إبراهيم الذي هرب من القنيطرة أثناء طفولته ليصبح محللاً سياسياً في دمشق، قال إن الولايات المتحدة حين تتكلم عن دعم الديموقراطية و"تغيير النظام" فإن هذا يثير ريبة الكثير من السوريين. كما قال لي: "وجدت الولايات المتحدة تغيير النظام أمراً سهلاً، ولكن يستحيل عليها فرض الأمن والاستقرار في المنطقة. إنهم يواجهون مصاعب في العراق؛ فالشعب لا يثق بالولايات المتحدة، وأنا شخصياً كنت أحلم بالذهاب إلى الولايات المتحدة حين كنت في الجامعة، ولكنني الآن لا أريد الذهاب إلى هناك أبداً" [102] .

أما الدكتور محمود الأغاسي - وهو رجل دين إسلامي صاحب كلمة وتأثير، ومن منتقدي الرئيس الأسد - فقد أخبرني بدوره أن دعوات الولايات المتحدة لتغيير النظام في سوريا قد أدت إلى نتيجة مضادة. قتل الدكتور الأغاسي في أواخر عام 2007، ولكن كلماته التي قالها لي أثناء مقابلتي معه عام 2006 كانت وكأنها توقع بما سيحصل: "إن الضغط الذي تمارسه الولايات المتحدة يوحد الشعب السوري في الواقع. أوصي بألا تفرض الولايات المتحدة الديموقراطية علينا، ولتدعنا نصنع ديموقراطيتنا بأنفسنا. إن الولايات المتحدة لا تدرك تركيبة المجتمع السوري ولا العالم العربـي" [103] .

قبل ثورة 2011، رفضت المعارضة السورية تدخل الولايات المتحدة، ودعت لتغييرات كبيرة ولكن سلمية. وفي عام 2006، أكد الشيخ نواف البشير على أهمية إيجاد حلول سورية للمشاكل السورية:

نحن نريد التغيير السلمي بدون أي حرب، ولا نريد أن نتكل على قوى أجنبية. يجب أن يأتي الإصلاح من صميم سوريا نفسها. إذا أعطينا

فرصة عادلة، فبإمكاننا أن ننافس حزب البعث. نحن لا نريد إسقاط الحكومة، بل نريدها أن تتغير استجابة للضغط الداخلي، ونريد التغيير التدريجي. يجب على الحكومة والمعارضة أن تعملا معاً؛ فلنتعلم من دروس العراق. نحن لا نريد الفوضى [104] .

لكن الأسد رفض تلك المبادرات، مقتنعاً بأن القومية العلمانية التي يمثلها لا بد لها أن تنتصر. وفي كانون الأول 2011، أي فقط قبل شهرين من اندلاع الثورة، صرّح الأسد: "سوريا مستقرة. لماذا؟ لأنك يجب أن تكون مرتبطاً بشكل وثيق جداً بمعتقدات المواطنين؛ هذه هي المسألة الجوهرية. فعندما يكون هناك اختلاف بين سياستك ومعتقدات الناس ومصالحهم، فسيصبح لديك ذاك الفراغ الذي يولّد الاضطراب" [105] .

ولكن الأحداث كشفت أن كلّاً من الرئيس الأسد والمعارضة التقليدية أخطآ بشكل مأساوي في تقدير حركات التغيير الجذري التي نسميها الآن الربيع العربـي.

الفصل الخامس
بداية الثورة

ينتصب مجسّم ضخم لعربة من النوع الذي يستخدمه الباعة المتجولون في مكان غير بعيد عن وسط بلدة سيدي بوزيد في تونس. تبدو الدواليب في المجسّم أضخم مما تكون عليه عادة في الواقع. وهي تميل إلى الأمام وكأنها ستندفع بمفردها من دون أي تدخل إنساني. وقد تعمّد الفنان الذي صنع المجسّم أن يكتب على قاعدته بالطلاء الرشاش عبارة باللغة الإنجليزية وهي: " إلى الذين يتوقون لأن يكونوا أحراراً ". يُحيي هذا التمثال ذكرى محمد البوعزيزي؛ بائع الخضار المتجول، التونسي الشاب الذي أحرق نفسه في 17 كانون الأول 2010 مشعلاً الشرارة الأولى للثورة الشعبية في تونس، ومن بعدها الثورات في البلاد العربية والتي عرفت "بالربيع العربــي".

كان سبب حرق البوعزيزي لنفسه هو الاحتجاج على مصادرة بضائعه، والمضايقات المستمرة التي يتعرض لها من عناصر الشرطة، بالإضافة إلى عدم اكتراث مسؤولي البلدية بذلك. ضربت تضحية البوعزيزي بنفسه على وتر حساس عند الشعب التونسي؛ فقد عانى العمال والمثقفون وأصحاب الأعمال الصغيرة وناس عاديون آخرون لعقود من الديكتاتورية العسكرية التي يقودها الرئيس الموالي للغرب زين العابدين بن علي. وحين أشعل البوعزيزي النار في نفسه، امتدت هذه النار بسرعة إلى سائر أنحاء تونس. وخلال أسابيع قليلة، أطاحت التظاهرات الشعبية بالرئيس الذي هرب من البلاد.

حين زرت سيدي بوزيد سنة 2012، كان الديكتاتور قد ذهب إلى غير رجعة، ولكن الصراع للوصول إلى العدالة الاقتصادية والسياسية لا يزال مستمراً. وفي يوم زيارتي، طالب متظاهرون أمام مقر البلدية بوظائف؛ فالبطالة هي القضية الأساسية التي أشعلت المظاهرات الأصلية. وقد قال الأهالي إنهم الآن يتمتعون بحريات سياسية أكبر، ولكنهم لا يزالون يعانون من النظام الرأسمالي القائم على المحسوبيات والذي يدير اقتصاد البلد. كما أخبرني علاوي تحرير، وهو أحد المتظاهرين: "لا نـزال نعاني من الحالة نفسها. لدي شهادة ماجستير في اللغة الإنجليزية، ولكنني لا أزال بلا عمل منذ خمس سنوات" [106] . تداخلت هتافات المتظاهرين مع أذان صلاة الظهر في تلك المدينة القاحلة الزراعية الواقعة على بعد 175 كيلومتراً

جنوب العاصمة تونس. للإسلام جذور عميقة هناك، ولا شيء يعكس هذه الحقيقة أكثر من السياسة. فقد برز إسلاميون محافظون من حزب النهضة كأقوى تيار سياسي في تونس ما بعد الثورة. وجد الإسلاميون المتشددون أيضاً القليل من الدعم الشعبي، ولكنهم لعبوا دوراً تخريبياً؛ إذ قطعوا الشوارع، واغتالوا قياديين سياسيين تقدميين. ولكن، بخلاف الكثير من دول الشرق الأوسط الأخرى، حازت نقابات العمال اليسارية ومجموعات حقوق المرأة والحركات العلمانية الأخرى على قاعدة شعبية كبيرة أيضاً؛ حيث فرضت هذه الحركات اعتماد دستور يكفل الحريات المدنية ويحد من دور الإسلام في الحكم. إن معركة الشعب التونسي لا تزال مستمرة بكل تأكيد، ولكن تونس كبلد نجحت في تحقيق الخطوات الأوسع والأطول تجاه تحقيق الأهداف الشعبية للربيع العربي.

في بداية عام 2011، ألهمت الثورة العربية شعوب مصر واليمن والسعودية والبحرين ودولاً شرق أوسطية أخرى للقيام بحركات احتجاجات مشابهة. وكانت الظروف قد أينعت في سوريا أيضاً مع ارتفاع معدلات الفقر والبطالة؛ خاصة بين الشباب. اعتمد الرئيس بشار الأسد سياسات اقتصادية نيوليبرالية خصخصت المؤسسات التي تمتلكها الدولة لصالح نخبة صغيرة؛ في الوقت الذي تعاني فيه الغالبية الساحقة من الشعب السوري في ظل نظام ديكتاتوري يعني فيه انتقاد الحكومة التعرض للسجن والتعذيب. ولم يسمح الأسد بنشوء أحزاب معارضة حقيقية، أو نقابات عمالية قادرة على العمل، أو أي نوع من الإعلام المعارض. وقبل شباط 2011، كان الفيسبوك وجميع أنواع شبكات التواصل الاجتماعي ممنوعة في سوريا، أما الرئيس الأسد فكان يعيش في بيئة منعزلة سياسياً توصّل فيها إلى قناعة مطلقة بأن بلاده منيعة على ثورات الربيع العربي. وقد صدق حملات الدعاية التي أذاعها هو نفسه عن كون السوريين لن يثوروا أبداً على نظام يحكمه مناضل عروبي معاد لإسرائيل والإمبريالية مثله. لكن، حدثت واحدة من الحالات النادرة التي ثبت فيها خطأ فرضيات قائد الدولة بسرعة مذهلة.

ففي آذار 2011، بدأت التظاهرات المناهضة للحكومة في مدينة درعا الجنوبية. وكانت الشرطة قد اعتقلت عدداً من أطفال المدارس الذين لم يبلغوا سن المراهقة بعد لكتابتهم عبارات مناهضة للنظام على جدران المدرسة. وكما كانت العادة في الماضي، تعرض هؤلاء الأطفال للضرب والتعذيب من قبل الشرطة. لكن ردة فعل أهالي درعا هذه المرة كانت

غاضبة وعلنية؛ إذ نهض أكثر من 600 متظاهر في وجه رئيس الأمن السياسي في المدينة مطالبين بإطلاق سراح أبنائهم، فهاجمتهم قوات الأمن مما أدى إلى مقتل اثنين منهم [107] . تقع درعا جنوب سوريا قرب الحدود الأردنية حيث يظل تأثير العشائر المحلية قوياً، وقد هاجر بعض أهالي المنطقة إلى دول الخليج الغنية حيث ازدهرت أحوالهم. لم يتقبل أهالي درعا الطرائق القديمة، وانتشرت أخبار الوحشية التي عومل بها المتظاهرون عبر الرسائل النصية، وأصبح لدى سوريا محمد البوعزيزي الخاص بها، وتحولت درعا إلى "سيدي بوزيد" سوريا.

ومع حلول منتصف آذار، اندلعت مظاهرات سلمية وعلمانية في دمشق وأجزاء أخرى من البلاد، بل وحاول المتظاهرون في مدينة بانياس الواقعة شمال شرق سوريا اجتذاب العلويين الموالين للأسد في غالبيتهم من خلال ترديد هتافات مثل: "سلْمية سلْميّة، لا إسلام ولا مسيحية، لا سنّية ولا علويّة، كلّنا وحدة وطنيّة" [108] .

عندها، وجد النظام نفسه أمام أكبر أزمة في تاريخه، فواجهت قوات الأمن المتظاهرين السلميين بصرامة عديمة الرحمة؛ إذ أطلقت قوات الشرطة والجيش الرصاص الحي عليهم، واعتقلت قوى الأمن وعذبت أي شخص شكت في اشتراكه في المظاهرات. بعد ذلك، ظن النظام أنه يفاوض من مركز القوة المعتاد، فقدم "غصن الزيتون" الذي يشهره من وقت إلى آخر. ففي آخر آذار، علق الأسد العمل بقانون الطوارئ الذي أعلن في البلاد عام 1962، والذي وُضِع حيز التنفيذ مع أول انقلاب بعثي عام 1963، واستخدمته الحكومات المتعاقبة كوسيلة قمعية هامة، كما سوّى الأسد أوضاع 300,000 كردي ظلوا من دون جنسية منذ ستينيات القرن الماضي (انظر إلى الفصل التاسع).

وفي 10 حزيران، اختبر عدد من الشخصيات المعارضة البارزة من خلفيات دينية وعرقية مختلفة معايير الانفتاح السياسي الجديدة، وذلك بعقد مؤتمر في دمشق. فسُمح لهم بانتقاد النظام، وبثت شبكة التلفزيون الوطنية التي تملكها الدولة المؤتمر بشكل حي ومباشر. وفي 24 تموز، وافق مجلس الشعب السوري على قانون يسمح بالمزيد من أحزاب المعارضة. ففي سبعينيات القرن الماضي، وافقت الدولة على نشوء الجبهة الوطنية التقدمية؛ وهي تجمّع للأحزاب الصغيرة اليسارية لتكون معارضة "موالية" للدولة. أراد النظام من خلال قانونه الجديد أن يفتح الباب بشكل أوسع قليلاً، ولكن الدستور السوري ظل يحتوي على مادة تفيد بأن حزب البعث هو الحزب

القائد، وبالتالي لن تكون للأحزاب الجديدة أي سلطة فعلية [109] .

لكن، لو اتخذت هاتان الخطوتان قبل ذلك الوقت ببضع سنوات لرحب بهما الجميع كخطوتين تقدميتين هائلتين. ولكنْ، لم يكن لهاتين الخطوتين أي أثر سنة 2011؛ إذ رفضت الفئات المعارضة الأساسية الإصلاحات الضعيفة، وظلت تنادي بإسقاط الأسد. وفي تموز تجمهر 400,000 سوري في مدينة حماة بعد انسحاب القوى الأمنية منها، ورفعوا رسالتهم السلمية داعين كل الطوائف الدينية إلى المشاركة، حتى النساء كان لهن تواجد قوي في المظاهرة.

تمكنت من تقديم تقريري من درعا في تشرين الأول 2011، وكانت الحكومة قد استعادت السيطرة على المدينة بالاسم فقط؛ إذ بقي الشعور المعادي للنظام جارفاً. التحقت بمجموعة من كبار الشخصيات الأوكرانية في رحلة نظمتها الحكومة إلى درعا، حيث انطلقنا من دمشق عند الساعة التاسعة صباحاً في موكب كبير من الحافلات الكبيرة والصغيرة، ترافقنا سيارة شرطة عليها إشارة تقول: " بروتوكول ". أوقفت الحواجز العسكرية السيارات العادية، ولكن موكبنا مر من دون أن يوقفه أحد.

وحين وصلنا إلى درعا، وجدنا الهدوء سائداً فيها. لم يكن هناك الكثير من المتسوقين في الشوارع، ولكن لم تكن هناك علامات تشير إلى وجود أي اضطرابات مدنية أيضاً. قابلنا محافظ المدينة محمد خالد الهنوس، والمحامي العام الأول في المحافظة تيسير الصمادي [110] . لفق المسؤولون الحكوميون قصة محكمة الوضع لتفسير الأحداث، فاعترفوا أن أهالي درعا وأماكن أخرى قد تظاهروا سلمياً مطالبين بالديموقراطية، ولكن متطرفين إسلاميين يتلقون تمويلاً خليجياً سيطروا على المظاهرات فوراً، وبدأوا بحملة من إطلاق النار والعنف ضد قوى الأمن - حسبما زعم المسؤولون - وقالوا أيضاً إن أولئك المتظاهرين تلقوا الدعم السياسي والعسكري من إسرائيل والولايات المتحدة وأوروبا، وقد أدت أعمال العنف التي ارتكبوها إلى مقتل 1200 عنصر في الشرطة والجيش وقوى الأمن الأخرى. لكنْ في المقابل، لم تقدم الحكومة أي إحصاء لعدد المدنيين الذين لقوا حتفهم في تلك الأحداث [111] .

في الواقع، لم تخلُ رواية النظام من بعض الحقيقة. فالمتظاهرون السوريون لم يعتمدوا أساليب غاندي في العصيان المدني الرافض للعنف، وحين أطلق عليهم رجال الشرطة النار بالذخيرة الحية، بادلوهم ذلك بإلقاء الحجارة. وفي العشرين من آذار - أي بعد أقل من أسبوع على بدء الحركات الاحتجاجية - أحرق المتظاهرون مقر حزب البعث الحاكم ومبنى

قصر العدل في درعا. قابلتُ في دمشق أحد ناشطي درعا ويدعى "محمود"، وقد طلب استخدام اسمه الأول فقط. قال لي محمود إنه "بعد استمرار القمع لشهور، استخدم أهالي درعا قنابل المولوتوف والبنادق؛ لكن هذا كان كردة فعل على حملات الاعتقالات والقتل التي قامت بها الحكومة ضد المتظاهرين" [112] .

اعترف محمود أن المجموعات العشائرية التي تسمح الحكومة السورية لأفرادها بالاحتفاظ بأسلحتهم الشخصية استخدمت أسلحتها ضد الحكومة؛ ولكن بعد شهور من المسيرات والتجمعات السلمية: "تعرف درعا بعشائرها الكبيرة. وحين تستخدم العشائر الأسلحة يكون ذلك دفاعاً عن النفس. إنهم يستخدمونها حين تعتقل الحكومة الناس، وحين تقتحم بيوتهم؛ فعندها تجابه العائلات الكبيرة في درعا الحكومةَ مستخدمة الأسلحة".

لكن، يوجد فرق شاسع بين لجوء الأهالي المحليين إلى أسلحة شخصية للدفاع عن النفس، وبين مزاعم حكومة الأسد عن وجود ثوار مرتزقة ترعاهم وتمولهم المخابرات الأمريكية وإسرائيل ودول خليجية . كان من الواضح أن مسؤولي النظام يبالغون في حجم العنف الذي تمارسه المعارضة لتشويه سمعتها.

وبينما تخللت بعض الحوادث المسلحة المتقطعة الأشهر الثمانية الأولى من الثورة، لجأ المحتجون عموماً إلى تكتيكات سلمية؛ مثل المسيرات والتجمعات التي كانوا يدعون إليها عبر الرسائل النصية وأحياناً عبر وسائل التواصل الاجتماعي، ومن ثم نقلوا تطور الأحداث على الأرض إلى القنوات التلفزيونية العاملة على الأقمار الصناعية مثل الجزيرة و العربية .

نمت حركة المعارضة بينما تطورت فيها منظمات جديدة اتخذت اسم "لجان التنسيق المحلية". نشأت هذه اللجان في الكثير من المدن تلقائياً على أيدي الناشطين الشباب، حيث كانت غير مرتبطة مع المعارضة التقليدية. وشمل أولئك الناشطون يساريين وليبراليين علمانيين وإسلاميين محافظين، منشئين تحالفاً مشابها لذاك الذي أنشأه الناشطون العلمانيون والإسلاميون المصريون في ساحة التحرير في القاهرة.

لم ترد لجان التنسيق المحلية نظاماً هرمياً للسلطة فيها، فبدأت حركة الاحتجاجات وكأنها بدون قادة أو أيديولوجيا مشتركة أو حتى برنامج سياسي قصير المدى؛ فما وحّد الجميع هو رغبتهم في إسقاط نظام الأسد، وإجراء انتخابات حرة، وإنشاء نظام برلماني يسمح بالحريات المدنية. حظيت بفرصة لقاء بعض قياديي لجان التنسيق تلك في دمشق في نهاية عام 2011؛ بعد

أن مشيت في طرق دمشق القديمة الملتوية إلى الشقة السرية التي وصفتها في الفصل الأول.

بعد حوار طويل أخذنا استراحة لشرب الشاي. نظرت حولي في الشقة، فرأيت الأسرة غير مرتبة والصحون غير مغسولة والغبار منتشر في أرجاء الغرفة. بدت الغرفة وكأنها تخص شاباً أعزب في العقد الثاني من عمره لم يقم بأعماله المنـزلية منذ فترة من الزمن. واكتشفت لاحقاً أن أحد الميسورين المتعاطفين مع الثورة هو من يدفع ثمن إيجار هذا البيت الآمن الذي يلجأ إليه أعضاء لجان التنسيق.

كان أحمد بقدونس من الأشخاص الذين قابلتهم وقتها. وهو أحد ناشطي المجتمع المدني، اعتقلته الشرطة في وقت لاحق وتعرض للتعذيب على يدها. سألت أحمد: "كيف قدرت هذه اللجان على تنظيم الأعمال الاحتجاجية رغم القمع الشديد الذي تمارسه الحكومة عليهم؟". فأخبرني أن ما يقوم به المتظاهرون هو أنهم يجتمعون خارج المساجد أيام الجمعة؛ لأنها من بين الأماكن القليلة التي ظل الناس قادرين على التجمع فيها، وقبل ذلك كانوا يتراسلون عبر الهواتف الخليوية مستخدمين كلمات مرمزة للإشارة إلى المظاهرات: "نقول لبعضنا بعضاً: نحن ذاهبون إلى الحفلة أو تعال إلى العرس . يعرف الناس أنه ستكون هناك مظاهرة يوم الجمعة، ويعرفون المساجد التي يتظاهر الناس أمامها. أما بالنسبة إلى أيام الأسبوع الأخرى، فنحن نعرف بعضنا بعضاً، ونتحادث عبر الهاتف الخليوي" [113] .

لم يستخدم المتظاهرون مواقع التواصل الاجتماعي إلا في ما ندر؛ نظراً إلى مراقبة الدولة اللصيقة لهذه المواقع. وأكدوا أن ثورتهم هذه ليست "ثورة فيسبوك"؛ إذ لم يستخدم الفيسبوك إلا لتنبيه العالم الخارجي بأن أحد المشاهير سيشارك في التظاهرات. سألت بقدونس: "كيف يمكن للناس أن يتظاهروا في الموقع نفسه كل أسبوع من دون أن تسحقهم قوى الأمن؟". فأجاب: "توجد الكثير من الطرق في المنطقة الواحدة، ولا يمكنهم سد كل الطرق. وبالنسبة إلى المظاهرات الكبيرة، لا تستطيع الحكومة اختراقها".

استحدث المتظاهرون طرائق خلاقة للوصول إلى عامة الشعب. وفي أحد الأيام، كتب الناشطون كلمة "حرية" على 5000 كرة طاولة، وألقوا بها من هضبة في دمشق إلى حديقة مزدحمة في الأسفل. ضحكت لين - وهي قيادية أخرى في لجان التنسيق، وكانت واحدة ممن قابلتهم في المنـزل الآمن - وهي تبيّن لي كيف أمضى عناصر قوى الأمن بقية النهار وهم يطاردون تلك الكرات.

...

مَثَّل قياديو لجان التنسيق المحلية شريحة واحدة من المعارضة خلال الأشهر الأولى من الثورة. وعرض علي صديق لي أن يعرفني إلى نوع آخر من معارضي الأسد؛ وهو مثال على الشخصيات المشبوهة التي كانت تدعم الدولة قبل أن تنضم إلى المعارضة. وبعد عدد من المكالمات، التقينا في مقهى في دمشق، وجلسنا بعيداً عن باقي الزبائن، وجلس هذا الرجل وظهره إلى الحائط. سمى نفسه "بشار"، وهو اسم مستعار يسخر به من بشار الأسد. وأعطاني سلوكه الانطباع بأنه نصف منشق ونصف "شبيح". كان ذلك الرجل مثالاً للمعارضة الانتهازية؛ فهو شخص موالٍ للنظام في الأصل، لكنه انضم إلى المعارضة حين بدت وكأنها على وشك الانتصار، ويمكنه أن يعود إلى معسكر الأسد بسهولة إذا تغيرت كفة المعركة. بدا منظر "بشار" بشاربه الكث ورقبته الغليظة وكأنه حارس شخصي؛ ولعل سبب ذلك يرجع إلى أنه كان يعمل حارساً شخصياً بالفعل، ولكنه لم يصرح باسم الشخص الذي كان يحرسه، ولم يخفِ تبجحه بعلاقاته القوية مع أجهزة الأمن والشرطة السورية.

وليثبت لي "بشار" حسن نواياه كمعارض، فتح لي معرض الصور في هاتفه ليريني صورة له مع قيادي سوري مشهور يعيش في المنفى، وأظهرته صور أخرى في مظاهرات في دمشق. "أنا من المحرّضين". قال لي ذلك بفخر. وحين سألته عن سبب تصرفه الغريب؛ أي عن سبب إبقائه على هاتف خليوي مليء بصور قد تجرمه، أجاب ببساطة: "لا يهمني الأمر!" [114] .

قال "بشار" إنه خلال خريف 2011، قام بعض ناشطي المعارضة بتسليح أنفسهم بمسدسات وبنادق الصيد ليستخدموها إذا قامت الشرطة بمداهمة منازلهم، ولكنه أنكر قيام المتظاهرين بإطلاق النار أثناء المظاهرات؛ إذ إن هذا التصرّف سيكون عملاً في غاية التهور نظراً إلى التسليح المتفوق الذي تحظى به قوات الجيش والشرطة. أخبرني "بشار" أيضاً أثناء مقابلتي معه في تشرين الأول 2011 أن بعض فئات المعارضة بدأت الآن باستهداف بعض عملاء شعبة المخابرات العسكرية والمخبرين ومناصري الحكومة واغتيالهم. كما وضعت القوات الإسلامية حواجز على الطرقات في حمص؛ منشئةً مناطق لا تجرؤ قوى الأمن على دخولها.

وجدت يوماً مصدراً غير متوقع يؤكد المصاعب التي تواجه المخابرات. فأثناء زيارتي لصديق صديقي في طرطوس - وهي مدينة ساحلية غرب سوريا وقرب لبنان - اكتشفت أن أحد الحاضرين عنصر في جهاز المخابرات

المرعب. كان الرجل موالياً راسخاً للأسد، ولكنه اعترف أنه بعد مرور ثمانية أشهر على بدء الثورة، فقدت قوى الأمن السيطرة على بعض المدن، "هناك أجزاء من حمص لا يمكننا دخولها إلا بأعداد كبيرة" [115] . هذا ما قاله لي ذلك الرجل الذي طلب أن لا يذكر اسمه خوفاً من الانتقام. كما قال لي أيضاً إن الثوار الإسلاميين قد أحكموا سيطرتهم على الأحياء السنية في الليل. كان موقع هذا الرجل في حمص، واعترف لي أن المعارضة متجذرة هناك بقوة؛ لدرجة أن التغلب عليها قد يستغرق من الحكومة سنة كاملة. كان هذا اعترافاً صارخاً؛ نظراً إلى كونه صادراً عن أحد أعضاء قوى الأمن. مرت الآن سنتان على هذا الحوار، ولا يزال الثوار يسيطرون على أجزاء من مدينة حمص.

حصل هذا التحول الكبير من المظاهرات السلمية إلى الصراع المسلح تدريجياً؛ إذ تزايدت صعوبة القيام بتظاهرات سلمية، وأحاطت قوى الأمن بالمساجد أيام الجمعة لمنع المسيرات، كما كانت أي محاولة للقيام بتجمع يتم إحباطها وتفريق المتظاهرين باستخدام القسوة والعنف. اتّهم بعض المعارضين النظام بإطلاق سراح المتشددين الإسلاميين من السجن على أمل أن تتحول المظاهرات إلى صراع مسلح يؤدي إلى الانقسام والانشقاق.

وفي تموز 2011، أعلن منشقون من جيش الأسد عن تشكيل الجيش السوري الحر. وبدأ كل طرف باستهداف الآخر عبر عمليات الاغتيال. وفي 2 تشرين الثاني 2011، اتهمت الحكومة أعضاء من المعارضة باغتيال سارية حسون، ابن مفتي الجمهورية العربية السورية؛ صاحب أهم منصب ديني سني في البلاد. وبعد أيام قليلة، قامت فرقة اغتيال تابعة للحكومة باغتيال القيادي الكردي السوري مشعل تمو.

في تشرين الثاني، هاجم الجيش السوري الحر قاعدة لمخابرات القوات الجوية في حرستا قرب دمشق، وهي أول عملية كبيرة ضد مبنى بهذه الأهمية. وفي كانون الأول، فجّر الثوار مجمعاً أمنياً هاماً في ساحة كفر سوسة في دمشق؛ مما تسبب بمقتل جنود للنظام ومدنيين أبرياء. وبينما حل الصراع المسلح بسرعة محل المظاهرات الحاشدة، تبدّلت قيادة الثورة السياسية أيضاً؛ فقد جاء الإسلام السياسي إلى الواجهة، وأصبحت الثورة حرباً أهلية.

يعتبر المفهوم السائد حالياً في الولايات المتحدة للإسلام مرادفاً للتطرف والإرهاب. وكثيراً ما نسمع المثل الذي درج بين الأمريكيين: "ليس كل المسلمين إرهابيين، ولكن كل الإرهابيين مسلمون" [116] . يا إلهي، كم نحن

بارعون في إظهار جهلنا! فللتكتيكات الإرهابية تاريخ طويل لا علاقة له بالإسلام. وأول انتحاري في العصر الحديث كان رجلاً فجّر قنبلة يدوية محاولاً اغتيال قيصر روسيا عام 1881 - والجدير بالذكر أن الرجل كان مسيحياً - وكانت أول سيارة مفخخة هي تلك التي فجرها متطرفون صهاينة كانوا يقاومون الاحتلال البريطاني لفلسطين قبل عام 1948، وقامت بالعملية المنظمة التي عرفت باسم شتيرن أو ليحي، وكانوا هم أيضاً من أرسل أول رسائل مفخخة في محاولة لاغتيال وزراء في الحكومة البريطانية [117] . تستمر اللائحة وتطول، ولكن أعتقد أنكم فهمتم الفكرة!

الإسلام دين سلام مثل كل دين آخر سمعت به. وإذا أردنا أن نتحدث عن التطرف فقد قتل بعض المتطرفين في الولايات المتحدة أطباء يقومون بعمليات إجهاض، وفجروا مباني فدرالية باسم المسيحية؛ ولكننا نعلم تمام العلم أن تلك الأعمال لا تمت للمسيحية بصلة، والشيء نفسه ينطبق على الإسلام السياسي، حيث يستولي قادة انتهازيون على السلطة وهم يرددون آيات من القرآن الكريم يفسرونها بطريقة تدعم شرعيتهم، لكن هذه الأعمال لا تمت إلى الإسلام بصلة أيضاً. يتطلب تحليل قضية المتطرفين الإسلاميين منا أن نركز على سياساتهم وليس على أدبياتهم الدينية، ولهذا استخدمت اصطلاحات تعود إلى العلوم السياسية؛ مثل تقدمي و محافظ و يميني متطرف، ولكنني تجنبت مصطلح "معتدل " لأن ذلك يرادف عادة عبارة: "مقبول لدى الولايات المتحدة".

لسنين طويلة، بدت جماعة الإخوان المسلمين وكأنها أكثر مجموعات المعارضة نفوذاً في سوريا. لكن الأسابيع الأولى من الثورة كشفت مدى قلة تأثير الجماعة بعد أن تعرض قادتها إما للسجن أو النفي خلال القمع الشديد الذي مارسته الحكومة عليها في ثمانينيات القرن الماضي. فقد فقدت الجماعة تواصلها مع الأجيال الشابة التي شكلت رأس حربة أحداث بداية 2011، بل إن الجماعة عارضت الثورة في البداية قائلة إنها استفزازية وعلى الأرجح ستبوء بالفشل. كتب آرون لند في منشور لمؤسسة كارنيغي للسلام الدولي: "في بداية الثورة، بدت جماعة الإخوان مترددة في إقحام نفسها في الصراع؛ وربما عكس ذلك شكوكها في وجود فرص لنجاح الثورة، وإدراك الجماعة ضعفها داخل سوريا، وعدم رغبتها في لفت الأنظار إليها في الوقت الذي كان النظام فيه يحاول تقديم الثورة على أنها تحت قيادة الإسلاميين" . [118]

غيّرت جماعة الإخوان أساليبها السياسية في تسعينيات القرن الماضي في

محاولة منها لكسر عزلتها داخل سوريا ولنيل شرعية دولية. وكان الإخوان يريدون أن يثبتوا أنهم ليسوا جماعة إرهابية؛ وخاصة بعد أحداث 11 أيلول 2001. وقد دعت الجماعة إلى حكم سوريا تحت تفسير عصري للشريعة الإسلامية، ولكنها شددت على الحاجة إلى انتخابات ديموقراطية وحقوق الإنسان والتعددية [119] . ورفض برنامجها لسنة 2004 استراتيجية الكفاح المسلح، ونادى بالتغيير السياسي السلمي.

حرص قائد الجماعة في ذلك الوقت علي صدر الدين البيانوني على زرع صورة عصرية للجماعة، فاختلف سياسياً مع جماعة الإخوان المسلمين في مصر حين أعلنت أنه يُمنَع على امرأة أو مسيحي قبطي أن يصبح رئيساً لمصر، كما رفض البيانوني فكرة تشكيل مجلس ديني لتحديد إذا ما كانت القوانين المدنية العلمانية تتفق مع الشريعة أم لا. في الوقت ذاته، حافظت جماعة الإخوان على نظرتها المحافظة في ما يتعلق بشرب الخمر وحقوق المرأة ووسائل الترفيه الشعبية. وكقوميين عرب، رفض قادتها الاعتراف بحقوق أقليات لديها مطالبها الخاصة مثل الأكراد والأشوريين.

كان قادة جماعة الإخوان يأملون في العودة إلى سوريا كجماعة معارضة يتقبلها النظام؛ مما جعلهم يترددون في مساندة الثورة في البداية. ولكن، حين بدأ زخم الثورة يتصاعد وبدت وكأنها قادرة على إسقاط الأسد، بدلت جماعة الإخوان موقفها. وفي آذار 2012، أصدرت وثيقة "عهد وميثاق النقاط العشر" الهادف إلى البرهنة للسوريين وللقوى الغربية أن الجماعة قادرة على أن تحكم سوريا. فلم تذكر الوثيقة الإسلام إلا في ديباجتها كمنطلق، ودعت إلى حكومة مدنية منتخبة، ونظام سياسي تعددي من غير تمييز على أساس ديني. قال محمد فاروق طيفور؛ وهو نائب المراقب العام لجماعة الإخوان المسلمين في سوريا: "لن يحتكر الإخوان السلطة في الساحة السياسية، وفي إدارة المرحلة المقبلة" [120] .

طوّر قياديو الإخوان علاقات دولية واسعة؛ وخصوصاً مع الحزب الإسلامي الحاكم في تركيا، وأصبح هؤلاء القياديون لاعبين أساسيين في المجلس الوطني السوري الذي يتخذ من إسطنبول مركزاً له. كان من المفترض أن يتحول المركز الوطني السوري الذي حاز على دعم الولايات المتحدة وحلفائها إلى ائتلاف يضم كامل أطياف المعارضة. حين تابع الأسد أعماله القمعية، أنشأت جماعة الإخوان ميليشيا خاصة بها في أيار 2012 سمّيت "هيئة دروع الثورة "؛ ولكنها فشلت في نيل الكثير من الزخم داخل البلاد.

أخبرني عمر مشوح القيادي في جماعة الإخوان الذي يعيش في

إسطنبول أن جماعته تحبذ تفسيراً معتدلاً للشريعة الإسلامية، مشيراً إلى أن سوريا الحديثة يمكنها أن تتبع نموذج تركيا الحديثة التي يحكمها نظام برلماني والتي تحترم الأديان المتعددة. وأضاف مشوح أنه من الواجب حماية حقوق الأقليات والنساء قائلاً: "لن تجبر النساء على ارتداء الحجاب، سيكون هذا أمراً اختيارياً" [121] .

لا يثق بعض السوريين العلمانيين بخطابات الإخوان المسلمين بالرغم مما قيل سابقاً. وأخبرني ميرال بيوردا القيادي في لجان التنسيق المحلية أثناء مقابلة معي: "يقول الإسلاميون إنهم يريدون دولة ديموقراطية ولكنني لا أصدقهم" [122] . لكن الحارس الشخصي السابق الذي يُسمي نفسه "بشار" مَثَّل آراء الكثيرين حين اعترف أن الإخوان المسلمين لم يعودوا يدعون إلى دولة إسلامية محافظة بالطريقة ذاتها التي فعلوا بها ذلك في ثمانينيات القرن الماضي، كما أخبرني: "إنهم يفضلون دولة مدنية [لا دينية]. لن يتقبل الناس أيديولوجيتهم القديمة المتطرفة" [123] . ظل الإخوان المسلمون لاعبين أساسيين في المعارضة السورية، وفي الوقت ذاته اختلفت الأحوال بسرعة داخل سوريا؛ إذ لجأ الناس إلى السلاح. فلننظر الآن إلى بعض أهم الفئات المسلحة.

في تموز 2011، أعلن سبعة ضباط منشقون تشكيل **الجيش السوري الحر** . وفي الأشهر التالية، حاول هذا الجيش أن يضم تحت جناحه جميع الميليشيات المتفرقة التي ظلت تنبع في جميع أنحاء البلد. وصار الجيش الحر الجناحَ العسكري للمجلس الوطني السوري، وبعد ذلك الجناح العسكري لوريثه: الائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة السورية.

دعمت كل من الولايات المتحدة وتركيا والسعودية وقطر الجيش السوري الحر، وخصصت وزارة الخارجية الأمريكية رسمياً 15 مليون دولار لتقديم مساعدات غير فتاكة؛ مثل الإمدادات الطبية، وأدوات الاتصال. ولكن المبالغ التي تم تقديمها كانت أعلى بكثير (انظر إلى الفصل الحادي عشر)، وظلت فئة "غير الفتاكة" تتسع حتى شملت الشاحنات الصغيرة ونظارات الرؤية الليلية والسترات الواقية. وقد انكشفت هذه الحقيقة حين تعرض مستودع للجيش الحر للنهب في كانون الأول 2013 [124] .

حقّق الجيش السوري الحر بعض النجاحات الأولية؛ إذ تمكّنت بعض الميليشيات الموالية له من الاستيلاء على بعض البلدات في الشمال الشرقي للبلد قرب الحدود التركية، كما تمكّنت من السيطرة على بلدات وسط سوريا حول حمص وحلب. لكن، كان من الصعب تقييم الدعم الشعبي

الحقيقي للجيش السوري الحر؛ لأن الميليشيات المحلية كانت تغيّر ولاءها كثيراً، ونحن نعلم يقيناً أن قوة الفئات المتطرفة تنامت في الوقت الذي انحدرت فيه قوة الجيش السوري الحر.

مع حلول ربيع 2012، واجه الجيش السوري الحر أزمة؛ إذ اشتكى الثوار في ساحات المعارك من الافتقاد إلى الأسلحة الفعالة مثل الصواريخ المحمولة على الكتف التي يمكنها إسقاط الطائرات، ولكن المخابرات الأمريكية رفضت توفير هذه الأسلحة للثوار تحت ذريعة التخوف من وقوعها بأيدي المتطرفين. وأنشأت المخابرات الأمريكية غرفة تحكم في إسطنبول لتنسيق الأنشطة العسكرية وتوجيه تدفق السلاح إلى المجموعات التي تفضلها. كانت الولايات المتحدة تأمل في أن يؤدي التحكم بتدفق السلاح إلى توجيه الثوار إلى المسار الذي تفضله سياسياً، وإلى تقليص نفوذ جبهة النصرة الموالية للقاعدة. ومع أن المخابرات الأمريكية رفضت توفير صواريخ الستينغر المضادة للطائرات للثوار، إلا أنها قدمت لهم نوعية أفضل من بنادق الاقتحام وبنادق القنص والآر بـي جي والذخائر (انظر إلى الفصل الحادي عشر).

وفي كانون الأول 2012، أعلن الجيش السوري الحر عن تشكيل **مجلس القيادة العسكرية العليا** الذي وقعت على عاتقه مهمة التنسيق بين كل الميليشيات في سوريا، واختير اللواء سليم إدريس قائداً لهذا المجلس. إن ملامح إدريس العادية وشعره المنحسر عن جبهته تجعله يبدو أكثر كبروفيسور في الجامعة، أكثر من كونه قائداً عسكرياً. وقد يكون السبب وراء ذلك أنه مزيج من الاثنين معاً. ولد سليم إدريس في المباركية جنوب حمص عام 1958 لأب فلاح. وحين التحق بالجيش السوري، أُرسِل للدراسة في ألمانيا الشرقية، وعاد ومعه شهادة الدكتوراه، وأصبح بروفيسوراً في أكاديمية الهندسة العسكرية في حلب، حيث درَّس لمدة عشرين سنة حتى أصبح عميداً. وقد انشق إدريس وانضم إلى الثوار في تموز 2012.

يطابق إدريس بطرائق كثيرة صورة الرجل القوي الموالي للولايات المتحدة، والذي يمكنه أن يحكم سوريا يوماً ما. فهو رجل عسكري يَعِد بانتخابات حرة، ويعارض الثوار المتطرفين، كما أن موقفه ظل غير واضح بالنسبة إلى نوع الحكومة التي ستحل محل نظام الأسد. تقرّب إدريس من بعض الأمريكيين المتنفذين؛ فقد تسلل السيناتور الجمهوري عن ولاية أريزونا جون مكين عبر الحدود اللبنانية إلى المناطق التي يسيطر عليها الثوار في سوريا ليلتقي إدريس. وفي وقت لاحق، صرّح السيناتور مكين: "يشاركنا الجنرال إدريس ومقاتلوه الكثير من مصالحنا وقيمنا" [125] . أمّا منتقدو

إدريس فقد عابوا عليه افتقاده إلى المهارة القتالية؛ ملاحظين أنه أظهر شجاعة أكبر في مقابلاته مع الممولين الأجانب من تلك التي أبداها في ساحات المعارك في سوريا [126] . وكقائد لمجلس القيادة العسكرية العليا، واجه إدريس المشاكل فور تسلمه منصبه؛ فقد أرادت المخابرات الأمريكية وتركيا تركيز التدريب على جنود الأسد المنشقين، ولكن الإسلاميين المحافظين اعتبروا أن أولئك المنشقين سيكونون خونة إذا عملوا مع المخابرات الأمريكية. وفشل مجلس القيادة العسكرية العليا الذي كان يفترض به أن يتولى القيادة العامة في ضمّ كل الفئات المسلحة الرئيسة الأخرى، وتحوّل إلى مجرد فئة محاربة إضافية. وكما علق أحد ثوار دير الزور: "كلما أنشأوا مجلساً ليشرف على المجهود الحربـي تحوّل هذا المجلس إلى مجرد ميليشيا أخرى" [127] .

تشكلت **مجموعة "جيش الإسلام"** في أيلول 2013 نتيجة اندماج عشرات الميليشيات الأصغر حجماً ومعظمها في منطقة دمشق. وقاد المجموعة زهران علوش ابن الشيخ عبد الله محمد علوش؛ وهو عالم دين مشهور اتخذ من السعودية مسكناً له. أطلق نظام الأسد زهران علوش من السجن عند بدء الثورة مع غيره من السجناء المحافظين والمتطرفين. يتلقى جيش الإسلام تمويله من السعودية [128] ، ويؤكد قادته أنهم ملتزمون بمبادئ الإسلام، وتتخذ القرارات العسكرية من قبل مجلس شورى يتألف من مختصين في الشريعة الإسلامية وضباط عسكريين وزهران علوش [129] . يعتبر جيش الإسلام إحدى المجموعات المتطرفة التي تزعم أن سوريا تتعرض للغزو من قبل إيران والمسلمين الشيعة. وفي فيلم فيديو عرض على موقع YouTube قال علوش: "سيغسل مجاهدو الشام رجس الرافضة والرافضية [إشارة مهينة تصف الشيعة] من الشام، سيغسلونه إلى الأبد إن شاء الله" [130] . رفض جيش الإسلام التفاوض مع نظام الأسد، ووقف بثبات مع المجموعات المتطرفة الأخرى. واستخدم عناصر جيش الإسلام علم الجهاد الأسود بدلاً من العلم السوري [131] ، وفي نهاية سنة 2013 ساعد جيش الإسلام على تشكيل "الجبهة الإسلامية".

شارك كل من جيش الإسلام وجبهة النصرة في مجزرة وقع ضحيتها عشرات المدنيين في مدينة عدرا الصناعية الواقعة خارج دمشق. ففي كانون الأول 2013، جمع عناصر المجموعتين العلويين والدروز وأهالي الأقليات الأخرى ثم أعدموهم بإطلاق النار عليهم وقطع رؤوسهم بذريعة أنهم مناصرون للأسد. وكما أخبر ناشط معارض للنظام وكالة أخبار رويترز: "لقد

ارتكب زهران علوش مجزرة" [132] .

كانت **حركة أحرار الشام الإسلامية** واحدة من أكبر الميليشيات في سوريا. ومن الجدير بالذكر في هذا السياق أن كلمة "الشام" تعني سوريا ولبنان. تأسست هذه الميليشيا عام 2011 على أيدي سجناء سياسيين متطرفين سابقين، وعملت في الغالب في محافظة إدلب شمال غرب سوريا بجانب الحدود التركية، ولكنها شملت أيضاً محاربين من حماة وحلب. يقود حسن عبود أحرار الشام، واعترف قيادي آخر فيها - أبو خالد السوري - أنه كان عضواً في تنظيم القاعدة. سعت حركة أحرار الشام إلى إسقاط نظام الأسد وبناء دولة إسلامية سنية، ولكنها اختلفت عن باقي الجماعات المتطرفة في كونها تعترف بأن السوريين لا يرغبون حالياً في تقبل دولة كهذه، ولذلك دعت إلى اعتماد منهج قائم على التأني؛ فتعاونت مع مجلس القيادة العسكرية العليا، ولكنها انفصلت لاحقاً عن إدريس والميليشيات التي تدعمها الولايات المتحدة.

يمكننا أن ندرك مدى التعقيد الذي وصلت إليه التحالفات على الأرض إذا عرفنا أن بعض أعضاء جماعة الإخوان المسلمين الأثرياء هم الذين مَّولوا حركة أحرار الشام في البداية. وساعد ذلك في صنع رابطة بين الفئتين. ولكن حركة أحرار الشام تلقت التمويل أيضاً من قادة دينيين محافظين في الكويت والسعودية وقطر. ومع حلول 2012، انفصل أحرار الشام عن الإخوان سياسياً وأيديولوجياً [133] .

في تشرين الثاني 2013، انضمت حركة أحرار الشام إلى مجموعات محافظة أخرى لتشكل "الجبهة الإسلامية" التي عارضت كلاً من مجلس القيادة العسكرية العليا (الجيش السوري الحر) والفئات المرتبطة مع القاعدة مثل جبهة النصرة والدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش). ورفض ميثاق الجبهة الإسلامية السورية النظام البرلماني التمثيلي قائلاً إن الحكم يجب أن يكون "بشرع الله الذي ارتضاه"، كما رفض العلمانية؛ إذ قال: "الإسلام هو دين الدولة، وهو المصدر الرئيس والوحيد للتشريع، وسنعمل بكافة الأساليب الشرعية الممكنة على أن لا يكون في البلاد أي قانون يخالف الثوابت المعتمدة في الشريعة الإسلامية" [134] . ومع بداية عام 2014، برزت الجبهة الإسلامية كأحد أقوى تحالفات الثوار، وقد يكون السبب وراء إعادة إدارة الرئيس أوباما لحساباتها الإستراتيجية في سوريا (انظر إلى الفصل التالي).

جبهة النصرة لأهل الشام مجموعة ثورية أخرى مولتها وسلحتها

مجموعة مرتبطة مع تنظيم القاعدة في البداية، ولكن هذا الأمر بقي سراً وقتها. ساعدت "دولة العراق الإسلامية" - المعروفة أيضاً باسم "تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين" - على تشكيل جبهة النصرة في جهد لمد نفوذها إلى سوريا. ولكن القاعدة تعمل كتنظيم يرخص لتنظيمات أخرى بأن تعمل باسمه، وليس كتنظيم مسيطر عليه مركزياً. وكما سنرى لاحقاً، حتى القيادة العليا في تنظيم القاعدة لا يمكنها السيطرة على أصحاب "التراخيص" للعمل باسمه.

يقود أبو محمد الجولاني جبهة النصرة. وهو جهادي سبق له أن حارب الولايات المتحدة وحكومة نوري المالكي. وبدلاً من مساندتها نظاماً برلمانياً، تدعو جبهة النصرة إلى نظام ديني يقوم على تطبيق متشدد للشريعة. وكما أخبر أبو محمد الجولاني جريدة نيويورك تايمز : "لدى جبهة النصرة خطة لاستشارة علماء الدين لإنشاء حكم مؤسس على الشريعة الإسلامية. نحن نريد أن يسود حكم الشريعة" [135] . وكان متكلم آخر باسم جبهة النصرة أكثر صراحة حين تكلم من قناة سي أن أن الإخبارية: "في الفترة التي ستتلو سقوط النظام، سيكون هدفنا إنشاء دولة إسلامية يحكمها القرآن. ويمكن أن تكون لهذه الدولة مؤسسات مدنية، ولكن لا يمكنها أن تكون ديموقراطية" [136] .

في كانون الثاني 2012، وضعت وزارة خارجية الولايات المتحدة جبهة النصرة على قائمة المنظمات الإرهابية بسبب ارتباطها مع تنظيم القاعدة. ولكن المجموعات الثورية الأخرى - بما فيها تلك التي تدعمها الولايات المتحدة - اعترضت بشدة، وقالت إن جبهة النصرة تلعب دوراً عسكرياً هاماً في الحرب ضد النظام. واستمرت الميليشيات المرتبطة مع مجلس القيادة العسكرية العليا في التعاون مع جبهة النصرة في ساحة القتال. ولكن، خلال أقل من سنة بعد ذلك، بدأت انتقادات الثوار لجبهة النصرة تطفو على السطح وتصبح علانية بشكل أكبر. ففي أيار 2013، أصدرت حركة أحرار الشام بياناً نشرته على صفحتها الإلكترونية انتقدت فيه جبهة النصرة متهمة إياها بالطائفية وإضعاف قضية الثورة، وذلك بسبب ارتباطها العلني مع تنظيم القاعدة. كما قال أحرار الشام إن جبهة النصرة تتسرع في حركتها نحو إنشاء دولة إسلامية، وإنها لا تزال تفتقد إلى الشرعية اللازمة للوصول إلى حكم إسلامي. كما قال الخبير بالشؤون السورية آرون لوند إن البيان "مكتوب بلهجة النصيحة الصادقة لحليف قد ارتكب خطأً أضر بالجميع" [137] . وخلال أشهر قليلة، انفصلت حركة أحرار الشام عن

جبهة النصرة كلياً.

ولكن مجموعة الإسلاميين الأكثر تطرفاً على الإطلاق هي **الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش)** التي يترأسها عراقي يدعى "أبو بكر البغدادي". بدأت هذه المجموعة عام 2007 في العراق كجزء من حركة متطرفة ومتشددة عارضت احتلال الولايات المتحدة للعراق من ناحية، ودعت إلى نشوء دولة إسلامية من ناحية أخرى. لكن "تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين" أو دولة العراق الإسلامية كما كان يعرف أيضاً مني بالهزيمة أثناء "الصحوات" العراقية-الأمريكية عامي 2007 و2008؛ إذ كان تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين قد أوغر صدور السنة بسبب قتله وتعذيبه الثوار المعادين للولايات المتحدة الذين لا يتفقون معه. وبعد ذلك، اعتبرت وزارة الخارجية الأمريكية أبا بكر البغدادي "إرهابياً عالمياً"، وفي سنة 2011 ووضعت جائزة 11 مليون دولار مقابل أسره.

بعد انسحاب جيش الولايات المتحدة من العراق عام 2011، أوغرت حكومة المالكي بدورها صدور الكثيرين من السنة عليها بسبب احتكارها للسلطة؛ مما أعاد بعض القوة إلى تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين. وحين تحولت الثورة السورية إلى صراع مسلح سنة 2012، فتح تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين "فروعاً" له في جانبي حدود العراق وسوريا التي يسهل المرور منها، مغيّراً اسمه إلى "الدولة الإسلامية في العراق والشام". حقق تنظيم داعش بعض الانتصارات العسكرية على الجيش السوري، واستخدم المقاتلين والأسلحة التي هربها من العراق للسيطرة على عدة بلدات، كما لعب دوراً هاماً في الاستيلاء على مطار منغ العسكري خارج حلب عام 2013 بعد حصار استمر لتسعة أشهر. نال تنظيم داعش التمويل من مانحين خليجيين أثرياء، ومن رجال الأعمال في الأنبار، وكذلك من الرسوم الحدودية و"الضرائب" التي فرضها على السوريين في المناطق التي سيطر عليها؛ فقد قدم تنظيم داعش الحماية للمسيحيين مثلاً إذا دفعوا الجزية.

وفي نيسان 2013، أعلن أبو بكر البغدادي عن وجود داعش رسمياً، كما زعم أنه قد دمج ما بين جبهة النصرة وداعش. ولو حصل هذا بالفعل لكان أنشأ واحدة من أكبر المجموعات السياسية والعسكرية في سوريا؛ فقد تشارك كل من داعش وجبهة النصرة في دعوتهما إلى قيام دولة إسلامية تشمل البلدان المختلفة في المنطقة، وتعتمد على تفسير متشدد للشريعة الإسلامية، كما اشتهر التنظيمان بمحاربتهما للفساد بخلاف بعض ألوية مجلس القيادة العسكرية العليا. حاول تنظيم داعش الفوز بقلوب

عامة الناس، وذلك بإنشاء مخابز تبيع الخبز بسعر أقل من أسعار السوق السوداء مثلاً. لكن جبهة النصرة انتقدت رغبة تنظيم داعش في الهيمنة على الحركة الثورية بأسرها، أما بالنسبة إلى داعش فقد اعتبر التنظيم نفسه دولة يجب الاعتراف بها، وأنه على طريق تشكيل خلافة إسلامية في سوريا والعراق؛ وليس إحدى المجموعات الثورية الكثيرة. وفي ما يتعلق بجبهة النصرة، فقد لجأت إلى أساليب أكثر تأنياً بعد أن توصلت إلى قناعة؛ وهي أنه عليها أن تبني قاعدة شعبية داعمة لها قبل أن تصل إلى الأهداف نفسها التي يسعى تنظيم داعش إليها. ويعكس إعلان البغدادي عن الدمج المقترح بين تنظيم داعش وجبهة النصرة مقدار صلف وفئوية تنظيم داعش إذ قال: "قد آن الأوان لنعلن أن "الجبهة" ما هي إلا امتداد لدولة العراق" [138] .

ظهرت التباينات بين المجموعتين على الفور حين احتفظت جبهة النصرة باسمها المستقل، وظلت تحارب تحت علمها الخاص. وتبيّن مدى الخلاف حين اصطف أيمن الظواهري بجانب جبهة النصرة منتقداً تنظيم داعش. ومع نهاية السنة، وصلت الأمور إلى صدام مسلح بين النصرة والثوار الآخرين من جهة، وتنظيم داعش من جهة أخرى. وفي شباط 2014، أعلن الظواهري الانقسام بشكل رسمي، إذ تبرأ من أي علاقة مع تنظيم داعش [139] .

اجتذب كل من تنظيم داعش وجبهة النصرة عدداً كبيراً من المقاتلين الأجانب، لكن تنظيم داعش احتفظ بسمعته كتنظيم تأسس حصراً من أجل الأجانب. وبينما كان القياديون والقوات الخاصة في التنظيم أجانب في الغالب، فإن غالبية جنود داعش من السوريين. ورغم ذلك، بدا أن داعش تقاتل الثوار أكثر مما تقاتل قوات الأسد؛ إذ استولى التنظيم على مقر قيادة الجماعات الثورية الأخرى، كما سجن وعذب وقتل بعض القياديين في تلك الجماعات في مدن مختلفة شمال ووسط سوريا وكذلك في حلب.

في هذه الأثناء، زاد تنظيم داعش زخم نشاطه في العراق مستغلاً عدم شعبية رئيس الوزراء نوري المالكي، واستولى على مدينة الفلوجة. وفي حزيران 2014، استولى تنظيم داعش مع حلفائه من السنة على الموصل وعدة نقاط عبور بجانب الحدود الأردنية والسورية. غيّر تنظيم "داعش" اسمه مرة أخرى، وحوّله إلى "الدولة الإسلامية"؛ معلناً قيام خلافة إسلامية تمتد من العراق إلى سوريا. وتابع تنظيم الدولة الإسلامية هجماته على مجموعات الثوار الأخرى في سوريا، مصمماً على مبدأ أن الدولة الإسلامية هي المجموعة الثورية الشرعية الوحيدة. وكان هذا القتال الداخلي بين الثوار

والميل المتزايد إلى أيديولوجيات متطرفة أمرين بالغي الضرر على قضية الثورة. ولكن، لم يكن أي شيء ليؤثر في حركة الثوار بقدر ما فعلته قضية الأسلحة الكيميائية كما سنرى في الفصل التالي.

الفصل السادس
أسلحة كيميائية، ضربات عسكرية، وطريق مسدود

صدمت الأفلام التي ظهرت فيها مئات الجثث المسجاة في الغوطة جنوب شرق دمشق العالم! ففي صباح 21 آب 2013، قتل غاز السارين المئات من الرجال والنساء والأطفال. وقد ذكر الناجون أنهم رأوا صواريخ تضرب الأرض قبل أن تلفظ ضباباً أخضر غريباً، ثم قُتل الضحايا بطريقة فظيعة؛ إذ عانوا من تشنجات وشهيق من يسعى إلى التقاط أنفاسه قبل أن يموتوا. وقد ألقت الأفلام التي أنتجها الثوار باللوم على الجيش السوري النظامي.

عكست ردة فعل العالم مقدار مشاعر السخط والغضب التي أثارتها تلك الصور. ودانت إدارة أوباما بشدة نظام الأسد، وتجهزت لتوجيه ضربة ثأرية إلى سوريا خلال الأسابيع التالية؛ فقد تجاوز النظام السوري "الخط الأحمر" الذي رسمته إدارة أوباما بالنسبة إلى استخدام أسلحة الدمار الشامل. وأمل الثوار بأن تتسبب الغارات الجوية الأمريكية في تدمير سلاح الجو الخاص بالأسد مما سيؤدي إلى انتصار المعارضة [140] .

ولكن، لم يتقبل الجميع مزاعم إدارة أوباما. فقد اعترض النظام السوري وقال إن الثوار وليس الحكومة السورية هم الذين أطلقوا الأسلحة الكيميائية بغرض تحريض الولايات المتحدة على توجيه ضربة إلى دمشق. وفي نهاية الأمر، أصدر مفتشو الأسلحة العاملون مع الأمم المتحدة تقريرين عن استخدام الأسلحة الكيميائية، وألقى المراسلون الاستقصائيون ظلال الشك على بعض مزاعم إدارة أوباما، ولم يزد مرور الوقت الجدل إلا عمقاً.

بقي السؤال الأساسي هو: من استخدم الأسلحة الكيميائية؟ ولماذا استخدمها؟ فلننظر أولاً إلى الرواية الرسمية التي اعتمدتها حكومة الولايات المتحدة.

في 30 آب أصدر البيت الأبيض "تقييماً حكومياً" عن هجوم الغوطة ورد فيه أن غاز السارين قتل 1429 ضحية منهم 426 طفلاً. كما صرّح البيت الأبيض أن هذه لم تكن المرة الأولى التي استخدم فيها الجيش السوري الأسلحة الكيميائية: "بني هذا التقييم على مصادر مختلفة للمعلومات، بما في ذلك تقارير عن تخطيط مسؤولي النظام السوري لضربات

بالأسلحة الكيميائية وتنفيذهم لها، وتحاليل مختبرية لعينات فسيولوجية تم الحصول عليها من عدد من الأشخاص تظهر تعرضهم لمادة السارين" [141] .

تابع هذا البيان قائلاً: "يفيد تقييمنا أن المعارضة لم تستخدم أسلحة كيميائية. ويفيد تقييمنا أيضاً أن الإحباط الذي أصاب النظام نتيجة عجزه عن استعادة أجزاء كبيرة من دمشق ساهم في قراره باستخدام الأسلحة الكيميائية في 21 آب".

وكجزء من جهد منسق لاكتساب الرأي العام، أجرى وزير الخارجية الأمريكي جون كيري سلسلة من المؤتمرات الصحفية والمحادثات العلنية التي لم يترك فيها أي شك في أن استخبارات الولايات المتحدة قد اكتشفت الطرف المسؤول عن الهجوم بغاز السارين. ومما قاله الوزير كيري: "نحن نعلم من أين أطلقت الصواريخ وفي أي وقت. ونحن نعلم أين ومتى سقطت. كما أننا نعلم أن الصواريخ جاءت فقط من المناطق التي يسيطر عليها النظام، وذهبت فقط إلى مناطق تسيطر عليها المعارضة أو مناطق لم يحسم أمر السيطرة عليها بعد" [142] .

بدا وكأن موقف الولايات المتحدة يزداد قوة حين أشارت منظمة "هيومان رايتس ووتش" المعنية بحقوق الإنسان وصحيفة "نيويورك تايمز" إلى أنهما أجرتا تحاليل مستقلة لحساب مسار الصواريخ التي سقطت على منطقة الغوطة. وكتب الصحافيان ريك غلادستون وسي. جاي. تشيفرز في "نيويورك تايمز": "حين حدد محللون من هيومان رايتش ووتش ونيويورك تايمز بشكل مستقل النقاط والإشارات من البيانات التي قدمتها الأمم المتحدة عن موقعين منفصلين لتساقط الصواريخ على الخرائط، فقد أشار مصدرها بشكل مباشر إلى مجمع عسكري سوري" [143] .

في اليوم التالي، أجرت نيويورك تايمز تحاليل مفصلة بشكل أكبر أظهرت أن الصواريخ قد أطلقت من مجمع عسكري يُحكم نظام الأسد سيطرته عليه ويبعد حوالى تسعة كيلومترات من مواقع الغوطة. وكتب تشيفرز أن الصواريخ أطلقت من جبل قاسيون الذي وصفه بأنه: "أبرز موقع عسكري في دمشق... كما أنه مجمع مرتبط بشكل لا ينفصم عن حكم عائلة الأسد". حمّل هذا المقال قوات النخبة التابعة للنظام المسؤولية عن الهجوم، واستثنى إمكانية أن يكون ضابط منشق أو جاسوس للثوار من قام به [144] .

خلال أسابيع، بدأت رواية الحكومة الأمريكية للأحداث تفقد تماسكها. فأولاً، هناك عدد الضحايا المدنيين الذي أوضح البيت الأبيض أنه بلغ 1429

قتيلاً؛ وهو عدد دقيق بشكل مثير للريبة في ما يتعلق بتقدير عدد ضحايا أسلحة القتل الجماعي، كما أنه أكبر بثلاث مرات تقريباً من أكبر الأعداد التي قدرتها المصادر الموثوقة. فمنظمة "أطباء بلا حدود" مثلاً كانت لديها طواقم طبية على الأرض في الغوطة وقدرت عدد الضحايا بحوالى 355 قتيلاً [145] ، أما المخابرات البريطانية فقدرت العدد بحوالى 350 قتيلاً، وحتى إن المرصد السوري لحقوق الإنسان - وهو من أنصار المعارضة - لم تزد تقديراته على 502 ضحية [146] . لم يتفق أحد مع تقديرات الولايات المتحدة إلا الائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة السورية المدعوم من القوى الغربية. ولكن، حين ألحت وكالة أسوشييتد برس الإخبارية على الائتلاف لتقديم لائحة بأسماء الضحايا لم يتمكن إلا من تقديم 395 اسماً . [147]

قال آكي سيلستروم - رئيس فريق الأمم المتحدة للتحقيق في الأسلحة الكيميائية في سوريا - إن الثوار بالغوا في تقدير أعداد القتلى والجرحى الذين وصلوا إلى مستشفيات الغوطة بشكل كبير: "لقد رأينا قدرات تلك المستشفيات، ومن المستحيل أن تكون قد استقبلت أعداد الضحايا التي تزعم أنها استقبلتهم" [148] . وظهر سبب التعارض في هذه الحقائق حين كشفت جريدة "وول ستريت جورنال" عن أن أجهزة الاستخبارات الأمريكية استخدمت برامج حاسوبية تتعرف على الوجوه لمسح أجهزة الفيديو التي أرسلها الثوار لتقدير أعداد الضحايا [149] ، ولم تقم بأي تحقيق في مكان الحدث وزمانه.

ثانياً: واقع أن بيان البيت الأبيض كان "تقييماً حكومياً" وليس "تقييماً استخباراتياً" أو "تقدير استخبارات وطنياً" (Estimate Intelligence National (NIE)). هناك فرق كبير بين هذه الأنواع من الوثائق؛ فتقدير الاستخبارات الوطني مثلاً يحتوي على الآراء المتعارضة. وبحسب بعض التقارير الاستقصائية، لقد كان هناك تعارض بالفعل في ما روي عن هذه الحادثة. اعتقد بعض ضباط الاستخبارات أن التقرير كان جهداً من إدارة أوباما لحفظ ماء وجهها بعد أن فشلت في اتخاذ أي خطوات عملية قبل هذه المجزرة. كما أخبر ضابط استخباراتي سابق المراسل الاستقصائي الشهير والمخضرم في مجلة "النيويوركر"سيمور هيرش أن إدارة أوباما غيّرت التقارير الاستخباراتية؛ حيث تبدو وكأنها قد جمعت وقت وقوع الأحداث مع أنها في الواقع لم تجمع إلا بعد الأحداث بأيام. ونقل هيرش عن ضابط الاستخبارات ما يلي في مجلة "لندن ريفيو أوف بوكس":

قال [الضابط]: ذكرني هذا التشويه بحادثة خليج تونكين عام 1964؛ حين عكست إدارة جونسون تسلسل الأحداث الذي تلقته من وكالة الأمن القومي لتبرر واحدة من أول عمليات قصف فييتنام الشمالية. وقال المسؤول نفسه إن هناك إحساساً شديداً بالإحباط لدى الأجهزة العسكرية والاستخباراتية: "يلوّح هؤلاء الشباب بأيديهم في الهواء وهم يقولون: كيف يمكننا أن نساعد هذا الرجل - يعني أوباما - بينما يخترع هو وأصدقاؤه في البيت الأبيض المعلومات الاستخباراتية بحسب متطلبات الساعة؟" [150] .

ثالثاً: ثارت أسئلة هامة عن بيانات البيت الأبيض ووزير الخارجية كيري القائلة إن صواريخ غاز السارين قد أطلقت من قلب المناطق التي يحكم الأسد السيطرة عليها في دمشق. وقد افترضت التحاليل التي قامت بها جريدة "نيويورك تايمز" ومنظمة هيومان رايتس ووتش أن الصواريخ أطلقت من على بعد أكثر من تسعة كيلومترات، ولكن تقريراً نشره خبيرا صواريخ أثبت أن هذا ليس صحيحاً. اشترك في وضع هذا التقرير كل من ريتشارد لويد - وهو مفتش أسلحة سابق في الأمم المتحدة، ويعمل حالياً في مختبرات تيسلا في آرلنغتون، فرجينيا - وثيودور أ. بوستول، وهو بروفيسور العلوم والتكنولوجيا وسياسات الأمن القومي في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا في بوسطن. حلل لويد وبوستول البيانات التي قدمها مفتشو الأمم المتحدة في ما يتعلق بالصواريخ المحملة بالسارين، وتوصلا إلى نتيجة مفادها أن مدى تلك الصواريخ لن يتجاوز الكيلومترين، واتفق معهما آكي سيلستروم كبير مفتشي الأسلحة الكيميائية لدى الأمم المتحدة قائلاً إن مدى كيلومترين "تخمين معقول" [151] ، وأشار في وقت لاحق إلى أن الصواريخ ربما تكون قد أطلقت من بعد لا يتجاوز الكيلومتر الواحد [152] .

ركب لويد وبوستول مدى الكيلومترين للصواريخ على خرائط البيت الأبيض، وأفاد تقريرهما: "يستحيل إطلاق هذه الذخائر على الغوطة الشرقية من "قلب" أو حتى من الحافة الشرقية للمنطقة التي تسيطر عليها قوات الحكومة السورية كما تظهرها الخرائط الاستخباراتية التي نشرها البيت الأبيض في 30 آب 2013" [153] .

أبدى التقرير ملاحظته بأنه كان من الممكن لأي من الطرفين - الحكومة أو الثوار - بناء تلك "الصواريخ المدفعية المرتجلة": "يمكن أن يصنع تلك الذخيرة الكيميائية المحلية أي شخص لديه القدرة على الوصول إلى متجر آلات ذي قدرات متواضعة. ونعني بقولنا هذا أن الزعم بأن

الحكومة السورية هي الوحيدة القادرة على صناعة هذه الذخيرة غير صحيح". كتبت جريدة "نيويورك تايمز" عن التقرير، ولاحظت المدى الأقصر بكثير، ولكنها لم تتراجع قط عن تقاريرها الخاطئة بأن الصواريخ لا بد أن تكون قد أطلقت من المجمع العسكري في جبل قاسيون [154] .

في هذه الأثناء، كان المراسلون الاستقصائيون يتتبعون أصول الغراد ؛ أي الصواريخ التي استخدمت في الهجمات الكيميائية. واكتشف روبرت فيسك - مراسل الشرق الأوسط المخضرم العامل لدى جريدة الإندبندنت اللندنية - أن صواريخ الغراد قد صنعت في الاتحاد السوفييتي عام 1967. وقال فيسك إنه وبحسب المصادر الروسية، قام السوفييت ببيع هذه الدفعة من الصواريخ لليمن ومصر وليبيا ولكن ليس لسوريا؛ لكن الروس لم يقدموا أي وثائق تدعم هذه المعلومات [155] . ساندت الجماعات الإسلامية الليبية المتشددة المجموعات السورية المرتبطة مع القاعدة بنشاط، إذاً من الممكن أن تكون جبهة النصرة أو داعش قد تلقت الصواريخ والأسلحة الكيميائية من ليبيا.

لكن، لا يعني إيجاد الثغرات في رواية الحكومة الأمريكية تلقائياً أن الثوار مسؤولون عن الضربات. فكما قال إليوت هيغنـز - وهو خبير أسلحة بريطاني علم نفسه بنفسه، ويكتب في مدونة "بروان موزيس" - إن مجموعة مثل جبهة النصرة لا تملك القدرات لارتكاب مجزرة الغوطة. إذ إن إنتاج أكثر من خمسين غالوناً من سائل السارين وتحميلها على الصواريخ عملية هائلة تتطلب مركبات طليعية كيميائية متخصصة، وتنتج جرياناً سطحياً لمادة حمضية سامة، وكتب هيغنـز: "أين المصنع؟ أين جريان النفايات الكيميائية؟ أين العشرات من المتخصصين المهرة - وليس مجرد عضو واحد في تنظيم القاعدة - الذين يحتاج إليهم إنتاج هذه الكميات من المادة؟" [156]

هل كانت لدى الثوار القدرة العسكرية والإرادة السياسية لارتكاب جريمة حرب هائلة ضد مناصريهم؟ حتى نكتشف حقيقة هذا الأمر علينا أن نبحث في مادة السارين نفسها أولاً.

السارين غاز أعصاب طورته ألمانيا عام 1938 كمبيد حشري في بادئ الأمر. لكن النازيين سرعان ما اكتشفوا أنه قد يكون سلاحاً كيميائياً فعالاً أيضاً، فسواء أكان السارين في حالته السائلة أم الغازية فقد يسبب الموت لدى اتصاله بالبشر. وبحسب وكالة مراكز مكافحة الأمراض واتقائها السارين"سائل شفاف لا لون له ولا طعم ولا رائحة في شكله النقي"،

ولكنّه إذا مزج في ظروف ساحات المعارك التي تستخدم فيها المركبات الطليعية الكيميائية [157] فبإمكانه أن يصبح ذا رائحة ولون. وتستمر "وكالة مراكز مكافحة الأمراض واتقائها" في شرحها: "لأن السارين يتبخر بسرعة فهو يمثل خطراً مباشراً ولكنه قصير الأمد" [158] .

استخدم العراق السارين كسلاح كيميائي أثناء الحرب العراقية-الإيرانية (1980-1988)، كما استخدمته جماعة دينية يابانية متطرفة في هجمات مترو طوكيو (1994-1995) [159] . السارين مادة سريعة التفاعل، وبالتالي لا يمكن تخزينها لفترة طويلة لأنها قادرة على إتلاف حاويات التخزين والرؤوس الحربية؛ ولذلك يتم تخزين المركبات الطليعية الكيميائية لمادة السارين منفصلة عن بعضها بعضاً قبل الاستخدام، حيث يمكن مزجها في المختبرات على أيدي تقنيين مدربين. أما مزجها في ظروف ساحات المعارك فهو أمر خطر للغاية بالنسبة إلى التقنيين ولكل شخص حولهم [160] . وقد أقرّ الجيش السوري بامتلاكه مركبات السارين الطليعية بكميات كبيرة، وقد تكون بعض الجماعات المتطرفة من بين الثوار تمتلك بعضاً منها أيضاً.

أمضيت بعض الوقت في دمشق وأنا أقابل مسؤولين من النظام السوري وخبراء حول قضية الأسلحة الكيميائية. وقد قدمت الحكومة السورية رواية عن الأحداث مختلفة تماماً عن تلك التي قدمتها الولايات المتحدة. وكما أخبرني الدكتور بسام بركات - وهو طبيب ومستشار سياسي موالٍ للحكومة - لقد استخدم الثوار مادة السارين ضد حي موالٍ للحكومة في قرية خان العسل القريبة من حلب في 19 آذار 2013، وأشار الدكتور بركات إلى أنه تم إرسال عينات من الدم وأدلة مادية أخرى إلى روسيا لتحليلها. وكتب المسؤولون الروس تقريراً وصل حجمه إلى مئة صفحة يشير إلى استخدام الثوار لغاز السارين، ورُفع هذا التقرير إلى الأمم المتحدة، ولكن لم يقم أي من الطرفين بالإعلان عنه. وبحسب ما قاله الدكتور بركات، لقد أكد الروس أن السارين جاء في الأصل من مخزون الديكتاتور الليبي معمر القذافي الذي حصل بدوره على السارين من الاتحاد السوفييتي. وقد شحن المتطرفون في ليبيا مركبات السارين الطليعية إلى تركيا، حيث تم تهريبها عبر الحدود إلى سوريا [161] . كان مسؤولو نظام الأسد واثقين أنه بإمكانهم إثبات أن الثوار استخدموا الغازات السامة؛ لدرجة أنهم سمحوا لخبراء الأمم المتحدة بالتحقيق في مواقع الأحداث، ولكن ليس قبل مرور بضعة أشهر من التأخير.

أثبت التقرير النهائي الذي أصدرته الأمم المتحدة عن استخدام الأسلحة

الكيميائية صحة عدد من النقاط في رواية الحكومة السورية؛ إذ كان الثوار يقصفون خان العسل بالمدفعية قبل الهجمات بالأسلحة الكيميائية. وقرابة الساعة السابعة صباحاً، ضربت الذخائر منطقة تبعد نحو 300 متر عن حاجز تابع للحكومة، وكما أشار تقرير الأمم المتحدة: "أصبح الهواء ساكناً، ووصف شهود العيان ضباباً لونه بين الأصفر والأخضر، ورائحة قوية ونفاذة مشابهة لرائحة الكبريت... وقال شهود العيان إن الناس بدأوا بحك وجوههم وأجسامهم، ولاحظوا أن هناك أناساً يستلقون على أراضي الشوارع؛ بعضهم فاقدون وعيهم، بينما عانى البعض الآخر من التشنجات وخرج الزبد من أفواههم" [162] .

استنتج خبراء الأمم المتحدة أن خان العسل لا بد أن يكون قد تعرض للهجوم بغاز السارين. ولم يتمكن فريق التفتيش التابع للأمم المتحدة من زيارة البلدة نظراً إلى الإشكالات الأمنية، لكنه تمكّن من مقابلة الشهود العيان، وأخذ عيّنات طبية من أهالي البلدة الذين جاءوا إلى دمشق. وأشار تقرير حكومي سوري إلى أن عدد ضحايا هجوم السارين ذاك قد بلغ عشرين قتيلاً و124 جريحاً. وأبدى تقرير الأمم المتحدة ملاحظةً أخرى مفادها أن بعض الشهود قالوا إن مصدر الغاز كان طائرة مروحية (هليكوبتر)، بينما قال آخرون إن المصدر كان انفجار قذائف. ولم يشر تقرير الأمم المتحدة إلى الطرف المسؤول عن ذلك الهجوم الكيميائي.

وقال سيرغي باستانوف؛ وهو سفير روسي سابق ومدير المشاريع الخاصة في منظمة حظر الأسلحة الكيميائية في جنيف إن إطلاق السلاح من الطائرة الطوافة غير مرجح الحدوث؛ إذ إنه سيتطلب من الجيش السوري أن يركب خزانات رش خاصة، ويُلبس الطيارين ثياب حماية كما أخبرني: "أشك بقوة في أن تكون الضربة قد تمت بالطائرة الطوافة، إن هذا أمر غير منطقي" [163] .

هذه هي الحقائق، والآن إلى تفسيرها. بحسب خبرتي الشخصية، إن الشيء غير منطقي على المستوى السياسي غير منطقي على المستوى العسكري. وفي هذه الحالة، لماذا سيهاجم النظام السوري قرية موالية له؟ إذا كان المطلوب هو تدمير مصداقية الثوار، فلماذا ستقتل الحكومة السورية هذا العدد الكبير من جنودها ومدنييها؟ ومن ناحية أخرى، لدى الثوار - وخاصة المتطرفين منهم، أمثال جبهة النصرة وداعش - الكثير ليكسبوه من استخدام السلاح الكيميائي؛ فسوف يقتلون العدو الذي يشمل في هذه الحالة مدنيين موالين لنظام الأسد، وسيدمرون سمعة الأسد وذلك بلومه على

الهجوم.

وقد أقرت مسؤولة هامة في الأمم المتحدة أن الحكومة السورية غير مسؤولة عن مجزرة خان العسل، وأخبرت كارلا ديل بونتي مراسل التلفزيون السويسري الذي قابلها مشيرة إلى خان العسل: "كانت هذه عملية قامت بها المعارضة وليس السلطات الحكومية" [164] . كانت ديل بونتي واحدة من أعضاء لجنة التحقيق الدولية المستقلة بشأن الجمهورية العربية السورية، كما كانت مدعية عامة سابقة في قضايا جرائم الحرب في المحكمة الجنائية الدولية ليوغوسلافيا السابقة. وبعد بيانها الأول هذا، توقفت هي وغيرها من أعضاء الهيئة عن التعليق على الأحداث.

بعد ذلك، في آخر شهر أيار ذكرت صحيفة تركية أنه قد تم اعتقال أعضاء في جبهة النصرة يحملون كيلوغرامين من مادة السارين يُشَك في كونهم يخططون لاستخدامها في الهجوم على قاعدة الولايات المتحدة الجوية في أضنة، تركيا [165] . لكن، في الوقت الذي وصلت فيه القضية إلى المحكمة، لم ترفع الحكومة التركية دعوى على أولئك الرجال بتهمة امتلاك مادة السارين، ولا تذكر السجلات العامة أي شيء عن سبب امتناع الادعاء العام التركي عن ملاحقة موضوع الأسلحة الكيميائية.

في حادثة منفصلة، اعتقلت السلطات العراقية خمسة أشخاص قالت إنهم ينتمون إلى تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين بتهمة إنشاء مختبرين لصناعة مادتي السارين وغاز الخردل. وعرضت الشرطة أدوات المختبر والأسلحة أثناء مؤتمر صحفي عقدته للإشارة إلى الحادثة [166] . وكان لتنظيم القاعدة في بلاد الرافدين أو دولة العراق الإسلامية علاقات وثيقة مع جبهة النصرة في ذلك الوقت، بالإضافة إلى كونه يقوم بنشاطاته الخاصة داخل سوريا.

من المرجّح أن تكون الاستخبارات الأمريكية على علم بقدرات الأسلحة الكيميائية لدى النصرة/دولة العراق الإسلامية، فقد كتب ف. مايكل معلوف أنه أُعطِي وثيقة سرية من مركز الاستخبارات الأرضية الوطنية (NGIC) التابع للجيش: "تفيد هذه الوثيقة إن السارين الموجود لدى تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين قد وجد طريقه إلى داخل تركيا. ورغم أنه قد تم ضبط بعضه، إلا أنه من الممكن أن يكون المزيد منه قد استخدم في هجوم آذار الماضي على المدنيين وجنود الجيش السوري في حلب [خان العسل]" [167] . معلوف محلل سياسات أمنية سابق في مكتب وزير الدفاع الأمريكي، وكاتب للموقع اليميني وورلد نت ديلي (WorldNetDaily) وهو شخصية مثيرة

للجدل؛ إذ ارتبط مع المحافظين الجدد في ولايتي الرئيس بوش الابن، حيث جُرِّد من تصريحه الأمني [168] . لكن جهات اتصاله من اليمينيين قد تكون من أمن وصول هذه المعلومات إليه.

قال معلوف إن تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين قد تمكن من صنع كمية صغيرة من السارين، كما كتب: "اكتشفت قوى الأمن التركية أسطوانة تحتوي على كيلوغرامين من غاز السارين بينما كانت تفتش بيوت مقاتلين من جبهة النصرة مرتبطين مع تنظيم القاعدة بعد إلقاء القبض عليهم" [169] . كما ذكر سيمور هيرش أن وكالات الاستخبارات الأمريكية على علم بوجود أسلحة كيميائية لدى الثوار [170] .

ومع حلول أيار 2013، كانت وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) قد أبلغت إدارة الرئيس أوباما عن النصرة وأعمالها المتعلقة بمادة السارين، وأرسلت تقارير مقلقة عن جماعة أصولية سنية أخرى فاعلة على الأرض في سوريا؛ وهي تنظيم القاعدة في بلاد الرافدين، وقالت إن لديها المعرفة العلمية اللازمة لإنتاج السارين. في ذلك الوقت، كانت جبهة النصرة تعمل في المناطق القريبة من دمشق، بما في ذلك الغوطة الشرقية. وتناولت وثيقة استخباراتية أخرى وبالتفصيل زياد طارق أحمد؛ وهو خبير أسلحة كيميائية سابق كان يعمل لدى الجيش العراقي، ويقال إنه انتقل إلى سوريا حيث عمل في الغوطة الشرقية. قال المستشار (مصدر هيرش مجهول الاسم) لي إنه قد تم التعرف على زياد طارق أحمد على أنه "رجل جبهة النصرة الذي يمتلك سجلاً حافلاً بصنع غاز الخردل في العراق، وأنه ممن تورطوا بصنع مادة السارين واستخدامها". يعتبر زياد طارق أحمد من الناس المهمين الذين المطلوبين من الجيش الأمريكي [171] .

يعتقد خبير الأسلحة إليوت هيغنـز أن الجيش السوري هو المسؤول عن هجوم الغوطة، ولكنه لا ينكر أنه من الممكن أن يكون الثوار قد استخدموا كميات محدودة من السارين في خان العسل، وكتب هيغنـز: "يمكن أن تكون المعارضة قد حصلت على كمية محدودة من السارين. وقد صرح النظام مؤخراً أنه فقد كمية من السارين في مطار حلب... هجوم خان العسل مختلف عن باقي الهجمات، ويمكننا أن نستخلص أن المعارضة مسؤولة عنه". أنهى هيغنـز مقاله بتحذير: "إذا كانت المعارضة مسؤولة عن هجوم خان العسل، فعلينا جميعاً أن نأخذ حذرنا؛ فإذا كانت المعارضة تمتلك مادة السارين فهذا يعني أن تنظيمي القاعدة وداعش يمتلكانه أيضاً؛ وهذا سيكون تهديداً عالمياً علينا جميعاً أن نواجهه" [172] .

إذاً، يبدو أن الثوار المرتبطين مع تنظيم القاعدة يمتلكون الخبرة والقدرة على القيام بهجمات صغيرة الحجم باستخدام الأسلحة الكيميائية. ومن الممكن جداً أن يكونوا قد استخدموا هذه المادة بالفعل ضد الجيش النظامي السوري ومؤيديه في خان العسل. ويتهم مناصرو النظام السوري الثوار بالقيام بهجوم آخر بالأسلحة الكيميائية يكاد يكون مجهولاً حصل في أيار 2013. وقد وصف الدكتور بسام بركات هجوماً بالسارين على حاجز للجيش قرب مركز الدراسات والبحوث العلمية (المعروف أكثر باسم مركز بحوث جمرايا) في دمشق، وقال الدكتور بركات إن قذيفة هاون ممتلئة بالسارين قد أصابت العشرات من الجنود السوريين، حيث قتل عشرون منهم وجرح ما يقارب المئة [173] .

أكد وزير العدل السوري نجم الأحمد حصول الهجوم، وكما أخبرني: "مات الجنود نتيجة الاختناق" [174] . واحتج الوزير الأحمد والدكتور بركات قائلين إنه من المستحيل على الجيش السوري أن يستخدم الغازات الكيميائية ضد جنوده، ولذلك لا بد أن يكون الثوار هم المسؤولين. لم يحتلّ خبر وقوع هذا الحدث إلا حيزاً قصيراً في أخبار التلفزيون السوري، ولم يذكره أحد مرة أخرى. وقد سألت كلا الرجلين عن سبب عدم سعي الحكومة السورية إلى نشر خبر هجوم مريع كهذا على نطاق أوسع؛ وخصوصاً أن هجوماً بهذا الحجم ضد الجنود السوريين سيوجّه أصابع الاتهام إلى الثوار مباشرة. وبحسب ما علمته، لم تبلغ الأمم المتحدة عن هذا الهجوم قط، وبكل تأكيد لم تشمله تقارير مفتشي الأسلحة الكيميائية.

انتابني الفضول في ما يتعلق بتفصيل واحد، فقد وجد الجنود قتلى وجرحى في حاجز قريب من مركز بحوث جمرايا؛ وهو واحد من المختبرات السورية المتطورة التي تستخدم لصنع مادة السارين والأسلحة الكيميائية الأخرى. هل يمكن أن يكون قد وقع حادث في المركز وأدى إلى وقوع أولئك الضحايا؟ بالطبع، أنكرت السلطات السورية هذا الاحتمال.

أُبلِغَت الأمم المتحدة عن واقعة أخرى نجمت عن استخدام غاز السارين في جوبر - في ضواحي دمشق - في 24 آب 2013؛ أي بعد ثلاثة أيام من وقوع هجوم الغوطة. وبما أن مفتشي الأمم المتحدة كانوا متواجدين في دمشق بالفعل في ذلك الوقت، فقد تمكنوا من إجراء تحقيق مباشر في تلك الواقعة. وبحسب التقرير النهائي الذي أصدرته الأمم المتحدة، كان عشرة جنود يمشطون المنطقة حين انفجرت فيهم عبوة ناسفة "مطلقة كمية من غاز ذي رائحة سيئة للغاية". أخذت الأمم المتحدة عينات دم،

وأظهرت فحوصات أحد الجنود أن دمه يحتوي على مادة السارين.

وثّقت الأمم المتحدة ما مجموعه سبع هجمات مزعومة بالأسلحة الكيميائية شملت مناطق يسيطر عليها الثوار، كما شملت مناطق يسيطر عليها النظام. وفي إحدى الهجمات، تم نقل امرأة في الثانية والخمسين من عمرها وتعيش في منطقة يسيطر عليها الثوار إلى تركيا لتلقي العلاج، ولكنها ماتت هناك. أجرى أطباء أتراك مع آخرين تابعين للأمم المتحدة تشريحاً للجثة، ووجدوا أنها تعرضت لمادة السارين. فما الذي يعنيه هذا السجل المختلط من "المسؤوليات المرجحة" للهجوم الضخم الذي جرى في الغوطة؟

كان ضحايا هجوم الغوطة يقطنون في بلدات جنوب شرق دمشق التي يسيطر عليها الثوار، وتمت معالجة جميع الضحايا تقريباً في مرافق صحية يسيطر عليها الثوار وليس في المستشفيات الحكومية. تمكن مفتشو الأمم المتحدة من إجراء اختباراتهم على منطقة الغوطة في زمن معقول؛ فجمعوا عينات من التربة الملوثة، وعينات طبية مختلفة من الضحايا، ووجدوا بعض القذائف التي استخدمت في الهجمات. استنتجت الأمم المتحدة بما لا يقبل مجالاً للشك أن الضحايا قد تعرضوا لمادة السارين. أما الصواريخ - وهي نسخة معدلة من صواريخ غراد السوفييتية القديمة - فقد تم إطلاقها بشكل مستقل، في حين أن القذائف الأخرى لديها زعانف خلفية، وقد أطلقت من المدفعية وليس لديها نظام توجيه مستقل.

وجد مفتشو الأمم المتحدة خمس قذائف تحمل غاز السارين، وهي التي ضربت منطقة الغوطة؛ إذ وجدوا صاروخي غراد، وثلاثة صواريخ أطلقتها المدفعية. وباستطاعة كل صاروخ غراد أن يحمل 13 غالوناً من السارين، كما أن كل صاروخ أطلقته المدفعية بإمكانه أن يحمل 11-16 غالوناً [175] . إذا كانت هذه الأرقام صحيحة، وإذا تمت تعبئة هذه القذائف كلها لأقصى طاقتها، فإن هذا يعني أن من أطلق الصواريخ إما نقل 57-70 غالوناً من السارين من مختبرات متطورة، أو مزجها وحملها على الصواريخ في ظروف ساحات المعارك؛ وليس أي من هذين الأمرين سهلاً. وقد قال لي خبير الأسلحة الكيميائية المستقر في لندن دان كاسزيتا إن حمولة كهذه من السارين تتطلب كميات ضخمة من "المركبات الطليعية الكيميائية، وتترك وراءها جرياناً كبيراً من النفايات الكيميائية" [176] . إذاً، يبدو أن الطرف الذي ارتكب هذا الهجوم جيش نظامي يمتلك مرافق مناسبة وتقنيين مدربين. ولكن، إذا كان مفتش الأمم المتحدة سيلستروم والبروفيسوران من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا ومختبرات تيسلا على حق

في ما يتعلق بمسار الصواريخ، إذاً لقد تمّ إطلاق الصواريخ من مناطق يسيطر عليها الثوار أو مناطق قريبة منها جداً.

يبقى السؤال السياسي قائماً: لماذا يرتكب الأسد عملاً غبياً مثل البدء بهجوم كبير بالأسلحة الكيميائية بعد وصول مفتشي الأمم المتحدة إلى دمشق؟ قد يقول البعض عن نظام الأسد إنه شرير، ولكن لا يختلف اثنان في أنه ليس غبياً. وقد قال لي وزير العدل نجم الأحمد: "حين كان الجيش السوري يتقدم في منطقة الغوطة، أراد الإرهابيون لفت انتباه العالم إلى قضية أخرى، فاستخدموا الأسلحة الكيميائية ثانية" [177] .

وزعم المستشار الموالي للحكومة السورية الدكتور بسام بركات أن الصواريخ المليئة بالسارين شحنت من ليبيا، وأن الثوار تلقوا تدريبهم في استخدامها على أيدي وحدات أمريكية وبريطانية خاصة. ولم يتمكن بركات من تفسير كيفية تمكن الثوار من تحضير تلك الكمية الكبيرة من المركبات الطليعية للسارين من أجل المعركة، وصارت قصته بعد ذلك أكثر غرابة؛ إذ قال إن الثوار اختطفوا مئات الأطفال من مدينة اللاذقية الموالية للحكومة وجلبوهم إلى الغوطة، وبعد ذلك عرّضوهم للغاز المميت كجزء من حملة تضليل هائلة، وإن أولئك هم الأطفال الذين ظهروا في الصور [178] .

قدم جوشوا لانديس مدير مركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة أوكلاهوما تفسيراً ممكناً للسبب الذي قد يدفع الجيش السوري إلى استخدام أسلحة الدمار الشامل، فقال لي إن النظام يحارب في ضواحي دمشق في معركة يائسة ضد ثوار يملكون تأييداً شعبياً كبيراً بين الأهالي السنة في تلك الضواحي، ولم تكن لدى جيش الأسد القوات الكافية لاسترجاع سائر تلك البلدات، فاستخدم السارين: "تشبه هذه الحالة ما حصل في اليابان عام 1945 عندما لم يكفِ عدد القوات البحرية الأمريكية (المارينـز) الذين تم إرسالهم إلى اليابان. لكن الولايات المتحدة استخدمت في ذلك الحين الأسلحة النووية بدلاً من الأسلحة الكيميائية".

وأضاف لانديس الملاحظة التالية: "لا تبني سوريا عملياتها العسكرية على تواجد مفتشي الأسلحة. إذ طالما أن الولايات المتحدة لا تقوم بغزو سوريا، فبإمكان نظام الأسد أن يفعل ما يحلو له". وكانت أجهزة الاستخبارات الألمانية قد اعترضت اتصالاً لاسلكياً أشار إلى أن الجيش ظل يطلب من الأسد السماح له باستخدام الأسلحة الكيميائية لعدة أشهر. وقال لانديس إن سبب استخدام السارين قد يكون "لتخويف الناس؛ كما لو أنهم يقولون لهم: سنحرقكم . كان قادة الجيش يريدون الوصول إلى ذلك" [179]

.

زادت الاتصالات التي اعترضها الألمان التوقعات في أوروبا عن كون الجيش السوري قد استخدم السارين من دون علم الرئيس الأسد. وقالت صحيفة ألمانية إن قادة السرايا والفرق العسكرية ظلت تطلب الإذن باستخدام الأسلحة الكيميائية لأربعة أشهر ونصف الشهر قبل حادثة الغوطة [180] ، لكن لم تؤكد أي مصادر أخرى هذه النظرية.

وقدّم المراسل الاستقصائي غاريث بورتر تفسيراً آخر، إذ قال إن كمية السارين المستخدمة في حادثة الغوطة ربما تكون أقل بكثير مما ظن الجميع؛ فقد يكون الثوار قد خففوا السارين بالماء، وفي هذه الحالة لن يكون عليهم تصنيع أكثر من 15 غالوناً من المادة. فقد ظهرت على بعض الضحايا عوارض لا تتوافق مع التسمم الناتج عن السارين، بل تتوافق أكثر مع ما قد يتسبب به الغاز المسيل للدموع أو القنابل الدخانية. وحسب نظرية بورتر، لن يكون على الثوار المتطرفين نقل عشرات الغالونات من ماة السارين من تركيا إلى الغوطة. وكما كتب: "تشير المعلومات الجديدة إلى حصول هجمات أقل فتكاً باستخدام ذخائر أقل فعالية، وربما حتى كميات من السارين أقل بكثير مما كان يفترض من قبل" [181] .

إذاً، ما النتائج التي نتوصل إليها؟ قد يكون كلا الجانبين قد استخدما مادة السارين؛ فقد كذب كل من الطرفين وتلاعبا بالأدلة. وأقل ما يمكن أن يقال هو أن إدارة الرئيس أوباما بالغت في توظيف ذرائعها لتبرير هجوم عسكري على سوريا. أما أسوأ ما يمكن أن يقال فهو أن البيت الأبيض قد زوّر المعلومات الاستخباراتية. وفي نهاية المطاف، لم يقدّم أحد حتى الساعة دليلاً حاسماً أو حتى مقنعاً عن الطرف الذي ارتكب الجريمة المروعة في الغوطة. لكن ما يظل واضحاً هو أن مجزرة الغوطة قد غيّرت السياسة الأمريكية تجاه سوريا، ولكن ليس بالطريقة التي أرادها الرئيس أوباما.

مع بداية أيلول 2013، كانت الولايات المتحدة تتحضر لشن حرب على سوريا مستخدمة أسلحة العلاقات العامة التي أتقنتها في حروبها السابقة في العراق وليبيا. فأول شيء يجب فعله هو المبالغة في حجم الخطر؛ وهنا ادعى البيت الأبيض أن الجيش السوري قد قتل أكثر من 1,400 مدني. ثانياً، الادعاء بأن معلومات استخباراتية أمريكية لا يمكن نشرها على الملأ أظهرت أن نظام الأسد مسؤول عن جرائم حرب هائلة. ثالثاً، الادعاء بأن أعمال الولايات المتحدة العسكرية ستكون محدودة، بينما تأمل الإدارة سراً

في أن تؤدي هذه الأعمال إلى إسقاط النظام.

وفي الأيام التي تلت مجزرة الغوطة، كثفت إدارة أوباما عمليات تزويد الثوار بالأسلحة؛ فوصلت فجأة حمولة أسلحة كانت قد وعدت بتوصيلها في نيسان [182] . وكان الهدف هو إعطاء اللواء سليم إدريس المزيد من الأسلحة والذخائر لتنسيق هجماته، في حين تقوم الولايات المتحدة بغاراتها الجوية. بدأ البيت الأبيض بحملة لحشد التأييد الدولي، وسعت الولايات المتحدة إلى الحصول على تأييد المملكة المتحدة (بريطانيا) التي كانت حليفاً جديراً بالثقة في كل مغامرات الولايات المتحدة العسكرية السابقة؛ فدعا رئيس الوزراء المحافظ ديفيد كاميرون أعضاء البرلمان للعودة من إجازتهم للتصويت على الضربة المحتملة على سوريا. لكن كاميرون تعرض لمفاجأة كبيرة؛ إذ صوّت البرلمان ضد أي تدخل عسكري، مما عكس معارضة بريطانية عامة للدخول في حرب أخرى في الشرق الأوسط. إذ لم يكن الشعب البريطاني قد نسي بعد الأكاذيب التي نشرها توني بلير، رئيس الوزراء السابق المنتمي إلى حزب العمال، ليمهد بها الطريق للمشاركة في غزو العراق عام 2003.

شكّلت نتيجة التصويت في البرلمان البريطاني نكسة كبيرة لأوباما؛ حيث لم يبقَ لديه أي مساند أوروبـي رئيس إلا فرنسا. وقبل ذلك الوقت بعشر سنوات، هاجم البيت الأبيض فرنسا لعدم مساندتها غزو العراق، داعياً قادتها: "قرود الاستسلام". أما الآن، فقد أكد وزير الخارجية الأمريكي جون كيري أن فرنسا أقدم حلفاء الولايات المتحدة [183] . حاولت الولايات المتحدة أن تنال دعم جامعة الدول العربية التي ساندت الغارات الغربية على ليبيا، ولكنْ لم يقدّم أي عضو فيها مساندة علنية للولايات المتحدة.

عندها، لجأ البيت الأبيض إلى محاولة حشد الدعم في الولايات المتحدة. ولكن، بحسب استطلاع للرأي قامت به كل من وكالة رويترز وشركة إبسوس بعد أيام قليلة من مجزرة الغوطة، أي في الوقت الذي كان ينبغي فيه أن يكون الرأي العام في ذروة ميله لصالح الرئيس، فقد عارض 60 في المئة من الأمريكيين ضربات تقودها الولايات المتحدة على سوريا، ولم يؤيد إلا 9 في المئة من الأمريكيين اتخاذ الولايات المتحدة إجراءات أحادية الجانب في هذا المجال [184] . ومع تزايد الضغوطات المحلية، وافق الرئيس أوباما على السماح للكونغرس بأن يقوم بالتصويت على هذا الأمر، مما أدى إلى تطور تحالفات سياسية غريبة؛ حيث تحالف النواب الديموقراطيون الوسطيون الذين عارضوا غزو العراق من قبل مع غالبية الجمهوريين في

مساندة أوباما، بينما انضم الديموقراطيون التقدميون إلى اليمينيين المتطرفين من الجمهوريين في معارضته. وقد أصبح أولئك الجمهوريون الذي ساندوا الرئيس جورج دبليو بوش في حروبه قلقين فجأة من تورّط الولايات المتحدة في حروب خارجية غير ضرورية! ولو رفع أوباما طلب التصويت على قرار يتعلق بالحرب إلى مجلس النواب الأمريكي لخسره على الأرجح.

روّج قادة الحزب الجمهوري لفكرة أن أوباما كان متردداً وضعيفاً، قائلين إن أوباما تعثر منذ البداية، ولم تكن لديه أي سياسة واضحة في الشأن السوري؛ فرفض تقديم التسليح الكافي للثوار وتذبذب في مواقفه، فقد رسم خطاً أحمر على استخدام الأسلحة الكيميائية، ولكنه جبن عن المواجهة حين استخدم الأسد السارين في الغوطة.

في الحقيقة، كانت لدى أوباما سياسة في الشأن السوري؛ ولكنها ببساطة لم تنجح. فقد بدأت وكالة الاستخبارات المركزية بالعمل مع المعارضين السوريين في المنفى منذ المراحل الأولى للثورة، ولكنها لم تتمكن من إيجاد ولا حتى تكوين جماعات ثورية ذات قدرة ومصداقية تدين بالولاء للولايات المتحدة؛ رغم الجهود الكبيرة التي بذلتها في هذا المجال. وقد ساهمت الولايات المتحدة في تشكيل ائتلافين مدنيين، وساندت الجيش السوري الحر قبل أن تحاول توسيعه عبر إنشاء مجلس من ثلاثين شخصاً هو مجلس القيادة العسكرية العليا.

أما بالنسبة إلى خط أوباما "الأحمر" فقد واجه مشكلة محيرة في ما يتعلق بذلك. فبعد شهر من هجوم خان العسل، أعلن البيت الأبيض أنه تم استخدام الأسلحة الكيميائية، وأن وكالات الاستخبارات استنتجت أن نظام الأسد كان وراء العملية؛ ولكن "بدرجات متفاوتة من اليقين" [185] . وهي اللغة التي تستخدمها وكالات الاستخبارات عادة لتقول إنها غير متأكدة. ونحن نعلم الآن أن بعض ضباط الاستخبارات ارتابوا بأن تكون جبهة النصرة أو تنظيم داعش من يقف وراء استخدام السارين في خان العسل. لذا، لا تستطيع الولايات المتحدة أن تعلن الحرب بناء على هجمات بالأسلحة الكيميائية ربما كان الثوار هم الذين ارتكبوها، كما لا يمكنها كشف دور الثوار في الأمر خشية أن يؤدي ذلك إلى إضعاف الحملة ضد نظام الأسد.

فبناء على ما سبق، اضطر أوباما إلى الانتظار؛ وهو ما فسره الجمهوريون بأنه تردد. فقد أصر البيت الأبيض على الحصول على المزيد من الأدلة الحاسمة، وفي نهاية الأمر لم يتم الهجوم في ذاك الربيع. وحين

أعلن أوباما عن خططه لشن الحرب، واجه هزيمة غير مسبوقة خطّط لها الجمهوريون؛ ولو بشكل جزئي.

لكن، إذا استخدمنا المجاز في التعبير، فرغم كل شيء نجحت إدارة أوباما لاحقاً في صنع شراب الليموناضة من ثمار ليمون سورية حامضة للغاية، نتيجة ملاحظة ارتجالية أبداها وزير الخارجية جون كيري أثناء مؤتمر صحفي في لندن. فحين سُئِل عمّا إذا كان من الممكن للأسد أن يتفادى ضربة الولايات المتحدة القادمة أجاب: "بالتأكيد، يمكنه أن يسلم كل قطعة من أسلحته الكيميائية إلى المجتمع الدولي خلال الأسبوع المقبل... من دون تأخير. لكنه ليس على وشك أن يفعل ذلك، بل لا يمكنه القيام به" [186] .

استغل الروس - الذين كانوا قد ناقشوا الفكرة من قبل مع الولايات المتحدة - الفرصة ليقترحوا التوصل إلى تسوية، فضغطوا على نظام الأسد كي يسلم أسلحته الكيميائية، مقابل موافقة البيت الأبيض على عدم القيام بالضربة. وحتى تلك اللحظة، لم يكن النظام السوري قد اعترف رسمياً بامتلاكه أسلحة كيميائية؛ فرسم كل من الجانبين بروتوكولات تدمير تلك الأسلحة، وبدأت العملية وسط ظروف الحرب الصعبة.

أصرت الولايات المتحدة على أنه يجب على سوريا تدمير كامل ترسانتها من الأسلحة الكيميائية مع حلول منتصف عام 2014، وهو موعد قصير الأجل للغاية؛ خاصة وأن الولايات المتحدة أخرت تدمير مخزونات الأسلحة الكيميائية التي كانت لديها لسنين طويلة. وتحت بنود معاهدة حظر الأسلحة الكيميائية، وافقت الولايات المتحدة على تدمير مخزونات ترسانتها التي جمعتها خلال الحرب الباردة مع حلول عام 2012. لكن في سنة 2013، كان لا يزال لدى الولايات المتحدة حوالى ثلاثة آلاف طن من السارين وغاز الأعصاب (VX) وغاز الخردل؛ وهو انتهاك لتلك المعاهدة [187] . مددت الولايات المتحدة من جانب واحد الموعد النهائي لتدمير المواد الكيميائية، مشيرة إلى أن ذلك سيكلفها حوالى 35 بليون دولار، وسيستغرق حتى سنة 2023 على أقرب تقدير [188] .

أشادت إدارة أوباما بموافقة سوريا على تدمير مخزوناتها من الأسلحة الكيميائية معتبرة إياها انفراجة كبيرة. لكن عجز الإدارة عن توجيه الضربة إلى سوريا كان مدعاة لانتقادات الثوار المحافظين والمحافظين المتشددين. فمن وجهة نظرهم، لم تفشل الولايات المتحدة في تقديم السلاح الكافي لهم وحسب، وإنما بدت وكأن لديها مصلحة ثابتة في إبقاء الأسد في السلطة؛

على الأقل حتى الانتهاء من تدمير الأسلحة الكيميائية.

وخلال الأشهر التي أدت إلى مجزرة الغوطة، كان الجيش السوري النظامي في حالة هجوم يسعى من خلالها إلى قلب كفة الصراع لصالحة عسكرياً. وكان أوضح مثال على هذا ما حصل في بلدة القصير. والقصير بلدة صغيرة تقع جنوب حمص على بعد بضعة أميال من الحدود اللبنانية. في العصور الغابرة، كانت هذه البلدة موقعاً لأكبر معركة بالعربات العسكرية القديمة عرفها التاريخ بين المصريين والحثيين، وعادت واشتهرت مرة أخرى في هذا الصراع نتيجة معركة أخرى.

أصبحت القصير مهمة لكل من الثوار والجيش السوري بسبب موقعها الاستراتيجي. إذ كان الثوار يهربون الرجال والأسلحة من لبنان إلى سوريا عبر هذه البلدة، فسيطرت جبهة النصرة ومجموعات أخرى من الثوار على القصير والبلدات المجاورة لها. حارب الجيش لاسترداد هذه البلدات خلال ربيع 2013، واستمر القتال بضعة أشهر، بنى الثوار خلالها المتاريس في الشقق، وحفروا أنفاقاً عميقة تحت المباني. ودعمت الحكومة السورية قواتها بالاستعانة بحوالى 1,200 عنصر من قوات النخبة في حزب الله؛ الحزب الشيعي اللبناني الحليف للأسد [189] .

وبعد أسابيع من القتال المرير، استعاد الجيش السوري وحزب الله القصير في ما أسموه: "نقطة تحول في القتال". وقد اعترف لي المتحدث باسم حزب الله الحاج غسان أثناء مقابلة أجريتها معه في مدينة الهرمل الواقعة شرق لبنان على بعد أميال قليلة من القصير: "كانت معركة القصير صعبة جداً. فقد بنى الثوار الكثير من الأنفاق، وكان لديهم الكثير من التعزيزات" [190] .

لكن معركة القصير كانت نصراً باهظ الثمن؛ فقد هجرها سكانها، كما أدى القتال الضاري فيها إلى تدمير منطقة كاملة وسط البلدة. كان لقائي الحاج غسان بعد النصر بأيام قليلة، وقد أقر بالثمن الباهظ الذي كلفه تحقيق هذا النصر إذ قال: "إنه تقريباً التدمير الكامل للمدينة". فحين كان الجنود السوريون يتعرضون لإطلاق النار من الثوار كانوا ينتقمون باستخدام الدبابات والأسلحة الثقيلة "دمر الجيش السوري أي مكان تعرض لإطلاق النار منه. والآن، على الحكومة السورية أن تعيد البناء".

تباهى النظام السوري بأن النصر في القصير سيؤدي بسرعة إلى استرجاع حلب وحمص والمدن الرئيسة الأخرى. لكن، بعد مرور ستة أشهر على المعركة، ظلت أجزاء من هذه المدن بيد الثوار كما كان الحال قبل

المعركة. وتبيّن أن معركة القصير لم تكن إلا معركة أخرى في حرب طويلة جداً. لكن، كما أظهرت الأحداث في ما بعد، فإن نتائج معركة أخرى كانت أكثر أهمية؛ ولكن لأسباب مختلفة تماماً.

كانت الرقة بمبانيها الإسمنتية وشوارعها المليئة بالحفر عاصمة محافظة الرقة في وسط شمال سوريا. وكان تعداد سكانها قبل الحرب الأهلية حوالى 240,000 نسمة، ولكن عدد اللاجئين إليها من مناطق سورية أخرى أثناء الحرب بلغ حوالى 800,000 نسمة. في آذار 2013، سيطر ائتلاف من جماعات الثوار مؤلف من الجيش السوري الحر وأحرار الشام وجبهة النصرة وداعش على المدينة، وتم إنشاء إدارة فيها يحكمها الثوار. وكانت تلك أول مرة يسيطر فها الثوار على عاصمة إحدى المحافظات، وشكّل هذا الأمر هزيمة نكراء للحكومة السورية. وكان أهالي الرقة قد عارضوا نظام الأسد بقوة، ورحبوا في البداية بائتلاف الثوار. وحين زارت مراسلة أمريكية المدينة أبدت الملاحظات التالية: "يحكم ائتلاف من الميليشيات المدينة. وقد تمكنت كامرأة من التجول فيها من دون أن أرتدي حجاباً على رأسي، وقابلت ممرضة علوية تعمل بجانب زملائها من السنة" [191] .

هيمنت الجماعات الإسلامية المحافظة والمتشددة على المدينة منذ البداية، وكانت تلك الجماعات معروفة بنـزاهتها وقدراتها العسكرية العالية. وقد ضمّت حركة أحرار الشام على الخصوص عدداً كبيراً من شباب محافظة إدلب التي تقع على بعد أميال قليلة من الرقة. واجه الثوار الكثير من المصاعب في إدارة مدينة كبيرة دمرتها الحرب الأهلية؛ فقد كان الاقتصاد المحلي في حالة يرثى لها، حيث يفتقد الفلاحون إلى البذور التي يمكن زراعتها، بينما كان السماد المستورد من تركيا غالي الثمن. ورغم أن بعض موظفي الدولة كانوا يتلقون رواتبهم من الحكومة بشكل مستمر، إلاّ أن البعض الآخر لم يكن قد تلقى أي راتب لشهور طويلة. وسبّب الافتقاد إلى الرواتب التي تدفعها الدولة مشكلة كبيرة؛ لأن الحكومة كانت من مقدمي الأعمال الرئيسين في المحافظة. سحبت الحكومة قواتها العسكرية من المدينة، ولكنها استمرت في قصف المناطق المدنية بالصواريخ والبراميل المتفجرة التي كانت تُلقى من الطائرات المروحية، وهي بالمبدأ براميل نفط مليئة بالمتفجرات والشظايا؛ وكان أثر هذه البراميل على المدنيين رهيباً.

لكن التهديد الأكبر للأهالي لم يعد من الجيش، بل صار من تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش). فقد اعتقد تنظيم داعش أنه دولة إسلامية بكل معاني الكلمة وليس مجرد جماعة ثورية قوية، فأعلن

أنه الحكومة الشرعية الوحيدة في الرقة وغيرها من المدن الشمالية، وفرض على الأهالي الالتزام بتفسيره المتشدد للشريعة الإسلامية، وقام أعضاء التنظيم بقطع رؤوس ثلاثة علويين في الساحة الرئيسة لمدينة الرقة، وفرضوا على النساء ارتداء الحجاب، كما فرضوا الفصل بين الذكور والإناث في المدارس، ومنعوا التدخين. فهرب المسيحيون من المدينة خوفاً على حياتهم، وتم نهب الكنائس بعد ذلك [192] .

وخلال شهرين، شنّ تنظيم داعش هجمات عسكرية ضد الثوار الآخرين تحت ذريعة عدم التزامهم بنظرته المتشددة إلى الشريعة. ففي 14 آب، فجّر التنظيم سيارة مفخخة أمام مقر قيادة مجموعة ثورية أخرى؛ مما أدى إلى مقتل وجرح ضحايا مدنيين. كما قام تنظيم داعش أيضاً بسجن الثوار الذين اختلفوا مع سياساته وتعذيبهم. وتسبب استئثار تنظيم داعش بالسلطة في نفور أهالي الرقة منهم، وسرعان ما بدأوا يقومون بمسيرات ومظاهرات ضد التنظيم، فأصبح عدد من ناشطي المجتمع المدني ضحايا له.

الأب باولو دالوليو كاهن يسوعي إيطالي عاش في سوريا قرابة ثلاثين عاماً. عُرف الأب باولو باشتراكه في نشاطات حوار الأديان، ونال الكثير من التقدير نتيجة لذلك، وكان يصوم في شهر رمضان بداعي احترام المسلمين. وبخلاف القياديين المسيحيين الآخرين، عارض الأب باولو نظام الأسد، وأبدى دعمه للثوار، وخطب في تجمع للمجتمع المدني في الرقة. وفي 29 تموز 2013، دخل الأب باولو مقر داعش في الرقة في محاولة منه لإيقاف القتل المتبادل بين الثوار، وليحاول معرفة مكان الناشطين والصحفيين المخطوفين. ولم ير أحد الأب باولو بعد ذلك اللقاء، وهو لا يزال مفقوداً حتى تاريخ كتابة هذه السطور، ويبدو أنه أصبح واحداً من ضحايا داعش الكثيرين [193] .

تنامى الغضب على تنظيم داعش، لدرجة أنه مع نهاية سنة 2013 وبداية 2014 نشأ تحالف من الجماعات الإسلامية هدفه مقاومة التنظيم. ولفترة من الزمن، نجحت تلك الجماعات المتحالفة في طرده من مدينة الرقة، ولكن تنظيم داعش استعاد السيطرة عليها في نهاية الأمر. في تلك الأثناء، حاول ناشطو المجتمع المدني الحفاظ على المكاسب التي حققوها بعد هرب قوات نظام الأسد، وكانت الرقة مركزاً لمنظمات المجتمع المدني التي تقدم إمدادات الإغاثة والبرامج الاقتصادية الصغيرة. وعملت فرق أخرى على تنظيم أمور المعلمين والتلاميذ والعاملين الثقافيين [194] .

تقاتل الثوار في ما بينهم في مناطق أخرى من سوريا أيضاً، ولم تكن النتائج لصالح مجلس القيادة العسكرية العليا الذي يدعمه الغرب. ففي 6 كانون الأول 2013، اجتاحت قوات الجبهة الإسلامية مقرات مجلس القيادة العسكرية العليا ومستودعاته التي كانت ممتلئة بالأسلحة والإمدادات الأمريكية. وأفادت التقارير أن قائد مجلس القيادة العسكرية العليا اللواء سليم إدريس اضطر شخصياً إلى الهرب من مقره في أطمه - التي تبعد بضعة أميال من الحدود التركية - إلى تركيا نفسها. وشملت المعدات المنهوبة أربعين شاحنة صغيرة وحافلة، وخمسين ألف حصة عسكرية، ومعدات اتصالات، ومكاتب، وبنادق اقتحام، وحتى دبابات. أخبر ضابط في مجلس القيادة العسكرية العليا جريدة "نيويورك تايمز" أن الجبهة الإسلامية "نهبت كل شيء من مقرات القيادة" [195] .

في وقت لاحق، زعم اللواء إدريس أن الأمر برمته كان مجرد سوء تفاهم؛ فهو من طلب مساعدة الجبهة الإسلامية لأن تنظيم داعش كان سيجتاح مقرات القيادة، كما زعم أنه كان في تركيا طوال الوقت [196] . لكن، لم يتبين قطّ ما إذا كانت المستودعات قد وقعت تحت تهديد داعش بالفعل أم أن الأمر برمته كان مجرد خدعة من الجبهة الإسلامية. بجميع الأحوال، نهبت الجبهة الإسلامية المباني، ولم تُعِد المعدات المسروقة قط؛ مما سبب إحراجاً كبيراً للولايات المتحدة ولحليفها بين الثوار اللواء إدريس.

وكانت ردة فعل وزارة الخارجية الأمريكية أن أعلنت تعليق المساعدات غير الفتاكة للثوار العاملين قرب الحدود التركية. ولكن تلك المساعدات عادت لتستمر بالتدفق بعد بضعة أشهر، ولم يكن هناك أي إعلان عن إيقاف المساعدات الفتاكة التي تقدمها وكالة الاستخبارات المركزية. وفي 16 شباط 2014، عقد ضباط مجلس القيادة العسكرية العليا اجتماعاً سرياً عزلوا فيه اللواء سليم إدريس عن قيادة المجلس من دون سابق إنذار، وعيّنوا مكانه اللواء عبد الإله البشير الذي تعتبره الولايات المتحدة "معتدلاً" [197] . حتى إن مجلس القيادة العسكرية العليا لم يكلّف نفسه الجهد بإعلام اللواء البشير بمنصبه الجديد إلا بعد وقوع الحدث؛ كما صرّح اللواء البشير نفسه لجريدة "نيويورك تايمز": "أقسم بالله إن أحداً لم يتصل بـي، ولم أكن أعلم شيئاً عن الموضوع" [198] .

عادت إدارة أوباما مجدداً إلى محاولة ترميم سياسية فاشلة، ووجد البيت الأبيض نفسه وجهاً لوجه أمام اضمحلال قوة الحليف العسكري الذي اختاره، مقابل تنامي قوة الجماعات الإسلامية المتطرفة مثل داعش والنصرة

والجبهة الإسلامية. وأرادت إحدى فئات إدارة أوباما أن تدعم الجبهة الإسلامية المتطرفة وذلك بتغيير صفتها ببساطة إلى "معتدلة"، ففتحت الولايات المتحدة قنوات محادثات مع الجبهة الإسلامية، وتعمدت عدم الإعلان عنها كمنظمة إرهابية كما فعلت مع جبهة النصرة من قبل؛ رغم أن قياديي الجبهة الإسلامية كانوا واضحين في العشرات من خطبهم بأنهم يسعون إلى إنشاء دولة إسلامية تحكمها الشريعة، كما دعوا إلى الهجوم على العلويين (انظر إلى الفصل الخامس).

كتب جون هادسون للمجلة الإلكترونية "فورين بوليسي" (Foreign Policy أو السياسة الخارجية): "يعكس اهتمام الولايات المتحدة بهذه المجموعة [الجبهة الإسلامية] الحالة الرثة التي وصل إليها مجلس القيادة الأعلى من ناحية، ورغبة الولايات المتحدة في إبقاء الضغط العسكري على الرئيس بشار الأسد من ناحية أخرى". وأخبرني مساعد في الكونغرس: "تقلص مجلس القيادة العليا حتى كاد يتحول إلى مجرد جماعة منفية عن سوريا، بينما استولى الجهاديون [على الجهود العسكرية في الثورة]" [199] .

فكرت إدارة أوباما في خيار آخر؛ وهو التحالف مع الأسد مؤقتاً للقضاء على الثوار المتطرفين، ثم تعود إلى محاربة النظام في ما بعد. وقد وضعت هذه السياسة حيّز التطبيق ضمنياً حين اتفقت إدارة أوباما مع نظام الأسد على تفكيك ترسانة سوريا من السلاح الكيميائي، فصارت مصلحة الولايات المتحدة تقتضي إبقاء الأسد في السلطة ريثما تنتهي هذه العملية على الأقل. وفي بداية شباط 2014، تراجعت الجماعات المعارضة التي تتفاوض مع النظام في جنيف بهدوء عن مطالبها باستقالة الأسد قبل تشكيل حكومة انتقالية تمثل الطرفين [200] .

وأخذت حكومة أوباما خياراً آخر بعين الاعتبار؛ وهو مضاعفة دعمها لمجلس القيادة العليا، وتوفير أسلحة متطورة مضادة للطيران للثوار الموالين للولايات المتحدة. وقدمت عدة وسائل إعلامية تقارير عن موافقة الولايات المتحدة على إنفاق الملايين من الدولارات لدفع رواتب جنود مجلس القيادة العليا، ومنحت السعودية الإذن بتقديم صواريخ محمولة على الكتف إلى الثوار؛ مما قد يؤدي إلى تصعيد كبير في الحرب [201] .

لكن المكائد السياسية هذه كلها التي حاكتها الولايات المتحدة أهملت مجموعة في غاية الأهمية؛ ألا وهي الشعب السوري؛ أي الناس العاديين الذين يريدون السلام وحكومة مدنية علمانية. وفي آخر عام 2013، وجدت فرصة لملاقاة الناشطين الذين التقيتهم قبل ذلك بسنتين. كانت "لين" - التي

ذكرتها في الفصلين الأول والخامس - لا تزال تعيش في دمشق وتمضي الكثير من وقتها في تجنب المخابرات السورية و"الشبيحة". أثناء لقائنا عام 2011، كانت لين ناشطة قيادية في المجتمع المدني تناضل لتحقيق نظام برلماني علماني في سوريا. ولكن الآن، وكما قالت هي أثناء لقائنا السري في دمشق: "الآن تقسم الحواجز العسكرية المدينة، وهناك قمع في كل مكان. لم يعد لحركة المجتمع المدني أي وجود هنا" [202] .

وبالنسبة إلى أحمد بقدونس، وهو ناشط آخر قابلته عام 2011، فقد ساعد في تهريب الغذاء والدواء إلى المدنيين الذين حاصرهم النظام في حمص، فتم إلقاء القبض عليه وتعرّض لتعذيب وحشي. وأملت لين أنه إذا أصبح اسمه معروفاً فقد يؤدي هذا إلى ضغط دولي لتأمين إطلاق سراحه. أما "محمود" الذي ذكرته في الفصل الخامس أيضاً، والذي كان يوماً ما مسرحياً وصحفياً طليعياً، فهو يحارب الآن في صفوف الجيش السوري الحر جنوب سوريا، "لقد تغيرنا جميعنا" قالت لي لين.

يستمر ناشطو المجتمع المدني في العمل في بعض المناطق التي يسيطر عليها الثوار، فيساعدون في توفير الغذاء والدواء والخدمات الاجتماعية للسكان المدنيين، كما يحافظون على روابط سياسية مع المجموعات الدولية التي لا تساند النظام ولا الثوار المتطرفين. وفي نهاية سنة 2013، بدأ ناشط شجاع إضراباً عن الطعام في محاولة لكسر الحصارات التي فرضها النظام على المناطق التي يسيطر عليها الثوار؛ فالجيش السوري لا يسمح بوصول الغذاء والدواء والمواد الأخرى الضرورية إلى مناطق الثوار.

قصي زكريا قيادي في المجلس المدني المحلي في المعضمية، وهو من بدأ بالإضراب عن الطعام. ولد الشاب الفلسطيني البالغ من العمر ثماني وعشرين سنة في دمشق، وكان من الناجين من هجوم الأسلحة الكيميائية في الغوطة، ولكنه شهد أيضاً الدمار الأكبر الذي تسبب به القصف التقليدي ونيران المدفعية، والمجاعة الناتجة عن الحصار. حين أنهى زكريا عمله الاحتجاجي، أخذ عنه ناشطو السلام وبعض الشخصيات البارزة في الولايات المتحدة وأوروبا والشرق الأوسط الإضراب عن الطعام في سعي لرفع الحصار عن المدنيين.

قد يكون الصراع من أجل حكومة سورية مدنية وعلمانية قد تقلص ولكنه لم يسحق. وكما سنرى في الفصل التالي، وجد ناشطو المجتمع المدني حلفاء محتملين في صف المناصرين للرئيس الأسد.

الفصل السابع
من يؤيد الأسد؟

بدا وكأن أصوات المدفعية تنفجر في كل مكان، وظل أزيز طلقات الرشاشات الثقيلة يتردد حتى ساعات متأخرة من الليل. كان الجيش السوري يقصف البلدات التي يسيطر عليها الثوار في ضواحي دمشق! لقد أصبح القصف المدفعي أمراً معتاداً، لدرجة أن السكان ما عادوا يفزعون من أصوات الانفجارات في جميع أنحاء المدينة، أما أنا فقد كنت فزعاً بكل تأكيد!

لقد تغيرت مدينة دمشق كثيراً بعد آخر زيارة قمت بها إليها عام 2011؛ ولكن ليس نحو الأفضل. في ذلك الوقت، كانت دمشق مركزاً للكثير من المظاهرات والمسيرات التي تطالب بالحرية. أما في آخر سنة 2013، فقد كانت مدينة تعيش حالة حرب. أغلقت حواجز إسمنتية طرقات كان تعج بالحياة سابقاً، بينما شوَّهت الحواجز العسكرية جمال المدينة. قال الدكتور بسام بركات، الطبيب والمستشار السياسي الموالي للحكومة: "لقد تعلمنا أن نهمل أصوات الحرب". وأضاف الدكتور بركات أنه لا يمانع في الإزعاج الذي تسببه الحواجز العسكرية لأنها تساعد في الحفاظ على الأمن [203] .

ويتفق بعض السوريين مع الدكتور بركات في الرأي، وبالتالي فهم يستمرون في مساندة نظام الأسد. بعد ثلاث سنوات من الحرب الأهلية، ظلت قوات الجيش والأجهزة الاستخباراتية موالية للنظام الحاكم بخلاف ما حصل في تونس ومصر. وقالت شارمين نرواني، وهي محللة لقضايا الشرق الأوسط وزميلة بارزة في كلية سانت انتوني بجامعة اكسفورد ومن مؤيدي نظام الأسد، إن لدى الأسد تأييد غالبية الشعب. وتشمل القطاعات التي تؤيده أهالي المدن الكبيرة مثل دمشق وحلب، والأقليات مثل العلويين والدروز والمسيحيين والشيعة، وكذلك نخبة رجال الأعمال، بالإضافة إلى ثلاثة ملايين منتسب إلى حزب البعث غالبيتهم من المسلمين السنة. وقالت نرواني إن لدى الأسد "تأييد الملايين والملايين من السوريين الذين تتعرض أصواتهم للإهمال الكامل" [204] .

وتجادل نرواني وغيرها من مؤيدي الأسد بأن الحكومة توفر الأمن والاستقرار. فقد رأى السوريون نتائج الحرب الطائفية في العراق ولبنان، ومن الطبيعي أن يخشوا الفوضى الناجمة عن هذا النوع من الحروب. وقد لعب

الأسد بذكاء على مخاوف الأقليات؛ زاعماً أنها ستعاني إذا حكمتها الغالبية السنية. ولاحظ أستاذ دراسات الشرق الأوسط في جامعة ترينيتي في سان أنطونيو ديفيد ليش أن عائلة الأسد استخدمت أساليب معقدة لإسكات المعارضين: "إذا استُخدِم الإكراه ونظام تجسس متفش في كل البلد، وتحالفات عائلية وعشائرية مبنية بعناية، بالإضافة إلى الرشا وتكتيكات "فرق تسد" فإن سيطرة نظام تحكمه الأقليات على باقي الشعب لن تكون بالصعوبة التي قد تبدو عليها من الخارج" [205] .

لدى الأسد بعض التأييد الشعبي بكل تأكيد، ولكنه يعتمد على الجيش للحفاظ على السلطة، وقد أعطى الجيش نفسه سلطات استثنائية. خذ مثلاً الطريق الدولية بين دمشق وبيروت والتي اجتزتها في الكثير من المرات. تستغرق هذه الرحلة عادة ساعتين ونصف الساعة، ولكنها استغرقت مني ضعف ذلك الوقت في آخر عام 2013 نتيجة الإجراءات المشددة على الحدود ونقاط التفتيش السبع على الطريق الدولي؛ وقد بدت تأخيرات السير وكأنها لا تنتهي.

بدءاً من سنة 2012 حين فجر الثوار مبنى الأمن القومي السوري في دمشق امتلأت المدينة بحواجز التفتيش. وغالباً ما يشير الجنود إلى السيارات بأن تمر، ولكنهم يوقفون سيارة من وقت إلى آخر لتفتيش مقاعدها الخلفية أو الصندوق بحثاً عن أسلحة مهربة. لكن أزمة السير الناجمة عن وجود تلك الحواجز تسببت بالكثير من المشاكل لسيارات الإسعاف. وقد رأيت إحدى تلك السيارات تسير على الرصيف مرة، ورأيت أخرى تسير بعكس السير في شارع رئيس كي تتجاوز الأزمة الخانقة. يوجد خطان للسير لدى معظم نقاط التفتيش: خط مدني وخط عسكري. ويستخدم الجنود وعناصر المخابرات وأي شخص لديه بطاقة تعريف خاصة الخط العسكري للعبور بسرعة، أما الخطوط المدنية - التي تشمل سيارات الأجرة - فيتطلب المرور عبرها وقتاً أطول. وعادة، يستقل الصحفيون مثلي سيارات الأجرة.

وبالنسبة إلى الاقتصاد القومي الذي لم يكن في وضع جيد قط، فقد وصل إلى نقطة الغرق الآن؛ إذ أصبح التضخم والبطالة مشكلتين خطيرتين يواجههما البلد. ففي عام 2011 كان الدولار الأمريكي الواحد يشتري خمسين ليرة سورية، ولكن بعد سنتين، أي عام 2013 صار الدولار يشتري 142 ليرة، وكان هذا تحسناً واضحاً بعد أن انهارت أسعار صرف الليرة في مرحلة سابقة من الأزمة حيث صار الدولار يشتري 330 ليرة وقتها. وظل العدد القليل من السوريين القادرين على الوصول إلى العملة الصعبة محافظاً على

مستوى معيشة جيد، ولكن الغالبية العظمى من الشعب واجهت المصاعب الناجمة عن تآكل القدرة الشرائية لدخلهم نتيجة التضخم ونقص السلع. كما أن العقوبات التي فرضها الغرب على سوريا عنت أن سوريا لم تعد قادرة على توريد النفط؛ وهو مصدر أساسي للعملة الصعبة. أما المصانع والبنى التحتية فقد تعرضت لضربات قاسية نتيجة القتال.

وفي عام 2013، أصبح شح البنـزين يعني صفوفاً طويلة من السيارات المنتظرة أمام محطات التعبئة؛ مما جعل تحصيل لقمة العيش أكثر صعوبة بالنسبة إلى العاملين في قطاعات مختلفة مثل سائقي الأجرة؛ نظراً إلى ارتفاع أسعار البنـزين، وطول الفترات الزمنية التي يتطلبها الوصول إلى المناطق المختلفة من المدينة. وقد فجّر الثوار محطات توليد الطاقة وخطوط الكهرباء، ممّا تسبب في انقطاعات دورية للتيار الكهربائي. وفي إحدى ليالي زيارتي تلك، ظلت غالبية مناطق دمشق في ظلام دامس لساعات طويلة. لقد كانت هذه المدينة كما أعرفها تعج بالحياة الليلية، ولكنها الآن تكاد تكون مغلقة بالكامل بعد حلول الظلام.

إذاً، لماذا يظل بين الناس من يؤيد الحكومة؟ لأنهم وببساطة يعتقدون أن الثوار أسوأ. فقد أبرزت الحكومة الشعارات المتشددة التي رفعها بعض الثوار المتطرفين، كما قامت بعض الجماعات المتطرفة بقتل العلويين والمسيحيين، وكذلك كان الثوار المسيطرون على ضواحي العاصمة يقصفون الأحياء المدنية في دمشق بشكل دوري بالصواريخ ومدافع الهاون. وقد قال لي مطران دمشق وتوابعها للأرمن الأرثوذكس أرماش نالبنديان: "حين بدأت الأزمة عام 2011 كانوا [المتظاهرون] يطالبون بالحرية"، لكن وكما أضاف: "لم يجلب متظاهرو المعارضة الاستقرار. أنا أريد الحماية التي تقدمها هذه الحكومة" [206] .

زعم نظام الأسد أنه يحمي العلمانية في وجه التطرف الإسلامي، ولكنّ ما فعله النظام في الحقيقة هو محاولة زرع إسفين بين المسلمين السنة وباقي الأقليات في سوريا. إذ يتعامل الجنود على الحواجز العسكرية بريبة تلقائية مع المسلمين السنة، ولكن لا يبدو عليهم أي قلق في ما يتعلق بالعلويين والمسيحيين. لم تعد الطوائف المختلفة في سوريا تثق ببعضها بعضاً. وقد قال لي علاء إبراهيم - وهو مراسل تلفزيوني يعمل في دمشق - إن السنة والعلويين كانوا أصدقاء قبل الحرب، وغالباً ما كانوا يهملون الخلفيات الدينية المتباينة في ما بينهم، ولكن الحال مختلف الآن كما أخبرني: "كموظف حكومي علوي، إذا دعاك سني إلى العشاء فسوف تخشى وجود

كمين وسوف ترفض الذهاب. لقد انهارت الثقة بين الناس" [207] .

ظلت الحكومة السورية محافظة على صفتها الديكتاتورية العلمانية لسنين طويلة. ولكن، كيف تمزق المجتمع بهذه السرعة؟ وجدت الإجابة أثناء زيارة قمت بها إلى طرطوس، وهي مدينة ساحلية غرب سوريا لا تبعد كثيراً عن لبنان، ويقطنها الكثير من العلويين.

وقفت أمام تمثال كبير لحافظ الأسد - رئيس سوريا الراحل وأب الرئيس الحالي - فيما أسرعت السيارات حول التمثال مع حلول ساعة الغروب وعودة الأهالي إلى بيوتهم من أعمالهم. في بداية الثورة، حصلت حادثة استثنائية هنا في طرطوس، ففي آذار 2011 أمر الرئيس بشار الأسد بإزالة تماثيل أبيه من البلد لئلا يجعلها المعارضون بؤر توتر تنطلق منها التظاهرات، لكن أهالي طرطوس اعترضوا على إزالة التمثال، بل وشكلوا درعاً بشرية أمامه لمنع إزالته. فراس ديب رجل أعمال في الثانية والأربعين من عمره، وقد توجّه وقتها من بلدته إلى طرطوس ليشارك في المظاهرة الاحتجاجية. وكما قال: "طلب الرئيس من الناس أن يزيلوا كل التماثيل في سوريا، ولكن هنا في طرطوس لم يرغب أحد في إزالة التمثال فلم يتمكن أحد من إزالته. لقد بقيت مع المحتجين وقتها لمدة أربع وعشرين ساعة" [208] .

للعلويين تاريخ طويل من القيام بالأمور بطريقتهم الخاصة؛ فقد انشقوا عن المسلمين الشيعة في القرن الثامن الميلادي، وعاش غالبيتهم في مناطق من البلاد التي أصبحت تركيا ولبنان وسوريا حالياً. وخلال فترة الاستعمار، عامل الفرنسيون الأقلية المسيحية بشكل تفضيلي، وبالمقابل قمعوا العلويين كما فعلوا مع غيرهم من طوائف المسلمين، ولكنهم شجعوهم على الانضمام إلى الجيش. وقبل عام 1970، واجه العلويون الكثير من التمييز، وعاشوا في مناطق ريفية فقيرة. وهم يشكلون حالياً ما بين 10 و12 في المئة من سكان سوريا.

ولكن أوضاع العلويين تغيرت بشكل دراماتيكي بُعَيد وصول حافظ الأسد إلى السلطة؛ بعد الانقلاب الذي سُمّي "الحركة التصحيحية" عام 1970. وقد صنع حافظ الأسد قاعدة شعبية لسلطته بين أهالي طائفته العلويين ترتكز على مؤيديه البعثيين في الجيش. قال فراس ديب: "حين كان السيد حافظ الأسد رئيساً فعل الكثير من الخير للناس؛ وخاصة الفقراء منهم. لم نخض أي حرب بعد سنة 1973، ولم تحصل أي مشاكل في سوريا، وكان لدينا نظاما تعليم وطبابة شبه مجانيين. إذ لم تتجاوز كلفة التعليم الطبي

مئتي دولار على أقصى حد، كما بنى مدرسة ثانوية في كل قرية كي لا يضطر الأهالي للذهاب إلى قرية أخرى من أجل اكتساب العلم".

قدت السيارة مسافة تبلغ حوالى ثلاثين كيلومتراً قبل أن أصل إلى البلدة الصغيرة التي يقطنها والدا فراس ديب. وكانت تحيط بالمجتمع الريفي هناك مزارع يقطعها طريق صاخب ذو مسارين. كان والد ديب متقاعداً، وتعيش العائلة حياة متواضعة. قالت أم فراس البالغة من العمر خمساً وسبعين سنة إن حكام سوريا السابقين لم يحترموا الحريات الدينية، أما الاستعمار الفرنسي الذي حكم البلاد في الفترة ما بين الحربين العالميتين فقد فضّل المسيحيين: "حين كنت طفلة، أخبرتني أمي أن الفرنسيين يسعون إلى جعل الحياة صعبة؛ خاصة للعائلات المسلمة. فقد أعطوا المسيحيين منطقة جميلة من أجل مزارعهم؛ وخاصة في بلدة صافيتا القريبة. وبعد الاستقلال عن فرنسا، عاشت جميع الطوائف الدينية مع بعضها بعضاً. فعائلة زوجي مثلاً كانت تعيش بجوار عائلة مسيحية، ولم تحصل بين العائلتين أي مشاكل. لقد عاش المسيحيون والعلويون مع بعضهم بعضاً بسلام" [209] .

بدءاً من سنة 1970 وخلال حكم عائلة الأسد، تزاوج الكثير من سكان المدن من السوريين المنتمين إلى ديانات وطوائف مختلفة من بعضهم بعضاً. وخلال جميع رحلاتي السابقة إلى سوريا، كان من النادر أن تسمع أي إشارة إلى الخلفية الدينية للأشخاص أثناء المحادثات العادية. تعتقد عائلة ديب بقوة أن القوى الغربية تحاول الوصول إلى حكم سوريا مجدداً عبر التفرقة بين أهاليها. كما قالت إن المعارضة تود فرض نظام إسلامي سني متعصب، وإن الرئيس الأسد يحمي الأقليات الدينية. قال محمود ديب، زوج شفيقة البالغ من العمر تسعة وسبعين عاماً: "إذا حصل أي شيء للدكتور بشار فالكل هنا سيحارب. فإذا أسقط نظامه ستعود الأمور إلى ما كانت عليه أيام الفرنسيين حين كان جميع الناس يتقاتلون في ما بينهم" [210] .

في إحدى الليالي، كنت أتجول في مدينة طرطوس. ولاحظت أن الحكومة أعادت افتتاح الكورنيش، أو الطريق البحري، وازدحمت الشوارع بالسوريين الجالسين في المقاهي، وهم يتبادلون أطراف الحديث مع أصدقائهم. كانت تلك الليلة الهادئة ومعتدلة الطقس في تشرين الثاني 2011، وما كان لمن يرى هذا المنظر أن يظن بأن سوريا في حالة حرب. رافقتني وفاء - وهي إحدى بنات عائلة ديب، وطبيبة درست وعملت في الخارج - لتدلني على طرق المدينة. قالت لي وفاء إن الجدل المتعلق بالخلفيات

الدينية والعرقية أمر جديد في سوريا. وبالنسبة إلى وفاء العلمانية، هناك عامل أساسي في ما أسمته "الديموقراطية السورية"، كما شددت قائلة: "إن سوريا إحدى أكثر دول العالم ديموقراطية، وهي أكثر ديموقراطية من أي دولة عربية أخرى بكل تأكيد. نحن لدينا ديموقراطية تشمل الاحترام الديني ولا أريد تغيير ذلك. بالنسبة إلي، هذه هي الديموقراطية" [211] .

جادلت وفاء بأن الولايات المتحدة أسقطت حكومتي العراق وأفغانستان، وتسعى الآن إلى فعل الشيء ذاته في سوريا: "أنا أعتقد أن الولايات المتحدة تسعى إلى احتلال الكثير من البلاد. الحمد لله، ليس لدينا الكثير من النفط وإلا لكانت الولايات المتحدة قد احتلت سوريا كما فعلت في العراق. تريد الولايات المتحدة أن تستعبد سوريا، وأنا لا أريد أن تتحول سوريا إلى أفغانستان أخرى. لا أريد أن أبقى في البيت كامرأة، بل أريد أن أتمكن من العمل".

تعيش وفاء ديب مثل الكثير من مؤيدي النظام العلويين الآخرين في شرنقة اجتماعية عززت فيها الحكومة بعض الاعتقادات السائدة لديهم. ولم يتمكن هؤلاء المؤيدون من الإجابة عن سؤال بسيط: إذا كان الأسد يحظى بهذا الدعم الشعبي الواسع بينما الثوار ليسوا إلا مجرد أدوات للقوى الأجنبية، إذاً لماذا خسرت الحكومة السيطرة على هذه الأجزاء الكبيرة من البلاد؟

تغيرت طرطوس كثيراً منذ زيارتي عام 2011. ففي تلك الزيارة، كنت قادراً على قيادة السيارة من دمشق إلى طرطوس خلال ساعات قليلة من دون أن أصطدم إلا بحواجز عسكرية قليلة يمكن العبور منها بسرعة. وكانت جميع المدن المجاورة هادئة وتحت سيطرة الحكومة. ولكن أثناء زيارتي سنة 2013، لم أتمكن من الذهاب من دمشق إلى هناك بواسطة السيارة لأن الطرقات كلها كانت مغلقة أمام السيارات المدنية، وكان على الأهالي استقلال الطائرة من دمشق إلى مدينة اللاذقية القريبة. كما لم تمتد المناطق الآمنة في طرطوس لأكثر من عشرة كيلومترات مربعة حول وسط المدينة [212] . أصبح الخروج من هذا المحيط خطراً.

لم يضرب عدم الاستقرار السياسي والعسكري العلويين فقط، ولكنه ضرب نخبة رجال الأعمال أيضاً.

ففي الفترة الممتدة بين آخر الخمسينيات وأول الستينيات من القرن الماضي، اعتمدت سوريا نظام "الاشتراكية العربية" الذي توفِّر فيه الحكومة الرعاية الطبية للناس بكلفة متدنية مع تعليم مجاني. وأمّم الجيش

القطاعات الاقتصادية الهامة في سوريا كقطاع الاتصالات مثلاً، وذلك بسيطرته على الحكومة، وتقاسم مسؤولو الحكومة وضباط الجيش الأرباح الوفيرة. كما استشرى الفساد في الدولة، ووجد العمال أن سلطتهم على الاقتصاد أصبحت أقل بكثير حتى من سلطتهم على الحكومة ونظامها. كان الحكم اشتراكياً بالاسم واختلاسياً في الواقع.

وحين استلم بشار الأسد السلطة عام 2000، واجه اقتصاداً يكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة، مع اضطرابات اجتماعية خطيرة تلوح في الأفق. كانت سوريا ثاني أفقر البلدان في الشرق الأوسط؛ حيث كانت اليمن البلد الوحيد الأكثر تدنياً من حيث معدل الدخل الفردي [213] . وتحت قيادة بشار الأسد، اتبعت الحكومة السورية النموذج الاقتصادي الذي يدعو إليه كل من صندوق النقد الدولي والبنك الدولي. إذ قامت الحكومة بخصخصة بعض الصناعات التي تملكها الدولة، وخفّضت التعرفة الجمركية على البضائع المستوردة. واشترى بعض المحسوبين على حزب البعث وأقارب الأسد الصناعات المخصخصة بأسعار زهيدة، أو حصلوا على تراخيص للبدء بمشاريع جديدة؛ كما كان الحال في شركات الهواتف الخليوية. وقد استفادت نخبة رجال الأعمال من هذه الإجراءات، إذ رخصت الحكومة لمصارف خاصة، وشركات تأمين، وحتى لشركة طيران خاصة. وولّدت سياسات الدولة نمواً اقتصادياً وولاء قوياً بين كبار رجال الأعمال، ولكن سياسة التحرير الاقصادي زادت أيضاً الفساد الممنهج والمستشري.

وقد نددت المظاهرات الأولى التي جرت عام 2011 برامي مخلوف ابن خال بشار الأسد، ومالك أكبر شركات الهواتف الخليوية في سوريا. وقال منتقدوه إنه جنى الملايين والملايين من الدولارات نتيجة روابطه العائلية. وقدر مدير مركز البحوث والتوثيق في دمشق نبيل السمان أن 300 عائلة تسيطر على الغالبية العظمى من خيرات الاقتصاد السوري، ثم أضاف قائلاً: "إن نهاية النظام السوري تعني نهاية هؤلاء الناس؛ وليس فقط على مستوى السلطة السياسية، لأن الناس سيتساءلون: من أين حصلتم على كل هذا المال ؟" [214] . وقد اعترفت لي بثينة شعبان، وهي واحدة من كبار مستشاري الرئيس الأسد، أن الفساد يظل مشكلة كبيرة في سوريا. كما أخبرتني أثناء مقابلة أجريتها معها في القصر الجمهوري: "رامي مخلوف ليس الشخص الوحيد الذي جنى الكثير من المال خلال الفترة الماضية، فهناك أناس كثيرون، رأسماليون كبار، وكلهم جنوا الكثير من المال" [215] . إذاً، استبدلت سوريا الاشتراكية العربية بالرأسمالية القائمة على المحسوبيات.

ظل هؤلاء المحاسيب الرأسماليون - مع الصادقين من المؤيدين - يقدمون دعماً أساسياً لنظام الأسد. وبقي الدكتور نبيل طعمة - المدير التنفيذي لمجموعة الشرق الاقتصادية الضخمة - ثابتاً في تأييده للأسد لأنه يعتقد أن المتطرفين الذين يريدون فرض الحكم الإسلامي هم الذين يسيطرون على المعارضة، وكما قال لي: "نحن هنا في سوريا متنوعو الأديان، ومتنوعو الثقافات". وجادل طعمة قائلاً إن الإخوان المسلمين والفئات الإسلامية الأخرى ستفرض وجود دولة إسلامية على البلاد، "وهذا سينهي التوجه العلماني في سوريا وسائر منطقة الشرق الأوسط... على الشارع أن يهدأ لتحقيق الإصلاحات، وإلا فلن توضع الإصلاحات موضع التنفيذ أبداً" [216] . أما الدكتور نبيل سكر، وهو خبير اقتصادي سوري كان يعمل في البنك الدولي قبل أن يدير شركة اقتصادية في دمشق، فقد أخبرني أن كبار رجال الأعمال يظلون أحد الأركان الرئيسة في دعم النظام. وبحسب ما قاله الدكتور سكر، رجال الأعمال براغماتيون: "إنهم يتوقعون أن تهدأ الاضطرابات في نهاية الأمر، ويعتقدون أن النظام محصن جيداً" [217] .

وبينما استفاد عدد قليل من رجال الأعمال الموالين للحكومة من سياسات الحكومة الاقتصادية "النيوليبرالية"، فقد تسبّبت هذه السياسات من ناحية أخرى بأضرار بالغة للاقتصاد قد يتعذر إصلاحها. إذ زادت هذه السياسات من تفشي الفقر في المناطق الريفية التي يشكل السنة غالبية سكانها، كما أخبرني المحلل الموالي للحكومة الدكتور بسام بركات: "لم تعد مصانع النسيج والمصانع الأخرى مدعومة من الدولة، كما سمحوا للبضائع التركية بدخول البلاد من دون ضرائب؛ فتعرض الاقتصاد الوطني لضرر شامل" [218] . ازدادت معدلات البطالة مع إغلاق المصانع، ولم يقدر الفلاحون على منافسة البضائع المستوردة الرخيصة، وقد قال بركات: "لقد ارتكب النظام السوري خطأً كبيراً، لقد أصبح لدينا جيش كامل من الشباب العاطلين عن العمل".

وزاد الجفاف الحاد الذي عانت منه سوريا بين عامي 2006 و2011 من سوء الآثار التي خلّفتها سياسة الحكومة الاقتصادية؛ إذ لم تتجاوز معدلات الأمطار أكثر من ثمانية سنتيمترات في كل سنة، وهو معدل لا يكفي للحفاظ على الزراعة. وبلغت نسبة المواشي التي هلكت نتيجة العطش 85 في المئة، كما بلغت معدلات فشل المحاصيل في بعض المناطق 75 في المئة؛ فنـزح مئات آلاف المزارعين من الريف إلى المدن الكبيرة، حيث واجهوا مصاعب في العثور على عمل [219] . ولاحقاً، تحوّلت بعض

المناطق التي تعرضت لأسوأ هذه الضربات مثل الحسكة إلى بؤر ساخنة للثورة.

فاقمت الحرب الأهلية من تردّي الأوضاع الاقتصادية أكثر، وأدت العقوبات الدولية المفروضة على سوريا وخسارتها معظم صادراتها مع الدمار الناجم عن الحرب إلى وصول الاقتصاد إلى نقطة الانهيار. وفي عام 2011، كانت سوريا تنتج 425,000 برميل من النفط الخام يومياً، ولكن هذا المعدل انحدر إلى الصفر مع سيطرة الثوار على حقول النفط [220] . وشهد عام 2010 نمواً في الناتج المحلي الإجمالي بنسبة 3.2 في المئة ولكنه تهاوى بنسبة -21.8 في المئة عام 2012، ثم بنسبة -22.5 في المئة عام 2013 [221] .

ضربت الأزمة الاقتصادية أصحاب الأعمال الصغيرة أيضاً، والكثيرون منهم مؤيدون لنظام الأسد. تمتلك رنا عيسى مؤسسة دعاية وإعلان ناجحة في دمشق كانت تركز على قطاع البناء، ولكن لم يعد لدى الشركة الكثير حتى تعلن عنه؛ إذ توقفت أعمال البناء وكذلك الأعمال المرتبطة بالسياحة مع عدد كبير من قطاعات الأعمال الأخرى، فاضطرت رنا إلى تسريح 25 في المئة من موظفيها. وكما أخبرتني في مكتبها في دمشق: "خشي رجال الأعمال من حصول ركود اقتصادي، فأوقف الكثيرون منهم شراء الدعايات، ولهذا أثر سيئ على وكالات الإعلام. فإذا توقف رجل الأعمال عن شراء الدعايات فلن يكون لدينا أي مال، وحينها لن نتمكن من شراء أي شيء. الأمر برمته يعمل كسلسلة متصلة" [222] .

وأضافت رنا أن أصحاب الأعمال على العموم يساندون الأسد: "يثق كبار رجال الأعمال بالحكومة، أما الأعمال بالأحجام كافة فتودّ الحفاظ على وجودها. ما نريده هو أن يتعافى الاقتصاد". ولامت رنا الثوار وليس حكومة الأسد على مشاكل سوريا الاقتصادية: "ما الذي يريدونه في المعارضة؟ ما هي أفكارهم عن الحكم؟". تنحدر رنا عيسى من أصول فلسطينية، وتقول إن الحكومة السورية قدمت للاجئين الفلسطينيين وأولادهم حقوقاً أكثر مما فعلت إسرائيل وحتى الدول العربية: "كفلسطينية تعيش في سوريا، لا يمكنني أن أتخيل أن الرئيس سيذهب بسبب المعارضة. لا توجد علينا كفلسطينيين أي قيود، فنحن نعيش مثل السوريين. أنا أحب سوريا وأحب الرئيس وأحب كل شيء يفعله الرئيس. لقد وعدنا بالكثير من الأمور وحقق الكثير من الأهداف، أما المعارضة فلم تعطه الوقت الكافي للعمل على تحقيق المزيد".

وحين سألتها عما ستفعله إذا سيطرت المعارضة على الحكم أجابت بشكل حاسم: "سأترك البلد". لم تنتظر رنا عيسى إلى أن يسقط نظام الأسد لتغادر البلد، ففي زيارتي التالية آخر عام 2013، كانت رنا قد انتقلت إلى إربيل في كردستان العراق بعد أن تزايدت المشاكل الاقتصادية التي واجهتها.

لم يتفق جميع أصحاب الأعمال الصغيرة مع آراء رنا عيسى المؤيدة للأسد، فبعضهم غيّروا مواقفهم. كنت قد زرت أسواق دمشق مرات كثيرة منذ زيارتي الأولى لها سنة 2002، ورأيت خلال تلك الزيارات آلاف الزبائن الذين يساومون البائعين على أسعار جميع السلع الموجودة، والتي تتراوح بين مواد غذائية بسيطة وسجادات باهظة الثمن. لكن الأعمال أصبحت أبطأ بكثير بعد بدء الثورة. وفي اليوم الذي زرت فيه السوق المسقوفة وقابلت أصحاب المتاجر ، كان النور يغمرها من النوافذ الموجودة في الأعلى.

أخبرني صاحب متجر ثياب طلب مني ألا أذكر اسمه أن السوق "صارت مثل المقبرة. إذ تعتمد كل أعمالنا على الأجانب من الخليج، على السياح". وأضاف أن السياحة لم تتقلص، "بل تلاشت كلياً" [223] . اشتكى صاحب المتجر من أنه لم يرَ أي زبون أجنبـي منذ شهور، ولا يمكنه أن يصدِّر الثياب إلى العراق أو الأردن حيث كان لديه زبائن كثيرون في الماضي. لقد ازدادت كلفة تصدير الثياب كثيراً بسبب هبوط قيمة العملة السورية: "لم يعد بإمكاني المنافسة، إن البضائع في بلادهم أرخص ثمناً".

قال التاجر إنه ظل يؤيد الأسد لفترة طويلة، ولكنه الآن يلوم الرئيس على الويلات التي يشهدها البلد، كما أنه يعتقد أن الشرطة هي التي تسببت في بدء الأزمة حين تم اعتقال الأطفال لكتابتهم الشعارات المعادية للحكومة على جدران مدرستهم في درعا وضربهم: "على الحكومة أن تحاكم الناس المسؤولين عن هذه الأفعال، وأن تحاكم الفاسدين. لو سُجِن رجال الشرطة الذين ضربوا الأطفال لكان هذا الأمر قد أوقف المظاهرات. كل ما نريده هو نهاية الفساد. إن الشباب يناضلون من أجل حقوقهم".

انحنى التاجر إلى الأمام، ثم قال لي بصوت بالكاد يكون مسموعاً إنه يؤيد جماعة الإخوان المسلمين الممنوعة في البلد؛ مشبهاً إياها بالحزب الإسلامي الحاكم في تركيا كما قال: "يريد الإخوان المسلمون إنهاء الفساد".

يقطع هذا الكره للفساد الحكومي حدود الطبقات والطوائف والأديان في سوريا، لأنه يؤثر على الجميع، بمن فيهم المسيحيون المؤيدون للأسد في غالبيتهم.

في آخر سنة 2013، تعرّض طالب جامعي مسيحي يبلغ العشرين من

عمره للخطف في وضح النهار وأمام جامعته في دمشق، وتلقى أبوه مكالمة هاتفية من خاطفيه طالبوه فيها بفدية كبيرة يجب أن تدفع بالدولار الأمريكي كما قال هاكوب؛ وهو عم الطالب وأستاذ في الجامعة، ومن مؤيدي النظام، وقد طلب منا ألا نستخدم إلا اسمه الأول: "إنهم يعتقدون أن كل المسيحيين أغنياء" [224] . تعرّض العشرات من المسيحيين للخطف مقابل فدية حسب ما أخبرني إياه هاكوب وقياديون مسيحيون آخرون. إذ يُنظَر إلى المسيحيين بأنهم أفضل حالاً من الغالبية المسلمة السنية، وقد شعروا بأمان نسبي تحت حكم عائلة الأسد ذي الطابع العلماني. أكمل هاكوب القصة وأخبرني أن عائلة الطالب الشاب تمكنت من التوصّل إلى تسوية مع خاطفيه، وتم إطلاق سراحه بعدها. لم تكتشف العائلة قط هوية خاطفيه، وقال هاكوب إنه من الممكن أن يكونوا ثواراً معادين للحكومة أو مجرمين عاديين. وبحسب المنظمات المعنية بحقوق الإنسان، يقوم الثوار كثيراً بخطف المواطنين في المناطق التي يسيطرون عليها [225] .

تابع هاكوب قائلاً: "أكثر ما نخشاه هو أننا نشك في أن اللجان الشعبية هي التي تقوم بعمليات الاختطاف". في الواقع، إن تلك اللجان ميليشيا موالية للنظام تمّ إدراجها في قوات الدفاع الوطنية في آخر سنة 2012. ويتلقى أعضاء تلك الميليشيا معاشاً وبذلة عسكرية وتسليحاً من الحكومة. تساءل هاكوب: "كيف يمكن لمجموعة من الثوار أن تتسلل إلى المناطق التي يحكم الأمن السيطرة عليها في دمشق وتخطف شخصاً من أمام الجامعة، ومن ثم تأخذه عبر نقاط التفتيش إلى منطقة تسيطر هي عليها؟ إن هذا مستحيل. لا بد أن يكون أحد ما من داخل المناطق من قام بالعملية".

تتزايد المخاطر على حياة مسيحيي سوريا الذين يشكلون 10 في المئة من تعداد سكان البلد البالغ 22.5 مليون نسمة. وينتمي هؤلاء المسيحيون إلى الطائفتين الأرثوذكسية والكاثوليكية. وحين احتل الفرنسيون سوريا ولبنان بعد الحرب العالمية الأولى ووضعوا خطتهم المتمثلة في التفريق بين سكان البلاد لتسهيل السيطرة عليها حيزَ التنفيذ، عاملوا بعض الطوائف المسيحية بشكل تفضيلي؛ فحظي أبناء هذه الطوائف بدخل أعلى ومستويات تعليمية أفضل من تلك التي حظي بها المسلمون. ولا تزال آثار هذه التفرقة ظاهرة حتى اليوم. لكن، في المقابل هناك مجموعة من المسيحيين الذين شاركوا في النضال ضد الاستعمار، وساهموا في إنشاء حزب البعث في أربعينيات القرن الماضي. ترقّى بعض المسيحيين تحت حكم حافظ الأسد

حتى وصلوا إلى مراكز متنفذة في عالم الأعمال، وفي الحكومة، وفي الجيش.

لكل طائفة مسيحية قصتها الخاصة، فالمسيحيون الأرمن هربوا إلى سوريا بعد تعرضهم إلى الإبادة الجماعية على أيدي الأتراك العثمانيين عام 1915 [226] . وبالنسبة إلى هؤلاء، الحرب الأهلية الحالية مأساة مزدوجة، فقد اضطر حوالى ثلث الأرمن - البالغ تعدادهم 120,000 نسمة قبل الحرب - إلى الهرب من سوريا ليصبحوا لاجئين في بلاد أخرى؛ حسب ما قاله لي مطران دمشق وتوابعها للأرمن الأرثوذكس أرماش نالبنديان [227] .

وتعرّض المسيحيون للهجوم أيضاً نتيجة مواقفهم السياسية كما قال الأب سيمون فضول رئيس مؤسسة كاريتاس لبنان؛ وهي مؤسسة خيرية مسيحية. وأوضح الأب فضول أن بعض اللاجئين السوريين في لبنان موظفون في الدولة، وأن آخرين منهم يمتون بصلات قرابة إلى جنود سوريين أو عناصر في المخابرات ولذلك فهم يواجهون الاضطهاد نتيجة آرائهم المؤيدة للنظام. وقال لي الأب فضول: "إنهم يعيشون في خوف دائم. لقد دفع المسيحيون ثمن هذا الصراع بدمائهم" [228] .

تباينت الآراء بين المجتمعات المسيحية المختلفة، ولكن غالبيتها أيدت نظام الأسد ضد الثوار كما أخبرني المطران نالبنديان: "ما يضمن أمن الأقليات وسلامتهم هو وجود حكومة قادرة على العمل، حكومة قوية. هذا هو الأمن الذي جرّبناه ورأيناه تحت حكم الرئيس بشار الأسد" [229] .

حين بدأت الثورة عام 2011، تعاطف الكثير من المسيحيين مع المطالبين بالديموقراطية، ولكنهم أحسوا بالقلق من المتطرفين الإسلاميين الذين لا ينظرون إلى المسيحيين إلا على أنهم كفار يعيشون بينهم. وقال المطران نالبنديان إن المسيحيين أملوا بأن تجري الحكومة إصلاحات كبيرة عبر حوار جاد مع المعارضة، ولكنه بيَّن قائلاً: "لسوء الحظ، خسرت الحكومة تلك الفرصة، أو لم تتمكن من استغلال الفرصة، أو لم تقم باستغلال الفرصة. في الواقع، أجرت الحكومة بعض الإصلاحات بحسب الدستور، ولكنها لم تكن كافية". فعلى سبيل المثال، رفعت الحكومة العمل بحالة الطوارئ ولكنها استمرت في سياستها القمعية، كما أجرت انتخابات برلمانية عام 2012 ولكن لم يكن لدى الجسم المنتخب إلا القليل من الصلاحيات.

في تلك الأثناء، وخلال السنة الأخيرة، تمكّن الثوار المتطرفون من الاستيلاء على المزيد من المناطق. وحين سيطر تنظيم داعش على مدينة الرقة الشمالية عام 2014 مثلاً، أغلق عناصر التنظيم الكنائس، وأجبر معظم المسيحيين على النـزوح (انظر إلى الفصل السادس).

مزّقت الحرب الأهلية العلاقات بين المسيحيين والمسلمين السنة حتى في البلدة الصغيرة التي يقطنها هاكوب. لا تبعد بلدة هاكوب أكثر من 12 ميلاً من وسط مدينة دمشق. ولكن، يجب على هاكوب أن يسير عبر عدد من حواجز التفتيش قبل أن يصل هناك، وصارت الرحلة التي لا تستغرق عادة إلا نصف ساعة بواسطة السيارة تستغرق حوالى ثلاث ساعات، ولا يقوم بها أحد ليلاً؛ نظراً إلى أن الثوار يقصفون الطريق أحياناً بنيران مدافع الهاون والصواريخ.

قال هاكوب: "أنا لا أذهب إلى دمشق بالسيارة إلا مرات قليلة خلال الأسبوع، وعدا عن ذلك أبقى في منـزلي. لا تزعجني نقاط التفتيش، بل أشكر الجنود لأنهم يحموننا". تضمّ بلدة هاكوب مزيجاً من المسيحيين والمسلمين السنة والدروز. وقبل اندلاع الأزمة، كانت هناك علاقات طيبة بين الجميع، وامتدت علاقات الصداقة والعمل لتشمل جميع الفئات الدينية.

يصرح الموقف الرسمي لنظام الأسد بأنه يحارب للحفاظ على علمانية الحكومة. ويزعم مسؤولو الدولة أن غالبية السنة يؤيدون النظام، وأن الجيش لا يحارب إلا المتطرفين أو "التكفيريين"؛ وهو النعت الذي يستخدمه الجيش في الإشارة إلى كل الثوار. لكن هاكوب يُقرّ بأن حقيقة الوضع في المدينة أصبحت مختلفة تماماً، كما قال: "أغلق الجيش القسم السني من البلدة، ولم نعد نرى أياً من السنة إلا في ما ندر. الكل مرتابون فيهم، ويتساءلون: هل هذا إرهابـي؟". وتحطمت المشاعر الودية بين الجيران أيضاً: "أطلب من أولادي ألا يتكلموا في السياسة إلا في ما بيننا كعائلة؛ إذ لا يمكنك أن تعلم من قد يكون أحد الخاطفين". يظهر الجنود عداء خاصاً للسنة؛ لأنهم يشكون في أنهم جميعهم يساندون الثوار كما قال هاكوب: "لأنني أرمني فأنا لا أتعرض للمضايقات عند حواجز التفتيش. إنهم يبحثون عن السنة. في إحدى المرات، سألني جندي عما إذا كنت كردياً لأنني ولدت في الشمال في مناطق الأكراد، فقلت له: لا، أنا مسيحي أرمني! فقال لي: جيد، إذاً أنت واحد منا " [230] .

لكن عبارة "واحد منا" لا تعني أن المسيحي مقبول كند؛ إذ إنّ المسلمين المؤيدين للنظام ينظرون إلى المسيحيين على أنهم "ضيوف" في بلاد إسلامية. وقد قال لي منسق ندوة العلماء المسلمين في عكار والشمال الشيخ عبد السلام الحراش: "نحن نحمي المسيحيين واليهود، وهذا واجبنا كمسلمين ملتزمين" [231] . لكن هاكوب أشار إلى أن سوريا كانت مسيحية قبل أن يتحول غالبية سكانها إلى الإسلام، وأن القديس بولس ارتحل كثيراً في مناطق

صارت جزءاً من سوريا الحديثة، وإلى أن الدين المسيحي انتشر في هذه البلاد بسرعة في فترة الإمبراطورية الرومانية، كما قال: "لقد كانت هذه المنطقة مسيحية قبل أن يأتي المسلمون إليها، ولكنهم لا يزالون ينظرون إلينا على أننا ضيوف. لا نحتاج إلى حماية، بل نحتاج إلى التمتع بحقوقنا كاملة كمواطنين" [232] .

لا يستطيع المسيحيون أن يصلوا إلى المنصب الأعلى في البلد؛ إذ ينص الدستور على أن الرئيس لا بد أن يكون مسلماً، وقد حافظ الدستور الذي عدله بشار الأسد عام 2012 على البنود نفسها في هذا الشأن. يود المسيحيون أن يجري تغيير الدستور حيث يتمكن أي شخص من أي ديانة أن يصبح رئيساً؛ بحسب ما قاله المطران نالبنديان الذي أضاف: "إن هذا البند ليس ديموقراطياً، ولكننا لم نرفع أصواتنا مطالبين بتغييره في الأزمة الحالية" [233] . أظهرت هذه القضية هشاشة العلاقات بين المسيحيين والغالبية المسلمة في المجتمع. وقد تفاقم الوضع نتيجة تعصب إسلاميي المعارضة. ويتذكر هاكوب كيف حاول حافظ الأسد تغيير الدستور القديم عام 1973 كي ينص على أن الرئيس قد يكون من أي دين، ولكن الإسلاميين المحافظين احتجوا حينها، وقتل العشرات في المظاهرات المعادية لحزب البعث التي اندلعت نتيجة هذه المحاولة. قال هاكوب وهو يهز كتفيه: "ولذلك، أنا لست متأكداً إن كان البند الذي ينص على أن رئيس البلد يجب أن يكون مسلماً يعكس سياسة البعث أو الإرادة الشعبية؛ إذ يريد الشعب رئيساً مسلماً" [234] . وقال المطران نالبنديان إن التغييرات الديموقراطية في سوريا تتطلب وقتاً: "ليست الديموقراطية سلعة تشتريها من المتجر، بل إنها عملية متكاملة" [235] .

هُمِّشت قضية المسيحيين الكبرى، أي الحقوق الديموقراطية، وسط تأجج الحرب الأهلية. وفي أحد أيام سنة 2013، اجتمعت العائلات الأرمنية الأرثوذكسية في مدينة دمشق القديمة من أجل جنازة أربعة أطفال لقوا حتفهم نتيجة انفجار قذيفة هاون أطلقها الثوار على مدرستهم. إذ يقصف الثوار المتواجدون في ضواحي دمشق المدينة بشكل دوري، موجّهين قذائفهم إلى أهداف عسكرية في بعض الأحيان؛ وإن كانت تتساقط في الأحياء المدنية في أحيانٍ أخرى. وقد بكت أميرة حنا - وهي قريبة إحدى الضحايا - وهي تصف لي الانفجار: "هرعنا إلى المدرسة لنرى ما حصل، فوجدنا الحافلات مدمرة بالكامل، والدماء متناثرة على الأرض" [236] . انتقد المطران نالبنديان الذي ترأس قداس جنازة أولئك الأطفال الثوارَ الذين يستهدفون

المناطق المدنية عمداً قائلاً: "لا يمكنني فهم أي نوع من الرؤية أو أي نوع من الأيديولوجية لدى أولئك الناس. لكنني أعلم علم اليقين أنهم لا يسعون إلى الحرية أو الديموقراطية كما يقولون، بل إنهم مجرمون في الحقيقة". وأضاف المطران أن قصف المدنيين من دون تمييز يشكل جريمة حرب: "ما يفعلونه ليس ضد الحكومة بل ضد الإنسانية. ولا تصف الكلمات ما أشعر به" [237] .

ولكن الحكومة أيضاً قامت بقصف الأحياء المدنية التي يسيطر عليها الثوار بلا تمييز، وأدى هذا القصف إلى سقوط عدد من الضحايا أكثر بكثير من أولئك الذين تسبب قصف الثوار بمقتلهم. في آخر سنة 2013، اتهمت لجنة تابعة لمجلس حقوق الإنسان التابع بدوره للأمم المتحدة النظام السوري بارتكاب جرائم حرب منهجية ضد المدنيين. وقد شملت هذه اللجنة كارلا ديل بونتي - التي أعلنت سابقاً أن الثوار قد استخدموا مادة السارين لضرب جنود النظام والمدنيين الموالين له - وللمرة الأولى، حمّلت مجموعة حقوقية تابعة للأمم المتحدة الأسدَ شخصياً مسؤولية تلك الجرائم. كما صرحت مفوضة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان نافي بيلاي في مؤتمر صحافي في جنيف بأن "لجنة التحقيق التابعة لمجلس حقوق الإنسان في شأن سوريا قد جمعت كميات هائلة من الأدلة... على جرائم خطيرة للغاية، جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية". موضحة أن "الأدلة تشير إلى أن المسؤولية تقع على عاتق أعلى المستويات الحكومية؛ بمن في ذلك رئيس الدولة" [238] .

ألقت الحرب بظلالها على المجتمع المسيحي في سوريا، فغادر بعض المسيحيين إلى لبنان. والعائلة المؤلفة من مريم وزوجها وطفليها هي إحدى العائلات التي نـزحت إلى لبنان من دون أن تتمكن من جلب أكثر من حقيبة سفر واحدة معها. فقد هربت العائلة من بلدة القصير التي مزقتها الحرب قبل أن تستعيدها القوات الموالية للحكومة. وأخبرتني مريم؛ وهي مسيحية كاثوليكية طلبت مني ألا أستخدم إلا اسمها الأول: "كانت الأعيرة النارية تتطاير في جميع الأماكن، وكانت هناك صواريخ أيضاً. لم يتمكن ولداي من الذهاب إلى المدرسة" [239] .

قبل النـزوح، عانت عائلة مريم من مصاعب شاقة في القصير استمرت شهوراً، ويرجع سبب ذلك بالدرجة الأولى إلى كونهم مسيحيين كما قالت: "لقد أعلنوا من المساجد أنهم يريدون جمع كل الرجال المسيحيين فخافت كل العائلات". وفي إحدى الليالي، دخل رجال ملثمون شقتهم في جزء من

مداهمة كانت تهدف إلى جمع كل الرجال المسيحيين الموجودين في المبنى. لم يكن أولئك الملثمون شبيحة النظام سيئي السمعة، كما لم يكونوا من المحاربين الآتين من بلاد أخرى بنية الجهاد في سوريا، بل كانون ثواراً محليين معادين للأسد يريدون "تطهير" القصير من المسيحيين المؤيدين للنظام. وتحولت المدينة إلى ساحة معركة كبيرة لعب فيها الدين دور الحد الفاصل بين أطراف القتال.

قالت مريم إن العائلة اضطرت إلى المغادرة في آخر الأمر: "لم يكن أمامنا خيار إلا النجاة بحياتنا أو الانضمام إلى القتال الدائر". لذا، نـزحت العائلة إلى زحلة في لبنان وهي مدينة ذات غالبية مسيحية. ليست مريم إلا واحدة من آلاف المسيحيين السوريين الذين هربوا من القتال والذين لم يعرهم المجتمع الدولي الكثير من الانتباه. وقال المطران عصام درويش رئيس أساقفة الفرزل وزحلة والبقاع للروم الملكيين الكاثوليك إن السوريين عاشوا بسلام لفترة طويلة استمرت أجيالاً. وفضّل المطران درويش أن يلوم الجماعات المتطرفة مثل جبهة النصرة والجهاديين الآخرين على العنف المعادي للمسيحيين وقال: "إنهم يعتقدون أن سوريا بلد إسلامي، وأنه يجب على المسيحيين مغادرته، ولكن غالبية السوريين ليسوا على هذه الشاكلة" [240] .

لكن بعض المتطرفين الإسلاميين على هذه الشاكلة بالفعل. وفي الأشهر الأولى من الثورة، بدأ بعض السوريين السنة بترديد شعارات مثل: "العلوي الى التابوت، والمسيحي على بيروت". قال جوزيف، زوج مريم: "لقد سمعنا هذا الشعار. يدّعي الثوار أنهم لم يقولوا ذلك، ولكنك إذا نظرت إلى حقيقة الأمر فستجد أن الشعار صحيح. فأين المسيحيون السوريون؟ إنهم هنا في لبنان" [241] .

لكن كلام جوزيف لم يكن دقيقاً في الواقع، فبحسب إحصائيات الأمم المتحدة، نـزح بعض المسيحيين من سوريا، ولكن بأعداد أقل بكثير من المسلمين السنة الذين اضطروا إلى فعل الشيء ذاته. من بين تسعمئة ألف لاجئ سوري في لبنان لا تتجاوز نسبة المسيحيين 1 في المئة بحسب ما قالته دانا سليمان، المتحدثة باسم المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين (UNHCR) [242] . مع حلول بداية عام 2014 بلغ عدد السوريين الذين هربوا من البلد 2.5 مليون نسمة [243] .

لا يزال غالبية مسيحيي سوريا يتحصنون فيها على أمل أن ينتصر الأسد في نهاية الأزمة. قال الدكتور باسم الشاب - وهو نائب بروتستنتي

لبناني، وعضو في تيار المستقبل - إن دعم الديكتاتوريين في المنطقة تسبب بمشاكل كبيرة للمسيحيين فيها. تيار المستقبل حزب سياسي لبناني يرأسه سعد الحريري، وهو يعارض بشدة بشار الأسد وحليفه اللبناني الأكبر حزب الله. لاحظ الدكتور الشاب أن مسيحيي العراق اصطفوا مع صدام حسين في غالبيتهم، وكما أخبرني: "ويكرر مسيحيو سوريا الآن الغلطة نفسها حين يؤيد الكاثوليك والموارنة في حلب النظام بشكل علني" [244] .

كما أقر الدكتور إيلي الهندي رئيس قسم العلوم السياسية في جامعة "سيدة اللويزة" الواقعة قرب بيروت بأن المسيحيين جانبوا الحكمة حين تحالفوا مع ديكتاتوريين علمانيين ضد الغالبية المسلمة في المنطقة: "فكلما مال المسيحيون إلى طرف ما أو تحالفوا مع أحد الأطراف ازدادت التهديدات التي يتعرضون لها. إذ لا بد لطرف ما أن ينتصر ولآخر أن ينهزم" [245] . وبدلاً من الشكوى من الهجوم الذي يتعرض له المسيحيون في سائر أنحاء المنطقة، شجع الدكتور الهندي المسيحيين على النظر إلى الصورة الأوسع في ما يتعلق بصعود الأحزاب والحكومات الإسلامية: "علينا أن نؤمن أن الديموقراطية وحقوق الإنسان ستعدل الوضع على المدى البعيد". كما أبدى الدكتور الهندي ملاحظته بأن رئيس مصر الإسلامي محمد مرسي قد أسقط عن الحكم، وأن الحركات غير الإسلامية تهاجم رئيس تركيا رجب طيب أردوغان. قد يخسر المسيحيون وحلفاؤهم الانتخابات في البداية، ولكن كما قال: "علينا أن نسعى إلى الفوز في المرة القادمة".

لكن هذا يفترض بالطبع أن الطرف المنتصر في سوريا سيسمح بانتخابات حرة ونـزيهة. وقد قال الأب سيمون فضول رئيس مؤسسة كاريتاس إن الحرب إذا استمرت لفترة أطول بكثير "فلن يبقى للاجئين المسيحيين وطن يعودون إليه". وقال الأب فضول إن المسيحيين واجهوا أزمات كبرى أكثر من مرة من قبل؛ بما في ذلك الحرب الأهلية في لبنان (1975-1990)، ولكنهم يلعبون دوراً سياسياً واجتماعياً واقتصادياً كبيراً: "يحافظ المسيحيون جيداً على الكثير من قطاعات الحياة؛ مثل المصارف والسياحة. لا يجب علينا أن نحصر أنفسنا في زاوية ونختبئ وراء عقد النقص والاضطهاد" [246] . ويتفق الدكتور الهندي مع وجهة النظر هذه، مبدياً تفاؤله باستمرار إسهام المسيحيين في المنطقة: "المسيحيون عامل تنوير واعتدال في المنطقة، وهذه هي الطريقة المثلى لمحاربة التطرف" [247] .

مع حلول منتصف سنة 2014، حافظَ الأسد على تأييد أجهزته القمعية له، تلك الأجهزة التي شكلت عاملاً هاماً في الحفاظ على النظام،

كما اعتمد على تأييد المسيحيين والعلويين له في الجيش والمخابرات. وقد تطرقت سابقاً في الفصل الخامس إلى المقابلة التي أجريتها مع عنصر في شعبة المخابرات العسكرية ، شكّلت المقابلة وجهاً لوجه مع أحد أعضاء جهاز الأمن السري ذاك صدمة لي، فأنا لم أرَ من عناصر المخابرات من قبل إلا الأشخاص المرتدين معاطف جلدية، والواضعين نظارات شمسية كبيرة، الذين ينظرون حولهم في المطارات بطريقة مخيفة، أو الذين يضايقون المدنيين. ولكنني حينها رأيت أمامي إنساناً حقيقياً وليس مجرد صورة نمطية، وكانت وجهة نظره مثيرة للاهتمام بالفعل.

ورغم أنه كان قصيراً وممتلئاً إلا أنه كان صلب الجسم وذا قصة شعر تشبه قصات شعر أفراد الجيش. وكان يرتدي بنطالاً عادياً وقميصاً مفتوح العنق، كما كانت سيارته عادية وغير باهظة الثمن. ينتمي ذلك الرجل - هو وزوجته - إلى الطائفة العلوية. وفي سنة 2011، كان يعيش في مجمع سكني لمتوسطي الدخل بنته الحكومة. وإذا كان بعض عناصر المخابرات يجنون الكثير من المال نتيجة الفساد، فذلك الرجل لم يكن منهم. وقد أخبرني رجل المخابرات ذاك أن المتظاهرين ربما كانت لديهم مطالب مشروعة في البداية، ولكن عناصر إجرامية وقوى أجنبية سرعان ما اختطفت الحركة الاحتجاجية. كما أخبرني أنه تعرض شخصياً لإطلاق النار بكل أنواع الأسلحة النارية من رشاشات الكلاشنكوف إلى بنادق الصيد. وبالطبع، لا يمكن تأكيد هذه المزاعم عبر مصادر مستقلة.

سألته إذا كانت حكومة الرئيس الأسد قد ارتكبت أي أخطاء، وكنت أتوقع منه أن يقرّ بأن الإجراءات القاسية التي تم اعتمادها لم تزد الناس إلا غضباً ونقمة على الحكومة، ولكنه أجاب بجدية تامة: "نعم، لقد ارتكبت الحكومة خطأً واحداً. كان على الحكومة أن تقمع تلك التظاهرات بشكل أقوى منذ البداية. ففي بداية التظاهرات، أخذ المسؤولون مسدساتنا منا كي لا نطلق النار على المتظاهرين، ولم يعيدوها إلينا إلا منذ أيام قليلة" [248] .

فسألته عن سبب قتل ذلك العدد الكبير من المدنيين أثناء التظاهرات إن كان ما يقوله صحيحاً. فكرّر الرجل موقف الحكومة عن مقتل 800 شخص من قوى الأمن، بينما لم يقتل أي مدنيين بالمقابل. وكانت الأمم المتحدة قد قدرت وقتها عدد الضحايا المدنيين بثلاثة آلاف قتيل، لكن قوى الأمن رأت نفسها ضحية لمرتزقة عند القوى الأجنبية، وادّعت أن الولايات المتحدة وبريطانيا والسعودية قد هرّبت السلاح إلى داخل البلد، ثم دفعت

المال للناس كي يتظاهروا. ولكن، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن ملايين السوريين قد شاركوا في المظاهرات فلا بد أن تلك المؤامرة كانت هائلة بالفعل!

ذكرتني الحجج التي استخدمها رجل المخابرات بالطريقة التي تحرّف بها حكومة الولايات المتحدة الحقائق حين تصف حربها على الإرهاب: نحن لا نسجن إلا أسوأ المجرمين في غوانتانامو، ولا تقتل الضربات التي تقوم بها الطائرات بلا طيار إلا الأشرار وليس المدنيين، وحين تكون لدى وكالة الأمن القومي القدرة على الوصول إلى أي مكالمة أو بريد إلكتروني في الولايات المتحدة فإنها في الحقيقة تحمينا من الإرهاب. إن هذا المنطق المعكوس الذي لا يتواجد إلا في قصص ألف ليلة وليلة هو ذاته ما تستخدمه الحكومة السورية؛ حيث يتحول الضحايا إلى مجرمين، والقتلة إلى ضحايا.

أخذني رجل المخابرات في جولة في مدينته. رأيت طابوراً يحتشد أمام مخبز حكومي يشتري منه موظفو الحكومة الخبز بنصف ثمنه. كان هذا حدثاً عادياً ويومياً، ولكن رجل المخابرات بدأ يشعر بالقلق حين أخرجت كاميرتي وبدأت بالتقاط الصور. ورغم أنه كان عضواً في أكثر قوى الأمن إثارة للرعب إلا أنه خشي من أن يراه أحد معي! خرجت لالتقاط الصور، ولكنه حرص على أن لا أتكلم كيلا يكتشف أحد أنني أمريكي؛ إذ إن شكلي يوحي بأنني من الشرق الأوسط، وقد يحسبني من يراني سورياً؛ إلا إذا فتحت فمي لأتكلم. وفي الطريق، قابلنا صديقاً له يعمل في المخابرات أيضاً، ولكنه لم يعرّفه عليّ، فقد كان يخشى أن يبلّغ صديقه عنه لقيامه بنوع من النشاط المحظور. تذكروا، لقد سافرت إلى سوريا وأنا أحمل تأشيرة دخول صحفية وجميع الوثائق الضرورية، ولكن تبيّن لي أنه حتى لو كان الشخص عضواً في المخابرات فهو يخشى عضواً آخر في المخابرات.

ورغم وجود نظام كهذا قائم على الخوف من الدولة، لم يتمكن الجيش وقوى الأمن من سحق الثورة. وفي مرحلة مبكرة جداً من الثورة، قامت مجموعات مسلحة تساند النظام - وهي التي عرفت باسم "الشبيحة" - بمهاجمة المتظاهرين، ومحاولة تخويف المعارضة. في الأصل، كان "الشبيحة" الأوائل مهربين في ميناء اللاذقية غرب البلد في سبعينيات القرن الماضي. وخلال الحرب الأهلية اللبنانية، تحالف الشبيحة مع السلطات السورية لتهريب السلع الاستهلاكية والمخدرات وحتى السلاح [249] . وحين بدأت الثورة، انضم أفراد عصابات الشبيحة إلى قوى الأمن في الهجوم على المظاهرات السلمية، فصار المتظاهرون يشيرون إلى أي مجموعة مشابهة في

أرجاء البلد "بالشبيحة" أيضاً، والتصق هذا اللقب بهم. وجمعت هذه العصابات بين الولاء الأعمى للأسد والإجرام. وقد أخبر واحد من الشبيحة ويسمّي نفسه "أبو جعفر" جريدة "غلوبال بوست": "في البداية، كنا نواجه المتظاهرين، ولكنْ حين صاروا مسلحين بدأنا بالهجوم عليهم في قراهم. وبالإضافة إلى الأجور التي نأخذها، فنحن نسطو على كل ما تقع عليه أيدينا أثناء الهجمات: أجهزة التلفزيون، وأجهزة الفيديو، والأجهزة الإلكترونية" [250] .

في بداية عام 2012، جمع النظام تلك الميليشيات المتفرقة في تجمّع قومي سماه: اللجان الشعبية. وبعد ذلك بسنة، أُدرِجت اللجان الشعبية في قوات الدفاع الوطني. وقدّم الحرس الثوري الإيراني التدريب لقوات الدفاع الوطني جاعلاً منها مجموعة مشابهة للباسيج؛ أي "البلطجيين" المسلحين الذين نالوا سمعة سيئة نتيجة هجومهم على المظاهرات الشعبية في إيران (انظر إلى الفصل الثامن). وتنامت أعداد قوات الدفاع الوطني حتى بلغت نحو مئة ألف شخص مع نهاية سنة 2013 [251] .

وقد أرادت الحكومة من قوات الدفاع الوطني أن تلعب دور الداعم المدني للجيش. فبعد اتباع وسائل مكافحة العصيان التقليدية، كان دور هذه القوات هو الإمساكَ بالمناطق المحررة من الثوار. لكن قوات الدفاع الوطني لم تكن تحمل أي مسؤولية على المستويين القانوني والعسكري. وقد أخبرني المراسل التلفزيوني علاء إبراهيم: "لا توجد لدى قوات الدفاع الوطني الأخلاقيات العسكرية التي تحكم الجيش، كما أنها غير مسؤولة أمام القانون" [252] .

منذ بداية الثورة، كان الشبيحة مسؤولين عن بعض أسوأ فظائع النظام. ففي 25 أيار 2012 مثلاً، بدأ الجيش السوري بقصف عنيف على الحولة؛ وهي قرية صغيرة تقع خارج حمص. وقد انتظر الشبيحة عند مداخل المدينة، وأطلقوا النار على المدنيين الذين كانوا يحاولون الهرب. وحين توقف القصف، دخل الشبيحة القرية، وارتكبوا مجزرة وقع ضحيتها 108 قتلى، من بينهم 34 امرأة و49 طفلاً؛ وكانت أيدي الكثيرين من الضحايا مربوطة وراء ظهورهم [253] . دانت دول العالم مجزرة الحولة، وسحبت سفراءها احتجاجاً عليها، فيما ادعى النظام أن إرهابيين أجانب هم الذين قاموا بها.

وفي 2 أيار 2013، دخل جنود من الجيش النظامي مع ميليشيات قوات الدفاع الوطني بلدةَ البيضا في محافظة طرطوس، وتعرّضوا لإطلاق

النار من قِبَل الثوار المسلحين؛ مما أدى إلى مقتل أكثر من عشرة جنود. عندها، طلب الجنود الدعم، وبدأت قوات الجيش بقصف مدفعي للقرى حول بلدة البيضا وحول بانياس. وفي وقت لاحق، دخلت القوات الحكومية القرية، ومشّطتها بيتاً بيتاً؛ وذبَحت عائلات بأسرها. وقد أظهرت بعض الأفلام أطفالاً قتلى على أسرتهم [254] . قدّر تقرير للأمم المتحدة عدد ضحايا المجزرة بما بين 300-450 قتيلاً؛ سقط غالبيتهم على أيدي القوات الحكومية [255] . أما التقارير الإخبارية التي بثها التلفزيون السوري فقد أفادت بأن الجيش قد هزم عصابة من "الإرهابيين"، ولامت تلك التقارير "الإرهابيين" على الفظائع التي ارتكبت في البلدة.

يجادل مؤيّدو النظام بأن المعارضة تبالغ في رواياتها عن مجازر النظام، بينما يقول آخرون إن المدنيين الذين لا يزالون يعيشون في المناطق التي يسيطر الثوار عليها لا بد أن يكونوا مؤيدين للثوار. وقال علاء إبراهيم الذي أجرى مقابلات دورية مع رجال ميليشيات قوات الدفاع الوطني إن بعض مؤيدي الحكومة يبررون عمليات القتل بقولهم إن المدنيين يوفرون "بيئة حاضنة" للثوار. وقد اختلف إبراهيم بقوة مع وجهة النظر هذه، ولكنه قال إن بعض مؤيدي الحكومة مقتنعون بأنه "إذا لم يغادر المدنيون المناطق التي يسيطر عليها الثوار فهذا يعني أنهم يدعمون الثوار" [256] .

وكشف لي علاء إبراهيم عن وجهة نظر مثيرة للاهتمام في ما يتعلق بالحرب الأهلية. فحين تناولنا القهوة معاً في مساء أحد الأيام في دمشق، أخرج هاتفه الخليوي ليريني بعض الصور الملتقطة لعائلته وأصدقائه في القرية التي ينحدر منها قرب الساحل السوري على البحر المتوسط. ففي الأوقات السعيدة قبل اشتداد الأزمة، استمتع هو والأقارب والأصدقاء بالشلالات الجميلة والجبال ذات المناظر الأخاذة في تلك المنطقة، كما وصف لي العلاقة الطيبة التي كانت تجمع بين الطوائف الدينية المختلفة في القرية. لم تكن هناك مشاكل بين السنة والمسيحيين والعلويين في تلك القرية؛ رغم ازدياد التوتر الطائفي في سائر أنحاء سوريا حسبما أخبرني. لكنه أضاف أن سبب ذلك يرجع إلى أن السنة في قريته معروفون بتأييدهم للأسد، ولذلك لم يقعوا تحت دائرة شكوك النظام.

أما في المدن التي يحارب الثوار للسيطرة عليها، فسرعان ما كانت الأحياء السنية تُطوَّق بالحواجز العسكرية، ويصبح دخولها ممنوعاً في الليل. كما فرض الجيش حصاراً خانقاً على المدن التي يسيطر عليها الثوار، والتي يشكل السنة الغالبية الساحقة من سكانها؛ حيث كان الجيش يمنع دخول

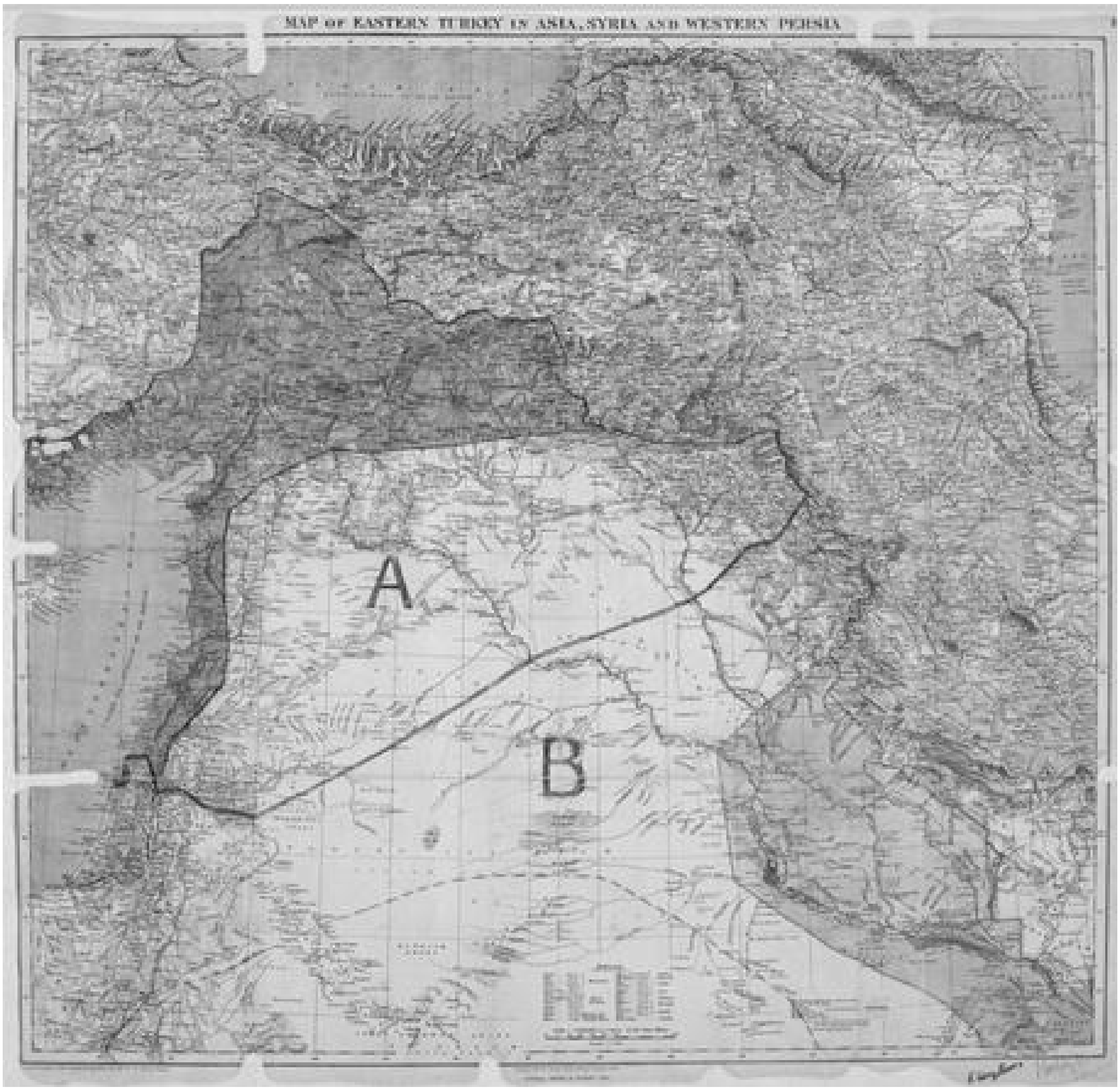
الطعام والدواء والمواد الأساسية الأخرى إليها غالباً. شعر علاء إبراهيم بنوع من التعاطف مع المتظاهرين السلميين في الأشهر الأولى من الثورة، ولكن - كما قال - هيمن الإسلاميون المتطرفون على الثورة من دون أن يتركوا الكثير من المساحة للمعارضة المدنية، كما واجه مأساة شخصية في وقت سابق من السنة. فقد تعرضت أمه - وهي ضابطة في الجيش السوري - للاغتيال على يد قناص من الثوار أصابها بطلقة واحدة من على بعد 1,300 ياردة (حوالى 1190 متراً) بينما كانت تقود سيارتها إلى المنـزل.

إن إطلاق أحد القناصة الرصاص على سيارة متحركة من تلك المسافة أمر غير معتاد. إذاً، كيف عرف القناص طريقها ما لم يساعده أحد في الجيش؟! أدى تحقيق قام به الجيش إلى اكتشاف أن الثوار قد حصلوا على مساعدة من الداخل. وكان اغتيال أم علاء إبراهيم مؤشراً آخر إلى أن الجيش السوري يواجه عدواً متمكناً تقنياً، وذا إمكانات استخباراتية حتى ضمن الجيش.

قال لي علاء إبراهيم إن أيادي خارجية مسؤولة عن الكثير من أعمال العنف، وتوقع أن يستمر الصراع طالما أن الولايات المتحدة والسعودية لا تزالان تمولان الثوار. لكن مناوئي النظام المدنيين والثوار يقولون الشيء ذاته، ولكن بالعكس. فقد قالت لي الناشطة لين: "لولا المساعدات التي يتلقاها الأسد من روسيا وإيران وحزب الله لكان قد سقط سريعاً" [257] .

هذا هو بالضبط ما سنتكلم عنه في الفصل القادم؛ دور إيران وحزب الله في الحرب الأهلية السورية.


الكولونيل توماس إدوارد لورنس المعروف باسم لورنس العرب. كان لورنس ضابط ارتباط بريطانياً، وقد ساهم في الثورة العربية على الإمبراطورية العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى، كما كان من المطالبين باستقلال العرب تحت السيطرة الاستعمارية البريطانية. التقط الصورة لويل توماس عام *1919* .



تظهر هذه الخريطة تقسيم الشرق الأوسط الذي اقترحته معاهدة سايكس-بيكو؛ إذ تقسم المناطق بين الفرنسيين (المنطقة A) والبريطانيين (المنطقة B). وقّعت هذه المعاهدة بشكل سري عام 1916 من دون أي اهتمام بشعوب المنطقة. وقد وقّع كل من سايكس وبيكو على الخريطة أعلاه.

الخريطة من الأرشيف الوطني *MPK I/ 426 , 1916* .



وقّع الدبلوماسي الفرنسي فرانسوا جورج بيكو معاهدة سايكس بيكو بالنيابة عن فرنسا عام 1916 . الصورة من Commons Wikimedia, 1916 .



كان الدبلوماسي البريطاني السير مارك سايكس من فاوض بالنيابة عن بريطانيا في معاهدة سايكس - بيكو. وقد قسّمت المعاهدة المناطق بين القوى الاستعمارية، وتسببت في عقود من الاضطرابات في الشرق الأوسط. صورة التقطها ليوبولد بيليتشوسكي عام *1918* .



قاد سلطان باشا الأطرش الثورة القومية ضد الاحتلال الفرنسي لسوريا بين عامي 1925 و 1927 ، وهي الثورة التي استلهم منها ثوار الأزمة السورية الأخيرة في قتالهم مع نظام الرئيس الأسد. الصورة من المستعمرة الأمريكية في القدس، قسم الصور، *1926* من مكتبة الكونجرس قسم المطبوعات والصور *LC-M 32 - 3398 -A [P& p]* .



هذا الملصق الثوري يظهر صورة محمد البوعزيزي في مسقط رأسه سيدي بوزيد، تونس.



بدأ الرئيس بشار الأسد حكمه بإصلاحات كانت البلاد تحتاج إليها بشدة، ولكنه قمع ثورة 2011 بقسوة وشدة.



يحيي هذا النصب ذكرى محمد البوعزيزي؛ بائع الخضار المتجول، التونسي الشاب الذي أحرق نفسه مشعلاً الشرارة الأولى للربيع العربي.



تظاهر مئات آلاف المصريين ضد نظام حسني مبارك. مظاهرة ميدان التحرير في القاهرة.



مسلمون شيعة يصلّون في مقام السيدة رقية في دمشق. يلوح الشباب

الشيعة بالأعلام ، بينما يقف عناصر لحزب الله وجيش النظام السوري في الخارج لحماية المقام.



الشيخ عبد السلام الحراش الموالي للحكومة الذي يحمل الأفكار الذائعة بضرورة "حماية" المسلمين للمسيحيين. والمسيحيين يقولون أنها نظرة عطف.



الدكتورة وفاء ديب وهي تقف أمام تمثال لحافظ الأسد في طرطوس. في بداية الثورة، تظاهرت الغالبية العلوية من سكان طرطوس تأييداً للنظام وضد إزالة تمثال حافظ الأسد.



مسلمون يصلون في المسجد الأموي في دمشق. رغم ادعاء النظام السوري أنه يدعم الحرية الدينية إلا أنه حاصر الأحياء السنية التي شك في مساندتها للثوار.



أنكر وزير العدل السوري نجم الأحمد أن الحكومة السورية استخدمت أسلحة كيميائية، وقال إن الثوار هم فقط الذين استخدموها.



تمتلك رنا عيسى شركة للعلاقات العامة في دمشق، وتقول إن كبار رجال الأعمال ساندوا نظام الأسد بقوة بسبب اعتماده سياسات تشجع الأعمال منذ بداية حكمه.



في سوق دمشق، يبيع صاحب المتجر هذا العلب المزخرفة، لكنه قال إن زبائنه المعتادين قد توقفوا على المجيء.



قلق عضو المخابرات الذي قابلته من أن يعكس تصويري لطابور الخبز هذا صورة سلبية عن النظام. وفي الواقع، إن الحكومة السورية تقدم الخبز بأسعار مدعومة مما يتسبب في احتشاد الناس في طوابير طويلة في بعض الأحيان.



عام 2011 زرت سوق دمشق الشهيرة لأجد أن الأعمال هناك شبه متجمدة.



رجال دين مسيحيون يحضرون جنازة أطفال أرمن قتلتهم قذيفة هاون ضربت مدرسة مسيحية في دمشق.



يقول مطران دمشق وتوابعها للأرمن الأرثوذكس أرماش نالبنديان إن الثوار

في البداية كانت لديهم مطالب ديموقراطية محقة، ولكن الثوار المتطرفين اختطفوا الثورة لاحقاً. وهو يدعم حكومة الأسد.



إيرانيون تجمعوا لأداء صلاة الجمعة في طهران. تدعم إيران الأسد بقوة بسبب معارضته للولايات المتحدة وإسرائيل.



المؤلف ريس إرليخ يقابل اللاجئة الكردية بارخودان بالو في مخيم مقبلة

الذي يقع في شمال العراق. تريد بالو ومعظم الأكراد حقوقاً أكبر للأكراد ضمن الدولة السورية.



فتاة صغيرة في مخيم اللاجئين في مقبلة الواقعة شمال العراق. قمع الأسد الأكراد لفترة طويلة، لكنهم يخشون المعارضة الإسلامية أيضاً.



يقول القيادي السياسي الفلسطيني مصطفى البرغوتي إن اللوبي الإسرائيلي

في الولايات المتحدة تعرض لهزائم هامة عام 2013 ؛ حيث لم يتمكن من الضغط على الكونغرس لقصف سوريا.



برج مراقبة يطل على الجولان. تريد الغالبية الساحقة من العرب القاطنين في الجولان العودة إلى سوريا، ولكن الأزمة السورية جعلت أي تسوية مستقبلية صعبة المنال.

الفصل الثامن

لماذا تدعم إيران سوريا؟

زرت طهران يوم 12 حزيران 2009. وحين نمت في تلك الليلة، توقعت أن الانتخابات الرئاسية الإيرانية قد حسمت، لكنني استيقظت في صباح اليوم التالي لأجد البلد يغلي؛ إذ انطلقت تظاهرات ومسيرات عفوية، وانتشرت الشائعات واختلطت مع الحقائق عبر الرسائل النصية التي أثقلت خطوط الاتصالات لتزيد من حالة الغليان. وخلال أيام قليلة، تجمّع الملايين من الشعب الإيراني في ما أصبح أكبر تظاهرة في إيران منذ الثورة الإسلامية عام 1979. تساءل الإيرانيون: "أين صوتي الذي انتخبت به؟". واستنتجوا سريعاً أن الانتخابات وقعت ضحية عملية تزييف.

وكان المرشح الإصلاحي مير حسين موسوي قد قاد حملة انتخابية وعد فيها بحريات مدنية أكبر، وبتحسين حالة الاقتصاد، وحركت هذه الحملة المشاعر الطامحة إلى الإصلاح، والتي تنامت ضد النظام عبر عقود حكمه الثلاثة، فعقد مؤيدو موسوي تجمعات ضخمة في طهران وفي جميع أنحاء البلاد. توقع الإيرانيون أن يفوز موسوي بالانتخابات، أو على الأقل أن يتأهل للدورة الثانية من الانتخابات؛ ولكن بدلاً من ذلك أظهرت النتائج الرسمية أن رئيس إيران للفترة السابقة محمود أحمدي نجاد قد فاز بنسبة كبيرة بلغت 62 بالمئة من الأصوات.

انضم رجال الأعمال الأثرياء إلى رجال الدين والنساء من الطبقة العاملة؛ ليس فقط للاحتجاج على تزييف الانتخابات، ولكن لتحدي نظام حكم رجال الدين القائم على ولاية الفقيه من أساسه. وانتشرت "الحركة الخضراء"؛ كما سميت هذه الاحتجاجات في سائر أنحاء البلاد [258] . أراد بعض المحتجين تغيير الدستور الإيراني الذي يضع السلطة العليا بأيدي رجال الدين المسلمين الشيعة، وأراد آخرون إسقاط هذا الدستور كلياً، والعودة إلى النظام البرلماني الذي كان معمولاً به في إيران قبل سنة 1953. ومن الجدير بالذكر أن ما أوقف العمل بذلك الدستور هو أن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية (CIA) دبرت سنة 1953 انقلاباً عسكرياً على حكومة رئيس الوزراء المنتخب ديموقراطياً محمد مصدق، ووضعت السلطة المطلقة بيد الشاه الديكتاتوري المؤيد للولايات المتحدة محمد رضا بهلوي. استمرت الحركة الخضراء حوالى السنة ونصف السنة، ولكن الحكومة سحقتها في آخر

الأمر.

كانت الطريقة التي تم التعامل بها مع الاضطرابات الهائلة في إيران عام 2009 تنذر بردة فعل بشار الأسد على الربيع العربـي عام 2011؛ إذ تعرّض ملايين الإيرانيين الذين احتشدوا في مظاهرات سلمية لهجمات وحشية من السلطات، واتهم قادة البلاد المحتجين بأنهم أدوات للقوى الغربية وإسرائيل، ومن ثم حاول النظام سحق كل أنواع المعارضة. وفي عام 2011، أرسلت الحكومة الإيرانية معدات لمكافحة الشغب إلى السلطات السورية، كما قامت بتدريب قوى الشرطة فيها، وساهمت في إنشاء ميليشيات محلية اتبعت نمط عصابات الباسيج الإيرانية التي لجأت إلى إلحاق الأذى الجسدي بمعارضي النظام وقتلهم. لقد تعلمت السلطات الإيرانية دروسها جيداً من تجربة 2009، ومررت تلك الدروس إلى النخبة الحاكمة في سوريا: عليكم محاولة سحق حركة المعارضة في مهدها، وذلك بضربها بقوة وقسوة .

لم يكن دعم إيران للديكتاتورية السورية أمراً جديداً، فقد بنى البلدان تحالفاً جيوسياسياً يعود إلى بداية الثورة الإسلامية في إيران عام 1979. قد يبدو تحالف ديكتاتورية علمانية مع نظام ديني يقوم على ولاية الفقيه وكأنه شراكة من طراز غريب، ولكن رغم الخلافات الأيديولوجية بين نظامَي الحكم، فقد وحّدتهما معارضة إسرائيل والولايات المتحدة وحلفائها العرب. وقد كان حافظ الأسد يسعى إلى لعب دور قيادي في العالم العربـي، في حين أن إيران كانت تريد أن تستحوذ على قيادة العالم الإسلامي ككل؛ ورغم أن هذين الهدفين متداخلان إلا أنهما ليسا متعارضين بشكل مباشر.

تطورت مصالح إيران الاستراتيجية في سوريا عبر السنين، فقد ساعد الحرس الثوري في إنشاء مجموعة لبنانية شيعية أطلقت على نفسها اسم "حزب الله"، وظلت إيران المصدر الأساسي للمساعدات العسكرية والاقتصادية التي يعتمد عليها الحزب، كما ظل الكثير من تلك المساعدات يمر إلى الحزب في لبنان عبر سوريا. وظل الأسد أيضاً الحليف العربـي الوحيد لإيران، وشكلت سوريا حلقة أساسية من منطقة النفوذ الإيراني التي تمتد من شرق لبنان وعبر سوريا إلى العراق وإيران، ومن ثم إلى غرب أفغانستان.

كما شعرت إيران بأنها مهددة من المحور السني المتحالف مع الولايات المتحدة، والممتد من تركيا إلى الأردن فالسعودية والإمارات العربية المتحدة. وإذا تولّى نظام معادٍ لإيران الحكم في سوريا فإن هذا سيغير الخريطة الجيوسياسية في المنطقة بشكل كبير؛ كما كتب الأستاذ المساعد في

جامعة وبستر في سان لويس جوبين غودارزي: "إذا لم تتمكن سوريا من الاستمرار في كونها حليفة مطلقة لإيران، فلن تسمح لها طهران بأن تتحول إلى عدو؛ ولذلك لدى إيران القدرة على لعب دور تخريبي على المدى بعيد [في سوريا] إذا سقط الأسد في نهاية الأمر" [259] .

عانت سمعة إيران في المنطقة من تراجع كبير؛ فقد أدى تدخلها في الشأن السوري إلى استياء كبير لدى العرب. وقد كانت إيران سنة 2006 تحظى بدعم هائل في الشرق الأوسط نتيجة دعمها لحزب الله في حربه القصيرة مع إسرائيل في صيف ذلك العام. ولكن مع حلول سنة 2013، أظهرت استطلاعات للرأي قامت بها شركة زغبي - وهي شركة أمريكية كبرى تقدم خدمات استطلاع الرأي العام في الولايات المتحدة والشرق الأوسط - أن الغالبية العظمى من المشتركين، وتقريباً في جميع البلاد التي غطتها استطلاعات الرأي يعتقدون أن إيران تلعب دوراً سلبياً في المنطقة. حتى إن 70 في المئة من الفلسطينيين أبدوا رأياً سلبياً في إيران [260] . ويحتاج فهم هذا الانقلاب الكبير في الرأي العام إلى استكشاف بعض نواحي العلاقة الإيرانية-السورية في التاريخ الحديث.

ترك وجه آية الله الخميني بلحيته الكبيرة الرمادية وعمامته السوداء وملامحه الصارمة أثراً عميقاً في نفسيات الأمريكيين، حيث صاروا ينظرون إليه كتجسيد للشر. فقد استولى الخميني مع حلفائه من رجال الدين على السلطة في إيران بعد ثورة شعبية أسقطت الشاه سنة 1979. وقد اقتحم متظاهرون من الطلاب السفارةَ الأمريكية، ثم احتجزوا 55 موظفاً فيها كرهائن لمدة 444 يوماً. انفصل النظام الجديد عن فلك الولايات المتحدة الاقتصادي، ونوَّع مبيعاته للنفط، وأنشأ تحالفات مع الحركات القومية والدينية في العالم الإسلامي؛ وتحوّل الخميني إلى رمز للمعارضة الإسلامية للولايات المتحدة.

لم يكن هناك الكثير من الأيديولوجيات المشتركة بين الخميني والقادة الإيرانيين من ناحية، وبينه وبين نظام حافظ الأسد في سوريا من ناحية أخرى. فقد كان الخميني يعتقد بقوة أن إيران، بل والعالم الإسلامي بأسره يجب أن يُحكَم من قبل "الولي الفقيه العادل". أما الأسد فقد كان رجلاً عسكرياً حصيفاً، لا مكان عنده للحكم الديني، بل كان يريد توحيد العالم العربي تحت مظلة القيم العلمانية للقومية العربية (انظر إلى الفصل الرابع). لكن، كان للرجلين أعداء مشتركون؛ فكلاهما عارضا سياسات الولايات المتحدة ووجود إسرائيل، كما أن كليهما كانا يكرهان نظام البعث العراقي

الذي رئسه صدام حسين. وأصبح فرع حزب البعث الذي يقوده الأسد عدواً لدوداً لحزب البعث العراقي بدءاً من سنة 1966، حيث انشق حزب البعث - الذي كان موحداً قبل ذلك - إلى فرعين، ورأى الأسد في الثورة الإسلامية في إيران سنة 1979 فرصة لإنشاء تحالف جديد في المنطقة، فسارع إلى إرسال هدية إلى الإمام الخميني - وهي مصحف موشى بالذهب - في لفتة تشيد بالنصر الذي حققته الثورة الإسلامية بتوليها الحكم في إيران.

وفي أيلول 1980، شن صدام حسين هجوماً مفاجئاً على إيران تحوّل إلى حرب طويلة استمرت ثماني سنوات. في ذلك الحين، اصطف العالم العربـي بأسره إلى جانب العراق؛ باستثناء سوريا التي دعمت إيران، فأغلقت - سوريا - خطاً لأنابيب النفط العراقي كان يمر في أراضيها، مما كبّد العراق خسائر مالية كبيرة. أما بالنسبة إلى إيران، فقد أرسلت سنوياً مليون برميل نفط إلى سوريا مجاناً، بالإضافة إلى بيعها ثمانية ملايين برميل بسعر تفضيلي؛ مما أعطى دفعة كبيرة للاقتصاد السوري في ذلك الوقت [261] .

وتعزز التحالف الإيراني-السوري في أوائل ثمانينيات القرن الماضي مع تشكيل حزب الله. وقبل ذلك، كان المسلمون الشيعة في لبنان يؤيدون حركة أمل، ولكن القادة الروحيين للحركة لم يتفقوا مع نظرية "الولي الفقيه" التي بنى عليها الخميني نظام حكمه، ورفضوا بالتالي السماح باندراج شيعة لبنان تحت سلطة الخميني. بدأ القادة الإيرانيون بتقويض سلطة حركة أمل وبناء الحزب الجديد، وكذلك سعوا إلى تمديد وجودهم الثوري في كل البلاد التي تحتوي على نسبة كبيرة من الشيعة بين مواطنيها. ففي عام 1981، زار السيد حسن نصر الله الذي لم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره وقتها إيران مع مجموعة من شيعة لبنان. وأرسلت إيران ضباطاً من الحرس الثوري إلى وادي البقاع للمساعدة في إنشاء حزب الله، وعيَّن الخميني السيد علي خامنئي للإشراف على إنشاء المجموعة الجديدة وتطويرها. كان هذا القرار مصيرياً؛ إذ أصبح خامنئي المرشد الأعلى لإيران بعد وفاة الخميني، وقد قال حسن نصر الله لاحقاً إن إيران "قدمت إلى لبنان كل ما تقدر عليه: التمويل والتدريب والمشورة" [262] .

وفي سنة 1982، غزت إسرائيل لبنان بهدف تدمير منظمة التحرير الفلسطينية (انظر إلى الفصل الرابع)، وسرعان ما هزمت كلّاً من منظمة التحرير والقوات السورية في البلد، وسعت بعد ذلك إلى استخدام الأحزاب المسيحية اليمينية كقادة بالوكالة عنها؛ ولكنهم فشلوا في ترسيخ سلطتهم.

وتتهم واشنطن حزب الله بتفجير ثكنات القوات البحرية الأمريكية (المارينـز) عام 1983، والذي أدى إلى انسحاب القوات الغربية من لبنان. أما حزب الله - الذي لم يتشكل رسمياً حتى عام 1985 - فظل ينكر هذا الاتهام. وعبر السنين القليلة التالية، حل حزب الله محل حركة أمل كمنظمة مهيمنة على الطائفة الشيعية في لبنان، ولا يزال الحال كذلك حتى الآن. وقد تصالح حزب الله مع حركة أمل في نهاية الأمر، وشكل الطرفان تحالفاً سياسياً وانتخابياً.

وفي عام 2002، أعلن الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش أن إيران جزء مما أسماه "محور الشر"؛ وهو المحور الذي يضمّ الدول التي زعم بوش أنها تشكل تهديداً لمصالح الولايات المتحدة الحيوية، وهي كوريا الشمالية، والعراق تحت قيادة صدام حسين، بالإضافة إلى إيران. احتلت الولايات المتحدة أفغانستان عام 2001، وبعد ذلك العراق عام 2003؛ فتخلصت عن طريق الصدفة من نظامين معاديين لإيران. لم يكن من المفاجئ أن تتقارب إيران وسوريا مع كل تدخل متتالٍ للولايات المتحدة في المنطقة. وقد ترسخت الروابط الاقتصادية بين إيران وسوريا خلال السنوات الخمس والثلاثين الأخيرة، فافتتحت إيران في سوريا مصنعاً لتجميع السيارات، ومصنعاً للإسمنت، ومحطة لتوليد الكهرباء، واستثمرت في العديد من المشاريع الأخرى فيها. وتزايدت صادرات إيران إلى سوريا من 35.7 مليون دولار عام 2000 إلى 387.4 مليون دولار عام 2010. أما الصادرات السورية إلى إيران فقد تضاعفت عشرين مرة خلال الفترة نفسها [263] . ولكن، في حين أن هذه الروابط الاقتصادية كانت مربحة للطرفين فهي لم تكن جوهر التحالف.

لكن، لم يخلُ "زواج المصلحة" هذا بين سوريا وإيران من "المشاحنات الزوجية". ففي وسط ثمانينيات القرن الماضي، ساندت سوريا حركة أمل في لبنان، أما إيران فقد فضلت حزب الله. كما أرسلت سوريا قوات عسكرية لدعم التحالف الدولي الذي قادته الولايات المتحدة في حرب الخليج عام 1991، بينما ظلت إيران على الحياد. وظل التباين كبيراً بين قائدَي البلدين على المستوى الأيديولوجي؛ فلم يقم آية الله الخميني بدعوة حافظ الأسد إلى طهران قط؛ لأنه ورغم التحالف بينه وبين الرئيس العلماني إلا أنه لم يثق به. ولم يزر بشار الأسد طهران إلا عام 2008، أي بعد مرور سنين طويلة على موت كل من الخميني وحافظ الأسد. ولكن، رغم هذه التباينات، احتفظ البلدان بالتحالف الذي وحّدهما في مواجهة الولايات

المتحدة وحلفائها.

شكّلت سوريا مع إيران وحزب الله وحركة حماس الفلسطينية ما سُمِّي بجبهة المقاومة والممانعة للوقوف في وجه سياسات الولايات المتحدة وإسرائيل في المنطقة. وكان لهذه الجبهة بعض النجاحات، فقد أجبرت إسرائيل على سحب قواتها من جنوب لبنان عام 2000، كما صدّت محاولة إسرائيلية جديدة لغزو ذلك البلد عام 2006؛ بحسب ما قاله حسين رويوران رئيس اللجنة السياسية في جمعية الدفاع عن الشعب الفلسطيني؛ وهي جمعية إيرانية مركزها طهران. وأضاف رويوران في مقابلته معي أن إيران اليوم حليف أساسي لسوريا، وأن "إيران هي مركز هذا الحلف" [264] .

أثار دور إيران القيادي في جبهة المقاومة قلق صانعي القرار في الأمم المتحدة، وفي شهادتها أمام مجلس الشيوخ الأمريكي قالت وكيلة وزارة الخارجية الأمريكية للشؤون السياسية وندي شيرمان: "تقوم إيران اليوم بتدريب نظام الأسد، وتسليحه، وتمويله، ومساعدته، وتحريضه في قمعه الوحشي لشعبه. لقد كانت إيران واضحة في إبدائها تخوّفها من فقدانها أقرب حلفائها، ولن تتوقف عند أي ثمن يتحمله الشعبان السوري والإيراني لدعم نظام الأسد" [265] .

لكن قائدي الولايات المتحدة وإيران يتفقان على شيء واحد؛ وهو أن سقوط الأسد يعني ضعف نفوذ إيران الإقليمي بشكل كبير. وقد أخبرني البروفيسور فؤاد إيزدي أثناء مقابلتي إياه أنه ومنذ بداية الثورة كانت إيران قلقة من أنه "إذا سقطت حكومة الأسد فإن البديل ستكون لديه علاقات أقوى بكثير مع حكومتي الولايات المتحدة وإسرائيل؛ هذه هي الإشكالية التي تواجهها إيران" [266] .

ظل نظام طهران راضياً عموماً عن جبهة المقاومة حتى بداية الربيع العربي. لم يعد القادة الإيرانيون يتكلمون كثيراً عن هذا الموضوع الآن، ولكنهم كانوا سعداء حين بدأت الثورات العربية؛ فقد قالوا عن الربيع العربي إنه "صحوة إسلامية" ضد الأنظمة العلمانية الفاسدة التي يدعمها الغرب. وأملت إيران في أن تكون الأحزاب الإسلامية المحافظة مثل الإخوان المسلمين أكثر ودية تجاهها من الأنظمة الديكتاتورية القديمة الموالية للغرب، فحاولت جس نبض الجماعات المعارضة في بلاد الربيع العربي. وأخبرني البروفيسور إيزدي أن إيران وحزب الله يتفهمان وجود فروقات أيديولوجية كبيرة بينهما وبين الجماعات السنية المعارضة، ولكنهما رغم ذلك أملا في

بناء علاقات ودية مبنية على أساس الدين المشترك بين جميع الأطراف كمسلمين، وعلى أساس الاشتراك في معارضة الولايات المتحدة: "إن الوضع المثالي سيكون بوجود حكومة دينية [سنية] متسامحة مع إيران" [267] .

ذكر إيزدي حركة حماس؛ كمثال على جماعة سنية تعاونت مع إيران وشكلت معها علاقة تجاوزت الحدود المذهبية والأيديولوجية: "إن جماعة دينية سنية على علاقة ودية مع إيران مثل حماس أفضل بكثير من حكومة علمانية". ولكنه أقر بأن هناك مشكلة كبيرة في هذا المثال، فقد ظلت حماس على تحالف قريب مع دمشق لسنين طويلة، ولكن العلاقات انقطعت بين الطرفين حين ساندت حماس الثورة السورية عام 2011. وفي النهاية، أغلقت حماس مقراتها في دمشق، وانتقلت إلى قطر (انظر إلى الفصل التاسع).

وهكذا، تسببت الثورة السورية منذ بدايتها في إشكالية كبرى أمام إيران؛ إذ لا يمكنها التخلي عن الرئيس الأسد - أقرب حلفائها العرب - ولكنها إذا عارضت الثورة الشعبية ضده فستفقد مصداقيتها في الشارع العربي. وبحسب ما قاله أليكس فاتانكا الأستاذ الزائر بمعهد الشرق الأوسط في واشنطن العاصمة: "لم ترغب إيران في لعب دور الداعم لنظام الأسد وهو يقتل شعبه في الوقت الذي تصاعدت فيه الآمال بحدوث تغيير ديموقراطي في الشرق الأوسط" [268] .

خلال الأشهر الأولى من الثورة، اجتمعت إيران مع قادة المعارضة السورية ومع الرئيس الأسد للوصول إلى اتفاق سياسي. وأخبرني البروفيسور إيزدي أن مسؤولي الحكومة الإيرانية نصحوا الأسد بأنه "سيكون من الحكمة إجراء انتخابات حرة وعادلة". فإذا فاز الأسد فسيكون حاكماً شرعياً، وإذا خسر فسيكون البعثيون "لاعبين سياسيين أساسيين كما هو حال حزب الله في لبنان. فإما أن تفوز بالانتخابات، أو تكون حزباً معارضاً قوياً". ولكن، وبحسب ما قاله إيزدي، رفض السوريون هذا الخيار: "لقد ظنوا أنهم قادرون على قمع الثورة" [269] .

أما المعارضة السورية فقد رفضت هذا العرض بدورها لأنها لم تكن تثق في الأسد ولا في إيران. ولم يرغب الأسد في مشاركة السلطة مع أحد قط، فما بالك بأن يستقيل منها كما كانت المعارضة تطلب منه؟ ولمّا فشلت جهود القادة الإيرانيين في الوساطة في النـزاع، ألقوا بكامل ثقلهم خلف الأسد؛ لكنْ لم يكن من السهل إقناع الشارع العربـي بموقف إيران.

في شباط 2012، عقدت السلطات الإيرانية مؤتمراً في طهران أسمته

"الملتقى الدولي للشباب والصحوة الإسلامية العالمي"، حيث دعت أكثر من ألف ناشط من جميع أنحاء الشرق الأوسط إلى المؤتمر، ورحّب منظمو المؤتمر بالثورات التي وافقت هواهم، ولكن القادة الإيرانيين لم يسمحوا بأي نقاش حول الثورة السورية؛ زاعمين أنها ليست ثورة بل مؤامرة غربية. وقال الرئيس الإيراني محمد أحمدي نجاد في الكلمة التي ألقاها أمام الحاضرين في المؤتمر: "علينا جميعاً أن نكون حذرين... فالغربيون يحاولون اليوم بث الاختلافات الطائفية والقومية في المنطقة من أجل إنقاذ الكيان الصهيوني (إسرائيل)... على سبيل المثال، يريدون اليوم توجيه ضربة إلى سوريا عبر إحدى الدول، وبعد سوريا، سيصل الدور إلى هذه الدولة نفسها" [270] .

لكن الجهود التي بذلت أثناء المؤتمر لعزل الثورة السورية عن باقي ثورات الربيع العربي فشلت. فقد حمل ناشط شاب لافتة كُتب عليها: "سوريا؟"، ولاقت لفتته تصفيقاً حاراً وحماسياً قبل أن تتلوها هتافات استهجان من الحاضرين المعبرين عن الموقف الرسمي [271] . وعكست هذه الواقعة الخلاف العالمي حول دعم الأسد أو معارضته. وهناك جدل كبير أيضاً في ما يتعلق بدور الدين في الحرب الأهلية؛ إذ يقول بعض المحللين إن الحرب تضع الغالبية السنية في وجه الأقليات الشيعية والعلوية، وتعكس عداوة استمرت قروناً، بينما يقول آخرون إن الحرب الأهلية سياسية وليست دينية. ولكن، وكما اكتشفت في زيارتي لطهران عام 2013، كلا الجانبين يستخدمان الدين لجمع أنصارهما حولهما ولإضفاء صورة الشر على أعدائهما.

جلس بائع الأشرطة الدينية سيد محمد حسيني خلف منضدة متجره في طهران، وفسّر لي سبب دعمه لبشار الأسد وهو يبتسم: "أنا أدعم كل الشيعة في كل العالم؛ بمن في ذلك القائد الشيعي بشار الأسد" [272] . لكنه بدا في حيرة من أمره حين بيّنت له أن الأسد علوي وليس شيعياً؛ إذ لا يعرف معظم الإيرانيين بوجود الطائفة العلوية لأن لا وجود لها يذكر في إيران. العلويون طائفة صغيرة ولكنها قوية في سوريا، وقد بدأت الطائفة العلوية كجماعة منشقة عن المسلمين الشيعة قبل قرون. وحين سمع مني حسيني هذه المعلومات هز رأسه وقال: "هذا جيد بما فيه الكفاية".

على المستوى الخارجي، يقول القادة الإيرانيون إنهم يدعمون الأسد كدرع أمام إسرائيل والولايات المتحدة والثوار السنة المتطرفين. أما داخل إيران، فهم يجمعون مؤيدين من أمثال حسيني تحت راية الدفاع عن المسلمين الشيعة أمام من يشيرون إليهم "بالتكفيريين" أو المسلمين السنة

المتطرفين. رأى الكثير من الإيرانيين في الحرب الأهلية في سوريا هجوماً على الشيعة في المنطقة ككل؛ بحسب ما أخبرني به البروفيسور إيزدي الذي أضاف أن بعض الناس شديدي التدين في إيران يرون أن "السلفيين [السنة المتطرفين] يهددون بتفجير مقامات الأئمة، ولكن ليس لديهم العلم الكافي كي يدركوا أن حكومة الأسد ليست حكومة شيعية، وأنها في الواقع علمانية" [273] .

هبّت بلاد وأحزاب سياسية مختلفة للاصطفاف إما مع الأسد أو مع الثوار؛ عاكسة الانقسام السني-الشيعي من ناحية، والمصالح الجيوسياسية من ناحية أخرى. إذ يساند القادة الشيعة في العراق وحزب الله وإيران الأسد، وتقف معهم روسيا المسيحية الأرثوذكسية، بينما يساند السنة في تركيا والسعودية وقطر الثوار مع أمريكا غير المسلمة.

في البداية، برر كل من إيران وحزب الله دعمهما للأسد بحجة حماية المقامات الشيعية؛ وهو أمر يتعاطف معه الشيعة في أنحاء العالم كافة. وكانت إيران قد قدمت دعماً حكومياً للشيعة ليتمكنوا من زيارة مقام السيدة زينب القريب من دمشق، موفرة للزوار تذاكر طيران وإقامات فندقية زهيدة الثمن.

زرت شخصياً مقام السيدة زينب قبل ثورة 2011. تبرز قبة المقام الذهبية الرائعة من مسافة بعيدة، بينما تتجمَّع الفسيفساء على جدرانه في تصاميم متشابكة. وصل المئات من الزوار الشيعة من إيران والعراق ولبنان يوم زيارتي. كان على النساء أن يرتدين الشادور .

لمقام السيدة زينب أهمية دينية كبيرة؛ إذ يقال إنه يحتوي جثمان السيدة زينب حفيدة النبـي محمد (صلعم). ويعتبر المقام موقعاً يجله كل المسلمين، ولكنه ذو أهمية خاصة عند الشيعة؛ لأن السيدة زينب هي أخت الإمام الحسين، كما أنها دعت إلى الثورة والخروج على الحاكم الظالم. يزور الشيعة مقام السيدة زينب بقدر ما يزور المسيحيون الكاثوليك مدينة لورد في فرنسا أو مدينة القدس القديمة.

ضرب النداء لإرسال قوات لحماية السيدة زينب على وتر حساس لدى الكثير من الشيعة الذين لم ينسوا أن متطرفين سنة فجروا مرقد الإمام العسكري في سامراء (الواقعة على بعد حوالى ثمانية أميال شمال بغداد) عام 2006. أدى تفجير مرقد الإمام العسكري إلى هجمات ثأرية ضد السنة، وكان الحدث الذي أشعل فتيل الصراع المذهبـي في العراق. وقال لي حسين رويوران الناشط الإيراني لأجل القضية الفلسطينية: "أردنا منع حصول سامراء

جديدة منذ البداية. إذ إن المقام [مقام السيدة زينب] ذو قيمة معنوية كبيرة، وأي تدنيس له كان سيؤدي إلى صراع بين الشيعة والسنة؛ لذا أرسل حزب الله قوات لحمايته" [274] .

لا يبعد مقام السيدة زينب إلا نصف ساعة بواسطة السيارة عن وسط مدينة دمشق على طريق المطار، ولكن خلال زيارتي لدمشق عام 2013، علمت أنه لم يعد أحد يزور المقام هذه الأيام؛ أخبرني بذلك فادي برهان المتحدث باسم حوزة الإمام الخميني في السيدة زينب. لقد توقف الأجانب عن الزيارة منذ زمن بعيد، وكثيراً ما يتعرض طريق المطار للإغلاق بسبب القتال؛ مما يجعل الرحلة مستحيلة حتى بالنسبة إلى السوريين. وأضاف فادي برهان بلهجة لا تخلو من الخجل: "لا يزورنا إلا بعض أهالي المنطقة". وكثيراً ما يقصف الثوار الحي المجاور للمقام بقذائف الهاون، بينما تحمي قوات من الجيش السوري وحزب الله المنطقة، وأضاف برهان قائلاً: "يقصف الثوار الأحياء الشيعية بالمدافع لأنها موالية للنظام" [275] .

يمثّل فادي برهان شريحة من السوريين الذين ينتقدون حكومة الأسد لأنها لم تضرب الثوار بالقسوة اللازمة. وقال إن الأسد يستخدم استراتيجية صحيحة؛ إذ يحارب الثوار "الإرهابيين"، لكنه ارتكب أخطاء تكتيكية: "لم تضربهم الحكومة بالقوة الكافية، كان عليها ضرب الإرهابيين بيد من حديد منذ البداية".

في منتصف عام 2013، شكلت الحكومة لجنة لتفاوض الجماعات المعارضة على تسوية. قال الثوار إن لجنة المصالحة الوطنية عديمة الجدوى، أما برهان فقد زعم أن هذه اللجنة تسعى إلى استرضاء المعارضة أكثر مما ينبغي: "حين يحاصر الجيش منطقة ويقرر ضربها بقوة، يتدخل بعض وسطاء لجنة المصالحة الوطنية ويمنعون الهجوم على الإرهابيين". لكن هذه وبكل تأكيد ليست وجهة نظر عشرات آلاف المدنيين المحاصرين في المدن الكبرى؛ حيث يمنع الجيش السوري عنهم الغذاء والماء والدواء.

ومع حلول سنة 2013، أصبح من الواضح أن الجيش السوري غير قادر على إحراز النصر في هذه الحرب من دون مساعدة خارجية. فصحيح أن لدى نظام الأسد جيشاً كبيراً ومسلحاً جيداً، إلا أنه مدرب لخوض الحروب التقليدية، وأثبتت الأحداث قلة فعاليته في قتال الشوارع الذي تتطلبه حروب مكافحة العصيان. وبحسب ما قاله حسين رويوران، لقد دخل ما بين 6,000 و8,000 من عناصر حزب الله القتال بدءاً من منتصف سنة 2013. لكن الحصول على أرقام دقيقة أمر مستحيل نظراً إلى السرية التي

تحيط بهذه المعلومات. وقد لعب حزب الله دوراً حاسماً في النصر الذي أحرزه الجيش السوري في بلدة القصير في الغرب قرب حدود لبنان في حزيران 2013، لكن التكتيكات الوحشية التي استخدمها الجيش صدمت حتى حليفه حزب الله كما رأينا في الفصل السادس.

صعّد حزب الله وإيران من تدخلهما في الأزمة السورية؛ لأن نظام الأسد واجه سلسلة من النكسات العسكرية. فمع حلول سنة 2012، كان الثوار قد سيطروا على كامل المحافظات الشمالية في سوريا، وفي تموز من السنة نفسها أدت قنبلة فجرها الجيش السوري الحر في مقر للمخابرات إلى مقتل وزير الدفاع داود راجحة وحسن تركماني وآصف شوكت؛ وهو زوج أخت الأسد وضابط أمني رفيع المستوى. وبسبب هذه الحادثة الأخيرة، اضطر الجيش والقوى الأمنية إلى وضع حواجز تفتيش في جميع مناطق دمشق.

أرسلت إيران مئات الخبراء بحرب المدن إلى سوريا، وافتخر قادة الحرس الثوري علناً بتدريبهم الميليشيات الموالية للأسد التي عرفت باسم الشبيحة. وقال الفريق محمد علي جعفري قائد الحرس الثوري الإيراني: "إن الدفاع عن سوريا موضع فخر لإيران" [276] .

أنشأ الحرس الثوري أيضاً معسكراً خارج طهران لتدريب العلويين الموالين للأسد مع اللبنانيين الشيعة المنتمين إلى حزب الله، وانقسم المقاتلون إلى مجموعات من ستين شخصاً يتدربون كقناصة أو مشغلي مدافع رشاشة ثقيلة أو في اختصاصات حربية أخرى. وبحسب ما قالته صحيفة "وول ستريت جورنال"، تلقى المقاتلون في ايران تدريباً أفضل من ذلك الذي تلقوه من السوريين. وأخبر أحد المتدربين الصحيفة: "قبل [هذا التدريب] كنت لا أصيب الأهداف إلا بنسبة 50 في المئة، أما الآن فيمكنني إصابتها بنسبة 90 في المئة" [277] .

لكن الشكوك في فعالية التدريب سرعان ما تصاعدت حين عاد رجال هذه الميليشيات إلى سوريا. فقد كان يفترض بهم أن يحكموا السيطرة على المدن بعد استعادة قوات الجيش النظامي لها، لكن الكثير من المصادر أشارت إلى أن هذه الميليشيات غير منضبطة وغير مسؤولة وسرعان ما تورطت في أعمال إجرامية مثل الخطف مقابل الفدية المالية (انظر إلى الفصل السادس). حاولت الحكومة السورية أكثر من مرة أن تعيد تنظيم هذه الميليشيات لجعلها قوة أكثر فعالية، لكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل.

اعترفت طهران بإرسال مستشارين عسكريين إلى سوريا، ولكنها أنكرت إرسال أي قوات عسكرية على الأرض. وقال حسين رويوران إن إرسال المستشارين العسكريين أمر قانوني بالاستناد إلى بنود معاهدة قديمة بين البلدين، ثم أضاف: "لو أرسلنا قوات عسكرية لعاد القتلى إلى أرض الوطن، لكن لم تكن هناك أي جنازات". وفي المقابل، تقول المصادر الغربية إن إيران عززت تواجد الحرس الثوري في سوريا بشكل كبير، وتضمّن ذلك إرسال قوات عسكرية بالفعل. وقالت صحيفة "وول ستريت جورنال" إن قياديي الجيش السوري الحر جمعوا هويات الجنود الإيرانيين القتلى في المعارك [278] .

كما عززت إيران روابطها الاقتصادية مع سوريا في عدة قطاعات. ففي الوقت الذي كانت فيه إيران تعاني من وطأة العقوبات التي فرضتها عليها الولايات المتحدة، منح البنك المركزي الإيراني النظام السوري خطاً ائتمانياً بقيمة 3.6 بلايين دولار لشراء النفط الخام وغيره من المنتجات البترولية الإيرانية، كما اتفق البلدان على إنشاء "خط غاز الصداقة" ما بين إيران والعراق وسوريا، والذي يمتد لمسافة 3,500 ميل من إيران إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط في لبنان. لكن الحرب الأهلية أوقفت إنشاء الخط [279] .

سبّب تزايد المساعدات العسكرية والاقتصادية لسوريا جدلاً واسعاً داخل إيران؛ فقد تعاطف عدد كبير من ناشطي الحركة الخضراء الإيرانية مع المعارضة السورية في الأيام الأولى للثورة، وبالتالي عارضوا دعم إيران القوي للأسد. لكن هذا التعاطف سرعان ما تبخر مع تزايد قوة الجماعات الإسلامية المتطرفة في الثورة المسلحة كما قال الصحافي والناشط السياسي عباس عبدي. شارك عبدي في الاقتحام الذي قام به الطلبة الإيرانيون للسفارة الأمريكية عام 1979، ولكنه تحوّل لاحقاً إلى قيادي في الحركة الإصلاحية في إيران. وصف عبدي نفسه كإصلاحي وليس كعضو في الحركة الخضراء المحظورة، وقال عبدي وهو يضحك: "إن المعارضة الإيرانية في حيرة من أمرها؛ لأن لدى الثوار لحى طويلة بينما يرتدي مؤيدو الأسد ثياباً أنيقة" [280] .

ولكن قادة إيران واجهوا معضلة أيضاً؛ فقد فشل الأسد في إحراز النصر العسكري، كما أن أساليبه ازدادت وحشية. وفي حزيران 2013، انتخب الشعب الإيراني رئيساً معتدلاً نسبياً هو حسن روحاني، واعتقد البعض أنه سيغير من السياسات الإيرانية في سوريا. ووصل الأمر إلى ذروته حين انتقد بعض قادة إيران المهمّين النظام السوري في آخر آب وأول أيلول من سنة

2013؛ أي بعد أن تحولت حادثة استخدام الأسلحة الكيميائية إلى أزمة عالمية كبرى.

ألقى رئيس إيران السابق علي أكبر هاشمي رفسنجاني خطاباً قال فيه: "لقد قاسى الشعب السوري الكثير في العامين الماضيين؛ فالسجون مكتظة، وتم تحويل الملاعب إلى سجون، ويكشف مقتل أكثر من مئة ألف شخص وتشريد الملايين عن المحنة التي تعيشها سوريا أكثر من أي وقت مضى". كان هذا أول مسؤول إيراني رفيع المستوى يقر بأن حكومة الأسد مسؤولة عن ضربات السلاح الكيميائي التي حدثت في ذلك الوقت، إذ قال: "كان الشعب هدفاً لهجمات بالأسلحة الكيماوية من قبل حكومته" [281] .

وفي أيلول، انتقد وزير الخارجية الإيراني الجديد محمد جواد ظريف الأسد أيضاً. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يقوم فيها مسؤول حكومي بهذا الأمر أثناء خدمته في منصبه. وقد قال ظريف لصحيفة إيرانية: "نعتقد أن الحكومة السورية قد ارتكبت أخطاء كبيرة مهدت - للأسف - الطريق للاعتداء الذي تتعرض له البلد" [282] . ولكن، هل تغيرت السياسة الإيرانية في سوريا؟ علينا أولاً أن ننظر إلى السياق الأوسع في ما يتعلق بعلاقة إيران مع الولايات المتحدة والغرب.

اعتبرت الإدارات المتعاقبة في الولايات المتحدة إيران مصدر تهديد كبير لمصالح أمريكا القومية؛ فقد كان نظام الشاه الموالي للولايات المتحدة حامياً لشركات النفط الأمريكية، ومتحالفاً مع إسرائيل، ويعمل كشرطي إقليمي ضد أي ثورة مناهضة للإمبريالية في المنطقة. وقد أطاحت ثورة عام 1979 بالشاه ونظامه، وجلبت إلى السلطة بدلاً منهما رجال دين استبداديين عارضوا كلاً من الإمبريالية الأمريكية والشيوعية. وبالإضافة إلى ذلك، كان رجال الدين أولئك يأملون في نشر نظرتهم الخاصة والمتطرفة إلى الإسلام في المنطقة.

في البداية، اتهمت الولايات المتحدة إيران بإذكاء نيران "الإرهاب"؛ مشيرة إلى إنشائها ودعمها مجموعات مثل حزب الله في لبنان. ولكن في منتصف تسعينيات القرن الماضي، استحدثت الولايات المتحدة وإسرائيل خطاً هجومياً جديداً وأكثر إثارة للفزع؛ إذ أصرّتا على أن إيران على وشك صنع قنبلة نووية خاصة بها. وفي عام 1995، قال "مسؤول أمريكي رفيع" إن إيران لا تبعد إلا خمس سنوات عن امتلاك القنبلة النووية. وفي عام 2006، قدرت وكالات الاستخبارات الإسرائيلية أن إيران قد لا تكون إلا على بعد سنة واحدة من امتلاك القنبلة [283] . كانت إيران تطور قدرات

لتخصيب اليورانيوم بالفعل، ولكن من أجل توليد الطاقة الكهربائية، ولم تشر الوكالة الدولية للطاقة الذرية التابعة للأمم المتحدة ولا الوكالات الاستخباراتية الأمريكية في أي يوم إلى أن لدى إيران برنامجاً للأسلحة النووية. وبالرغم من ذلك، تظل الولايات المتحدة وإسرائيل وبعض الدول الأوروبية متشككة في هذا الأمر نتيجة إصرار إيران على الحفاظ على برنامجها لتخصيب اليورانيوم.

أصرت كل من الولايات المتحدة وإسرائيل على أن "كل الخيارات" مفتوحة أمامهما لإيقاف برنامج إيران النووي، بما في ذلك القصف الجوي المكثف. ولكن الحقيقة هي أن إيران لن تشن هجوماً عسكرياً على إسرائيل أبداً. فقد كان بإمكانها فعل ذلك منذ زمن بعيد باستخدام الصواريخ بعيدة المدى والطائرات القاذفة، ولكن هجوماً كهذا كان سيؤدي إلى انتقام مدمر من كل من الولايات المتحدة وإسرائيل. قد يكون قادة إيران يكنون الكثير من العداء لهاتين الدولتين، إلا أنهم ليسوا مجانين. وما يقلق الولايات المتحدة وإسرائيل هو أن إيران إذا طورت قدرات نووية فإن الهجوم الأمريكي أو الإسرائيلي عليها سينطوي على مخاطر أكبر (انظر إلى الفصل العاشر).

ومع حلول آخر 2011، صعّد الغرب من حدة العقوبات التي يفرضها على إيران. فعلى المستوى الرسمي، استهدفت هذه العقوبات القادة الإيرانيين والصناعات الأساسية في البلد وليس عامة الشعب. وقد قالت وكيلة وزارة الخارجية الأمريكية للشؤون السياسية وندي شيرمان لمجلس الشيوخ الأمريكي: "تتضمن أنظمة الولايات المتحدة استثناء واضحاً لأي معاملة تتعلق ببيع السلع الزراعية والغذاء والدواء والمعدات الطبية من العقوبات". ثم أضافت: "لقد أظهرنا أن دعم الشعب الإيراني والضغط على سياسات حكومته لا يتنافى أحدهما مع الآخر" [284] .

لكن مسؤولين آخرين في حكومة الولايات المتحدة أقروا أن الهدف الحقيقي للعقوبات هو جعل أحوال عامة الشعب أسوأ كي يكونوا هم الطرف الذي يمارس الضغط على الحكومة من أجل إجراء إصلاحات فيها. وفي أوائل سنة 2012، نقلت صحيفة "واشنطن بوست" عن "مسؤول استخباراتي أمريكي رفيع" قوله إن العقوبات "ستولّد شعوراً بالكراهية والسخط على مستوى الشارع؛ مما سيجعل قادة إيران يدركون أن عليهم تغيير أساليبهم" [285] . أحد الأسباب الأخرى للضغوط التي تمارسها الولايات المتحدة على إيران هو دفعها لإيقاف دعمها لنظام الأسد. يترك الكلام عن

استراتيجية جيوسياسية كهذه أصداء عميقة في أبراج السلطة في الولايات المتحدة. لكنْ على الأرض، إن التكتيكات التي اتبعتها الولايات المتحدة خلّفت آثاراً مدمرة على الشعب الإيراني؛ كما كشفت لي زيارتي إلى طهران في حزيران 2013.

في كل يوم من أيام الأسبوع، ينتظم عشرات الأشخاص في طوابير طويلة أمام صيدلية "13 آبان" في وسط العاصمة طهران التي تديرها الحكومة. وتشكّل الصيدلية أمل الناس الأخير في الحصول على الأدوية غير المتوفرة. وقد صرخ رجل بغضب وهو يخرج حين لم يتمكن من إيجاد الأدوية المطلوبة في وصفته الطبية، وقال لي "يوسف عبدي": "يغضب الكثير من الناس حين لا يحصلون على أدويتهم". كان "يوسف" ينتظر دوره للحصول على دواء يستخدم في العلاج الكيميائي، وقد طلب مني ألا أستخدم اسمه الحقيقي [286] .

أما طاهرة كريمي - وهي امرأة كانت تقف في الطابور نفسه - فتعلم أن الأدوية غير مشمولة في لائحة البنود الممنوعة بسبب العقوبات التي تفرضها الولايات المتحدة، ولكن الحقيقة هي أن الكثير من الموردين الأجانب امتنعوا عن بيع الأدوية خوفاً من إثارة غضب حكومة الولايات المتحدة، وقالت لي كريمي: "تعلم الولايات المتحدة ما تفعله جيداً. اطلب من أوباما ألا يؤذي الناس العاديين" [287] .

يعاني الاقتصاد الإيراني من حالة من التهاوي نتيجة العقوبات؛ فقد هبطت عائدات النفط بنسبة 50 في المئة، وفقدت العملة المحلية حوالى ثلثي قيمتها، أما التضخم فقد وصل إلى نسبة 40 في المئة. وجعل هبوط القوة الشرائية للريال الإيراني استيراد الأدوية الأجنبية والمعدات الطبية باهظ الثمن. وبالإضافة إلى ذلك، هددت حكومة الولايات المتحدة المصارف الدولية بعقوبات صارمة إذا كسرت الحظر، فكانت النتيجة أن المصارف وبالرغم من أنه يسمح لها نظرياً بتحويل الأموال من أجل شراء الأدوية والمعدات الطبية إلا أنها وجدت أنه من الأسهل لها حظر المعاملات الإيرانية من الأساس كما قال خداداد أسنارشاري، المدير الإداري لمستشفى سابير في طهران: "لا يمكننا الحصول على بعض أنواع حبوب الفيتامينات لأننا لا نستطيع إرسال المال إلى خارج البلاد عبر المصارف" [288] .

وبحسب ما قالته دراسة موثوقة عن العقوبات أصدرها مركز وودرو ويلسون، إن "تردد المصارف أمر مفهوم إذا علمنا أن أي خطأ يقوم به المصرف قد يثير نقمة وزارة الخزانة الأمريكية عليه، بالإضافة إلى تكليفه

غرامات قد تتجاوز بليون دولار" [289] . أخبرني قادر دائمي أقدم، وهو مالك صيدلية، أن الجميع - ومن ضمنهم الإيرانيون الموسرون الذين يقطنون شمال طهران - يعانون لتسديد كلفة الدواء العالية وأضاف: "أقدر أن حوالى 30 في المئة من زبائني يغادرون من دون أن يشتروا شيئاً في اللحظة التي يدركون فيها كلفة وصفتهم الطبية" [290] .

إن أثر العقوبات على الطبقة الفقيرة من الشعب الإيراني أقسى وأشد. مستشفى سابير مؤسسة خيرية يهودية، ولكنها تقدم الخدمات الطبية لأبناء كل الأديان، وأكثر من يستفيد من هذه الخدمات هم المسلمون من الطبقة العاملة التي تقطن في جنوب طهران. وقد قال الدكتور أستارشاري إن كلفة المعدات الطبية المستوردة مثل المناظير الداخلية قد تضاعفت خمس مرات منذ سنة 2012: "نسمع أن الولايات المتحدة لا تريد للشعب أن يعاني، ولكننا نعاني بالفعل". وعلى سبيل المثال، أبادي مريض مصاب بالسرطان، ولم يتمكن من إيجاد عقار "المابثيرا"؛ وهو دواء يستخدم في العلاج الكيميائي في أي صيدلية أو مستشفى خاص. في سنة 2011، كان المابثيرا يكلف حوالى 70 دولاراً للجرعة الواحدة التي يبلغ حجمها 100 مللتر؛ مما يعني أن العلاج لمدة ثمانية أشهر سيكلفه حوالى 840 دولاراً. لكن سعر الدواء ارتفع اليوم بنسبة 17 في المئة، ومن الصعب جداً أن تجده حتى بهذا السعر الباهظ.

ولذلك، كثيراً ما يقوم أبادي وغيره من المرضى بالتمشي في شارع ناصر خسرو - وهو شارع رئيس وضخم لا يبعد كثيراً عن بازار المدينة المشهور - بين ازدحام المتسوقين وأزمة السير الخانقة؛ حيث يحاول سائقو السيارات والدراجات النارية والمشاة عدم الاصطدام ببعضهم بعضاً.

وبعد أن مشيت في الشارع المشهور لدقائق قليلة، اقترب مني شاب وسألني هامساً: "دواء؟". يعمل هذا الشاب والعشرات مثله وكأنهم تجار مخدرات، ولكنهم يبيعون أدوية للعلاج الكيميائي والسكري والتهاب الكبد بدلاً من المخدرات. لم يكن هؤلاء الباعة رجالاً متعلمين، وقد لا يعلمون أسماء بعض الأدوية. وعادة، يقدّم المرضى وصفة طبية، فيقوم تجار الشوارع هؤلاء بإجراء مكالمة سريعة من الهاتف الجوال للتأكد من توفر الدواء ومن سعره. وفي ذلك اليوم، كان دواء أبادي موجوداً ولكن بسعر يبلغ ثلاثة أضعاف سعره الرسمي.

"إن أدويتنا من أفضل الأنواع، وكلها أدوية من أوروبا". هذا ما قاله لي أحد تجار الأدوية أولئك بالثقة العظيمة نفسها التي يروج فيها باعة

السيارات المستعملة لسلعهم. وأضاف التاجر أن الأدوية تهرب عادة في حقائب المسافرين من العراق وكردستان العراق، ويستحيل بالطبع مراقبة نوعية أو تاريخ صنع هذه الأدوية، ويقدم المرضى على مخاطرات كبرى حين يشترونها. ليست سوق الدواء السوداء أمراً جديداً في إيران، بل ظهرت أثناء السنين المريعة للحرب العراقية الإيرانية (1980-1988). ففي ذلك الوقت أيضاً، واجهت إيران عقوبات من الولايات المتحدة، بالإضافة النقص الحاد الذي تسببت به الحرب. وبعد ذلك، لم يعد هناك الكثير من الطلب على أدوية السوق السوداء؛ إلى أن اشتدت العقوبات الأمريكية والأوروبية على إيران في كانون الأول 2011، فعاد العمل إلى وتيرته الأولى كما قال لي أحد الباعة: "مع العقوبات الجديدة التي فرضتها الولايات المتحدة رأينا المزيد من الطلب".

لكن المحللين يقولون إنه لا يمكن عزو سبب نقص الأدوية إلى العقوبات فقط، فقد كان التضخم مشكلة كبيرة في إيران حتى قبل أن تشدد الولايات المتحدة عقوباتها. يوجد في إيران نظام دعم حكومي ذو شعبية كبيرة بين عامة الشعب؛ فقد أبقت الحكومة سعر البنـزين متدنياً حيث لا يتجاوز الخمسين سنتاً للغالون الواحد، كما ينال كل فرد من الشعب الإيراني - بمن في ذلك الأطفال - إعانة مالية مقدارها ما يعادل 36 دولاراً أمريكياً في الشهر بحسب سعر تبادل العملة الرسمي، وتقدم الحكومة أيضاً دعماً للغذاء والتعليم وللشباب حين يتزوجون [291] .

وبحسب ما قاله محمد صادق جنان صفت - وهو عالم اقتصاد إيراني بارز، ومحرر مجلة تعنى بالصناعة والتطوير في طهران - إن الإعانات الحكومية النقدية وبخلاف استثمار الحكومة في المشاريع المنتجة للوظائف أو البنية التحتية لا تفعل شيئاً إلا زيادة التضخم المالي. إذ إن تقديم المعونات المالية من دون وجود أعمال منتجة مقابلها مثل طباعة نقود جديدة؛ فيتلقى الفقراء مال الحكومة ولكن الأسعار تتزايد في المقابل. كانت الحكومة تحاول إلحاق دخل المواطنين بكلفة المعيشة، ولكن الدخل الحقيقي ظل يتآكل نتيجة التضخم. وأخبرني جنان صفت أيضاً: "لا تستطيع الحكومة رفع رواتب موظفيها بالشكل الكافي، وكذلك لا يستطيع القطاع الخاص فعل ذلك، ولذلك وقع العمال في أزمة" [292] .

أصبح موضوع سوء الإدارة الحكومي قضية كبرى في الانتخابات الرئاسية سنة 2013. فقد اتهم عدد من المرشحين الرئيس أحمدي نجاد بتحويل نقود كان من المفترض استخدامها لتمويل برامج تطوير فرص العمل

إلى إعانات نقدية وبشكل غير قانوني. وظلت شعبية الإعانات النقدية كبيرة إلى أن استنـزف التضخم قيمتها، كما ساعدت محاولات تجاوز العقوبات في إنشاء مناخ ملائم لتنامي الفساد. وقد قال لي رجل أعمال إيراني طلب مني ألا استخدم إلا اسمه الأول، "عباس"، إنه أودع مبلغاً بالريال الإيراني في حساب في مؤسسة للصرافة في طهران، تعمل هذه المؤسسة مع شريك لها في دبـي يحول المبالغ من الريال إلى الدولار الأمريكي، ومن ثم ترسل المؤسسة الشريكة بالمال إلى الموردين الأجانب. وتحصل العملية نفسها ولكن بشكل عكسي حين يبيع عباس منتجاته في الخارج. تربح مؤسسة الصرافة المال وذلك عن طريق صرف العملة وأتعاب تحويل المال، ويدفع أصحاب مؤسسة الصرافة بدورهم الرشا للمسؤولين الإيرانيين كي يحافظوا على عملهم. وقد قال لي عباس: "لقد أصبح بعض الناس أثرياء للغاية بفضل العقوبات، بينما يعاني غالبية الناس" [293] .

وبغض النظر عن الدور الذي لعبه سوء الإدارة والفساد في التسبب في نقص الدواء، إلا أن غالبية الإيرانيين يرون أن العقوبات جعلت حياتهم أسوأ بكثير. فحتى في أسوأ سني التضخم المالي لم ترتفع أسعار الأدوية والمعدات الطبية كما حصل عام 2013.

يعتقد الإيرانيون أن الهدف من العقوبات هو تغيير سياسات بلدهم بالنسبة إلى سوريا، وكذلك بالنسبة إلى قضية برنامجه النووي؛ وإذا تمكنت الولايات المتحدة وإيران من التوصل إلى تسوية في إحدى القضيتين فربما يساعد ذلك في القضية الأخرى.

في 20 كانون الثاني 2014، بدأت الولايات المتحدة وإيران وبلدان أخرى بتنفيذ اتفاقية تاريخية؛ فقد وافقت إيران على تجميد برنامجها لتخصيب اليورانيوم مقابل رفع جزئي للعقوبات. كان من المقرر أن تستمر هذه الاتفاقية المؤقتة لستة أشهر، ومن ثم أن تؤدي إلى اتفاقية أخرى طويلة الأمد تسمح لإيران بتطوير قدراتها على إنتاج الطاقة الذرية، مع منع أي برنامج مستقبلي للحيازة على أسلحة نووية. وفي المقابل، يرفع الغرب عقوباته تدريجياً.

كتب الرئيس حسن روحاني مقالاً صرح فيه بوضوح عن موقف إيران في ما يتعلق بالأسلحة النووية:

والحق أننا ملتزمون بعدم العمل على تطوير وإنتاج القنبلة النووية. وكما أعلنت الفتوى الصادرة عن المرشد الأعلى آية الله علي خامنئي، فإننا نعتقد بقوة أن تطوير وإنتاج وتخزين واستخدام الأسلحة النووية يخالف

تعاليم الإسلام. ونحن لم نفكر حتى في خيار امتلاك الأسلحة النووية، لأننا نعتقد أن مثل هذه الأسلحة قد تعمل على تقويض مصالحنا الأمنية الوطنية؛ ونتيجة لهذا فإن الأسلحة النووية لا مكان لها في العقيدة الأمنية الإيرانية. وحتى مجرد التصور بأن إيران قد تنتج الأسلحة النووية قد يضر بأمننا ومصالحنا الوطنية في المجمل [294] .

ولكن، حتى هذا التصريح الواضح الذي لا لبس فيه لم يكن كافياً لليمينيين في الولايات المتحدة وإسرائيل، فقد شجب رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو الاتفاق زاعماً أنه لا يمكن الثقة بإيران، وعارضت لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية (أيباك) - وهي مجموعة ضغط على أعضاء الكونغرس الأمريكي، وأكبر داعم لإسرائيل - الاتفاق منذ البداية، وسعت لاحقاً إلى زيادة العقوبات على إيران في محاولة لإحباط الجهود للوصول إلى تسوية نهائية [295] . وظلت إسرائيل تفضّل هجوماً عسكرياً على إيران لإسقاط نظام الحكم فيها.

ورغم أن الجناح اليميني في البلدين بنى حجته على التهديد النووي المفترض الذي تمثله إيران، إلا أن الواقع هو أن أولئك اليمنيين يخشون أن تزعزع الاتفاقية النهائية قدرتهم على الهجوم على إيران نتيجة دعمها لسوريا وحزب الله وتكشف مبررهم لتغيير النظام في إيران. ومن وجهة نظرهم، تشير الاتفاقية إلى ضعف الولايات المتحدة في وجه عدو لدود وعنيد.

وبحسب ما قاله مركز ستراتفور، وهو مركز دراسات استراتيجي وأمني أميركي يقع في أوستن، تكساس، ويقوم بتحليل الشؤون الجيوسياسية، إن إضعاف نفوذ الولايات المتحدة في المنطقة سيؤدي إلى "فراغ في السلطة": "إن قدرة إيران على بسط سلطتها على منطقة نفوذ تمتد من غرب أفغانستان إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط لا تثير مخاوف اللاعبين الإقليميين مثل إسرائيل والسعودية وتركيا وحسب، ولكنها تثير قلق الولايات المتحدة أيضاً" [296] .

ويستخدم الجناح المتشدد في إيران المنطق نفسه تقريباً ولكن بطريقة مضادة؛ فهم يقولون إن إيران إذا قبلت بتقديم تنازلات في ما يتعلق بقضية برنامجها النووي فسوف تبدو ضعيفة وستخسر نفوذها في المنطقة. ولذلك، اتخذت هذه القضية في إيران بعداً سياسياً يختلف تماماً عن الحاجة إلى المزيد من الطاقة الكهربائية.

في البداية، قالت السلطات الإيرانية إن إيران تحتاج إلى تنويع

مصادرها للطاقة الكهربائية لأنها تعتمد كثيراً على معامل توليد الطاقة عن طريق حرق الوقود؛ وهذه الوسيلة غير فعالة في توليد الكهرباء، وخاصة لأن احتياطات إيران من النفط تعاني من الهبوط. كانت هذه الحجة عينها التي تحجّجت بها حكومة الولايات المتحدة لتبرير ترتيبها أمر بيع شركات الطاقة النووية لمفاعلات نووية إلى شاه إيران في سبعينيات القرن الماضي [297] . وقد واصلت احتياطات إيران النفطية الهبوط منذ ذلك الوقت.

ولكن، لماذا تعتبر إيران الطاقة النووية الحل لمشكلتها؛ خاصة بعد كارثة فوكوشيما في اليابان؟ لقد أصبح من المعلوم أن الطاقة النووية غير آمنة وباهظة الثمن. وجّهت هذا السؤال إلى سيد محمد ماراندي - الباحث وزميل معهد دراسات أمريكا الشمالية وأوروبا التابع لجامعة طهران - فقال لي إن مسألة الطاقة النووية قد "أصبحت مسألة سيادية الآن. حين قالت الولايات المتحدة إننا لا يمكننا القيام بذلك، صار علينا أن نتابع الأمر حتى النهاية". وردّد كلامه آراء المتشددين في طهران الذين قالوا إن العقوبات الغربية قد حفّزت روح التحدي أثناء فترة السنوات الثماني التي كان محمود أحمدي نجاد خلالها رئيساً لإيران. وأضاف ماراندي: "لو لم تكن هناك عقوبات فأنا لا أعتقد أن البرنامج النووي الإيراني كان سيتطور إلى الدرجة التي وصل إليها الآن" [298] .

لكن النقاد قالوا إن مواقف أحمدي نجاد المتشددة في ما يتعلق بقضية البرنامج النووي والقضايا الأخرى هي ما تسبب في كارثة إيران الاقتصادية أصلاً، وقبل فرض العقوبات القاسية عليها. وبحسب ما أوضحه رضا ماراشي وتريتا بارسي مديرا المجلس الأمريكي الإيراني الوطني، إن الانتخابات الرئاسية عام 2013 في إيران عكست رغبة إيرانية "في إنهاء سوء الإدارة والسياسات الفاشلة التي عانت منها إيران في ظل حكومة أحمدي نجاد. لقد طالب الشعب الإيراني بالتغيير نفسه عام 2009، وقبل فرض "العقوبات القاسية"، ولكن المتشددين لجأوا إلى التزوير والقمع لمنع عد أصوات الشعب" [299] .

تتجلى التباينات الكبيرة بين الإصلاحيين والمتشددين في إيران في الخلاف حول السياسة التي يعتمدها البلد في سوريا. فقد ظل أحمدي نجاد والحرس الثوري والمتشددون الآخرون ثابتين في دعمهم الاقتصادي والعسكري لنظام الأسد، ويبدو أن لديهم كامل دعم خامنئي؛ المرشد الأعلى للبلد. وفي كانون الأول 2012، تقدمت إيران بخطة سلام حاولت بواسطتها الحفاظ على النفوذ الإيراني في سوريا؛ فقد دعت إلى وقف إطلاق النار، ورفع العقوبات

عن سوريا، وإطلاق سراح السجناء السياسيين، وتشكيل حكومة انتقالية قبل إجراء انتخابات حرة تحت إشراف دولي. شابهت الخطة الإيرانية الخطة التي تقدمت بها الأمم المتحدة إلى حد كبير، مع وجود فارق واحد في غاية الأهمية؛ إذ كانت إيران تريد أن يكون الأسد جزءاً من الحكومة الانتقالية، وهو الأمر الذي رفضته المعارضة رفضاً باتاً.

لكن، بعد ذلك بسنة واحدة استمر فيها الجمود العسكري وانتخب خلالها رئيس جديد لإيران، بدأت التشققات بين النخبة الحاكمة الإيرانية تظهر على الملأ. وقد أدلى الرئيس حسن روحاني بتعليق مفاجئ أثناء ظهوره على قناة التلفزيون الوطنية في أيلول 2013؛ إذ قارن بين الانتقادات الحادة التي وجّهتها إيران إلى النظام البحريني مع موقفها مما يحصل في سوريا بشكل غير مباشر، ولكن كان من الواضح أنه يشير إلى سوريا: "لا ينبغي لنا أن نصف الأعمال التي تقوم بها دولة عدوة لنا بأنها قمعية ووحشية بينما نمتنع عن الإشارة بذلك إلى الأفعال نفسها إذا حصلت في بلد صديق، بل يجب أن نسمّي الوحشية باسمها" [300] .

فضّلت إيران التوصل إلى حل سياسي يحمي مصالح إيران حسبما قال إيزدي، البروفيسور في جامعة طهران. كان الأمر برمته يتوقف على مصير الأسد، فقد اعتقدت إيران أنه من دون الأسد "سيكون من الصعب جداً الحفاظ على وحدة سوريا... إن إجراء انتخابات حرة ونـزيهة أمر صعب للغاية الآن، إذ يصعب على حكومة الأسد أن تتحول إلى مجرد حزب سياسي [معارض] بوجود كل ذلك القتال" [301] .

لكن القادة الإيرانيين لا يستبعدون التوصل إلى استراتيجية توجد مخرجاً من الأزمة وتنحي الأسد عن السلطة في نهاية الأمر. فهم يعلمون أن المتطرفين الإسلاميين لن يشاركوا في محادثات سلام، ولكن من الممكن إقناع الثوار الآخرين بمشاركة السلطة مع الأسد "في تسوية تشبه تلك التي تم التوصل إليها في جنوب أفريقيا؛ حيث شفيت الجراح القديمة" كما قال إيزدي. قد تمهّد تسوية كهذه الطريق أمام حصول انتخابات، وقد يخسر الأسد هذه الانتخابات، والقادة الإيرانيون يدركون تماماً أنه لا يمكن لسوريا أن تعود إلى نظام الحكم القديم. فبحسب ما قاله إيزدي: "حتى لو خسر الأسد الانتخابات، فطالما أن البلد يظل متماسكاً ولا ينهار فسيكون هذا الوضع مثالياً لإيران". يفترض هذا القول طبعاً أن الأسد سيسمح بحصول انتخابات حرة، وأنه سيتقبل الخسارة فيها.

تقول إيران إن الحرب الأهلية ستستمر طالما أن الولايات المتحدة

وحلفاءها توفر المال والسلاح للثوار، وبالتالي تحاول إقناع الغرب بأن الثوار السنة المتطرفين يشكلون تهديداً أكبر من نظام الأسد. وقد صرّح وزير الخارجية الإيراني محمد جواد ظريف لمجلة "تايم" أن إيران مستعدة للدخول في محادثات سلام دولية وأضاف أن الحرب في سوريا قد تكون لها آثار دولية كبيرة؛ وذلك بجعل الطوائف الدينية تتصارع في ما بينها، الأمر الذي قد يتسبب في تفشي الهجمات الإرهابية: "إذا أصبح الانقسام الطائفي الذي يحاول بعض الناس نشره في سوريا قضية كبرى فلن يعترف الصراع الناتج عنه بأي حدود، وستجدون آثار هذا الصراع حتى في شوارع أوروبا وأمريكا" [302] .

رفضت واشنطن اقتراح إيران بالدخول في محادثات سلام ما لم توافق على الإطاحة بالأسد من السلطة. قد يفضّل الرئيس حسن روحاني وغيره من المعتدلين خفض الدعم لنظام الأسد، ولكن القرار النهائي في هذا الأمر يرجع إلى المرشد الأعلى للبلد؛ خامنئي. قال مهدي خلجي الزميل الأقدم في معهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى إن "روحاني قد لا يقدر على تغيير منهج إيران في سوريا؛ حتى لو أراد فعل ذلك. وتدل بعض المؤشرات على أن قوات الحرس الثوري الإسلامي هي التي تصمم السياسة الإيرانية في سوريا وتنفذها، ولذلك هذا الأمر ليس تحت السيطرة الكاملة لرئيس إيران" [303] .

ظلت الولايات المتحدة مترددة في السماح لإيران بالمشاركة في عملية السلام في سوريا، ولم تظهر على الأسد ولا على الثوار أي علامة تدل على رغبتهم في الوصول إلى تسوية سياسية؛ إذ يأمل الطرفان في الوصول إلى حسم عسكري للأزمة. ومن المرجح أن تظل إيران داعمة للأسد إلى أن يبرز قائد آخر لديه رغبة في الوصول إلى نوع من العلاقات الودية مع إيران. كما ستظل الولايات المتحدة داعمة الثوار على أمل أن تصنع نظاماً موالياً للولايات المتحدة في دمشق. وفي نهاية المطاف، على الولايات المتحدة وروسيا وإيران أن تتفق بشكل مباشر أو غير مباشر على تسوية سياسية؛ إذا كان السلام سيجد طريقاً له في هذه الأراضي المضطربة.

الفصل التاسع
هل سينال الأكراد مرادهم؟

قابلت بارخودان بالو في مخيم للاجئين الأكراد السوريين شمال العراق. أخذتني بالو في جولة سيراً على الأقدام في أنحاء مخيم مقبلة، حيث يقطن 300 لاجئ كردي. يتألف المخيم من طرقات ترابية وبيوت إسمنتية تغطيها سقوف مصنوعة من البلاستيك. وقد قالت لي بالو إنه حين تهطل الأمطار "يُسمع صوت سقوط كل قطرة مطر، [هذه البيوت] باردة جداً جداً في الشتاء، وحارة جداً جداً في الصيف" [304] . علّمت بالو نفسها اللغة الإنجليزية عبر مشاهدة التلفزيون والأفلام: "أنا أحب اللغة الإنجليزية، وأحب أن أتكلم بها". سألتها عن اسم نجمها السينمائي المفضل فأجابت بصوت عالٍ مرح: "جاكي شان!". يا لروعة العولمة! لقد تعلمت لاجئة سورية كردية اللغة الإنجليزية من رجل صيني مشهور بقدراته القتالية أكثر من شهرته بمهارته اللغوية في اللغة الإنجليزية!

يشكّل الأكراد ما بين 10 و15 في المئة من مجموع سكان سوريا البالغ عددهم حوالى 22.5 مليون نسمة. ويجعل الاختلاف في اللغة والثقافة والمناطق الأكراد مجموعة إثنية مختلفة عن العرب؛ ورغم ذلك، لقد أصبحوا جزءاً من المجتمع السوري متعدد الأعراق والأديان. تعتبر حكومة الأسد المناطق الشمالية الشرقية من سوريا - أي مناطق الأكراد - ذات أهمية استراتيجية؛ نظراً إلى أنها تشكل حدود البلد مع تركيا والعراق. كما أن الإقليم الكردي خصب وفيه الكثير من موارد المياه، وهو أيضاً يحتوي على كامل موارد البلد المحدودة من النفط. ولطالما تخوّف قادة الحكومة السورية من أن يكون الأكراد راغبين في الحصول على الاستقلال التام عن باقي البلد؛ لأنهم طالبوا بذلك في بلدان أخرى. ولكن الأحزاب الكردية السورية ترفض فكرة الانفصال حالياً، بل وتطالب بحقوق أكبر لها كمجموعة عرقية متميزة ضمن إطار الدولة السورية.

أردت الحصول على المزيد من المعلومات عن خلفية الصراع الكردي، فسرت مع بالو إلى خيمة أهلها. هاجرت بالو مع عائلتها إلى تركيا بعد أحداث مدينة القامشلي عام 2004 التي هرب إثرها آلاف الأكراد من قمع الحكومة؛ بعد أن شاركوا في مظاهرات معادية للنظام.

قدمتني بالو إلى أبيها، وهو ناشط سياسي تعرض للاعتقال في سوريا

عام 2004، ثم أطلق سراحه، ثم تعرض للاعتقال مجدداً عام 2006. قالت بالو: "لقد تعرّض للتعذيب والضرب الوحشي. وحين خرج وعاد إلى المنـزل خلع قميصه ليريني جروحه وقال: "أريدك ألا تنسي أبداً ما فعلته الحكومة السورية بـي". كنت في الثالثة عشرة من عمري في ذلك الحين، ولكنني اشتركت في المظاهرات كأي فتاة كردية. في بلادنا، يتعلم الأطفال حقائق المجتمع بسرعة مع الوقت الذي يبلغون فيه السادسة أو السابعة من العمر. حين رأيت الجروح على ظهر أبـي بكيت وغضبت بشدة. ولو وضعت يدي وقتها على أي شرطي أو حتى عربـي لكنت قد قتلته وشربت من دمه".

تنبع مشاعر بالو العدائية من السياسة التي تعتمدها الحكومة في توطينها السوريين العرب في المناطق الكردية للتخفيف من النفوذ الكردي فيها، وبعد ذلك تحريضها أولئك العرب على الهجوم على الأكراد. وبعد أن كبرت بالو لم تعد تلقي باللوم على العرب العاديين كما قالت: "أنا أعلم أن ما حصل خطأ الحكومة؛ فقد جلبت العرب من مدن أخرى، وأعطتهم أراضي كانت ملكاً للأكراد". واجه الأكراد التمييز من الحكومة منذ زمن بعيد كما قالت بالو: "فبعد أن حازت سوريا على الاستقلال عن فرنسا، لم تعطِ الحكومات العربية الأكراد أي حقوق؛ فقد شعرت بالقلق من أن الأكراد سيرغبون في الانفصال. إنهم لم يعطوا الأكراد حتى نصف الحقوق التي أعطوها للعرب".

حين اندلعت ثورة عام 2011، كان معظم الأكراد مناهضين لحكومة الأسد الديكتاتورية، إلا أنهم لم يثقوا في الثوار العرب أيضاً، لذا هرب عشرات آلاف الأكراد من القتال الدائر. ومع حلول منتصف عام 2014، أصبحت المناطق الكردية وكأنها قطع فسيفساء مختلفة من المناطق التي يسيطر النظام على بعضها، والإسلاميون المتطرفون على بعضها الآخر، والميليشيات الكردية على ما تبقى منها. وقبل فهم الطريقة التي تعامل بها الأكراد مع ثورة 2011، علينا أولاً أن نفهم بعض جوانب التاريخ الكردي الحديث.

كانت أول مرة قابلت فيها ثورياً كردياً في منتدى في جامعة بيركلي في أواخر سبعينيات القرن الماضي. كان يرتدي السروال الكردي التقليدي ومعطفاً فضفاضاً، ويلفّ وشاحاً حول خاصرته. بدا الرجل وكأنه ثائر شجاع من القرن الماضي، ولكنني علمت لاحقاً أن الأكراد يرتدون ثيابهم التقليدية بفخر في المناسبات الخاصة؛ وهو تقليد لم تغيّره السنون. وحسبما بدا لي

لاحقاً، اعتبر الرجل أن التحدث أمام مجموعة من يساريي بيركلي "مناسبة خاصة". لم أكن أعلم أي شيء عن الأكراد وقتها، وجلست أسير اللب وأنا أستمع إلى سرده لتاريخ شعبه الطويل.

كان الأكراد قبائل متنقلة في الشرق الأوسط. وتختلف عاداتهم ولغتهم عن لغة العرب وعاداتهم؛ مع أنهم اعتنقوا الإسلام مع مرور الوقت. وتفيد التقديرات التقليدية أن عدد الأكراد في تركيا وسوريا والعراق وإيران وبعض الجمهوريات السوفييتية السابقة قد يصل إلى نحو ثلاثين مليون نسمة، وهم يشكلون واحدة من كبرى قوميات العالم التي لا وطن لديها.

كان صلاح الدين الأيوبـي القائد المسلم المشهور في القرن الثاني عشر والذي هزم الصليبين وطردهم من القدس كردياً من تكريت الواقعة في العراق اليوم، بل وكانت القلعة الصليبية المشهورة في سوريا والمعروفة اليوم باسم "حصن الفرسان" (Chevaliers des Krak) تدعى في الأصل "حصن الأكراد"؛ إذ استقرت الوحدات العسكرية الكردية في دمشق بعد هزيمة الصليبيين، وأنشأت ما صار يعرف "بحي الأكراد"، أو ركن الدين في المدينة. حافظ بعض الأكراد على تراثهم العسكري، وأصبحوا قوات موالية تحت الحكم العثماني، وحتى تحت الاستعمار الفرنسي؛ بينما تحوّل آخرون إلى محاربين مناهضين للاستعمار سمّوا أنفسهم البيشمركة. يطلق الأكراد اسم البيشمركة على الوحدات المقاتلة عموماً، وتعني الكلمة: "أولئك الذين يواجهون الموت".

تاريخياً، عاش معظم أكراد سوريا في المناطق الشمالية، بينما هاجرت قلة منهم إلى دمشق وحلب. وخلال الحرب العالمية الأولى، وعد مسؤولو الحكومة البريطانية الأكرادَ بالاستقلال عن الحكم العثماني. ولكنْ كما هو الحال في الوعود المشابهة التي أعطيت للعرب واليهود، لم تكن لدى بريطانيا أي نية في التخلي عن مناطق استعمارها للوفاء بتلك الوعود. وفي عام 1920، وقّع الحلفاء معاهدة سيفر مع الإمبراطورية العثمانية، وشملت هذه المعاهدة خرائط لمنطقة كردية ذات حكم ذاتي في تركيا، ومن ثم دعت إلى استفتاء على الاستقلال الكردي خلال سنة من ذلك التاريخ [305]، لكنّ مصطفى كمال أتاتورك والقوميين الأتراك رفضوا تلك المعاهدة، فلم توضع بنودها حيّز التطبيق (انظر إلى الفصل الثالث). ثم في سنة 1923، حلت معاهدة لوزان محل معاهدة سيفر، وأهملت هذه المعاهدة الأخيرة القضية الكردية كلياً. وكانت النتيجة أن تركيا وبريطانيا وفرنسا تقاسمت الإقليم الكردي الذي كان تحت الحكم العثماني. وحتى الآن، بعد مرور ما

يقارب القرن من الزمن، لا تزال تلك الوعود التي لم يتم الوفاء بها صرخةً تحشد كل الأكراد الذين يشعرون بأن القوى الإقليمية والدولية لا تزال تلعب الحيلة القديمة نفسها.

انضم القوميون واليساريون الأكراد إلى الحركة المناهضة للاستعمار الفرنسي في سوريا خلال ثلاثينيات القرن الماضي، وأسّسوا حزباً سموه "حزب خويبوون"، وهي كلمة كردية تعني "الاستقلال". وفي آخر سنة 1931 وأول 1932، انتُخِب ثلاثة نواب من هذا الحزب في أول انتخابات نيابية جرت وفقاً للدستور الذي فرضه الفرنسيون على سوريا. انحل "حزب خويبوون" في نهاية الأمر، وانضم الكثير من أعضائه إلى الحزب الشيوعي السوري.

شهدت النـزاعات السياسية الكثير من المد والجزر بين حدود المناطق الكردية التي ظلت منفتحة على بعضها بعضاً إجمالاً؛ لأنه وكما ذكّرنا ذلك الثوري الكردي في بيركلي: لم تكن هناك إلا كردستان حرة مستقلة واحدة، قادها ثوريون يساريون في نهاية الحرب العالمية الثانية.

قمع رضا شاه - شاه إيران الذي حكمها بين عامي 1925 و1941 - بقسوة أكراد بلاده الذين يعيش معظمهم في أقصى شمال غرب إيران. وكانت بريطانيا هي التي وضعت رضا شاه في السلطة، ولكنه أغضب الحلفاء عام 1941 حين أعلن حياد إيران أثناء الحرب العالمية الثانية، فاتّهم بممالأة النازيين. وفي عام 1941، دخلت قوات عسكرية بريطانية إيران واحتلت جنوبها، بينما احتلت قوات سوفييتية شمالها حيث يقطن الأكراد، ورحب معظم الأكراد بالقوات السوفييتية واعتبروها مُحرِّرة من الشاه الاستبدادي [306] .

أدار أكراد محليون حكومة شبه مستقلة؛ بعد أن ترك آخر مسؤولي الشاه مناطقهم عام 1943. حكم الأكراد مدينة مهاباد الصغيرة والمناطق حولها، حيث تحالف قاضٍ كردي اسمه قاضي محمد مع التجار المحليين وزعماء القبائل لإنشاء ميليشيا للدفاع عن تلك المناطق. وبمساعدة القوات السوفييتية، شهدت المنطقة ازدهاراً اقتصادياً؛ ولكن تحت ظروف الحرب. وفي عام 1945، شكّل أكراد المنطقة الحزب الديمقراطي الكردستاني الذي ترأسه قاضي محمد آخر الأمر، وكان مصطفى برزاني القائد العسكري الأبرز فيه، وهو بالمناسبة والد مسعود برزاني رئيس حكومة إقليم كردستان الحالية. دعم الاتحاد السوفييتي استقلال كردستان كحاجز أمام السيطرة الأمريكية والبريطانية على كامل أراضي إيران. لذلك، وبتشجيع سوفييتي، أعلن الأكراد حكومة الشعب الكردي المستقلة عام 1945، وهي التي عرفت لاحقاً باسم

"جمهورية مهاباد". وبدأت الجمهورية الجديدة فوراً بالقيام بإصلاحات كبيرة من دون القمع الذي يرتبط عادة مع الاتحاد السوفييتي في عهد ستالين؛ فافتتحت الحكومة الجديدة مدرسة للبنات، وشرّعت قوانين تتعلق بالتعليم الإلزامي والمجاني للفقراء، كما جعلت اللغة الكردية لغة التعليم الرسمية للمرة الأولى في تاريخ البلاد [307] .

لكن مع نهاية سنة 1946، تغيّرت السياسة السوفييتية في المنطقة؛ إذ سعى الاتحاد السوفييتي إلى الوصول إلى تسوية مع حكومة إيران المركزية في طهران، ونتج عن ذلك انسحاب القوات السوفييتية من جمهورية مهاباد؛ فواجهت الجمهورية مشاكل اقتصادية من دون الدعم السوفييتي، وكذلك فقد الحزب الديمقراطي الكردستاني دعم بعض التجار وزعماء القبائل الذين غيّروا مواقفهم، وعادوا إلى تأييد الحكومة المركزية. كانت إيران قد أصبحت تحت حكم محمد رضا بهلوي، ابن الشاه السابق كانت إيران قد أصبحت تحت حكم محمد رضا بهلوي - ابن الشاه السابق - الذي أرسل قواته العسكرية ليسترجع السيطرة على المنطقة. وفي 15 كانون الأول 1946، احتلت القوات الإيرانية مهراباد وسحقت الجمهورية المستقلة. حظّرت الحكومة الإيرانية التعليم باللغة الكردية، وأدين قاضي محمد بتهمة الخيانة، ونُفِّذ فيه حكم الإعدام شنقاً. أما مصطفى برزاني فقد هرب إلى الاتحاد السوفييتي، وعاش في المنفى هناك، ولم يعد إلى المنطقة إلا في أواخر خمسينيات القرن الماضي. يعتبر الأكراد اليوم أن برزاني وقاضي محمد بطلان من أبطال النضال من أجل الحقوق الكردية.

يرجع تاريخ كل الأحزاب السياسية الكردية - ولو بشكل جزئي - إلى الحزب الديمقراطي الكردستاني الذي تأسس سنة 1945. وقد أسس الأكراد السوريون الحزب الديموقراطي الكردي في سوريا عام 1957، ودعا هذا الحزب إلى النضال السلمي للوصول إلى حقوق الأكراد في الدولة السورية، ورغم ذلك تمّ حظره، واضطر أعضاؤه إلى العمل بشكل سرّي [308] .

وصل البعثيون إلى السلطة عام 1963 إثر انقلاب عسكري، ولكنهم حافظوا على وجهة النظر العدائية نفسها تجاه الأكراد، ومضى النظام الجديد قدماً في مخطط بعيد المدى يهدف إلى إنشاء "حزام عربي" يمتد طوله إلى 300 كيلومتر وعرضه إلى 15 كيلومتراً على الحدود التركية والعراقية. ببساطة، لم يثق البعثيون بالأكراد، وبدأوا بتوطين القبائل البدوية المتنقلة في مناطقهم عام 1973.

وقد أخبر كردي سوري محققاً في منظمة "هيومان رايتس ووتش"

المعنية بحقوق الإنسان: "بنت الحكومة لهم [العرب] منازل مجانية، وأعطتهم أسلحة، وبذوراً وسماداً للزراعة، وأنشأت مصارف زراعية قدمت لهم القروض. أنشأت الدولة 41 قرية في ذلك القطاع بين عامي 1973 و1975... وكان الهدف هو الفصل بين الأكراد السوريين والأكراد الأتراك، وإجبار الأكراد في المنطقة على الانتقال إلى المدن" [309] . أنهى حافظ الأسد برنامج التوطين هذا عام 1975، ولكنه لم يُعِد الأراضي التي صادرتها الدولة إلى الأكراد أو حتى يقدم لهم تعويضاً عنها. واعتمد الأسد سياسة انتهازية في القضية الكردية في العقود التي تلت تلك الأحداث؛ فقد تابع القمع المحلي، ولكنه ساند الأكراد في البلدان الأخرى حين كان ذلك ملائماً لسياسته الخارجية.

وفي الفترة التي امتدت ثلاثين سنة بعد ذلك الوقت، أصبح الأسد لاعباً أساسياً في الحرب العربية ضد إسرائيل، ومد نفوذه إلى لبنان، وتحالف مع إيران ضد العراق. وحتى من دون جيش مهيمن واقتصاد غني، تمكّن حافظ الأسد من الدخول في تحالفات استراتيجية زادت من أهمية سوريا ونفوذها في المنطقة؛ فحوّل بلداً لا يحمل الكثير من الوزن في المنطقة إلى منافس إقليمي متنفذ. كان الأسد مقاتلاً ذكياً يعرف كيف "يلاكم" خصمه؛ حتى لو كان أثقل منه وزناً بكثير، ولم تكن سياسته تجاه الأكراد إلا "لكمة خطافية" أخرى يوجهها إلى خصومه وقت الحاجة.

فعلى سبيل المثال، دخل حزب البعث السوري في صراع سياسي مرير مع البعثيين العراقيين الذين وصلوا إلى السلطة عام 1968، وكان الخلاف الأساسي بين فرعي الحزب الواحد (الذي أصبح حزبين في الحقيقة) يتمحور حول من يجب أن يقود حركة البعث: سوريا أم العراق. كان صدام حسين قد ساهم في التخطيط للانقلاب العسكري الذي أوصل البعث العراقي إلى السلطة، وفي عام 1979 أصبح رئيساً للعراق؛ فقرر الأسد أن يدخل في تحالف مصالح مع المجموعات القومية واليسارية الكردية لهزيمة البعث العراقي.

مع حلول عام 1979، كان حافظ الأسد قد دخل في علاقات رسمية مع الحزبين الكرديين الرئيسين: الاتحاد الوطني الكردستاني الذي يقوده جلال طالباني (الذي أصبح رئيساً للعراق في وقت لاحق)، والحزب الديمقراطي الكردستاني الذي يرأسه مسعود بارزاني (الذي أصبح رئيس حكومة إقليم كردستان لاحقاً). كان الحزبان يعتبران نفسيهما يساريين؛ حيث كان الحزب الديموقراطي الكردستاني على توافق أيديولوجي مع الاتحاد السوفييتي، بينما

كان الاتحاد الوطني الكردستاني على وفاق مع الصين الماوية. وبالإضافة إلى ذلك، جمعت معارضة صدام حسين بين الحزبين، فسمح لهما حافظ الأسد بفتح مكاتب لهما في مدينة القامشلي القريبة من الحدود العراقية. كما سمح الأسد لحزب العمال الكردستاني (Partiya Karkerên Kurdistan أو PKK) بالعمل من داخل سوريا، ولحزب العمال الكردستاني هذا تاريخ طويل ومثير للجدل.

أسس عبد الله أوجلان مع عدد من الطلبة المتطرفين حزب العمال الكردستاني في 27 تشرين الثاني 1978. كان أوجلان طالب علوم سياسية سابقاً وقائداً حماسياً ملهماً؛ لدرجة أن تابعيه أطاعوه طاعة عمياء. ويعلّق مؤيدو حزب العمال الكردستاني اليوم صوراً كبيرة له، يظهر فيها بوجه وسيم وشارب ضخم وشعر رمادي ممشط إلى الخلف. لكن في الواقع، إن عدداً قليلاً فقط يعرف كيف يبدو اليوم بعد أن سجن في تركيا منذ عام 1999. بدأ حزب العمال الكردستاني كمجموعة ثورية تؤمن بالكفاح المسلح، وقد كان أحد تجليات موجة اجتاحت الشرق الأوسط في سبعينيات القرن الماضي؛ حيث نشأت الكثير من المجموعات القومية التي اعتمدت جوانب معينة من الماركسية قبل أن تغير أيديولوجيتها بعد سنين قليلة.

في تلك الحقبة، كان نظام عسكري تدعمه الولايات المتحدة يحكم تركيا. وكان ذلك النظام يمارس قمعاً قاسياً على الأكراد، رافضاً الاعتراف بهم كإحدى قوميات البلد؛ فمنع التعليم باللغة الكردية، كما منع سائر وسائل الإعلام الناطقة باللغة الكردية. وفرض الجيش التركي الأحكام العرفية في مناطق الأكراد، ولم يرفع العمل به إلا عام 2002. ومع حلول عام 2010، كانت حملة الجيش التركي ضد حركات الثورة الكردية قد تسببت في مقتل حوالى 35,000 مدني، وسجن 119,000 كردي، بالإضافة إلى 17,000 هم في عداد المفقودين [310] . بنى حزب العمال الكردستاني سمعته بفضل محاربته القمع الذي يمارسه الجيش، ونال بعض التأييد الشعبي.

طالب حزب العمال الكردستاني في أصل تكوينه بإنشاء دولة مستقلة اشتراكية تشمل سائر الأقاليم الكردية في تركيا وسوريا والعراق وإيران، وجنّد عدداً كبيراً من النساء، وسمح لهن بالترقي إلى مواقع قيادية في الحزب. وخلال خبرتي كمراسل صحفي في المنطقة - وهي خبرة تمتد إلى ثلاثين سنة - لم أقابل إلا عدداً قليلاً من النساء اللواتي يشغلن مواقع قيادية؛ سواء أكان ذلك في حكومات المنطقة أو أحزابها المعارضة. ولذلك، إن المشاركة الفعالة للنساء ليست إنجازاً صغيراً. وقد قابلت بعض نساء حزب العمال

الكردستاني أثناء عملي كمراسل لمجلة "ماثر جونـز" في إقليم كردستان شمال العراق [311] .

بدأت رحلتي في فندق أشتي في السليمانية. ولهذا الفندق سمعة خاصة به كمكان مريب، وقد بدا بالفعل وكأنه ينتمي إلى إحدى روايات الغموض والجاسوسية. يلعب رواق الفندق المليء بالدخان دور الملتقى لدبلوماسيين غامضين ورجال أعمال وجنود وجواسيس. كان الرجال يجلسون وهم ينظرون إلى أكواب من الشاي المخمر، وكان بعضهم - من وقت إلى آخر - يصبون القليل من الشاي في الصحون قبل أن يشربوا ما في الصحون محدثين أصواتاً عالية. من هذا المكان وضعنا ترتيباتنا لزيارة مخيم لحزب العمال الكردستاني في جبال قنديل القريبة. كانت الأرض مفروشة باللونين الأخضر والبني، بينما دفعتني الريح شديدة البرودة إلى تزرير معطفي. وبعد أن تجاوزنا منعطفاً شديد الخطورة في الطريق، انفتح أمامنا وادٍ كبير وخصب، وقطعت قطعان من الأغنام وحتى مجموعات من البط الشارع من وقت إلى آخر. علمت أنني دخلت مقاطعات حزب العمال الكردستاني حين رأيت فتاتين ترتديان زي الحزب المؤلف من بنطال أخضر وقميص أخضر، وغطاء الرأس الكردي الملتوي التقليدي.

وبينما كنت أنتظر لإجراء إحدى المقابلات، تبادلت مع فتيات الحزب أطراف الحديث بينما كنا مجتمعين حول موقد حطب. كانت الفتيات واثقات من أنفسهن كثيراً، ولم يمانعن التحدث إليّ، وأخبرنني أن 50 في المئة من أعضاء حزب العمال الكردستاني من النساء [312] ، بينما تقول مصادر أخرى إن العدد أقرب إلى 40 في المئة؛ لكن في كلتا الحالتين، هذه النسبة العالية مثيرة للإعجاب.

افتخرت النساء اللاتي تحدثت معهن بهجمات قمن بها على الجيش والشرطة التركيين، ولكنهن قلن أيضاً إنهن لم يستهدفن المدنيين عمداً. لكن الواقع أن حزب العمال الكردستاني قام بعمليات قتل للمدنيين العاملين مع الحكومة التركية، بل وحتى الأكراد الذين يعتبرهم من أعوان هذه الحكومة. ونتيجة لذلك، تصنف تركيا والولايات المتحدة وبريطانيا حزب العمال الكردستاني كمنظمة إرهابية. وتنتقد الأحزاب الكردية الأخرى الكثير من ممارسات حزب العمال الكردستاني وأفكاره، ولكنها تفرّق بين منظمات إرهابية مثل تنظيم القاعدة والمجموعات القومية التي تطالب بحقوقها باعتماد الكفاح المسلح مثل حزب العمال الكردستاني. ففي سوريا مثلاً، حمى حزبٌ يتفق في أفكاره مع حزب العمال الكردستاني أهالي المناطق الكردية

من الثوار المتطرفين. وقد قال إبراهيم هوزان، وهو قيادي في لجان التنسيق المحلية ويعيش في المنفى الآن: "يعتقد غالبية الأكراد أن حزب العمال الكردستاني - وبالرغم من بعض ممارساته - خيار أفضل من الجهاديين وتنظيم القاعدة".

خلال تسعينيات القرن الماضي، سمحت سوريا لمقاتلي حزب العمال الكردستاني بالسكن في دمشق، وتلقي تدريبات عسكرية في وادي البقاع في لبنان الذي كانت سوريا تحكم سيطرتها عليه في ذلك الوقت. كان التعاون بين سوريا وحزب العمال الكردستاني مثل العلاقة مع إيران؛ أي "زواج مصلحة". فقد كان حافظ الأسد يود أن يفاوض تركيا على استعادة محافظة هتاي (لواء الإسكندرون، انظر إلى الفصل الثالث)، كما أنه عارض تحالف تركيا الوثيق مع إسرائيل والولايات المتحدة. أما حزب العمال الكردستاني، فقد استخدم سوريا كقاعدة لشن الهجمات العسكرية على تركيا.

ومع حلول عام 1998، بلغ السيل الزبى مع الحكومة التركية؛ فقد تجاوزت الهجمات الآتية من خلف الحدود السورية وعناد الحكومة السورية في مطالبها قدرة الأتراك على الاحتمال. فحشد الجيش التركي قواته على الحدود السورية مهدداً بالقيام بعملية هجوم وغزو واسعة؛ حتى إن العنوان الرئيس في إحدى الصحف التركية قال: "قريباً سنقول "شالوم" [سلام] للإسرائيليين من على مرتفعات الجولان". وكان هذا يعني أن القوات التركية ستتقدم عبر كامل الأراضي السورية حتى تصل إلى حدود سوريا مع إسرائيل [313] . ولكن حافظ الأسد - وهو المبارز الاستراتيجي الماهر - قام بإحدى عمليات التفادي التي اشتهر بها، فوقّعت سوريا اتفاقية أضنة مع تركيا في تشرين الأول 1998، وأعلنت بموجبها أن حزب العمال الكردستاني منظمة إرهابية، وحظّرت نشاطاته في أراضيها.

أجبر عبد الله أوجلان على الهرب من دمشق. وفي عام 1999، اختطفته المخابرات التركية من كينيا بالتعاون مع وكالة الاستخبارات المركزية (CIA)؛ حيث أدين بتهمة الخيانة وحكم عليه بالسجن مدى الحياة. ومنذ ذلك الوقت، يقضي أوجلان محكوميته في الحبس الانفرادي في سجن جزيرة إمرالي. توّجت عملية اختطاف أوجلان وسجنه سلسلة هزائم كبيرة تعرض لها حزب العمال الكردستاني في تسعينيات القرن الماضي، فسعى الحزب بعد ذلك إلى الوصول إلى تسوية مع الحكومة التركية، وتحرّك سياسياً إلى اليمين متخلياً عن الماركسية وداعياً إلى حكم ذاتي للأكراد وليس إلى الانفصال والاستقلال [314] .

ومع بدايات القرن الحادي والعشرين، شكّل حزب العمال الكردستاني مجموعة من الأحزاب السياسية في البلاد التي عمل بها سابقاً. وفي عام 2003 تشكل حزب الاتحاد الديموقراطي تحت قيادة المهندس الكيميائي صالح مسلم. يقول حزب الاتحاد الديموقراطي إنه حزب مستقل لا تربطه مع حزب العمال الكردستاني إلا الأيديولوجية. أما منتقدو الحزب فيقولون إن قيادة حزب العمال الكردستاني هي التي تتحكم بالحزب.

اشتهر حزب الاتحاد الديموقراطي بانعزاليته؛ حيث وضع مصالحه الخاصة كحزب قبل مصالح الحركة الكردية بنطاقها الأوسع. وقام المجلس الوطني الكردي - وهو التجمع الأوسع للمجموعات الكردية المعارضة - "باتهام حزب الاتحاد الديموقراطي بالهجوم على مظاهرات كردية، وخطف أعضاء من الأحزاب الكردية المعارضة الأخرى"؛ بحسب ما صرح به تقرير لمركز كارنيغي للشرق الأوسط [315] . بل واتُّهِم حزب الاتحاد الديموقراطي باغتيال قياديين في أحزاب كردية أخرى [316] .

يشارك حزب الاتحاد الديموقراطي حزب العمال الكردستاني في سمة أخرى، وهي التبجيل الكبير لشخص عبد الله أوجلان؛ إذ يحتفظ أعضاء الحزب وأنصاره بصوره في منازلهم، ويهتفون باسمه في مظاهراتهم، بل ويرتدون قمصاناً مطبوعة عليها صورته. وقد أخبرني قيادي في حزب الاتحاد الديموقراطي سمّى نفسه "كان مِد": "أعطانا القائد عبد الله أوجلان الحل لجميع القضايا، وعرّف لنا الطريقة التي نحل بها مشاكلنا" [317] . ولكنْ رغم كل ما قيل، يظل حزب الاتحاد الديموقراطي يشكل قوة نظامية وعلمانية في منطقة محفوفة بالتطرف الديني والفوضى. وقد كوّن الحزب لنفسه قاعدة شعبية تدعمه في شمال سوريا؛ وهو الخيار الأقل سوءاً بين الخيارات السيئة المتاحة له.

وفي الوقت الحالي، تشجب الحكومتان التركية والسورية كلاً من حزب العمال الكردستاني وحزب الاتحاد الديموقراطي ملقية بلائمة عدم التقدم في تحقيق الحقوق الكردية عليهما. ولكن الحكومة السورية قمعت مواطنيها الأكراد حتى قبل تشكيل حزب العمال الكردستاني بكثير. أما الحكومة التركية، فقد اتخذت في خمسينيات وستينيات القرن الماضي إجراءات صارمة بحق الناشطين الأكراد؛ مما أجبر عدداً منهم على الهرب إلى سوريا. لم يثق حكام سوريا العسكريون بالأكراد حتى قبل وصول عائلة الأسد إلى السلطة. وفي عام 1962، أجرت الحكومة إحصاء رسمياً خاصاً في محافظة الجزيرة التي يشكل الأكراد غالبية سكانها، وحرمت الحكومة إثر هذا الإحصاء حوالى

120,000 كردي من الجنسية بحجة أنهم ولدوا في تركيا أو العراق [318] ، وكان هؤلاء يشكلون حوالى 20 في المئة من مجموع الأكراد في سوريا في ذلك الوقت. ولم تتلقَّ الأجيال المتوالية من الأكراد الجنسية أيضاً؛ بحجة أن ذويهم ليسوا مواطنين سوريين.

عاش أولئك الأكراد الذين لم يُعتبروا مواطنين في حالة من الفراغ القانوني؛ إذ لم يكونوا قادرين على الحصول على جوازات سفر، ولم يحقّ لهم التعيّن في وظائف حكومية، أو القيام بأعمالهم التجارية الخاصة رسمياً، أو تلقّي التعليم العالي والرعاية الصحية المدعومين من الدولة. كما صادرت الحكومة أراضي الأكراد غير المسجلين وأعطتها لمواطنين عرب، وظلت المشكلة عالقة لما يقارب خمسين عاماً. وفي سنة 2007، عاش 80 في المئة من الأكراد تحت خط الفقر [319] .

حين قابلت الرئيس بشار الأسد قبل اندلاع الثورة بسنين سألته: "لماذا ظل هذا العدد الكبير من الأكراد من دون حقوق المواطنة؟". فأجاب أن هذه إشكالية تقنية؛ وتكمن في تحديد من منهم سوري ومن منهم تركي. فسألته عما إذا كانت السياسة تلعب دوراً في هذه المسألة بما أن الكثير من الأكراد ينتقدون حكمه، فأجاب: "ليست لدينا مشاكل سياسية؛ السوري سوري" [320] .

لكن الحقيقة كانت أن الأسد لم يرد أن يحل مشكلة المواطنة قبل أن يحصل على بعض التنازلات من القياديين الأكراد الذين ظلوا ينتقدون حكمه بشكل دوري. ومع حلول عام 2011، ازداد عدد الأكراد السوريين الذين ظلوا من دون جنسية إلى حوالى 300,000 نسمة. وحين بدأت الثورة، تخوّف الأسد من دعم الأكراد لها وبدّل مسار سياسته. وفي 7 نيسان 2011، وافق فجأة على إعطاء حق المواطنة لحوالى 250,000 كردي؛ مع أن الأرقام الدقيقة لهؤلاء لا تزال موضع جدل [321] . نال هذا الإصلاح شعبية كبيرة بين الأكراد، وأعطى الأسد بعض الوقت الذي كان يحتاج إليه بشدة. ورغم ذلك، استمر الأكراد في كراهيتهم للحكومة، وكانت الطريقة التي تعاملت بها الحكومة مع ثورتهم عام 2004 أحد أسباب استمرار هذه الكراهية.

في 8 آذار 2004، أقرّ العراق اعتماد قانون إدارة الدولة للفترة الانتقالية، الذي اعترف رسمياً بإقليم كردي شبه مستقل شمال العراق؛ فاحتفل الأكراد السوريون بما اعتبروه نصراً كبيراً للأكراد في كل المنطقة. وقد عبَّر هذا الفخر القومي عن نفسه أثناء مباراة كرة قدم جرت في 12 آذار

2004 بين فريق كرة قدم محلي من مدينة القامشلي الكردية ضد الفريق القادم من دير الزور، والذي يشكل العرب معظم أفراده. جاء مشجعو فريق دير الزور إلى المدينة وهم يحملون صوراً لصدام حسين ويهتفون بشعارات مهينة للأكراد، فرد المشجعون الأكراد بهتافات مؤيدة للرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش [322] ، واندلعت شجارات بين مشجعي الفريقين، فتدخلت القوى الأمنية؛ ولكن ليس لفض الشجار بل لتقف إلى جانب مشجعي فريق دير الزور.

قتلت قوات الشرطة ستة أشخاص في اليوم الأول كما قالت بالو المقيمة في مخيم اللاجئين: "في اليوم التالي، حين ذهب أهالي المدينة لدفنهم حدث صدام بينهم وبين قوى الشرطة، وبدأت الثورة عندها" [323] . وسرعان ما تدهور الوضع مع اندلاع مواجهات في الشوارع. وفي نهاية شهر آذار، بلغ عدد الضحايا 43 قتيلاً ومئات الجرحى، بالإضافة إلى اعتقال حوالى 2,500 شخص [324] . كانت تلك أسوأ عملية قمع تعرض لها الأكراد حتى ذلك الوقت في تاريخ سوريا الحديث. وهرب من جراء ذلك آلاف الأكراد عبر الحدود إلى إقليم كردستان في العراق، حيث لا يزال الكثيرون منهم يعيشون حتى اليوم ويعلمون أبناءهم وحتى أحفادهم عن بشار الأسد "الشرير". وأضافت بالو: "نحن نعلم أنه يجب علينا بعد سقوط هذا النظام في سوريا أن نعمل من أجل حقوقنا، وسنحرر إقليمنا في كردستان".

لن يكون "تحرير كردستان بغضّ النظر عن الشكل الذي سيأخذه سهلاً؛ فالحكومة السورية والثوار العرب المتطرفون والمجموعات الكردية كلّها تريد السيطرة على حقول النفط في الإقليم الكردي. وقبل ثورة عام 2011 والحظر الاقتصادي الذي فرضه الغرب على سوريا، كانت سوريا تنتج حوالى 370,000 برميل يومياً؛ أي ما لا يشكل أكثر من 0.4 في المئة من مجموع الإنتاج العالمي [325] . قد لا تكون سوريا إلا لاعباً صغيراً على المستوى الدولي في هذا المجال، إلا أن السيطرة على هذه الآبار أمر حيوي لأي نظام يتولى الحكم في البلاد.

وطّن حافظ الأسد وابنه بشار من بعده سوريين عرباً ليعيشوا في المناطق الكردية، فأصبح السكان هناك مختلطين الآن. ولكن الحكومة السورية وبعض الثوار يخشون من أن تسعى الأقلية الكردية إلى السيطرة على إنتاج النفط في أقاليمها كما فعلت في العراق؛ فقد فرض الأكراد العراقيون لأنفسهم حقوق توقيع عقود لاستكشاف النفط وتوزيعه وحفر الآبار مع شركات النفط الأجنبية؛ رغم الاعتراضات القوية والمتكررة من

الحكومة المركزية في بغداد.

توجد في العراق كما هو الحال في سوريا شركة تملكها الدولة لإنتاج النفط، وتفاوض الحكومة العراقية شركات أجنبية تدفع لها مقابل حفر آبار النفط وتوزيعه؛ مما يقدم لهذه الشركات ربحاً يعادل دولاراً واحداً لكل برميل. أما حكومة إقليم كردستان فتوقع عقوداً لإنتاج النفط، تتملك الشركات بموجبها نسبة من الإنتاج؛ مما يزيد أرباحها إلى ما بين 3-5 دولارات للبرميل الواحد [326] . وإذا أخذت شركات النفط الأمريكية والغربية المستقبل بعين الاعتبار، فستكون في غاية السعادة إذا تمكنت من التوصل إلى صفقة كهذه مع كردستان السورية.

ولكن هذا مجرد جدل افتراضي؛ لأن العقوبات الغربية أوقفت كل إنتاج النفط في أواخر 2011. وفي وقت لاحق، اضطر الجيش السوري إلى الانسحاب من المنطقة، فتصارعت العشائر المحلية والجماعات الإسلامية المتطرفة وحزب الاتحاد الديموقراطي للسيطرة على آبار النفط غير المحمية. أنشأ أهالي المنطقة مصافي بترول بسيطة، وكانوا يستخرجون بواسطتها الديزل ووقود المدافئ؛ وذلك بتسخين النفط حتى يصل إلى درجة الغليان. لكن إجراءات السلامة في هذه العمليات كانت شبه معدومة، مما جعل الانفجارات تهزّ المنطقة بشكل دوري، وتصاعدت أعمدة من الدخان السام الأسود من "المصافي" ملوّثة الهواء [327] . ورغم أن الرغبة في السيطرة على النفط هي ما يحكم خلفية الصراع، إلا أن مسألة التوجه الانفصالي عند الأكراد هي ما يبرز إلى واجهته.

خلال الأعوام الثلاثة الأولى من الثورة، ظلت المجموعات الكردية تعلن رفضها للانفصال، وأصرت على أن هدفها هو الحصول على حقوق أكبر للأكراد ضمن الدولة السورية. ولكن مع حلول منتصف عام 2014، تغيرت الظروف في المنطقة بسرعة؛ إذ استولى تنظيم داعش المتطرف على مناطق شاسعة من العراق، وأرسلت حكومة إقليم كردستان العراق قوات البيشمركة ووكالات استخباراتها إلى مدينة كركوك في العراق فأخذت السيطرة على المدينة من سلطات الحكومة المركزية في بغداد. لطالما طالب الأكراد العراقيون بكركوك عاصمة لهم، وبدا أنهم قد حققوا هدفهم أخيراً. وخطّط مسؤولو حكومة إقليم كردستان لعقد استفتاء على الاستقلال التام لإقليم كردستان في العراق.

راقب أكراد سوريا التطورات في العراق عن كثب؛ فإذا شهدت الأوضاع في العراق وسوريا المزيد من التدهور، فقد يتحول الانضمام إلى

دولة مستقلة في الشمال إلى خيار مهم. ولكن حتى منتصف عام 2014، ظلت كل المجموعات - وعلى الأقل على المستوى الرسمي - تطالب بحقوق أكبر ضمن إطار الدولة السورية، ولم تدعُ إلى الاستقلال عنها. قد تختلف الأحزاب السياسية الكردية على التفاصيل، إلا أنها تتفق على بعض الخطوط العريضة والمبادئ العامة في ما يتعلق بتمتعها بحقوق سياسية وثقافية أكبر:

- يجب أن يكون لجميع الأكراد المولودين في سوريا حقوق كاملة كمواطنين سوريين؛ بما في ذلك حق الحصول على وظائف حكومية، وجوازات سفر، ورعاية طبية، وتعليم عالٍ.
- يجب أن يكون للأكراد حق التعلم باللغة الكردية بالإضافة إلى العربية، وأن تعترف الدولة بأن اللغة الكردية هي لغتهم الشرعية. كما أنهم يريدون الاعتراف بحقهم في الاحتفال بالأعياد الكردية وتعلم التاريخ الكردي.
- على الدستور الجديد أن يعترف بالأكراد كقومية متميزة ضمن البلد.
- يجب تغيير اسم البلد من الجمهورية العربية السورية إلى الجمهورية السورية فقط؛ مما يعكس أن سوريا بلد يضم أعراقاً وقوميات مختلفة وليس العرب فقط. يشبه هذا المطلب الجدل الدائر في الولايات المتحدة عما إذا كانت أمريكا دولة "مسيحية" أم لا. إذ يجد المسلمون واليهود والهندوس والكثيرون غيرهم الفكرة مهينة لهم؛ لأنهم مواطنون في الولايات المتحدة لكنهم غير محدودين بديانة معينة. وبالطريقة نفسها، يعتبر الأكراد أنفسهم جزءاً من سوريا ولكنهم ليسوا عرباً.
- يجب أن يكون لدى الأكراد نوع من الحكم السياسي المحلي، وتقدّم الأحزاب الكردية هنا حلولاً مختلفة؛ منها الفدرالية والإدارة الذاتية واللامركزية. ولا يزال هناك جدال عنيف حول هذا الموضوع داخل الحراك الكردستاني، وسيستمر هذا الجدل بكل تأكيد إذا استلمت حكومة جديدة السلطة في دمشق.
- طرحت الأحزاب الكردية هذه المطالب المحلية لسنين طويلة، ولكنها نالت المزيد من الزخم مع بدء الثورة السورية في آذار 2011.

أثناء الأشهر الأولى من عام 2011، أسقطت الثورات الشعبية الديكتاتوريات العسكرية الحاكمة في تونس ومصر. ومع حلول شهر آذار، بدأ عدد كبير من أهالي دمشق ومدينة درعا الجنوبية بالتظاهر السلمي مطالبين بالإصلاحات؛ كإجراء انتخابات حرة، وإنهاء القمع الأمني الذي تمارسه الدولة عليهم، وانطلقت مظاهرات مشابهة في الإقليم الكردي ولكن على

نطاق أضيق. وقد قابلت قيادياً في تلك المظاهرات بعد هربه من سوريا، حيث يعيش الآن في إربيل في إقليم كردستان العراق. وافق "كيوان رشيد" على مقابلتي في شارع مزدحم في إربيل يحتوي على مطاعم ومركز تسوق. كان "رشيد" اسمه الحركي، وقد أخفى اسمه الحقيقي لأسباب واضحة [328] .

ساعد رشيد في تنظيم المظاهرات في مدينة القامشلي مسقط رأسه، وسرعان ما اكتشف المتظاهرون أن الحكومة تراقب خطوط الهاتف الخليوي العاملة مع سيرياتيل، وهي أكبر شركة للخطوط الخليوية في البلد، ويملكها ابن خال الرئيس الأسد رامي مخلوف. ولذلك وضع المتظاهرون خطة ذكية لخداع السلطات؛ فقد عبر "رشيد" مع مجموعة أخرى من الناشطين الحدود التركية، واشتروا مجموعة من بطاقات الهاتف الذكية التركية. ولمّا كانت التغطية التركية تمتد إلى شمال سوريا، فقد تمكّن المتظاهرون من التواصل من دون أن يخافوا من التنصت على مكالماتهم.

تابع رشيد كلامه، وقال إن قوى الأمن المحلية انتبهت إلى الحيلة في آخر الأمر: "لقد اتهمتني الحكومة بتوزيع البطاقات الذكية - وهو أمر غير قانوني - فغادرت البلد". لم يستخدم المتظاهرون عموماً موقع فايسبوك أو مواقع التواصل الاجتماعي الأخرى لأن الحكومة كانت تراقب هذه المواقع مراقبة شديدة. لم تكن الثورة السورية ثورة "فايسبوكية" بل كانت أقرب إلى "ثورة هواتف خليوية". وقال رشيد: "لم أكن خائفاً". فسألته: "لم لا؟ فقد كانت الحكومة تلقي القبض على الناس وتعرضهم لتعذيب وحشي". فأجاب: "لقد كان أمامي أحد خيارين: إما أن أهرب وأنجو أو أموت. لكن، إذا نجوت فقد أحظى بحريتي يوماً ما".

في عام 2011، كان الشباب من أمثال رشيد قلة بين مجموع الأكراد. فقد ظل الأكراد ينتقدون الأسد، ولكنهم لم يثقوا في الثوار أيضاً، لذا لم تشارك الأحزاب الكردية التقليدية في الثورة خوفاً من قمع الحكومة من ناحية، ولأنها تخوّفت من عدم احترام المعارضة الإسلامية لحقوق الأكراد من ناحية أخرى.

محمد أمين فرحو معلق، وناشط سياسي كردي من سوريا، ويعيش فيها. وقد أخبرني أثناء مقابلتي معه: "يخشى الأكراد من أحزاب المعارضة العربية لأن برنامجها ليس واضحاً" [329] . وقد أبدت مجموعات المعارضة العربية استعدادها للاعتراف بالأكراد كمواطنين سوريين مساويين لهم، ولكن من دون الاعتراف بالأكراد كقومية متميزة لديها لغتها وثقافتها وحقوقها

السياسية المختلفة.

خلال سنة 2011، استغلت حكومة الأسد جو عدم الثقة السائد بين العرب والأكراد كامل الاستغلال؛ إذ هاجم الجيش السوري المدن العربية مثل حمص وحماة بضراوة، ولكنه في المقابل تصرف بدهاء؛ إذ قرر ألا يشن هجمات مماثلة على المناطق ذات الغالبية الكردية. وقال لي نائب سكرتير حزب يكيتي الكردي حسن صالح: "حاول النظام تحييد الأكراد؛ فلم يتعرض الناس للقمع في المناطق الكردية كما كان يحصل في المناطق العربية، ولم تلقِ الحكومة القبض على أحد من الأكراد؛ باستثناء الناشطين منهم" [330] .

وبينما ظل القادة الأكبر سناً حذرين، اقتنص الأكراد الشباب الفرصة، ونظّموا مظاهرات معادية للحكومة في القامشلي، كما انضموا إلى السوريين العرب في مدن أخرى مثل حلب لعقد التجمعات والمسيرات الاحتجاجية. ومن بين القياديين الأكراد مشعل تمو، وهو المثال الأعلى لأولئك الشباب.

عادة، كان مشعل تمو يرتدي بذلة أنيقة ويضع ربطة عنق في ظهوراته الرسمية. وحتى بعد أن بلغ الرابعة والخمسين من عمره، فقد ظلّ محتفظاً بجاذبيته الشبابية. كوَّن تمو تيار المستقبل الكردي السياسي عام 2005 كمجموعة وسطية تميل إلى اليسار، وتلتزم بحقوق الأكراد ضمن الدولة السورية. تعرض تمو للاعتقال، وأمضى سنتين في سجون الأسد قبل أن يطلق سراحه عام 2011 تحت ضغط المطالب الشعبية بإطلاق سراحه. أيّد القيادي صاحب الكاريزما العالية الثورة منذ بدايتها، وأصبح بطلاً في نظر الشباب الأكراد الذين يخاطرون بحياتهم في الشوارع. وقد قال تمو في إحدى مقابلاته: "هناك جيل جديد من الشباب في المجتمع السوري لا يشارك الجيل السابق في مخاوفه. وهذا الجيل الشاب هو الذي سيبني سوريا الجديدة" [331] .

دعا تمو إلى إسقاط النظام البعثي وبناء نظام برلماني يضمن الحريات المدنية للجميع، وقال إن أي "دستور جديد يجب أن يعكس التنوع الثقافي للشعب السوري، ويجب استحداث قوانين للأحزاب السياسية والتصويت والصحافة وما إلى ذلك... وستنتصر المجموعات التي تريد دولة مدنية ديموقراطية حديثة" [332] . طالب تمو تيار المستقبل الكردي السياسي بحقوق كاملة للأكراد في اللغة والثقافة، كما طالب بالحقوق السياسية ضمن الدولة السورية، وقال هو شخصياً: "لا يسعى الأكراد السوريون إلى الانفصال عن سوريا؛ مع أن فكرة كردستان تظل بالطبع حلماً بالنسبة إلى كل كردي"

[333] . وفي مقابلة أجراها في تموز 2011، دعا الغرب إلى فرض حظر اقتصادي على نظام الأسد، ولكنه عارض أي تدخل عسكري أجنبي قائلاً: "نحن لا نريد تدخلاً عسكرياً من الخارج، سنحل مشاكلنا بأنفسنا" [334] .

مدّ تمو جسوراً مع قوى المعارضة العربية، وانضمّ إلى المجلس الوطني السوري - أي الائتلاف الذي دعمته الولايات المتحدة، والذي جمع بين مجموعات علمانية وإسلامية وبعض المجموعات الكردية - وحضر بعض الاجتماعات الأولى للمجلس، ولكنه سرعان ما انسحب نتيجة اختلاف وجهات النظر في ما يتعلق بالحقوق الكردية. إذ أراد المجلس الوطني السوري الحفاظ على اسم البلد كما هو: "الجمهورية العربية السورية"، أما تمو والأكراد فقد أرادوا تغييره إلى "الجمهورية السورية" فقط.

نالت آراء تمو تأييداً شعبياً؛ لأنها طالبت بحقوق الأكراد، وبإسقاط الأسد من دون أي تدخل عسكري أجنبي. ولكن بعد ذلك، وفي 7 تشرين الأول 2011، اغتاله رجال ملثمون خارج منـزل آمن كان يختبئ فيه. اتهمت الحكومة السورية "إرهابيين في المعارضة" بارتكاب جريمة القتل هذه، ولكن الكثير من الأكراد اتهموا السلطات السورية التي كانت المنتفعة الكبرى من مقتل قائد شعبي يؤيّد الكثير من الناس آراءه، وخاصة بين الشباب. وفي يوم جنازة تمو، زحف خمسون ألف متظاهر إلى القامشلي احتجاجاً على الاغتيال، فأطلقت القوى الأمنية الحكومية النار على الجماهير بالذخيرة الحية، وقتلت ما لا يقل عن خمسة أشخاص في القامشلي وعدة مدن أخرى [335] .

شكّل اغتيال تمو نقطة تحول في النضال الكردي؛ إذ أصبحت المظاهرات الجماهيرية أكبر حجماً، وفقدت الأحزاب الكردية التقليدية نفوذها، بينما اكتسبت المعارضة التي يقودها الشباب المزيد من الوزن على الأرض، وأصبحت الحركة الكردية أكثر تطرفاً مع تزايد عدد الناس المطالبين بإسقاط نظام الأسد بقوة السلاح.

كان حزب الاتحاد الديموقراطي أول الأحزاب الكردية التي اتجهت إلى الكفاح المسلح في روجافا، وهي التسمية الكردية للمنطقة الشمالية من سوريا. هرّب الحزب السلاح مستخدماً الشبكات السرية التي بناها الحزب الذي ارتبط به؛ أي حزب العمال الكردستاني. قابلت قيادياً في حزب الاتحاد الديموقراطي سمّى نفسه "كان مِد" في إربيل في خريف عام 2011. في ذلك الوقت، دعا حزب الاتحاد الديموقراطي إلى تدخل عسكري أجنبي محدود لحماية المدنيين وإسقاط الأسد، وتوقع "مد" أن يبدأ حزب الاتحاد

الديموقراطي قريباً بشن هجمات مسلحة على الجيش السوري: "إذا أردت الحصول على التسليح في الشرق الأوسط فالأمر سهل للغاية؛ بإمكاننا فعل ذلك" [336] . لم يصطدم حزب الاتحاد الديموقراطي بالقوات الحكومية فحسب، بل ومع الجيش السوري الحر والإسلاميين المتطرفين الذين أرادوا بسط سيطرتهم على مدن الإقليم الكردي.

وفي تموز من عام 2012، بدأ الأسد في سحب جيشه من المدن الكردية الأصغر حجماً ليركز قواته في مدينة دمشق، ولكنه أبقى على حامية في القامشلي؛ كبرى المدن ذات الأغلبية الكردية في البلد. فتقدم حزب الاتحاد الديموقراطي ليملأ الفراغ، وأرسل مقاتليه إلى أربع بلدات قريبة من الحدود السورية-التركية، وإلى المقاطعات الكردية في حلب، ورفع هؤلاء المقاتلون علم حزب الاتحاد الديموقراطي مع العلم الكردي فوقه في البلدات التي سيطروا عليها [337] .

وحين رأى القائد الكردي العراقي مسعود برزاني أن حزب الاتحاد الديموقراطي يحقق المزيد من المكاسب، بدأ بتقديم التدريب العسكري لبعض الأكراد السوريين الذين كانوا يعيشون في مخيمات اللاجئين شمال العراق، كما شكّل "لجنة التنسيق الخاص" مع الميليشيا الخاصة بها. ولكن حتى آخر سنة 2013 لم تشارك قوات هذه الميليشيا في القتال الدائر في سوريا. وكان الخوف من انتقام الأسد أحد أسباب ذلك، ولكن السبب الرئيس كان معارضة حزب الاتحاد الديموقراطي. ففي تموز 2012، التقت كل الأحزاب الكردية السورية بما في ذلك حزب الاتحاد الديموقراطي ولجنة التنسيق الخاص في إربيل بدعوة من برزاني، ووقّعت جميعها ما عرف باسم "اتفاق إربيل"؛ الذي شكّل ائتلافاً سياسياً وعسكرياً موحداً ضد الأسد. ولكن العداوات الداخلية تسببت بالانقسام سريعاً، فشكّل حزب الاتحاد الديموقراطي ائتلافاً خاصاً به سماه "قوات الدفاع الشعبي في غرب كردستان". والتقى الإئتلافان مجدداً في أيلول، ودعَوا إلى جبهة موحدة ضد الأسد، وإلى المطالبة بحقوق الأكراد داخل سوريا.

ورغم استمرار التباينات الحادة بين الأحزاب الكردية السورية الستة عشر، إلا أن سوريا وتركيا شعرتا بالقلق؛ فقد خشي الجيش التركي أن يفرض الأكراد دولة أمر واقع في شمال سوريا، وأن ترتبط هذه الدولة ارتباطاً وثيقاً مع حزب العمال الكردستاني. ولذلك، ومع بداية سنة 2012، سعت الحكومة التركية إلى تدمير مصداقية حزب الاتحاد الديموقراطي، فزعمت أن حزب الاتحاد الديموقراطي وحزب العمال الكردستاني قد عقدا

صفقة مع الأسد أعطاهما فيها بعض المناطق الكردية للهجوم على تركيا.

واستشهدت الحكومة التركية بالتحالف الذي كان قائماً بين حزب العمال الكردستاني ونظام الأسد في ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي لإثبات مزاعمها بأن الطرفين يتعاونان مجدداً. وكان هذا ملائماً ومناسباً لسياسة الحكومة التركية في دعم الإخوان المسلمين، مع معارضة أي مكاسب سياسية للأكراد في سوريا. وقالت السلطات التركية إن الحكومة السورية كافأت حزب الاتحاد الديموقراطي على دعمه لها؛ وذلك بالسماح له بمد سيطرته على البلدات الأربع، ورددت الكثير من وسائل الإعلام الغربية هذه المقولة. وقد قدم لي المراسل والمحلل السياسي الهولندي فلاديمير فان فيلغنبرغ رأياً مشابهاً مع بعض الاختلاف البسيط؛ إذ قال إن حزب الاتحاد الديموقراطي قد توصل عدة مرات إلى توافقات قائمة على الأمر الواقع مع جميع الأطراف المسلحة الرئيسة تقريباً، ثم أضاف: "إن الهدف الرئيس لحزب الاتحاد الديموقراطي هو إنشاء إقليم إدارة ذاتية. ولا يهمه إذا اضطر إلى التعاون مع القاعدة أو الأسد أو الجيش السوري الحر أو أي طرف آخر طالما أن ذلك يخدم غايته. إذ لا يحارب هذا الحزب بالوكالة عن أي طرف، بل يتبع استراتيجيته الخاصة" [338] .

عارض حزب الاتحاد الديموقراطي كلاً من نظام الأسد والثوار المدعومين من تركيا. وقال صالح مسلم رئيس حزب الاتحاد الديمقراطي في مقابلة مع قناة الجزيرة مشيراً إلى الحال في سوريا: "لا يمكننا الدفاع عن الاستبداد والقمع، ونحن نريد إسقاط النظام ولكن نختلف في الآليات والوسائل" [339] .

لم ترد السلطات التركية أن تعترف بأن الأكراد السوريين عموماً قد عارضوا كلاً من نظام الأسد والمعارضة الإسلامية التي تدعمها تركيا. وقد كتب مصطفى كاراسو في الموقع الرسمي لحزب العمال الكردستاني: "لقد فرض الأكراد أنفسهم كطريف ثالث في سوريا؛ فلم يصطفوا مع النظام الحالي، ولا مع معارضة تفتقر إلى أي من الصفات الديموقراطية والتحررية" [340] . وكانت المفارقة أن كارسو تابع ليتكلم عن موقف قد تتبناه الولايات المتحدة والأوروبيون: "سيغادر بشار الأسد سوريا، ولن يعود نظام البعث موجوداً. لكن دولة سورية يحكم فيها الإسلام السياسي ليست أمراً مقبولاً. لن يكون هناك تفرد في السلطة... ولن تهمش أطراف الإسلام السياسي كما كان الحال في نظام البعث، ولكنهم لن يكونوا حملة السلطة الأساسيين أيضاً". انتقد كارسو أيضاً المعارضة العربية الوطنية لعدم اعترافها

بالحقوق الكردية.

حظي حزب الاتحاد الديموقراطي بمصداقية عالية في الشارع الكردي نتيجة مطالبه المنطقية، وقدرته على الدفاع عن المدن الكردية ضد كل من قوات الأسد العسكرية والمتطرفين الإسلاميين. غير أن الكثير من الأكراد كانوا يختلفون بحدة مع حزب الاتحاد الديموقراطي، ويعتقدون أنه فئوي وسلطوي، ولكن لم يسهم اتهام الحزب بممالأة الأسد إلا بتكذيب السلطات التركية.

وحين فشلت هذه الحملة الإعلامية غيّر الأتراك أساليبهم؛ فقال وزير الخارجية التركي إن بلاده لن تقف في وجه حصول الأكراد السوريين على الإدارة الذاتية؛ وهو مطلب أساسي لحزب الاتحاد الديموقراطي [341] . وفي تموز من عام 2013، دعت تركيا رئيس حزب الاتحاد الديموقراطي صالح مسلم لمقابلة مسؤولين استخباراتيين أتراك رفيعي المستوى. وقال المسؤولون الأتراك إنهم يريدون ضمانات بأن حزب الاتحاد يعارض نظام الأسد بثبات، ولن ينشئ إقليماً ذا إدارة ذاتية باستعمال العنف [342] . وبالنسبة إلى حزب الاتحاد الديموقراطي، لقد رغب في التحالف مع تركيا ومسؤولي الحكومة السورية المحليين والمعارضة العربية، وهكذا برزت إمكانية حصول مصالحة سياسية بين تركيا وحزب الاتحاد الديموقراطي.

قالت ماريا فانتابـي، الباحثة المختصة في الشأن الكردي في مجموعة الأزمات الدولية: "حزب الاتحاد الديموقراطي حزب براغماتي، ولديه مشروعه الخاص الذي يود تنفيذه في المناطق التي يسكنها الأكراد في سوريا. لذا يمكننا أن نتوقع دخوله في كل تحالف قد يحتاج إليه كمساومة مؤقتة" [343] .

في 21 كانون الثاني 2014، أعلن الأكراد عن قيام الإدارة الذاتيّة في ثلاث محافظات شمال سوريا، ووقّع خمسون حزباً يرأسها حزب الاتحاد الديموقراطي الإعلان. ووعدت سلطات الإدارة الذاتية الجديدة بالعمل مع الأحزاب السياسية الكردية الأخرى، وحماية حقوق الأشوريين والعرب الذين يعيشون في المنطقة، كما وعدت بإجراء انتخابات حرة خلال أشهر قليلة. استمر التخطيط للإعلان عن مشروع الإدارة الذاتيّة عدة أشهر قبل إبرازه إلى العلن، وقد جاء توقيته قبل محاثات مؤتمر جنيف 2 للسلام في الشرق الأوسط مباشرة، واختير هذا التاريخ لوضع القضية الكردية في دائرة اهتمامات المجتمع الدولي.

أخذ حزب الاتحاد الديموقراطي المبادرة، دافعاً باتجاه تنفيذ مشروع

الإدارة الذاتيّة لأنه كان يرى أن سوريا تتشقق؛ حيث مارس السنة والعلويون السيطرة الفعلية على مناطقهم. وأخبر قيادي حزب الاتحاد ألدار خليل وكالة رويترز أنه يجب على سوريا أن تظل دولة واحدة، ولكن ضمن نظام فدرالي يعطي الأكراد الكثير من السيطرة المحلية؛ كما هو الحال في العراق، وأضاف: "الانفصال عن سوريا نفسها لن يحدث، أما بالنسبة إلى نظام فدرالي فهذا ممكن" [344] .

وبينما تحولت هذه المناطق إلى "الإدارة الذاتية" اسمياً، فقد كافحت السلطة الجديدة في الواقع لتقديم الخدمات الأساسية في المدن الصغيرة الواقعة تحت سيطرتها؛ فقامت بتكرير الديزل الذي تضخه آبار النفط الحكومية، ووزّعته على الفلاحين مقابل أسعار زهيدة كي يستخدموه في الجرارات الزراعية والمولدات المنـزلية، كما قدّم حزب الاتحاد الديموقراطي الحماية الأساسية ضد هجمات الجيش السوري والثوار المتطرفين. أرسلت منظمة هيومان رايتس ووتش المعنية بحقوق الإنسان وفداً إلى مناطق الإدارة الذاتية الجديدة، وقال فلويد أبراهامز، أحد أعضاء الوفد: "بالمقارنة مع أجزاء البلاد الأخرى، إن الوضع الأمني هنا مستقر نسبياً" [345] .

غير أن أبراهامز تابع منتقداً حزب الاتحاد الديموقراطي، وقائلاً إن الحزب لا يسمح بحرية التعبير عن الرأي ولا بحرية وسائل الإعلام، وإن قوات الشرطة تضرب عادة المتهمين بالجرائم. لكنه أضاف أنه ليس لدى السلطات الكثير من التعصب ضد الآراء السياسية المختلفة. أما قادة المجموعة الكردية الرئيسة الأخرى؛ أي الحزب الديمقراطي الكردستاني، فقد انتقدوا إعلان الإدارة الذاتية، وقالوا إنه لا يزيد عن كونه مجرد أدبيات إنشائية؛ لأن حكومة الأسد لا تزال تسيطر على أغلب مدينة القامشلي. كما قال محمد إسماعيل - وهو أحد أعضاء الحزب الديمقراطي الكردستاني البارزين - لوكالة رويترز: "لا يزال وزراء الحكومة يأتون إلى هنا في زيارات، ولا يزال موظفو الدولة يتلقون رواتبهم، ولا تزال خطوط الهاتف تعمل، كما لا يزال نظام الرعاية الصحية كما هو؛ فأين الإدارة الذاتية المحلية التي يتكلمون عنها؟" [346] .

برز حزب الاتحاد الديموقراطي كأقوى حزب كردي في سوريا؛ إذ سيطر على عدد من البلدات ومعابر الحدود إلى تركيا. وبعد خبرة أكثر من أربعين سنة أمضيتها شخصياً في تغطية الثورات والاحتجاجات حول العالم، توصّلت إلى قاعدة عامة نادراً ما تخيب: يمكنك أن تعرف الكثير عن الطريقة التي ستحكم بها مجموعة معينة بعد الثورة عبر مراقبة كيفية

حكمها المناطق الواقعة تحت سيطرتها أثناء الثورة. وبناء على هذا، فلننظر إلى الطريقة التي يتصرف بها حزب الاتحاد الديموقراطي.

قابلت عدداً من المسيحيين الذين نـزحوا إلى الحسكة، وهي منطقة ذات غالبية كردية في شمال سوريا. لقد كان هؤلاء الناس يخشون مقاتلي جبهة النصرة الذين أنشأوا حواجز على الطرق تستهدف المسيحيين في بعض الأوقات. وقالت لي "سابا"، وهي لاجئة مسيحية قابلتها في لبنان، إنه وبالمقارنة مع هذه الأحوال المتردية فإن حزب الاتحاد الديموقرطي يحترم حقوق المسيحيين: "إنهم يحمون مناطقهم من دون أن يتدخلوا في مناطقنا. وهم منظمون للغاية، ولم نواجه أي مشكلة معهم مطلقاً" [347] .

ولكن بعض الأكراد الذين يعيشون في مدينة عفرين التي يسيطر عليهما الحزب رووا قصة مختلفة تماماً؛ فقد قالت تورلين بلال - وهي واحدة من سكان المدينة - لوكالة "غلوبال بوست" الإخبارية: "لقد هدد حزب العمال الكردستاني الجميع في عفرين. إنهم يطلبون الضرائب من الجميع. وإذا رفضت فهم يهددون أو يسرقون أو يدمرون أملاكك..." [348]

على المستوى النظري، كان كلٌّ من حزب الاتحاد الديموقراطي والمجلس الوطني الكردي يحكمان المدن معاً. وقد قال أوم بشناك، وهو واحد آخر من سكان المدينة: "على الورق يحكمنا ائتلاف كامل. ولكن في الحقيقة، حزب العمال الكردستاني [حزب الاتحاد الديموقراطي] هو الوحيد الذي لديه أسلحة، والقادر على فرض إرادته على الناس" [349] .

يواجه حزب الاتحاد الديموقراطي معارضة قوية من فصائل مسلحة أخرى أصغر حجماً؛ مثل الجبهة الإسلامية الكردية، وكتيبة صقور البيشمركة، وكتيبة شهداء مكة. وتوجد كل هذه الفصائل بالقرب من حلب [350] . وتحارب هذه الفصائل بجانب الثوار العرب والجيش السوري الحر، وتدين وتشجب حزب العمال الكردستاني، كما أنها تريد أن تظل جزءاً من سوريا، وتعارض الانفصال. ويقول أعضاء هذه الفصائل إن رغبة حزب الاتحاد الديموقراطي الحقيقية هي الاستقلال عن سوريا. لقد اندلعت مواجهات عسكرية كبيرة حين اختطف تنظيمان متطرفان هما جبهة النصرة والدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش) 250 كردياً في تموز 2013. وكان معظم الرهائن مدنيين أكراداً اختطفتهم المنظمتان حين أحكمتا سيطرتهما على قريتين كرديتين. اصطدم التنظيمان مع عناصر حزب الاتحاد الديموقراطي، وقتل العشرات من الطرفين [351] .

أأصدر الجيش السوري الحر بياناً مشتركاً مع الفصائل المتطرفة، وقد

دانت فيه حزب العمال الكردستاني/حزب الاتحاد الديموقراطي؛ مما عكس تصاعد العداء بين الطرفين إلى مستوى جديد. واتهم البيان المشترك حزب الاتحاد الديموقراطي بالتفرقة بين الأكراد والعرب لمصلحة نظام بشار الأسد. وكتبت هذه الفصائل في بيانها أن حزب العمال الكردستاني يحاول "توليد فتنة عرقية بين العرب والأكراد المتعايشين معاً عبر مئات السنين، والذين تربطهم علاقات وطيدة وصلات قرابة وتراحم في ما بينهم، كما يحاول تحويل تلك العلاقات إلى علاقة عدائية ظاهرها الحقد والبغضاء، وتستنـزف منا الكثير من الوقت والجهد والدم والمال" [352] . لكن كل تلك الفصائل لم تذكر أي شيء عن حقوق الأكراد، بل شخّصت الصراع في سوريا برمته كحرب دينية: "هدفنا إرضاء الله عز وجل، ثم تأمين حياة آمنة لأهلنا في سوريا، والمحافظة على وحدة الشعب السوري المسلم، والمحافظة على سير ثورتنا المباركة حتى إسقاط هذا النظام المجرم" [353] .

إذاً، يعتقد الجيش السوري الحر والإسلاميون المحافظون أن الدين سيحل المشاكل بين الأكراد والعرب، وهم يخشون أن تكون المطالبة بحقوق الأكراد مجرد مقدمة لتقسيم سوريا. أردت معرفة المزيد عن رأي التيار الرئيس في المعارضة العربية، فذهبت إلى إسطنبول لأقابل قياديي الإخوان المسلمين.

قابلت عضو مجلس قيادة الإخوان المسلمين ومسؤول المكتب الإعلامي للإخوان في سوريا عمر مشوّح وسألته عن حقوق الأكراد، فأجاب فوراً بانتقاد حزب العمال الكردستاني بسبب نـزعته التقسيمية، ولم يفرق بين حزب العمال الكردستاني وحزب الاتحاد الديموقراطي. تتلقى جماعة الإخوان المسلمين دعماً مالياً وسياسياً وعسكرياً كبيراً من تركيا، ولذلك لم يكن من المفاجئ أن يعكس رأي مشوح وجهة نظر الحكومة التركية القائلة إن حزب الاتحاد الديموقراطي يؤيد الأسد؛ فقد أخبرني قائلاً: "هناك بعض الأكراد المتطرفون الذين يدعمون النظام. وفي بداية الثورة، تسبّب بعضهم في حالة من عدم الاستقرار في جنوب تركيا" [354] . كما انتقد مشوح حزب الاتحاد الديموقراطي لرفعه أعلام الحزب والعلم الكردي في البلدات التي سيطر عليها، قائلاً إنه كان عليه رفع علم المعارضة السورية. ولكنه أبدى استعداده للدخول في محادثات مع المجلس الوطني الكردي الذي يدعمه برزاني؛ لأنه يرى أن المجلس أكثر اعتدالاً كما قال: "لدى المجلس الوطني الكردي رؤيته الخاصة عن الدولة الكردية، وقد لا تعكس هذه الرؤية بالضرورة رؤية كل أكراد سوريا. نحن نتفاوض معهم لنصل إلى الحل

الأمثل".

لا ترغب جماعة الإخوان المسلمين ولا أي مجموعة عربية معارضة أخرى في إعطاء الإدارة الذاتية لإقليم كردستان في سوريا. وقد جادل مشوح بأن الإدارة الذاتية لن تخدم أي غرض إلا التمهيد للانفصال: "يعرب الكثير من القادة الأكراد عن عدم رغبتهم في الانفصال عن سوريا، ولكنهم أحياناً يذكرون بعض المطالب التي ستؤدي إلى الانفصال في نهاية الأمر".

ظل الأكراد ولسنين طويلة من أبرز المعارضين لنظام الأسد. ولكن الفصائل الكردية وجدت نفسها تحارب كلاً من جيش النظام والفصائل الإسلامية السياسية التي لم ترغب في الاعتراف بحقوق الأكراد. وشكّل القياديون الأكراد ستة عشر حزباً، وانقسموا إلى ائتلافين. ويعكس هذا الانقسام الصراع الأوسع بين التيارين الأساسيين في السياسة الكردية ككل؛ أي التيار الذي تمثله قوات برزاني في حكومة إقليم كردستان العراق، والتيار الذي يمثله حزب العمال الكردستاني في تركيا. يشكّل التياران تحالفات تكتيكية من حين إلى آخر، إلا أن تباينهما السياسي قد يجعل الوحدة بينهما في المستقبل أمراً صعباً.

يرى مسعود برزاني نفسه كقائد لجميع الأكراد، ولديه كامل المصادر المالية والعسكرية في حكومة إقليم كردستان العراق؛ مما يعني أن لديه القدرة على تدريب قوات "بيشمركة" سوريين، وكذلك لديه دعم تركيا والولايات المتحدة اللتين تعارضان حزب العمال الكردستاني بقوة. وقد زعمت الولايات المتحدة أنها تدافع بثبات عن حقوق الأكراد حين سعت للإطاحة بصدام حسين، ولكنها بدّلت موقفها كلياً في سوريا. فقد رأت إدارة أوباما أن حزب العمال الكردستاني عدو رئيس، لذا عارضت الإدارة الذاتية. وقال مساعد وزير الخارجية للشؤون الأوروبية والآسيوية فيليب غوردون: "لا نرى أي منطقة أو إقليم إدارة ذاتية كردية في مستقبل سوريا. نريد أن تبقى سوريا موحدة". وقال غوردون أيضاً إنه على المعارضة السورية أن تكون أكثر شمولية في ما يتعلق بالمطالب الكردية، ولكنه لم يذكر أي تفاصيل عما يقصده [355] .

لم يستمع الأكراد إلى نصائح الولايات المتحدة. ورغم أنهم استمروا في معارضة الأسد، إلاّ أنهم ظلوا أيضاً مصمّمين على تثبيت حقوقهم القومية. لدى العرب والأكراد مصلحة مشتركة في إنشاء نظام برلماني تحكم فيه الأكثرية، ولكن تتمكن فيه الأقليات من الحفاظ على حقوقها. وعلى المعارضة العربية أن تتقبل مطالب الأكراد في نوع من الحكم الذاتي السياسي المحلي،

بينما يتوجب على الجماعات الكردية أن تسعى إلى تحقيق الوحدة في ما بينها، وأن تمدّ جسور الاتفاق إلى المعارضة القائمة على المجتمع المدني.

وبينما تستمر الثورة السورية، تلقى المطالب الكردية المزيد من اهتمام كلّ من الحكومة وقوات المعارضة. لقد أصبح الأكراد يشكّلون "بيضة القبان" في الثورة السورية، ولا ينوون التخلي عن دورهم في هذه اللعبة.

الفصل العاشر
إسرائيل وفلسطين وسوريا

لقد كنت صهيونياً أثناء سني نشأتي، ولم يكن ذلك نتيجة أي قناعة أيديولوجية، وإنما لأنني كنت أعتقد أن جميع اليهود صهاينة. كانت نشأتي في غرب مدينة لوس أنجلوس في بداية ستينيات القرن الماضي، وكانت السمات البارزة لكون الشخص يهودياً في ظروف ذلك المكان والزمان هي ترديد نكات عن اليهود، والذهاب إلى المعبد ثلاث مرات في السنة، وأكل الكثير من كبد الدجاج، بالإضافة إلى التبرع ببعض السنتات الرمزية لزراعة شجرة في صحراء النقب حينها.

ومن السمات البارزة للشخص اليهودي أيضاً تقديم الدعم الكامل وغير المشروط لدولة إسرائيل. حين كنت أدرس من أجل حفل "البار متسفا" [356] وطقس التأكيد، تعلمت الرواية الصهيونية للتاريخ: لقد تعرض اليهود لإبادة جماعية في "الهولوكوست" النازي. وتقدم إسرائيل المكان الآمن الوحيد في العالم لشعبنا، والآن يريد العرب أن يقتلونا جميعاً.

في عام 1965، انضممت إلى الحركة المعارضة لحرب فييتنام حين كنت أدرس في جامعة كاليفورنيا في بيركلي، وقدمت لي الحركة - للمرة الأولى - وجهة النظر البديلة. أصبت بالصدمة حين علمت أن إسرائيل تدعم حرب فييتنام، وأنها متحالفة مع شاه إيران الديكتاتوري، كما أن لديها علاقات مقربة مع دولة جنوب أفريقيا التي كان يحكمها نظام "الأبارتهيد" القائم على التفرقة العنصرية. ومن الجدير بالملاحظة أن إسرائيل ساعدت دولة جنوب أفريقيا على تطوير أسلحة نووية في وقت لاحق [357] .

واكتشفت أيضاً أن إسرائيل تدعم العدوان العسكري الذي تقوم به جيوش الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، وتعارض المجموعات التي تحارب ضد الاستعمار، وأنها رغم مزاعمها بأنها ضحية جيوش عربية أضخم من جيشها بكثير إلا أنها في الحقيقة تمتلك أقوى جيش في المنطقة. والأهم من ذلك كله أن إسرائيل في كل مرة تدخل فيها حرباً مدعية أنها تفعل ذلك دفاعاً عن نفسها، فهي تخرج من الحرب وقد احتلت المزيد من الأراضي. ففي نهاية حرب حزيران 1967 مثلاً، توسّعت إسرائيل إلى ثلاثة أضعاف مساحتها الأصلية التي أعطيت إياها بموجب خطة الأمم المتحدة عام 1947، كما أنها لم تقبل قطّ بالاعتراف بشرعية أي دولة فلسطينية. في ذلك

الوقت، كان مسؤولو الدولة الإسرائيليون يقولون إنه على الفلسطينيين الذهاب إلى الأردن إذا رغبوا في الحصول على وطن لهم [358] .

وصل هذا الأمر إلى ذروته بالنسبة إلي في حزيران 1967؛ حين شنّت إسرائيل الحرب على سوريا ومصر والأردن، وأحرزت نصراً عسكرياً حاسماً خلال ستة أيام فقط، محتلة الضفة الغربية وقطاع غزة [وصحراء سيناء] والجولان السوري [359] . عارضت شخصياً تلك الحرب، وحين أعلنت معتقداتي الجديدة لأبـي وأمي في لوس أنجلوس طار صوابهما، واصطحباني بسرعة من بيركلي لأقابل حاخاماً.

كان الحاخام إيسايا زِلدين ليبرالياً شديد الصراحة في مواقفه؛ فقد كان مؤيداً للحقوق المدنية للسود، ومن معارضي حرب فييتنام. وقبل لقائي إياه ببضع سنوات، أنشأ الحاخام معبد ستيفن س. وايز الذي يعتبر أحد معاقل اليهود الليبراليين. ولكنه مثل غالبية اليهود الليبراليين، كان يعتقد أن إسرائيل تتصرف دفاعاً عن النفس. إذ لم يكن اليهود من جيل والديَّ الذين مروا بمرحلة التعصب الكريه ضد اليهود الذي ساد خلال ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي، والذي تلته فظائع الحرب العالمية الثانية يتخيلون أنه بإمكان إسرائيل أن تخطئ. وحتى لو فعلت، فلم يكن بإمكانهم كيهود أمريكيين أن يقولوا أي شيء عن الموضوع.

أمضيت نهاراً كاملاً مع الحاخام ونحن نتجادل في ما يتعلق بتاريخ الشرق الأوسط والصهيونية، وتعلمت الكثير من تلك المناقشة. تعلمت مثلاً أنه يوجد صهاينة ينتمون إلى حزب العمل وصهاينة محافظون، وأن صهاينة حزب العمل كانوا يدعون إلى الديموقراطية الاجتماعية، وقد أنشأ بعضهم مجتمعات صغيرة سموها الكيبوتسيم (مستعمرات زراعية أو عسكرية) ويتساوى كل أفرادها مع بعضهم بعضاً. ولكن، لم يعترف أي من الصهاينة بحقوق الفلسطينيين. وقد قال الحاخام إنه لا يجب على اليهود الأمريكيين أن ينتقدوا إسرائيل إلا إذا كانت لديهم الرغبة في الهجرة إلى هناك. وبعد أن خضنا في جدال تلمودي سألته: "إذاً، إذا أراد فييتنامي يعيش في أمريكا انتقاد حرب فييتنام فهل عليه أن يهاجر إلى سايغون [عاصمة فييتنام الجنوبية] أولاً؟". لم يعجب جوابـي الحاخام مطلقاً.

خسر الحاخام زلدين النقاش في ذلك اليوم، وتخلّيت عن الصهيونية بشكل نهائي منذ ذلك الوقت. وبدلاً من ذلك، دعمت حل دولتين يقدر فيهما الإسرائيليون والفلسطينيون أن يعيشوا بسلام. كما أردت من إسرائيل أن تعيد كامل الجولان إلى سوريا. لم أكن في ذلك الوقت أعلم أنه سيأتي

عليّ يوم أرى فيه الجولان من كلا جانبـي الحدود المتحارب عليها.

تجهّزت أنا وصديق إسرائيلي لي كي نبدأ الرحلة من القدس إلى الجولان، والتي تستغرق خمس ساعات بواسطة السيارة. كنت أنوي أن أجري مقابلات مع الإسرائيليين والعرب الذين يعيشون هناك لأستطلع وجهات نظرهم بالنسبة إلى الحرب الأهلية في سوريا. أخذنا صديقي عبر طريق في غاية الجمال يمر في منطقة البحر الميت شرق الحدود الأردنية، وبعد ذلك إلى الشمال، وعبرنا الأوتوستراد ذا الاتجاهين المحيط ببحر الجليل [بحيرة طبريا]. عندها، أدركت سبب اختيار صديقي لهذا الطريق الذي يحده من اليسار أكبر مصدر للمياه العذبة من الشمال، ومن اليمين هضاب تتصاعد إلى الأعلى بزوايا مرتفعة. قال لي صديقي: "قبل حرب الأيام الستة [1967] كان قناصة الجيش السوري يطلقون الرصاص علينا من هذه الهضاب". كما أن الجيش السوري كان يطلق نيران المدفعية على إسرائيل منها. احتلت إسرائيل الجولان عام 1967، ثم عادت وخسرت جزءاً منه في حرب 1973، وضمّت ما تبقى إلى أراضيها رسمياً عام 1981. ظلت الحكومة الإسرائيلية ولسنين طويلة تعتبر الهضاب الثلاث في غاية الأهمية لأمنها. وبغض النظر عن دقة هذه الادعاءات قبل عام 1967، فلا يوجد أي منطق فيها الآن؛ لأن الصواريخ لا تحتاج إلى هضاب مطلة. فقد أطلق ثوار متطرفون قذائف الهاون وحتى نار البنادق من داخل سوريا إلى مستعمرات الكيبوتسيم الإسرائيلية في الجولان؛ فلم يضمن ضم الجولان أمن إسرائيل، ولا يمكن لأي شيء أن يفعل ذلك إلا التوصل إلى اتفاقية سياسية تعود بالنفع على جميع أطراف النـزاع.

استمرت رحلتنا بينما بدأ الطريق الجبلي بالانعطاف، فتباطأت السيارة المستأجرة حين وصلنا إلى المناطق شديدة الانحدار. لقد أصبحت الجولان معلماً سياحياً؛ حيث يأتي الإسرائيليون لممارسة رياضة التزلج، أو القيام برحلات في الطبيعة، أو لتذوق الشراب. فمستعمرات الكيبوتسيم تزرع العنب وأنواعاً أخرى من الفاكهة، بل واشتهرت إحدى هذه المستعمرات بدبلجة الأفلام ومسلسلات التلفزيون إلى اللغة العبرية!

يُقدَّر عدد العرب من أصل سوري القاطنين في الجولان بعشرين ألف نسمة، وهم أهالي المنطقة الأصليون الذين لم يهربوا بعد حرب 1967. وغالبية هؤلاء السكان - ولكن ليس كلهم - من الطائفة الدرزية، ويعيشون في بلداتهم الخاصة. يعيش الإسرائيليون في الكيبوتسيم، ولكنهم يقولون إن علاقاتهم مع الدروز طيبة إجمالاً؛ وهذا صحيح إذا قورنت علاقاتهم تلك

بعلاقاتهم مع الفلسطينيين، لكن غالبية الدروز يشعرون بالاستياء من استمرار احتلال إسرائيل أراضي سورية، ويدعمون أيضاً حق الفلسطينيين في تقرير المصير. لا شيء يعكس حقيقة هذه القصة أكثر من إحصائيات الجنسية؛ إذ يمكن لكل عرب الجولان أن يأخذوا الجنسية الإسرائيلية ويحظوا بالوضع نفسه الذي يحظى به باقي الإسرائيليين العرب في البلاد. ولكن 90 في المئة من عرب الجولان رفضوا أخذ الجنسية، وبما أن من وُلِد منهم بعد 1967 لم ينل الجنسية السورية أيضاً فقد أصبحوا من دون جنسية.

مع حلول منتصف ساعات ما بعد الظهر دخلنا مجدل شمس، وهي أكبر بلدة عربية في الجولان. هنا أصبح الطريق شديد الانحدار بالفعل، وتزايدت الحفر على الطريق، فاضطررت إلى تعشيق السيارة إلى الترس الأول. لا يمكنني تخيل كيف كانت حالة الطرقات أثناء الفترة الاستعمارية؛ حين كانت الحمير والأحصنة هي وسيلة التنقل الوحيدة. لا بد أن تلك الحيوانات المسكينة عانت من حالات متعددة من الفتاق أثناء كل رحلة!

على مستديرة في وسط المدينة، كانت هناك تماثيل لمجموعة من الرجال الذين يرتدون اللباس الدرزي التقليدي. كانت التماثيل لسلطان باشا الأطرش ومقاتليه الذين حاربوا الاستعمار الفرنسي في ثورة 1925. في ذلك الحين، جمع سلطان باشا محاربيه من هضاب جبل الدروز هنا ليهاجم سكك الحديد ومعسكرات الجيش الفرنسي. ويتذكر عرب الجولان هذا التاريخ بفخر واعتزاز.

في عام 2006، زرت المنطقة نفسها ولكن من الجهة السورية. وكانت الحكومة قد بنت مبنى صغيراً بجانب برج مراقبة الأمم المتحدة لتسهيل عملية عقد الاجتماعات على الحدود الدولية، وتحته كان هناك السياج الفاصل والأرض المحرمة التي زرعها الإسرائيليون بالألغام. استخدم السوريون السماعات المكبرة للتكلم مع أقربائهم في الجانب الإسرائيلي، وظلت هذه السماعات لسنين طويلة الوسيلة الوحيدة للتواصل بين الأقارب الذين فرّقت حرب 1967 بينهم.

وبمرور السنين، حلت الهواتف الخليوية والبريد الإلكتروني محل السماعات المكبرة. ولكن حين دمرت الحرب الأهلية السورية أبراج الهواتف الخليوية وجعلت الإنترنت يتباطأ إلى درجة لا تسمح بالتواصل في بعض الأحيان، عادت لهذا السياج أهميته؛ والفارق الوحيد هو أن الناس لم يعودوا يستخدمون السماعات المكبرة للتواصل حوله. قالت لي مريم عجمي التي تطل شقتها على الجانب الإسرائيلي: "هناك مشاكل في الاتصالات الآن،

كنت أستخدم برنامج سكايب (Skype) للتواصل مع أقاربي، ولكننا الآن نذهب إلى هناك، إلى سطح ذلك المطعم ونتحدث إلى بعضنا بعضاً عبر إذاعة داخلية" [360] .

كان الحاجز مجرد تذكير آخر بالاحتلال الإسرائيلي. وأخبرني عقبة أبو شاهين - وهو أستاذ في المدرسة الابتدائية، ويعيش في الجولان المحتل - أنه يريد أن تعود المناطق المحتلة إلى سوريا. وأقر أبو شاهين بأن الأوضاع الاقتصادية في إسرائيل أفضل بكثير مما هي عليه في سوريا، ولكنه ردد لي كلمات السيد المسيح: "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان" . قبل أن يضيف: "إن تاريخي وثقافتي وعائلتي وأنا شخصياً؛ كلنا ننتمي إلى سوريا" [361] .

إذا أخذنا الحرب الأهلية الدائرة في سوريا بعين الاعتبار، يبرز السؤال التالي: إلى أي سوريا ستعاد الجولان؟ فقد قسّمت الحرب أهالي المنطقة إلى فئات تؤيد الحكومة وأخرى تعارضها. ينتمي أبو شاهين إلى الطائفة الدرزية - وهي طائفة من الطوائف الأقلية في الاسلام - ويعتبر أن الحرب تؤثر فيه بشكل مباشر؛ لأنه وكما يقول يعتقد أن الثوار المتطرفين سيضطهدون الأقليات إذا تولوا زمام السلطة: "من المهم بالنسبة إلي ألّا أعيش في دولة دينية، بل في دولة علمانية. من المهم لسوريا أن تظل بلداً لكل شعبها".

يؤيد أبو شاهين الرئيس بشار الأسد بقوة، ويردد كلام الحكومة السورية عن كون القوى الخارجية ما يقف وراء الثورة، مشيراً إلى أنه وحتى قبل الثورة التونسية التي أشعلت ثورات الربيع العربي كانت القوى الإمبريالية تتآمر ضد سوريا. وقد قال لي أبو شاهين: "أعتقد أنه كانت هناك مؤامرة دولية على سوريا منذ البداية. قد تكون وكالة الاستخبارات الأمريكية، أو أي من عملائها قد أخذ عدداً كبيراً من الشباب من البلاد العربية لتدريبهم في أوروبا الغربية".

ولكن، قال لي آخرون من أهالي الجولان إن الثورة تعكس استياءً شعبياً حقيقياً من الحكومة السورية. يؤيّد الدكتور علي أبو عواد الجيش السوري الحر، وقد تحمل نتائج رأيه هذا؛ فقد قال إن بعض مؤيدي الأسد المتعصبين ألقوا قنابل حارقة على سيارته، وحاولوا أن يحرقوا منـزله. وقال لي الدكتور أبو عواد إن نصر الثوار سيحسّن حياة الكثير من الأشخاص من عامة الشعب السوري: "الأسد ديكتاتور، وقد جعل من سوريا صحراء سياسياً. سيستغرق تحويل سوريا إلى الديموقراطية وقتاً، لكن لدينا تاريخاً طويلاً وشعباً قادراً على تحقيق ذلك" [362] .

ولكن، كم من الوقت سيستغرقه ذلك الأمر؟ جاءتني الإجابة عبر

رحلة جانبية قمت بها داخل الجولان المحتل. كنت أعمل مع صحافي عربي من أهالي المنطقة اسمه حمد عويدات، وقد أوصى به صديق لي، ولكنني لم أكن أعرفه من قبل. كانت مهمة عويدات أن يرتب لنا المقابلات، ويترجم لنا، ويرتب لنا المواصلات. بعد حلول الليل، قدنا السيارة عبر طريق ترابي مظلم ومنعزل إلى خارج مجدل شمس. قال لنا عويدات إن المكان الذي سنذهب إليه سيكون مفاجئاً. لم أكن واثقاً من الحكمة في الذهاب على تلك الطريق، إذ إن ثقباً بسيطاً في الدولاب كان سيتركنا معزولين هناك لساعات طويلة.

كان هواء الجولان بارداً وجافاً، وامتدت بساتين إحدى مستعمرات الكيبوتسيم على جانب الطريق في الليل. وأخيراً، وقف السائق أمام حاجز كبير مصنوع من الحجر والإسمنت؛ لقد كانت هذه نهاية حدود إسرائيل، وخلف الحاجز لا توجد إلا الأرض المحرمة والأضواء المنبعثة من البلدات السورية. كنا نسمع أصوات قذائف المدفعية التي يطلقها الجيش السوري من بعيد. وأشار لنا عويدات إلى المناطق التي يسيطر عليها الجيش السوري، وتلك التي يسيطر عليها الجيش السوري الحر، وكذلك التي تسيطر عليها جبهة النصرة. لقد كان المشهد أمامي وكأنه نموذج مصغر للحرب الأهلية السورية كلها. وعندها، أدركت أنه سيمر وقت طويل قبل أن يحرز أي من هذه الأطراف النصر النهائي.

بعد ذلك، رأينا سيارة على الحدود تومض بأضوائها، وشرح لي عويدات أنه في كل ليلة تذهب سيارات الإسعاف العسكرية الإسرائيلية إلى الحدود لتحمل أناساً مصابين بجروح خطيرة. إذ يتلقى الناس الذين يعيشون في المناطق الموالية للنظام العلاجَ في المستشفيات الحكومية، وهذا ليس متاحاً للثوار ومؤيديهم بالطبع. ويقول الإسرائيليون إنهم يعالجون الناس المصابين بجروح خطيرة طالما أنهم ليسوا مسلحين. عالج الإسرائيليون مدنيين وجنوداً في الجيش السوري الحر، وكان على الجيش الإسرائيلي أيضاً أن ينسق مع الجيش السوري الحر كي يتأكد من عدم دخول متطرفي جبهة النصرة إلى البلاد مع غيرهم من المصابين.

وعلى المستوى الرسمي، أعلنت إسرائيل حيادها في الحرب الأهلية السورية. ولكن كما يبدو من سياساتها في الجولان، الواقع مختلف؛ ولاستكشاف المزيد كان عليّ الذهاب إلى تل أبيب.

نظام المواصلات العامة في إسرائيل جيد في الواقع. وصلت إلى محطة الحافلات المركزية في صباح أحد الأيام، ووقفت لفترة قصيرة قبل أن أدفع

ما يعادل 11 دولاراً لآخذ تذكرة ذهاب من دون إياب إلى تل أبيب التي تبعد حوالى 42 ميلاً عن القدس. وسرعان ما امتلأت الحافلة التي ركبتها بالطلاب، والمتقاعدين، ورجال الأعمال، والجنود الشباب في زيهم العسكري الأخضر الزيتي وقد كانوا يحملون رشاشات "الغاليل" معهم. كنت ذاهباً لأجري مقابلات مع خبراء في جامعة تل أبيب؛ وهي إحدى أبرز المؤسسات التعليمية في إسرائيل.

وبينما يعتبر نظام المواصلات رخيصاً وفعالاً بالنسبة إلى الإسرائيليين اليهود، فالأمر مختلف تماماً بالنسبة إلى العرب. إذ لا يستطيع الفلسطينيون من الضفة الغربية التنقل إلى أي مكان في إسرائيل من دون تصاريح خاصة. وعلى المستوى القانوني، يمكن لسكان القدس الشرقية الفلسطينيين أن يتنقلوا أينما شاءوا، ولكنهم يخشون ركوب الحافلات. في رحلة سابقة قمت بها من تل أبيب إلى القدس جلست بجانب امرأة كانت تقرأ جريدة باللغة الإنجليزية، واكتشفت أنها فلسطينية تسكن في القدس الشرقية وتدرِّسُ في مدرسة عربية قرب تل أبيب. لم تكن تجرؤ على ارتداء الحجاب أو التكلم باللغة العربية في الحافلة لأنها تخشى أن يلقي بها السائق أو أحد الركاب في الطريق، فكانت تلتزم الهدوء على أمل أن يظنها الركاب الآخرون أجنبية.

نـزلت في محطة تل أبيب، وبعد رحلة قصيرة بسيارة تاكسي وصلت إلى الجامعة. دخلت الحرم الجامعي الضخم، وتمشيت فيه كي أقابل إيال زيسر؛ بروفيسور التاريخ، وعميد كلية العلوم الإنسانية في الجامعة. وبحسب ما قاله زيسر، في بداية عام 2011، حين كان معظم العالم يرحب بالآمال الديموقراطية التي يحملها الربيع العربـي، ظلّ القادة الإسرائيليون حذرين؛ فقد كانت المظاهرات تستهدف قادة ديكتاتوريين موالين للولايات المتحدة، وقد توصلوا إلى نوع من الاتفاق مع إسرائيل، وقد تضطر إسرائيل إلى دفع ثمن تعاونها مع هذه الأنظمة القمعية.

وهكذا، بالطريقة نفسها تعامل القادة الإسرائيليون بحذر مع الثورة السورية. فرغم كل الإنشائيات المعادية لإسرائيل، والدعم المفترض للقضية الفلسطينية التي يعلن نظام بشار الأسد عنها، إلا أنه أبقى حدود إسرائيل في حالة من الهدوء والأمن لسنين طويلة. وقال لي زيسر: "إنه مثل "الشيطان الذي تعرفه". لقد اعتدنا على بشار الأسد. إن هذا النظام شرير... إلا أنه أبقى الحدود هادئة، ولذلك من الأفضل أن يبقى بشار الأسد. فمن يعلم ما الذي سيحدث إذا سقط؟" [363] .

تابع زيسر كلامه ليبيّن لي أن هناك حالة من الانقسام بين القادة الإسرائيليين في ما يتعلق بسوريا؛ كما هو الحال في الولايات المتحدة. إذ يفضّل بعضهم سقوط النظام إذا جاء نظام سني متعاون بدلاً منه، ولخّص زيسر وجهة النظر هذه بقوله: "[يقول أصحاب هذا الرأي إن] أي نظام سني مستقبلي سيكون أفضل لإسرائيل من بشار... لأن هذا سيشكل ضربة لحزب الله وإيران. أي حكومة سنية ستكون أكثر اعتدالاً من الحكومة الحالية؛ لأنها سترتبط مع السعوديين والأتراك والأمريكيين". لكن زيسر عاد وأوضح أن الخطأ في هذه الحجة هو أن نظاماً سنياً قد يفتح الباب أمام تنظيم القاعدة أيضاً.

قال زيسر إن قادة الحكومة الآخرين يعتقدون أن إسرائيل ستستفيد من استمرار الحرب الأهلية؛ "لأن بشار سيظل في السلطة، محتفظاً بما يكفي من القوة لحماية الحدود، ولكنه سيكون أضعف من أن يهاجم إسرائيل؛ وهذا وضع مثالي بالنسبة إلى إسرائيل. ولكن لسوء الحظ، إن على هذه الحرب أن تنتهي يوماً ما".

لقد كنت أعتقد أن القادة الأمريكيين قساة القلوب في ما يتعلق بأثر الحرب في عامة الناس؛ إلى أن رأيت من هو أقسى منهم!

مشيت مسافة قصيرة حتى وصلت إلى معهد دراسات الأمن القومي المرتبط مع الجامعة. كان حوالى نصف المحللين الذين يعملون في المعهد مسؤولين سابقين في الدولة، ولذلك خطر في بالي أن هذا سيكون مكاناً جيداً لاستطلاع الآراء المختلفة ضمن الدوائر الحاكمة في إسرائيل.

قال مارك هيلر أحد محللي المعهد: "يعتبر الأسد عدواً خطيراً لإسرائيل؛ لأنه جزء ثابت من التحالف الذي تقوده إيران" [364] . في البداية، ظن القادة الإسرائيليون أن الأسد سيسقط سريعاً. وفي كانون الأول 2011، قال وزير الدفاع إيهود باراك في مؤتمر السياسة العالمية في فيينا إن الأسد سيسقط خلال أسابيع [365] .

أخذ القادة الإسرائيليون النتائج المختلفة لسقوط الأسد بعين الاعتبار. وكان أحد أسوأ الخيارات المطروحة هو قيام نظام برلماني يحترم حقوق الأقليات في سوريا؛ وهذه نتيجة يرى هيلر أنها غير مرجحة الحدوث في جميع الأحوال: "فإذا استبدلت ديكتاتورية الأسد بنظام ديموقراطي ليبرالي فسوف يصعب على إسرائيل أن تطرح نفسها على أنها الجانب المتفوق أخلاقياً؛ وبالتالي أن تقاوم المطالب بحصول اتفاقية سلام تلزمها بتقديم تنازلات كبيرة عن الأراضي المتنازع عليها".

قال هيلر أيضاً إنه طالما ظل الأسد في السلطة فإن القادة الإسرائيليين سيضطرون إلى تعديل سياستهم: "الناس هنا في مزاج: فلننتظر لنرى".

لكن منتقدي إسرائيل يقولون إنها تفعل أكثر بكثير من مجرد "الانتظار والمراقبة". فإسرائيل تساعد الجيش السوري الحر، وقد استخدمت علاقاتها المقربة مع الجيش والمخابرات في الأردن التي تدرب فيها وكالة الاستخبارات الأمريكية الثوار السوريين لفعل ذلك. وقال قيادي انشق عن الجيش الحر لينضم إلى جماعات الثوار المتطرفة إن الاستخبارات الإسرائيلية ساعدت في تدريب الجيش السوري الحر في الأردن [366] . لكن يستحيل على الجهات الرسمية في إسرائيل أن تعترف بهذا الدعم؛ لأنها تعلم جيداً أن أي إعلان رسمي في هذا الصدد سيدمر مصداقية الجيش السوري الحر.

لعل إحدى أكبر مفارقات الحرب أن كلاً من الأسد والثوار يتهم إسرائيل بمساعدتها الطرف الآخر، وكلاهما محق إلى حد ما. ففي البداية، أرادت إسرائيل أن يظل الأسد في السلطة ولكن بعد أن يضعف كثيراً، ولكنها سرعان ما غيرت سياستها ورغبت في إسقاطه. وقد أملت إسرائيل أن تنهك الحرب كل الأطراف؛ حيث يتمخض الصراع عن ديكتاتور جديد راغب في التعامل مع إسرائيل بشكل واقعي.

في خريف عام 2013، اعترفت إسرائيل بأنها تقدّم الغذاء والماء للقرى السورية بجانب حدود الجولان، بالإضافة إلى معالجتها الجرحى. ولكنها قالت إن ما تقوم به لا يزيد عن كونه تقديم مساعدات إنسانية، وإنها لا تؤيد أي طرف في الحرب [367] . لكن، مما لا شك فيه أن الإسرائيليين يعرفون تمام المعرفة المناطق التي يسيطر عليها الجيش السوري الحر، وتلك التي يسيطر عليها الجيش السوري النظامي، والتي تسيطر عليها جبهة النصرة. وقد حرصوا على ألا تصل المساعدات إلى الجيش النظامي وجبهة النصرة. كما كانت هناك إشارات مباشرة أخرى على معارضة إسرائيل لنظام الأسد.

شن الجيش الإسرائيلي غارات جوية على سوريا في خمس مرات مختلفة عام 2013. وفي كل مرة، زعمت إسرائيل أنها لا تصطف إلى أي جانب في الحرب، بل تمنع فقط شحنات من السلاح من الوصول إلى حزب الله. ولم يعترف الجيش بهذه الغارات بشكل علني قط، ولكن استخبارات الولايات المتحدة أكدت وقوعها. ففي كانون الثاني، أطلقت الطائرات الإسرائيلية صواريخ على قافلة شاحنات سورية تحمل صواريخ SA-17 الروسية المتطورة المضادة للطيران، وزعمت إسرائيل أن هذه الصواريخ كانت في طريقها إلى حزب الله، ثم شنت غارات بالصواريخ على مستودعات

تحتوي على صواريخ أرض-أرض متطورة مرتين في شهر أيار.

قالت مصادر الاستخبارات الأمريكية إن المستودعات كانت تحتوي على صواريخ فاتح-110 الإيرانية، وهي صواريخ تعمل بالوقود الصلب، ولديها القدرة على إصابة تل أبيب إذا أطلقت من لبنان. وأكدت إسرائيل أن لديها الحق في منع وصول هذه الأسلحة "المغيرة لقواعد اللعبة" إلى حزب الله [368] . كما ضربت الطائرات الحربية الإسرائيلية أهم المجمعات العسكرية السورية في جبل قاسيون في دمشق، ومركز جمرايا للأبحاث والدراسات؛ ويقع كلاهما في دمشق بعيداً جداً عن مستودعات الصواريخ. قتلت هذه الغارات أكثر من مئة جندي سوري، بالإضافة إلى تسببها في سقوط عشرات الجرحى [369] .

من الصعب تأكيد ادعاءات إسرائيل عن كونها لا تهاجم إلا الأسلحة المتجهة إلى حزب الله؛ لأن الجيش السوري النظامي يستخدم صواريخ فاتح-110 أيضاً. ولكن، حتى لو كان الأمر كذلك فلماذا تهاجم إسرائيل "المحايدة" مقر قيادة للجيش السوري؟ كان قادة الجيش الإسرائيلي يعلمون أن هذه الغارات ستؤدي إلى مقتل عدد كبير من جنود الجيش السوري. وأعتقد أنا شخصياً أن إسرائيل كانت ترغب في إضعاف الأسد في الوقت الذي كانت قواته تفوز فيه ببعض المعارك ضد الثوار.

استمرت إسرائيل في شن غارات أصغر حجماً. ففي تموز، ضرب سلاح الجو الإسرائيلي مستودع صواريخ في اللاذقية، ثم كرر الهجوم عليه في تشرين الثاني حيث يبدو أنه أخطأ هدفه في إصابة بعض ذخائر الصواريخ في الغارة الأصلية [370] ، ثم عادت إسرائيل لتشن غارة جوية أخرى قرب الحدود السورية اللبنانية في شباط 2014 [371] .

يعتبر إطلاق الصواريخ على بلد آخر بمثابة إعلان للحرب؛ هذا طبعاً إن لم تكن الدولة التي أطلقت الصواريخ هي إسرائيل أو الولايات المتحدة. كانت غارات إسرائيل مجرد "عقوبة" لتجاوز خط أحمر رسمته إسرائيل لنفسها، وكذلك كان نظام الأسد عملياً قد أصبح أضعف من أن يرد. وبدأت إسرائيل كذلك في التحضير لفرض تطبيق خط أحمر أكبر حتى من سابقه، ولكن من رسم هذا الخط هذه المرة كان إدارة أوباما.

في أيلول 2013، وضعت إسرائيل كامل ثقلها خلف مخططات أوباما لقصف سوريا نتيجة استخدامها الأسلحة الكيميائية. وقال مسؤولو الدولة في إسرائيل إن مصداقية الولايات المتحدة على المحك؛ إذ تقوم إسرائيل برسم الخطوط الحمر ثم تفرضها عسكرياً، وقد جاء الآن دور الولايات المتحدة

حتى تفعل الشيء ذاته.

وأخيراً، اعترف مسؤول إسرائيلي رفيع المستوى بأن إسرائيل تحبذ الإطاحة بالأسد؛ وذلك حين قال سفير إسرائيل إلى الولايات المتحدة مايكل أورين لصحيفة "جيروزاليم بوست": "لطالما أردنا أن يزول نظام بشار الأسد. نحن دائماً نفضّل الأشرار الذين لا تدعمهم إيران على الأشرار الذين تدعمهم إيران؛ لأن أكبر خطر على إسرائيل هو هذا الهلال الاستراتيجي الممتد من طهران إلى دمشق إلى بيروت. وقد رأينا أن نظام الأسد هو حجر الأساس في هذا الهلال" [372] .

في الوقت نفسه تقريباً، كتبت جريدة "نيويورك تايمز": "بينما يتزايد عدد الضحايا [في سوريا] ازداد عدد الإسرائيليين الذين يتفقون مع رئيس جهاز الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية السابق عاموس يدلين في وجهة نظره؛ وهي أن الشيطان الذي تعرفه هو الشيطان الذي يجب أن تتخلص منه، وفي أقرب وقت ممكن" [373] .

بالنسبة إلى القادة الإسرائيليين، لقد آن الأوان لإسقاط الأسد، وكانت حملة من الغارات الجوية ستوفر الغطاء من أجل سيطرة الثوار. لذا، حركت إسرائيل أدوات الضغط على صناعة القرار الأمريكي المتحالفة معها في واشنطن لتستميل الرأي العام وتضغط مباشرة على الكونغرس. ولطالما نجحت حملات كتلك في الماضي؛ سواء أكانت بهدف زيادة المساعدات العسكرية الأمريكية لإسرائيل، أم تشديد العقوبات على إيران.

وفي آب، حركت لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية (آيباك) المئات من أتباعها للضغط على أعضاء الكونغرس كي يساندوا خطة أوباما في قصف سوريا، واتسعت دائرة أعضاء المجلس الذين قابلوهم حيث شملت جمهوريين محافظين وديموقراطيين وسطيين، وكانوا على قناعة تامة بأنهم سيربحون الجولة، ولكنهم خسروها خسارة كبيرة؛ إذ كان التأييد الشعبي لخطة أوباما ضئيلاً لدرجة أنه لم يجرؤ على المخاطرة بوضعها أمام الكونغرس ليصوّت أعضاؤه عليها.

قال المدير القومي لآيباك آبراهام فوكسمان بطريقة دفاعية: "لا يوجد أي أمر شرير أو تآمري أو حتى خاطئ في أن تدعم أدوات الضغط المرتبطة مع إسرائيل والشرق الأوسط خطة الرئيس في هذه القضية" [374] .

تكونت آيباك عام 1951 بهدف تعزيز العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، ويفيد تصريح اللجنة المتعلق بأهدافها: "إن هدف آيباك هو أن تقوي وتحمي وتطور علاقة الولايات المتحدة مع إسرائيل بطرائق

تعزز أمن إسرائيل والولايات المتحدة" [375] .
لكن خصوم آيباك يقولون إنها تتبنى ومن دون أدنى نقد كل سياسات إسرائيل التي جعلت الوصول إلى تسوية في الشرق الأوسط أمراً مستحيلاً. على سبيل المثال، دعمت آيباك من دون نقد واعتراض سياسات رئيس الوزراء الإسرائيلي اليميني المتطرف بنيامين نتنياهو المتعلقة بتوسعة المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية والقدس. لدى آيباك والمجموعات الأخرى التي تشكل "اللوبـي الإسرائيلي" [أي أدوات الضغط على القرار الأمريكي لصالح إسرائيل] قدرةٌ كبيرةٌ على تمويل أي صراع سياسي تدخل فيه، ودعمٌ قويٌ من سياسيين أمريكيين هامين، وسمعةٌ كمجموعات قادرة على هزيمة السياسيين المعارضين لمواقفها المؤيدة لإسرائيل في الانتخابات.

لهذه الأسباب كلها، كانت هزائم "اللوبـي الإسرائيلي" الثلاث عام 2013 مفاجئة. فقد فشل اللوبـي في البداية في أن يمنع تثبيت تشاك هاغل وزيراً للدفاع في شباط 2013؛ رغم المزاعم بتحيز هاغل "ضد إسرائيل". ثم فشل في أيلول في حشد الرأي العام لقصف سوريا. وبعد ذلك، في أواخر عام 2013 بدأت إدارة أوباما محادثات مع إيران لمنع تطوير الأسلحة النووية فانضم "اللوبـي الإسرائيلي" إلى سيناتورات يمينيين ووسطيين في محاولة لتشديد العقوبات على إيران؛ وهو الأمر الذي كان سيتسبب في إنهاء المفاوضات على الأرجح [376] ، ولكن اللوبـي الإسرائيلي فشل في مساعيه مجدداً؛ وحتى منتصف عام 2014 لم تفرض أي عقوبات جديدة.

مصطفى البرغوثي هو أمين عام حركة المبادرة الوطنية الفلسطينية؛ وهي حركة اشتراكية صغيرة لها تمثيل في مجلس النواب الفلسطيني. وحين ترشح البرغوثي للانتخابات الرئاسية عام 2005، نال 20 في المئة من الأصوات. وقد أخبرني البرغوثي أثناء مقابلة أجريتها معه في الضفة الغربية أن هزائم آيباك لها دلالات هامة: "أصبح واضحاً وللمرة الأولى أن هناك تبايناً كبيراً بين سياسة الحكومة الإسرائيلية والسياسة الأمريكية... وهذه المرة حاولت آيباك أن تمرر قراراً يضر بمصالح الشعب الأمريكي ولم تتمكن من ذلك، سيسجل التاريخ ما حدث كنقطة تحول هامة" [377] . وأضاف البرغوثي أنه يعتقد أن اليهود الأمريكيين لا يريدون الحرب رغم الضغوطات الكبيرة التي تمارسها إسرائيل وآيباك لدفعهم بهذا الاتجاه، كما مدح تنامي مجموعات الضغط اليهودية الليبرالية.

ساعد ائتلاف فرضه الأمر الواقع بين اليهود الليبراليين والإيرانيين التقدميين والمجموعات الداعية إلى السلام في هزيمة آيباك، وقد أخبرت

مديرة الشؤون السياسية والعلاقات الحكومية في "حركة الأمريكيين من أجل السلام الآن" لارا فريدمان وكالة "جويش تيليغرافيك إيجنسي" (Jewish Agency Telegraphic): "كان هذا أفضل تنسيق جرى بيننا. هناك عدد كبير من المجموعات، ونحن متفرقون، ولكل منا أهدافه الخاصة وإدارته الخاصة وموقفه الخاص به، ولكننا نتشارك في المعلومات كما يفعل أي ائتلاف غير رسمي، ممّا يعطي الناس القوة ليكونوا أكثر فعالية. هذا أفضل شيء فعلته منذ سنين؛ لأنك تشعر أنك لست وحدك" [378] .

لخّصت جريدة هاآرتس الإسرائيلية اليومية الإشكالية التي تواجهها إسرائيل واللوبي الأمريكي الداعم لها؛ إذ كتبت في عنوان فرعي لها: "تجد إسرائيل نفسها معزولة في الساحة العالمية من دون أن يقف بجانبها أحد، إلا بعض الشيوخ والمشرعين الأمريكيين. ربما آن الأوان لنا كي نأخذ بالحسبان خيارات دبلوماسية أخرى غير المكابرة الدائمة" [379] .

لكن آيباك واللوبي الإسرائيلي لا يزالان قويين، ولا ينويان أن ينسحبا من المواجهة في أي وقت قريب، ولذلك ينبغي لنا أن نرى ما إذا كانت هزائم 2013 مؤقتة، أم ستتحول إلى نمط طويل الأمد.

غابت مسألة تقرير الوضع المستقبلي للجولان وسط غليان الحرب الأهلية. وقد يفيدنا أن ننظر في بعض حقائق التاريخ الحديث كي نرى كيف يمكن لهذه القضية أن تحل.

حين احتلت إسرائيل الأراضي العربية عام 1967، أصدر مجلس الأمن الدولي التابع لمنظمة الأمم المتحدة القرار 242 الذي يدعو إسرائيل إلى تنفيذ عدة مطالب أهمها الانسحاب من كل الأراضي التي احتلتها أثناء حرب حزيران من تلك السنة [380] . ولكن إسرائيل ببساطة أهملت هذا القرار، وخلال فترة السبعينيات من القرن الماضي دعت مستوطنيها إلى تأسيس البنى التحتية، وبعد ذلك إلى بناء المزيد من الكيبوتسيم في الجولان التي حكمتها إسرائيل تحت إدارة عسكرية. وبعد ذلك، في عام 1981، قررت إسرائيل أن تحكم الجولان تحت القوانين المدنية نفسها التي تدار بها الأجزاء الأخرى من إسرائيل؛ مما يعني أنها قد ضمت الجولان إلى أراضيها فعلياً. لم تقبل سوريا ولا الأمم المتحدة بقرار الضم هذا، وفي كانون الأول من عام 1981 أصدر مجلس الأمن الدولي وبالإجماع القرار 497 الذي اعتبر قرار الضم: "ملغياً وباطلاً ومن دون فعالية قانونية على الصعيد الدولي" [381] . حتى إن الولايات المتحدة - وهي أقوى وأقرب حلفاء إسرائيل - رفضت قرار الضم، ولا تزال حتى اليوم ترى الجولان كأراضٍ محتلة.

يضم الجولان اليوم حوالى 20 ألف مستوطن يهودي يعيشون في أكثر من ثلاثين مستوطنة [382] ، كما يعيش عشرون ألف سوري مع عائلاتهم في بلداتهم الخاصة، وكثيراً ما يعملون في المستوطنات. ويسود سلام قلق بين العرب والمستوطنين؛ إذ يريد العرب بغالبيتهم الساحقة العودة إلى سوريا، بينما يعارض المستوطنون بقوة إعادة أي من الأراضي.

تتفاوض إسرائيل مع سوريا من وقت إلى آخر حول قضية الجولان، وكاد الطرفان يصلان إلى تسوية بين عامي 1999 و2000؛ إذ اقترحت إسرائيل إعادة الأراضي على أساس الخرائط التي رسمتها بريطانيا وفرنسا في عشرينيات القرن الماضي، وعندها ستتمكن إسرائيل من الاحتفاظ بكامل بحر الجليل (بحيرة طبريا) وعشرة أمتار من ساحله، ولكن سوريا أصرت على استعادة كامل أراضيها التي تشمل زاوية صغيرة شمال شرقي بحر الجليل.

أخبرني المحلل السياسي هيلر أنه يمكن قياس التباين بين الطرفين بأمتار قليلة، كما قال إن التفاوض بين الطرفين انحدر إلى جدال "لا معنى له إلا عند مجموعة من المحامين"؛ إذ علقت المحادثات عند نقاط مثل "إذا كان خط المياه الآن كما كان عام 1920 أم لا، وإذا كان من الواجب نقل الحدود إلى مستوى ارتفاع أو انخفاض البحيرة. النقطة الجوهرية بالنسبة إلى إسرائيل هي أنها لا تريد لسوريا أن تلامس حدودها خط المياه" [383] .

لكن الخلاف ليس سخيفاً، بل إنه في غاية الأهمية؛ إذ يشكل بحر الجليل (بحيرة طبريا) مصدراً هاماً للمياه العذبة بالنسبة إلى إسرائيل، ولهذا تريد السيطرة الكاملة عليه. أما سوريا فقد كان استرجاع كامل أراضيها بالنسبة إليها مسألة مبدأ غير قابل للنقاش، كما أنها تريد الوصول إلى مصدر المياه الهام هذا؛ مما يذكرني بالعبارة المنسوبة إلى مؤلف القصص الأمريكي المشهور مارك توين: "يوجد الويسكي كي يشرب، أما الماء فيوجد ليتحارب عليه".

حاول الطرفان عام 2008 مرة أخرى أن يصلا إلى تسوية مستخدمين تركيا كوسيط. لم يتقابل الطرفان المتنازعان وجهاً لوجه أثناء هذه المفاوضات، بل مررا الرسائل إلى بعضهما بعضاً عن طريق القادة الأتراك. وكان سبب ذلك أن الأسد تردد في قبول الدخول في مفاوضات تجري وجهاً لوجه ما لم يكن واثقاً من النجاح [384] . وقد ورد عن الأسد شخصياً أنه قال إنه اقترب من التوصل إلى اتفاق مع إيهود أولمرت رئيس الوزراء الإسرائيلي في ذلك الوقت [385] .

حين تسربت أنباء عن إمكانية التوصل إلى خطة للسلام اعترض المستوطنون الإسرائيليون بشدة، وأصدروا بياناً قالوا فيه إن كل أعمال الاستيطان ستستمر من دون توقف. ولكن بعد ذلك، وفي كانون الأول شنت إسرائيل هجوماً على قطاع غزة استمر ثلاثة أسابيع في محاولة لمنع الفلسطينيين من إطلاق صواريخهم محلية الصنع على إسرائيل. قضت هذه الحملة على أي فرصة في التوصل إلى تسوية في الجولان، وانتهت المحادثات التي توسطت فيها تركيا.

حاول الطرفان مرة ثالثة عام 2010؛ إذ عقدت حكومة رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو محادثات سرية مع سوريا، وكانت إسرائيل ترى أن سوريا قد تكون الحلقة الأكثر ضعفاً من حيث الالتزام بمحور سوريا-إيران-حزب الله، وأملت بأن تتمكن من انتزاع سوريا من المحور قبل أن تصل إلى تسوية في لبنان تقصي حزب الله من المعادلة. وبحسب ما قالته الصحيفة الإسرائيلية اليومية "يديعوت أحرونوت"، لقد عرض نتنياهو أن يعيد كامل الجولان إذا انفصل الأسد عن محور إيران، ولكن نتنياهو أنكر أنه قدم عرضاً كهذا [386] . توقفت هذه الجولة من المحادثات مع بدء ثورات الربيع العربـي.

كان أحد أسباب الفشل المستمر للمحادثات هو أن إسرائيل ظلت تغير قواعد اللعبة؛ إذ بدأ المسؤولون الإسرائيليون بالتفاوض حين تعثرت مفاوضاتهم مع الفلسطينيين، على أمل التوصل إلى اتفاقية منفردة مع سوريا، ثم بعد ذلك أضافوا شرطاً جديداً؛ وهو أنه يجب على الأسد أن ينفصل عن المحور الإيراني إذا أراد أن يحرز تقدماً في المفاوضات على الجولان، ثم عادت إسرائيل في النهاية لتقول إنها لا تستطيع إعادة الجولان لعدم وجود حكومة مستقرة في سوريا. وقال المحلل هيلر: "لدى إسرائيل مبدأ عام، وهو أنها تفضل وبشكل دائم أن تكون لدى الطرف الآخر القدرة على اتخاذ قرارات ملزمة وحاسمة حتى تجري حواراً عقلانياً واستراتيجياً معه" [387] .

حين اشتدت الحرب الأهلية في سوريا، توصلت إسرائيل إلى إجماع غير رسمي بأنها لن تتفاوض على الجولان، كما كتب تسفي هاوزر الأمين العام لمجلس الوزراء الإسرائيلي بين عامي 2009 و2013 في مقالة في صحيفة هاآرتس: "إسرائيل الغد لن تستطيع أن تواجه تحدياً في ثلاث جبهات؛ يشمل إيران بصفتها دولة على حافة القدرة النووية، ودولة فلسطينية فاشلة "على مبعدة خمس دقائق عن كفار سابا"، وإلى جانبهما سوريا التي تغمس

رجليها في بحيرة طبرية" [388] .

أثار عدم استقرار سوريا مشاكل كبيرة بالنسبة إلى كيفية إعادة الجولان. ولكن، يمكن التوصل إلى حل لهذه المشاكل؛ إذ يمكن للجانبين أن يتفقا على الحدود مبدئياً مع تأجيل التنفيذ حتى تستقر الأوضاع في سوريا. ولكن، لا يبدو أن البحث في حل كهذا سيجري في وقت قريب.

لقد استكشفت آراء الإسرائيليين والدروز في ما يتعلق بالحرب الأهلية في سوريا. ولكن، ما هو موقف الفلسطينيين؟ ذهبت إلى كل من الضفة الغربية وقطاع غزة لأكتشف ذلك.

حين زرت الضفة الغربية للمرة الأولى عام 1986 كان العبور من القدس الغربية إلى رام الله سهلاً للغاية؛ فقد ذهبت من أحد الفنادق الرئيسة في القدس الشرقية العربية، واستقللت سيارة تاكسي جماعية، وهي عبارة عن سيارة مرسيدس كبيرة وقديمة، مع فارق واحد وهو أن مقعداً طويلاً قد أضيف إليها. لقد تحولت السيارة المصممة لأصحاب الملايين إلى سيارة تاكسي ذات تسعة مقاعد، مع مئات آلاف الكيلومترات على عداد المسافات فيها. وكل ما كان عليّ فعله هو دفع بضعة شيكلات، وأن أجد لنفسي مقعداً خالياً، وبعدها ستأخذني السيارة إلى حيثما شئت في رام الله.

تغير العالم أثناء التسعينيات. وتحت غطاء التحضير لدولتين، أنشأت إسرائيل تشكيلات عسكرية تعمل وكأنها معابر حدودية بين بلدين، مع فارق هام وهو أن الجنود الإسرائيليين هم الذين لديهم السيطرة الكاملة عليها. وإذا أضفنا إلى هذه التشكيلات جدار العزل الذي بنته إسرائيل في ما بعد، والذي يفصل الضفة الغربية عن إسرائيل، فقد أصبح الفلسطينيون محتجزين في المناطق التي حددتها إسرائيل لهم؛ وليس نتيجة مبادلة الأرض بالسلام. وقد قالت الحكومة الإسرائيلية إن هذه الإجراءات تحمي البلد من الإرهاب، ولكن الشيء الوحيد الذي أدت إليه هو ازدياد نقمة الفلسطينيين، وجعل التوصل إلى اتفاق سلام دائم أبعد منالاً.

خلال رحلة قمت بها مؤخراً، قدت سيارة عبر طريق سريع ذي أربعة مسارب من القدس الغربية، ثم مررت عبر مشروع إسكان إسرائيلي في القدس الشرقية، وبعد ذلك مررت بشارع فرعي أوصلني إلى نقطة العبور. كان عبور حاجز قلنديا وكأنك ترحل من العالم الأول إلى العالم الثالث؛ حيث كنت ترى على جوانب المعبر مواقف للسيارات مليئة بالغبار ولا توجد فيها إلا سيارات قليلة، كما بدا لي وكأن قواعد السير غير موجودة هنا أصلاً.

لم أعلم من أين أعبر، فمشيت باتجاه بعض الجنود الإسرائيليين. تقدم أحدهم نحوي بطريقة عدائية وهو يشير إلي بالابتعاد، فسألته بتهذيب باللغة الإنجليزية عن المكان الذي يمكنني أن أدخل منه. فجأة، تغير مزاجه من الغضب الشديد إلى التهذيب المشرق وهو يبيّن لي بلغة إنجليزية ممتازة أنه علي المرور عبر باب دوار؛ إذ كان يُسمَح لي كأجنبـي بزيارة الضفة الغربية، أما المواطنون الإسرائيليون فلا يُسمح لهم بفعل ذلك.

حين دخلت بلدة قلنديا في الضفة الغربية رحب بـي ضجيج العالم الثالث المليء بالحياة. فقد شغل سائقو التاكسي محركاتهم، وأطلقوا أبواق سياراتهم، وملأت رائحة زيت الزيتون والبقلاوة الهواء، وبدا وكأن المشاة لا حق لهم في السير أمام السائقين المستعجلين. أحاط بـي سائقو التاكسي بسرعة ليقدموا لي "أفضل عرض" لرحلة نصف الساعة إلى رام الله؛ أو على الأقل أكدوا لي أن هذا أفضل عرض.

وكنت قد ذهبت إلى الضفة الغربية لمقابلة حنان عشراوي؛ المتحدثة السابقة باسم مفاوضي السلام الفلسطينيين، ومؤسِّسة مجموعة تعنى بحقوق الإنسان، والعضو في اللجنة التنفيذية في منظمة التحرير الفلسطينية. لقد قابلت عشراوي مرات كثيرة؛ لأنها ذكية للغاية، ويمكنها أن تقدم لي إجابات مباشرة بلغة إنجليزية لا غبار عليها. بالطبع ليست كل إجاباتها مباشرة، ولكنني على الأقل أعلم عندها أن القضية ليست مشكلة تواصل لغوي. وجدت عشراوي جالسة بسكينة خلف مكتبها في مقر منظمة التحرير الفلسطينية، وقد تقدم بها العمر كما تقدم بنا جميعاً. سألتني إذا كانت هذه المقابلة للبث في الراديو أو للكتابة في الصحف؛ ففي المقابلات المخصصة للبث كانت عشراوي تقدم إجابات مختصرة وقصيرة قدر الإمكان، أما للصحف فكانت تدخل في تفاصيل أكبر. قلت لها إن المقابلة لكل من الراديو والصحف؛ مما أدى إلى حيرة استمرت لفترة قصيرة قبل أن أقول: "رجاء، أعطيني الإجابات المطولة".

أقرت عشراوي أن الثورة السورية ظلت موضوع خلاف؛ فغالبية الفلسطينيين يتعاطفون مع الشعوب التي أسقطت حكامها الديكتاتوريين. وأحد أسباب هذا التعاطف هو أن للولايات المتحدة وإسرائيل تاريخاً طويلاً من التحالف مع رجال كهؤلاء كما قالت: "لقد تعاملت الولايات المتحدة مع حكام ديكتاتوريين لسنين طويلة. إن التعامل مع الحكام الديكتاتوريين أسهل بكثير، وكل ما عليك فعله هو إقناع الرجل الكبير ؛ فهم عادة يكونون رجالاً" [389] .

قالت عشراوي إن القادة الفلسطينيين في الضفة الغربية محايدون: "لدينا فلسطينيون في كل بلد مجاور، وكلهم عرضة للخطر. إذا وقفنا بجانب أي طرف فسيدفع الفلسطينيون الثمن. بالمبدأ، نحن إلى جانب الشعوب... وبالطبع، إلى جانب حقوق الإنسان والديموقراطية وحكم القانون. وكلنا نعرف أن العنف لن يحل أي شيء".

تعتبر فتح واحدة من الحركتين القويتين في فلسطين، وتشكل القوة الأقوى في منظمة التحرير الفلسطينية، وقد واجهت فتح صراعات متكررة مع عائلة الأسد. ففي عام 1976 مثلاً، حين دعمت سوريا المسيحيين اليمينيين في لبنان، أسهمت قوات الجيش السوري في حصار مخيم اللاجئين الفلسطينيين في تل الزعتر؛ وهو الحصار الذي انتهى بمقتل حوالى 3,000 فلسطيني. وفي ثمانينيات القرن الماضي، حاول حافظ الأسد السيطرة على منظمة التحرير الفلسطينية؛ وذلك عن طريق استبدال ياسر عرفات بأحد مؤيديه (انظر إلى الفصل الرابع). قالت لي عشراوي: "يوجد تاريخ طويل من المشاكل بين الأسد وفتح، ولا أزال أتذكر الوقت الذي كان مقاتلو فتح وثوريوها يقبعون فيه في السجون السورية. ولكن، لا ينبغي لنا أن نحمل هذه الضغائن".

وبحسب ما قالته عشراوي، كان الفلسطينيون متفائلين للغاية في بداية الربيع العربي: "فقد كانت عملية تحول، لقد كانت إرادة الشباب والإصلاحيين والنساء والمجتمع المدني. وقد اعتقدنا وقتها أنه سيكون نقطة تحول كبيرة في العالم العربي".

اتفق معها مصطفى البرغوثي في الرأي، فأخبرني أن الفلسطينيين دعموا الربيع العربي بحماسة؛ للأسباب نفسها التي عارضته إسرائيل من أجلها؛ إذ إن حكومات عربية حقيقية منتخبة من الشعب بالفعل ستدعم الفلسطينيين بالتأكيد، ولن تعقد اتفاقات من تحت الطاولة مع إسرائيل: "لقد اعتقدنا أن هذه الحركات ستحسن الوضع الفلسطيني لأن عامة الشعوب العربية تدعمنا. وإذا كان لدى الشعوب الحق في توجيه السياسات، فإن هذا سيعني تضامناً أكبر مع فلسطين" [390] .

لكن الفلسطينيين سرعان ما واجهوا خيبة الأمل حين تحول الربيع العربي في مصر وليبيا إلى شتاء قارس. قالت عشراوي إن الاستقطاب الذي حدث في بعض الحالات بين الأنظمة القديمة الفاسدة والإسلام السياسي "أدى إلى إقصاء القوى الإصلاحية والديموقراطية التي كانت يجب أن تحل محل الاثنين". ثم أضافت في إشارة ضمنية إلى مصر: "في حالات أخرى، احتشد

الناس الذين ثاروا وأسقطوا النظام في مواقع الإنترنت، ولكنهم لم يتمكنوا من الانتظام على الأرض ليجمعوا الأصوات الكافية في الانتخابات" [391] .

أما في حالة سوريا، فقالت عشراوي إن الفلسطينيين اعتقدوا أن نظام الأسد سيسقط سريعاً: "قلل الناس من تقدير سلطة نظام الأسد. ولا أعني فقط الأجهزة الحكومية، وإنما القطاع الخاص والقطاعات الأخرى أيضاً... لا يتعلق الأمر بالعلويين فقط". لكن عشراوي ظلت متفائلة بإمكانية التغيير التقدمي في العالم العربـي: "إن المراحل الانتقالية بطبيعتها مؤلمة، ويصعب توقع ما سيحصل فيها، كما قد تكون لها آثار تؤدي إلى عدم الاستقرار. نحن لا نـزال نعيش في هذه المرحلة الانتقالية، وإن كان الثمن باهظاً من حيث الضحايا وخاصة في سوريا، نحن لا نـزال نعيش في حالة من التغير المستمر".

لم يكن الوصول إلى قطاع غزة سهلاً؛ إذ يفرض الإسرائيليون سيطرة صارمة على الحدود هناك، كما جعلت السلطات المصرية ولسنين طويلة دخول الصحافيين مستحيلاً من جهتهم. وقد تغير هذا الأمر لفترة قصيرة عام 2011، فقد أسقط الشعب نظام مبارك، وأرادوا دعماً أكبر للقضية الفلسطينية، لذلك شهدت الحدود بعض التساهل، وكان هذا هو الوقت الذي دخلت فيه غزة.

رتبت لرحلتي إلى غزة من مكتب الصحافة المصرية في القاهرة. لم يكن دخول غزة يتطلب تأشيرة في ذلك الوقت، وكان أي شخص مجنون كفاية كي يرغب في دخول غزة مرحباً به. استأجرت سيارة مع سائقها، وبدأنا الرحلة التي تستغرق خمس ساعات من القاهرة إلى معبر رفح الحدودي، فقفزنا إلى السيارة، وربط كل منا حزام الأمان، ولكننا لم نتمكن من مغادرة موقف السيارات لأكثر من خمس دقائق نتيجة الاختناق المروري الرهيب.

لقد بدأنا رحلتنا متأخرين، وعلقنا في ساعات الازدحام في القاهرة. بالطبع، كل ساعات اليوم "ساعات ازدحام" في القاهرة، ولكن تلك الساعة كانت الأسوأ. بعد أن تجاوزنا المطار نحو الطريق السريع، أسرع السائق حتى وصلت سرعة السيارة إلى ثمانين ميلاً في الساعة! لقد كنت أفضل الاختناق في القاهرة على تلك السرعة الرهيبة!

تتألف سيناء من الكثير من الصحاري والذباب فهي تمتد عبر أميال وأميال من الجفاف، من دون أن يقطع الرمال فيها أي شيء إلا الطرق موحشة هنا وهناك.

قابلني ممثل للمكتب الصحفي المصري عند معبر رفح، ورافقني عبر الجمارك. كنت سعيداً بوجوده؛ لأن عملية تعبئة الاستمارات كانت معقدة، وتتطلب كتابة أسطر كثيرة، ولم أكن لأتمكن من معرفة هذه الأمور بمفردي. في نهاية الأمر، دفعت رسوماً بسيطة، ثم ركبت حافلة كبيرة سارت حوالى ثلاثين ياردة لتدخل غزة. لم يكن الدخول مشياً على الأقدام أو بالسيارات المدنية مسموحاً، ولم أرَ بكل تأكيد أي شاحنات تجارية. كان دخول الجميع عن طريق الحافلة أسهل أمنياً على السلطات من الجهتين.

شمل ركاب الحافلة 49 فلسطينياً بالإضافة إلي. وحين وصلنا إلى قطاع غزة، أخذ حرس حدود تغطي وجوههم لحى كاملة ويعملون بفعالية جوازات سفرنا. لنرَ: أحمد، ديب، شافي، إرلتش، إرلتش - إرلتش؟ أشار إلي الحارس كي أنتظر جانباً. وبعد فترة، جاء الضابط المسؤول الذي كان يتكلم بعض الإنجليزية ليسألني عن سبب زيارتي لغزة، فأوضحت له أنني صحفي، مشيراً بيدي أمام رأسي وكأنني أدير كاميرا أفلام، ثم قلت: "سي إن إن" مستخدماً المصطلح المتعارف عليه دولياً لأي صحافي أمريكي مجنون، ثم أوضحت له أنني لا أعمل مع قناة سي إن إن، ولكنني صحافي مثل أولئك الذين يعملون في سي إن إن فابتسم، ولعل السبب أنه كان يظن أنه سيرى نفسه في القنوات الفضائية على التلفزيون تلك الليلة.

أعطيت الضابط رقم الهاتف الخليوي الخاص بصديقي الذي كان سيصطحبني فتكلم معه، وتقابلنا جميعاً حيث بدأت عملية الدخول غير رسمية. سأل الضابط صديقي عن اسم أبيه وأسماء إخوته. لا يتجاوز تعداد أهالي غزة مليون نسمة، ولذلك الكل يعرف الكل، أو على الأقل يعرف شخصاً في كل عائلة. انتهى الاجتماع بتحذير صديقي بأنني إذا ارتكبت أي فعل خاطئ فسيتحمل هو المسؤولية. بعد ذلك، أسرعنا بالمغادرة بأقصى سرعة تسمح بها الطرقات المليئة بالحفر.

قابلت عدداً من مسؤولي حركة حماس، وقد كانوا واضحين في وقوفهم بجانب الشعب السوري ضد الأسد. وقال نائب رئيس الوزراء السابق في غزة زياد الظاظا: "نحن مع الشعوب حين تناضل من أجل حقوقها السياسية والاقتصادية. وتقع مسؤولية دماء الشهداء العرب على ضمائر قادة الحكومة في سوريا" [392] . يعتبر هذا تغييراً كبيراً في مواقف حركة حماس التي ظلت حليفة مقربة من سوريا لفترة طويلة. يحتاج فهم أسباب الانفصال إلى فهم بعض الحقائق في التاريخ الحديث.

فازت حماس بالانتخابات النيابية الفلسطينية عام 2006، وهي

الانتخابات التي مدحها المراقبون الدوليون وقالوا إنها انتخابات ديموقراطية ونـزيهة [393] . ولكن الولايات المتحدة وإسرائيل وحركة فتح لم تتقبل الهزيمة، فوصلت التباينات بين حماس وفتح إلى درجة الغليان، واندلع القتال بين الطرفين. ومع حلول عام 2007، كانت حماس قد أحكمت سيطرتها على غزة، في حين أن فتح أحكمت سيطرتها على الضفة الغربية.

اختلفت حركتا فتح وحماس وقتها في نظرتيهما إلى سوريا أيضاً. فقد كانت فتح على عداء قديم مع سوريا يمتد لعقود خلت، أما حماس فكانت متحالفة مع سوريا، حتى إنها نقلت مقر قيادتها إلى دمشق عام 2001. ولكن، كالعادة لم يكن هذا التحالف إلا "زواج مصلحة"؛ لأن النظام الذي يحكم سوريا علماني يقمع الحركات الدينية في سوريا نفسها، أما حماس فمنظمة سنية محافظة تعارض العلمانية. وكما قال لي خالد مشعل رئيس المكتب السياسي لحماس: "نحن وسوريا نشترك في عدائنا لإسرائيل، ولذلك علاقتنا طيبة" [394] .

ولكن، حين بدأت التظاهرات الشعبية في سوريا، انتقدت حماس قمع النظام السوري للشعب. وحين انفجر الصراع المسلح، أيدت حماس مجموعات الثوار المرتبطة مع الإخوان المسلمين. كما أغلق مشعل مكاتب دمشق في كانون الثاني 2012 وانتقل إلى الدوحة في قطر.

لوهلة، بدا الأمر وكأن حماس قد تحركت في الاتجاه التاريخي الصحيح؛ إذ نال المسلمون المحافظون الكثير من النفوذ في سوريا، وفازت جماعة الإخوان المسلمين في مصر - وهي حليف مقرب لحماس - بالانتخابات النيابية والرئاسية. وسَّعت حكومة الإخوان المسلمين في مصر معابر الحدود المصرية مع غزة - وهي سياسة بدأ العمل بها أثناء حكم مبارك - ولكن لم يتمكن سكان غزة من استيراد السلع على مستوى تجاري، ولذلك سُمِح بازدياد التهريب عن طريق الأنفاق.

لكن بعد ذلك، انقلبت الكفة لغير صالح حماس؛ إذ أسقط الجيش المصري حكومة الإخوان المسلمين في مصر في حزيران عام 2013 فخسرت حماس حليفاً هاماً، وأغلق الجيش أنفاق التهريب وشدد الإجراءات على المعابر الحدودية في رفح.

تحالفت حماس مع إيران أيضاً؛ إذ اتفق الطرفان في معاداتهما إسرائيل، ولكنهما اختلفا في قضايا أخرى. وحين غيّرت حماس موقفها من الأسد، أوقفت إيران مساعداتها المالية لغزة؛ وقد بلغت قيمة هذه المساعدات بحسب بعض المصادر حوالى 20 مليون دولار شهرياً؛ للمساعدة

في تقديم الخدمات الأساسية للفلسطينيين، ولكن هذا انتهى عام 2013 [395] .

لم يقبل مسؤولو حركة حماس مناقشة أرقام دقيقة، ولكن نائب وزير الخارجية غازي حمد قال: "لقد خسرنا الكثير بسبب دعمنا للثورة السورية". وأضاف حمد أن التعاون العسكري قد توقف أيضاً. وقال أحمد يوسف، وهو مستشار رئيس الوزراء في غزة: "لم نتوقع قط من دولة مثل إيران تتكلم دائماً عن الناس المقهورين والأنظمة الغاشمة أن تقف إلى جانب ديكتاتور يقتل شعبه مثل الأسد" [396] .

قطعت حماس علاقاتها حتى مع حليفها القديم حزب الله. ففي 17 حزيران 2013، دعت حماس حزب الله إلى سحب قواته من سوريا وتركيز جهوده على المعركة مع إسرائيل [397] .

حولت حماس أنظارها إلى قطر والإمارات العربية المتحدة وتركيا للحصول على المساعدات، وأصبح أمير قطر أول قائد دولة يزور غزة، وتعهد بتقديم مساعدات بقيمة 400 مليون دولار. قد تكون لتغيير حماس موقفها وابتعادها عن سوريا وإيران تداعيات بعيدة المدى: فإما أن يظل قادة حماس مستقلين في قراراتهم فيقبلون الدعم المالي من مصادر متعددة، وإما أن يفتح اعتمادهم على المال الذي يقدمه حلفاء للولايات المتحدة مثل بلاد الخليج الباب لدخول نفوذ الولايات المتحدة وحتى إسرائيل عليهم. وإذا حدث هذا التحول المهول فقد يعني شمول حماس ضمن المحادثات الفلسطينية-الإسرائيلية، ولا يبدو هذا الأمر مرجحاً على المدى القريب.

تنقسم الآراء الفلسطينية حول سوريا. ففي البداية، رحب الفلسطينيون بالثورة التي ظنوا أنها ستستبدل حكومة شعبية تكون أكثر دعماً للقضية الفلسطينية بالأسد. ولكن، حين استمرت الحرب الأهلية لفترة طويلة، أصبحوا أكثر قلقاً من أن تخطف القوى الخارجية والجماعات المتطرفة الثورة. ولكن، تظل الغالبية الساحقة من الفلسطينيين معارضة للأسد. فبحسب استطلاع للرأي قام به المركز الفلسطيني للبحوث السياسية والمسحية، لا يزيد عدد مؤيدي نظام الأسد عن 12.6 في المئة من سكان غزة والضفة الغربية [398] . بينما أظهر استطلاع للرأي أجرته جامعة حيفا بين العرب الحاملين للجنسية الإسرائيلية أن 72 في المئة منهم إما يدعمون أو يدعمون بقوة سقوط نظام الأسد [399] .

لكن هذا لا يعني أنه لا يوجد بعض المؤيدين لنظام الأسد بين الفلسطينيين. أجرى حزب البعث العربـي الاشتراكي - القطر الفلسطيني

مسيرات صغيرة مؤيدة للأسد. ومع أن حماس منعت كل التظاهرات المؤيدة للأسد في غزة، إلا أن بعض مناصريه حاولوا التظاهر تأييداً له. وكذلك يدعم بعض الفلسطينيين البارزين الأسد، ومنهم المطران عطا الله حنا رئيس أساقفة سبسطية للروم الأرثوذكس في القدس [400] .

ولكن، من ناحية أخرى، قال القيادي السياسي البرغوثي إن ثورات الربيع العربي ستنتصر في آخر الأمر: "أنا أعتقد أن هذه مجرد مرحلة واحدة تحدث؛ كما حدث في الكثير من الثورات في العالم. فلديك الثورات والثورات المضادة؛ الناس يبحثون عن طريقهم. أنا متفائل" [401] .

ترفض الغالبية الساحقة من الفلسطينيين التدخل الأجنبي في حرب سوريا؛ حيث عارض 63 في المئة منهم إرسال الأسلحة الأمريكية والأوروبية إلى الثوار بحسب استطلاع للرأي أجراه مركز بيو للدراسات [402] ، وعارضت نسبة مشابهة تدخلاً عسكرياً للولايات المتحدة في سوريا. هذان الرأيان تجمع عليهما حركتا حماس وفتح؛ لأنهما كلتيهما تعتقدان أن هجوماً تقوم به الولايات المتحدة سيتسبب فقط في وضع قوى موالية للولايات المتحدة على رأس السلطة بدلاً من مساعدة الشعب السوري. وقال المتحدث باسم حركة حماس صلاح بردويل: "لا يريد الأمريكيون الخير للشعب السوري. لا يريد الأمريكيون إلا خدمة المصالح الأمريكية والإسرائيلية" [403] . دانت حركة فتح بقوة أيضاً معايير أمريكا المزدوجة حين انتقدت استخدام سوريا للأسلحة الكيميائية. وقال عباس زكي القيادي في حركة فتح إن الولايات المتحدة لم تفعل شيئاً "حين استخدمت إسرائيل القنابل الفوسفورية في عدوانها على قطاع غزة عامي 2008 و2009" [404] .

لا يريد الفلسطينيون السيطرة الأجنبية على سوريا، ولكنهم لا يريدون الديكتاتورية أيضاً. ولطالما استخدم الأسد دعمه لفلسطين كتبرير لبقائه في السلطة. ولكن، وكما تبيّن، لا يبدو أنه قادر على أن يدعي أن لديه تأييدهم الشعبي.

لا يمكن للإسرائيليين والفلسطينيين إلا أن يروا التطورات في سوريا من منظارهم الخاص. فبالنسبة إلى القادة الإسرائيليين، أعطتهم الحرب الأهلية راحة مؤقتة من قائد يعتبرونه شيطانياً، ولكن الحرب أبرزت أيضاً إمكانية تزايد نفوذ الإسلاميين المتطرفين. كما أن الإسرائيليين يتخوفون من الإصلاحات الديموقراطية في الشرق الأوسط أيضاً. وقد شرح لي البروفيسور زيسر، أستاذ التاريخ: "نحن أقلية في المنطقة، ودائماً تفضّل الأقليات نظاماً استبدادياً قوياً بدلاً من نظام شعبي تدعمه أغلبية لا يمكن الثقة بها" [405] .

أما الفلسطينيون فيقولون إن وجهات نظر كهذه لن تؤدي بإسرائيل إلا إلى العزلة وجنون الشك. وقال القيادي السياسي البرغوثي: "يخشى الإسرائيليون الديموقراطية العربية. إن إسرائيل قصيرة النظر، لأن الديموقراطية ستأتي إلى العالم العربي في النهاية" [406] .

ذكرني هذا النقاش كثيراً بالجدل الذي جرى بيني وبين الحاخام زلدين عام 1967. في ذلك الوقت، تحالفت إسرائيل مع أنظمة ديكتاتورية مثل شاه إيران ونظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا؛ لأنها كانت تخشى من أنه إذا أخذت الشعوب السلطة في تلك البلاد فإن ذلك سيؤدي إلى معارضتها لسياسات إسرائيل. هنا أحب أن أقدم مذكرة إلى قادة إسرائيل: قد تكون سياسات إسرائيل هي المشكلة وليس شعوب العالم.

الفصل الحادي عشر
الولايات المتحدة وروسيا
والقوى الخارجية

ضعت وأنا في طريقي إلى وزارة الخارجية الأمريكية. فقد ذهبت إلى المقر العام للوزارة؛ وهو مبنى هائل مشابه للقلعة المنيعة، ويحتل أكثر من شارع في وسط مدينة واشنطن العاصمة. لكن الحراس في هذا المبنى أخبروني بأنهم لم يسمعوا قط بالشخص الذي كان من المفترض أن أقابله، ثم تبيّن لي أنني كنت في المكان الخطأ؛ فقد كان اجتماعي في مبنى ملحق بالوزارة عبر الشارع وأسفله.

لاحقتني امرأة شابة تعمل في الشعبة العاملة في ذلك المبنى من وزارة الخارجية لأشهر طالبة مني التحدث إلى زملائها حول موضع الخطأ في سياسة الولايات المتحدة في سوريا، غير أنني كنت واضحاً في إبداء شكوكي بالنسبة إلى تأثير آرائي "المغردة خارج السرب" فيهم، ولكنها أصرت بحرارة. وافقت في نهاية الأمر، ولكن فقط إذا حصلت على مقابلة مع وزارة الخارجية؛ إذ بإمكاني استخدامها في مقالاتي وفي هذا الكتاب. وهكذا، عقدنا الصفقة، فارتديت أكثر معاطفي أناقة، ووضعت ربطة عنق تقليدية، وركبت "المترو" [القطار تحت الأرض] ثم ذهبت إلى "فوغي بوتوم" [407] .

جرت هذه المقابلة في نيسان 2012، وهو وقت كانت فيه وزارة الخارجية الأمريكية لا تزال تدعم على المستوى المعلن والرسمي المقاومة السلمية في سوريا، والتي كان يرأسها المجلس الوطني السوري. أرادت وزارة الخارجية من الشعب الأمريكي أن يصدق أن المجلس الوطني السوري يمثل المجموعة المعارضة الرئيسة من الشعب السوري. وكان أحد قياديي المجلس وهو رضوان زيادة يعيش في الولايات المتحدة، ويتكلم الإنجليزية بطلاقة، ويعد بحلول الديموقراطية والتعددية في سوريا الجديدة.

جلست مع متحدث رسمي باسم وزارة الخارجية الأمريكية، وبسبب القوانين التي تفرضها واشنطن لا يسمح لي باستخدام اسمه. وحين سألته: أي مجموعة داخل المجلس الوطني السوري توفر بديلاً ديموقراطياً عن الأسد؟ فكر لمدة خمس عشرة ثانية كاملة قبل أن يجيب: "لا نـزال نشجعهم، بل ونداهنهم كي يقدموا لنا رؤية للموضوع. لا يزال هذا الموضوع عملاً يتقدم" [408] .

إذاً، حتى بعد مرور سنة من العمل مع مجموعات المعارضة في الداخل والخارج لم تجر مخططات الولايات المتحدة على ما يرام.

شرح لي مصدر آخر في وزارة الخارجية - وهو امرأة سنسميها "كاثي" - سبب المعضلة الأمريكية. لم ترد "كاثي" مني استخدام اسمها الحقيقي خوفاً من تعرّضها للانتقام نتيجة آرائها النقدية. وأخبرتني أن إدارة أوباما حتى نيسان 2012 كانت قد قدمت مئة مليون دولار من أجل الرواتب والمعدات التي يحتاج إليها المجلس الوطني السوري، ولكنها أضافت: "لكن المجلس الوطني السوري يعاني من التمزق الفئوي. ونحن نحاول أن نجد حصاناً يمكننا المراهنة عليه، إلا أننا لم نتمكن من ذلك بعد" [409] .

اعترف الناطق الرسمي باسم وزارة الخارجية أن مسألة سوريا تطرح أمام الولايات المتحدة مشاكل فريدة من نوعها. فالغالبية الساحقة من أهالي سوريا مسلمون سنة، إلا أن فيها الكثير من الأقليات. وأصر الناطق الرسمي على أن المجلس الوطني السوري يشتمل على جميع هذه المجموعات، ولكنه أقر بأنه لا توجد قواسم مشتركة بين هذه المجموعات المختلفة؛ باستثناء رغبتها في إسقاط الأسد. ثم أضاف قائلاً: "حين يزول العدو المشترك عندها ستبدأ الانقسامات. نحن نفهم أنه ستكون أمامنا مسافة كبيرة لنقطعها" [410] . لكن إدارة أوباما لم تكن لديها أدنى فكرة عن مدى طول هذه المسافة.

في الواقع، لم يتمكن المجلس الوطني السوري من صنع قاعدة شعبية عريضة له داخل سوريا. ومع حلول تشرين الثاني 2012، اعترفت وزيرة الخارجية الأمريكية هيلاري كلينتون أن المجلس الوطني السوري قد باء بالفشل. أخيراً، اعترفت الولايات المتحدة رسمياً بأن المجلس الوطني السوري لا يمثل الصراع الحاصل داخل سوريا، ويفتقد إلى تمثيل الأقليات [411] . في تشرين الثاني، حل الائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة السورية محل المجلس الوطني السوري، ولكنه فشل أيضاً في حشد تأييد كبير داخل سوريا، بينما استمرت قوة الإسلاميين المحافظين والإسلاميين المتشددين في التنامي (انظر إلى الفصلين الخامس والسادس).

في تلك الأثناء، كانت إدارة أوباما تتبع مساراً عسكرياً سرياً. إذ بدأت وكالة الاستخبارات المركزية بالإشراف على حمولات عسكرية بدأت تصل إلى الجيش السوري الحر في حزيران 2012 على أبعد تقدير؛ وهو الوقت الذي تسربت فيه القصة إلى جريدة "نيويورك تايمز". وبدأت وكالة الاستخبارات بتسليح الثوار وتدريبهم بشكل مباشر مع مطلع عام 2013 (انظر إلى

الفصل الخامس).

قالت "كاثي" في معرض نقدها لوزارة الخارجية الأمريكية إن الولايات المتحدة لم ترَ في إعلانها عن دعم المقاومة السلمية في الوقت ذاته الذي كانت تسلح فيه الثوار سلوكاً متناقضاً. وقالت "كاثي" أيضاً إن وزارة الخارجية مليئة بمحبـي "التدخل الإنساني"، أي الناس الذين يفضلون أحد أنواع التدخل العسكري الذي يدعون أنه سيحمي المدنيين في نهاية الأمر. وقالت لي كاثي: "لكننا لا نناقش شرعية هذه الأعمال، ولا حتى جانبها الأخلاقي". إذ ترسل السياسات المثيرة للجدل إلى القسم القانوني لمراجعتها: "وهم دائماً يجدون طريقة لتبرير أي سياسة يقرر اتباعها" [412] .

أصر مسؤولو وزارة الخارجية الأمريكية على أن السوريين سينتفعون من السياسة الأمريكية على المدى البعيد. وقد أقر المتحدث الرسمي الذي قابلته بأن عامة الناس في الشعب السوري قد تضرروا من العقوبات الاقتصادية التي فرضتها الولايات المتحدة، والتي تسببت في انحدار كبير في مستوى المعيشة في سوريا. ولكن المتحدث الرسمي قال أيضاً - وكأن الأمر يتعلق بتقويم تصرفات بعض الأطفال المشاغبين - إن "العم سام" سيعوضهم عن هذه المصاعب: "حين تتغير السلوكيات، وحين يتنحى نظام الأسد، فعندها سنعوض عمّا فات؛ وذلك بجعل البلد بيئة يقدر الأمريكيون على إجراء الأعمال فيها" [413] .

لدينا منطق مثير للاهتمام هنا. كان هذا الرجل يفترض أن الحل الأمثل للانهيار الاقتصادي هو استثمارات الأعمال الأمريكية؛ إذاً يبدو أن ما هو جيد "للبيزنس" الأمريكي لا بد أن يكون جيداً للشعب السوري!

كذلك لم تر وزارة الخارجية أي تناقض في انتقاد سجل الأسد المتعلق بحقوق الإنسان، ودعمها أنظمة أخرى في المنطقة ترتكب تجاوزات مماثلة. إذ تفترض وزارة الخارجية ببساطة أن حلفاء الولايات المتحدة سيتغيرون، أما أعداؤها فلن يتغيروا. وفسّر لي المتحدث الرسمي باسم الوزارة هذه النقطة قائلاً إن الحلفاء قد يرتكبون تجاوزات تتعلق بحقوق الإنسان، "إلا أننا نعمل معهم".

عمل بيتر فان بيورن كمسؤول في السلك الدبلوماسي لفترة طويلة امتدت إلى 24 سنة. وقد قال أثناء مقابلتي معه إن وزارة الخارجية بارعة للغاية "في هذا الاستخدام الذكي للكلمات". أنشأ فان بيورن مدونة كتب فيها انتقادات لسياسة الولايات المتحدة الخارجية؛ مما تسبّب بنقمة مسؤولي وزارة الخارجية عليه، وتقاعد عام 2012. أخبرني فان بيورن أن التلاعب

بالكلمات عن حقوق الإنسان "لا يحمل وزناً إلا هنا في الولايات المتحدة. ففي العالم الحقيقي، لا تعني هذه الكلمات أي شيء. إذا تكلمت ضد الحكومة في الكثير من البلاد المتحالفة معنا فسوف تسقط، ولن يجدك أحد مرة أخرى. وإذا كنت في سوريا وفعلت الشيء ذاته، فالفرق الوحيد هو أنك ستكون مناضلاً من أجل الحرية أثناء سقوطك" [414] .

ركبت سيارة تاكسي لأزور دبلوماسياً سابقاً يعيش الآن في بيثسيدا، ماريلاند، وهي مقاطعة ينتمي غالبية ساكنيها إلى الطبقة المتوسطة ميسورة الحال على حدود واشنطن العاصمة. عمل هنري بريخت طوال حياته المهنية كضابط شؤون خارجية، ونائب للسفير الأمريكي في مصر، والضابط المسؤول عن المكتب الإيراني في واشنطن أثناء سبعينيات القرن الماضي؛ والضابط المسؤول عن مكتب أي بلد هو أعلى مسؤول في وزارة الخارجية الأمريكية يتابع النشاطات اليومية في ذلك البلد.

أزال بريخت بعض الأساطير العالقة في ذهني عن كيفية صنع سياسة الولايات المتحدة الخارجية. فقد قال لي إن الاستخبارات السرية التي تثور حولها كل هذه الضجة، والتي يمنع عامة الجمهور من رؤيتها لا تكون عادة شديدة الاستبصار في حقيقة الأمور، بل كثيراً ما تكون غير مفيدة أصلاً: "إذا كنت من قرّاء جريدة "نيويورك تايمز" وعندك بعض المعرفة بكيفية عمل الحكومة، فسيكون لديك الاطلاع نفسه الذي يمتلكه أولئك الذين يجلسون إلى مكاتبهم ويقرأون المراسلات السرية" [415] . بشكل عام، لا توجد لدى مكاتب وزارة الخارجية المسؤولة عن بلاد معينة مصادر أفضل من تلك التي يمتلكها صحافي جيد. وأضاف بريخت أن هناك أوقاتاً "تكون لدينا فيها تقارير ممتازة من وكالة الاستخبارات المركزية"، تقدم مصادر وتحاليل فريدة.

سألت بريخت سؤالاً كان الكثير من الناس الذين أقابلهم أثناء ترحالي في الشرق الأوسط يسألونني إياه: ما الذي كان الأمريكيون سيعتقدونه لو كانت سوريا هي التي تدرب جماعات متمردة ومنشقة في الولايات المتحدة وتسلحها؟ هل تنظر وزارة الخارجية إلى نفسها بالمعايير نفسها التي تطالب الآخرين الالتزام بها؟ أجاب بريخت: "لا بكل تأكيد. نحن الذين نرسم المعايير للناس في العالم، ومن الأفضل لهم أن يلتزموا بها". ثم أضاف وهو يبتسم بسخرية: "إذا لم يلتزموا بها فسيتعرضون للإدانة في تقاريرنا عن حقوق الإنسان". تصدر وزارة الخارجية تقارير سنوية عن حقوق الإنسان تجد أن أشد التجاوزات ترتكب في البلاد المعادية للولايات المتحدة.

كانت لدى بريخت بعض التعليقات الإيجابية عن "فوغي بوتوم" [مقر وزارة الخارجية]، فقد قال إنه يوجد فيه الكثير من مسؤولي السلك الدبلوماسي المحترفين والمتفانين في عملهم، الذين يستمع صناع السياسات الأمريكية إلى نصائحهم. وأضاف بريخت أنهم لا يختارون المعلومات الاستخباراتية بانتقائية ليدعموا سياسات مقررة سلفاً: "إذا كانت لديك قضية جيدة فأهلاً وسهلاً بها". ولكن الحال لا يكون كذلك في وقت الأزمات؛ فإبداء آراء مضادة أثناء التحضير لحرب مثلاً "قد يعني إنهاء خدماتك. كان لدي طفلان لأربيهما، ولم أرغب في خوض هذه المخاطرة".

في بداية تحولي إلى ناشط سياسي أثناء سني دراستي خلال ستينيات القرن الماضي، ناقشت أمراً مشابهاً لهذا مع والدي. كان والدي يريد مني أن أنهي دراستي الجامعية، وأنضم إلى العمل الحكومي وأغيّر الأمور من الداخل. لكنني أجبت عن ذلك بقولي إن ضغطاً هائلاً من الشارع هو فقط ما يمكنه تغيير سياسة أمريكا الخارجية. أما "الأفراد في الداخل" فلن يفعلوا شيئاً إلا الغرق في المستنقع. وأكدت جولاتي داخل واشنطن الاستنتاجات التي توصلت إليها في ستينيات القرن الماضي. إذ يكتب أناس أذكياء جداً تحاليل معقدة، ولكن حينما يصل الأمر إلى القرارات الهامة والخطيرة المتعلقة بالحرب والسلام، سرعان ما تهمل قيادة البلاد العليا هذه التحاليل. اكتشفت صديقتي "كاثي" أن من يقرر السياسة الخارجية للولايات المتحدة هي نخبة سياسية وعسكرية واقتصادية لا يهمها بعض الشكاوى من مبنى ملحق بوزارة الخارجية؛ ولذلك استقالت من وزارة الخارجية. وهي تعمل الآن في المجال الأكاديمي، حيث يمكنها الانضمام إلى أولئك الذين يمارسون الضغط من الشارع.

لقد ادعت وزارة الخارجية ووكالة الاستخبارات المركزية والمؤسسات الحكومية الأخرى أنه يجب على الولايات المتحدة التدخل في سوريا لحماية مصالح أمريكا القومية. ولكن، ما هي هذه المصالح بالضبط؟ وهل تفيد الأمريكيين العاديين؟

تعتمد السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط على مبدأ أساسي؛ وهو أن الولايات المتحدة مختلفة عن القوى الأخرى. فروسيا والصين عملاقان شرهان يرغبان في الحصول على المصادر الطبيعية. أما حلفاء أمريكا المقربون - مثل بريطانيا وفرنسا - فمن المعروف عنهم أنهم قد يقدمون مصالح أعمالهم على مبادئ حقوق الإنسان. في حين أن الولايات المتحدة ترى نفسها حالة استثنائية؛ لأنها تعمل بموجب اهتمامها بالإنسانية ودعمها الديموقراطية. كانت

فكرة "الاستثنائية الأمريكية" في غاية الوضوح في الخطاب الذي ألقاه الرئيس الأمريكي باراك أوباما أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة عام 2013، حيث قال: "صحيح أن هناك من يخالفني الرأي؛ ولكنني مقتنع بأن أمريكا حالة استثنائية. ومرد ذلك جزئيًا أننا أظهرنا استعدادًا لبذل أرواحنا وأموالنا لنصرة الآخرين؛ ليس من أجل مصالحنا الذاتية الضيقة، بل لمصلحة الجميع" [416] .

لكن هذا الكلام سيبدو مفاجئاً إلى حد كبير بالنسبة إلى شعوب العراق وأفغانستان وليبيا ومصر وسوريا على سبيل المثال لا الحصر. ولكن "الاستثنائية الأمريكية" تخفي الدوافع الحقيقية للنخبة الحاكمة في الولايات المتحدة؛ وذلك بادعاء أن أمريكا تحمي مصالح جميع البلدان. اعتبرت الولايات المتحدة الشرق الأوسط منطقة في غاية الأهمية منذ الوقت الذي بدأت فيه حقول النفط الأولى بالضخ في العراق عام 1927. وأعطيت وقتها شركات النفط الأمريكية نسبة مقدارها 23.75 في المئة من ملكية التجمع النفطي الذي يسيطر على الحقول، وكان ذلك جزءاً من التقسيم الاستعماري للمنطقة بعد الحرب العالمية الأولى (انظر إلى الفصل الثالث). وبعد الحرب العالمية الثانية، أصبحت الولايات المتحدة القوة المهيمنة في المنطقة، وسيطرت شركات النفط الأمريكية على هذه الثروة الهائلة؛ إما بشكل مباشر وإما عن طريق اتفاقيات مع النخب المحلية. تصدر بلاد الخليج العربـي - التي تشمل السعودية، والكويت، والعراق، وإيران، والإمارات العربية المتحدة - ما يعادل 30 في المئة من إنتاج النفط العالمي، وتحتوي على ما يقارب 55 في المئة من احتياطات النفط العالمية [417] . أصبحت حماية موارد النفط، بالإضافة إلى الأرباح الهائلة التي تدرها جزءاً حيوياً من مصلحة أمريكا القومية.

لكن قادة أمريكا لا يذكرون دافع الربح بالطبع، فهم يقولون دائماً إن الولايات المتحدة تحمي المنطقة من الأيدي الخارجية التي تسعى إلى التسبب باضطراب موارد النفط العالمية. فعلى سبيل المثال، أشار أوباما إلى منطقة الشرق الأوسط بقوله: "رغم أن أميركا تعمل باضطراد على خفض اعتمادنا نحن على النفط المستورد، فإن العالم ما زال يعوّل على إمدادات الطاقة من المنطقة. وإن أي تعطيل حاد يمكنه أن يزعزع استقرار الاقتصاد العالمي كله" [418] .

ولكن، من يمكنه الترويج للاستقرار بالضبط؟ حسناً، لا يمكننا بكل تأكيد الاعتماد على شركات النفط التي يملكها الروس والصينيون والدول

الأخرى المثيرة للريبة، ولذلك علينا دائماً أن نعتمد على شركات تملكها الولايات المتحدة أو أحد حلفائها المقربين. يجب على شركات مثل هالبرتون وشلومبرغر أن تحفر آبار النفط وتبني خطوط الأنابيب. كما أن شيفرون/تكساكو، وإكسون/موبيل وبريتيش بتروليوم وغيرها من الشركات الغربية هي الشركات الوحيدة التي يمكننا الوثوق بها لضخ النفط وتوزيعه. وبينما تحمي شركات كهذه ذات حس وطني عالٍ المصالح القومية، لا يمكننا أن نمنعها من أن تتكسب من ذلك، أليس كذلك؟

كي لا يظن بعض القراء أنني صحافي متطرف كاره للصناعة، أدعوهم لقراءة بعض وثائق حكومة الولايات المتحدة التي سربها إدوارد سنودون. لقد تجسّست وكالة الأمن القومي (NSA) على قادة أجانب مثل رئيسة البرازيل ديلما روسيف، وعلى شركة النفط العملاقة بتروبراز التي تملكها الدولة البرازيلية. لم تكن لمعظم عمليات تجسس وكالة الأمن القومي على القادة الأجانب أي علاقة بالتخوف من الإرهاب، ولكنها ركزت على إيجاد أفضلية تجارية لشركات الولايات المتحدة، فجمعت وكالة الأمن القومي معلومات عن الصفقات المقبلة والمفاوضات التجارية والتقنيات الجديدة [419] . ولو قامت أي مؤسسة أخرى بهذا الفعل لاعتبر ذلك عملية تجسس صناعي [420] ، ولكن بما أن وكالة الأمن القومي هي التي تقوم به فهي من دون ريب تحمي مصالحنا القومية!

لا توجد معادن ذات أهمية استراتيجية في سوريا، كما أن إنتاجها للنفط ضئيل نسبياً، ولا توجد فيها أي موانئ أو قواعد عسكرية هامة، ولكن يوجد فيها شيء يحسدها عليه أي سمسار عقارات: الموقع. لسوريا حدود مع تركيا والعراق ولبنان وإسرائيل والأردن. تشحن إيران الأسلحة إلى سوريا عبر الطائرات، ثم يتم نقلها براً إلى حزب الله في لبنان، ولذلك سيكون لمن يمسك بزمام السلطة في سوريا أثر كبير وبعيد المدى في المنطقة ككل.

لكن موقع سوريا يجعلها في خطر أيضاً؛ فقد حاربت إسرائيل مرتين، واستمرت في حالة من الحرب الباردة معها منذ ذلك الوقت، كما أصبحت حليف إيران العربي الوحيد، وداعماً أساسياً لحزب الله. وعبر السنين، حاولت إسرائيل والولايات المتحدة أن تنتزعا سوريا من إيران. ولو نجحتا في فعل ذلك، لغُفِرت كل خطايا الأسد الأخرى، ولكن استمرار تحالف سوريا مع إيران أصبح واحداً من الأسباب الرئيسة التي يبرر بها الغرب محاولاته لإسقاط الأسد. ففي عام 2011، قال توم دونيلون مستشار الرئيس أوباما

للأمن القومي إن "نهاية نظام الأسد ستشكل أكبر نكسة لإيران في المنطقة حتى اليوم؛ إذ ستكون ضربة استراتيجية ستزيد من تغيّر توازن القوى في الإقليم لغير صالح إيران" [421] .

كذلك لعب موقع سوريا دوره في مخططات بناء خط جديد لأنابيب الغاز الطبيعي. فقد رغبت قطر في بناء خط أنابيب من حقول الغاز فيها يمتد عبر السعودية والأردن وسوريا حتى ينتهي في تركيا. وكان هذا الخط سيقدم لأوروبا مصدراً جديداً للطاقة ينافس صادرات الغاز من روسيا. لكن الأسد رفض أن يوقّع الاتفاقية عام 2009، وبدلاً من ذلك قام عام 2012 بتوقيع اتفاقية مع إيران لمد خط أنابيب مختلف [422] كان سيكلف حوالى 10 بلايين دولار، وسيحمل الغاز الإيراني عبر العراق وسوريا وربما لبنان [423] . ورغم أن الحرب الأهلية جعلت بناء خط الأنابيب مستحيلاً، إلا أن إدارة أوباما وحلفاءها في الشرق الأوسط لم يكونوا سعداء بأن يكون لدى إيران مصدر جديد للدخل يدر عليها أرباحاً وفيرة [424] .

كان لدى قادة الولايات المتحدة الكثير من الأسباب للتخلص من الأسد؛ إذا أخذنا تحالفه مع إيران وعداوته لمصالح الشركات الأمريكية بالحسبان. لكن حين بدأت الثورة، شجبت إدارة أوباما أعمال الأسد القمعية، غير أنها لم تقم بأي شيء أكثر من ذلك. فتماماً كالإسرائيليين، يفضل الأمريكيون التعامل مع "الشيطان الذي يعرفونه". فقد خشيت الولايات المتحدة من أن يصل الإسلاميون المتطرفون إلى السلطة في سوريا، ومن أن يشكلوا خطراً أكبر من خطر الأسد؛ فقد حاول متطرفون إطلاق النار باسم الإسلام على السفارة الأمريكية في دمشق في أيلول 2006 [425] .

لكن حين استمرت الثورة لأشهر، قدّرت إدارة أوباما أن الإطاحة بنظام الأسد ستتم قريباً، أو على الأقل أنه سيضعف كثيراً؛ ولذلك وكما فعلت في ليبيا، غيّرت الولايات المتحدة استراتيجيتها بانتهازية ودعمت المعارضة. وفي آب 2011، أدلى أوباما بتصريحه الشهير: "لقد آن الأوان لكي يتنحى الرئيس الأسد" [426] . ودار نقاش داخل إدارة الرئيس عما إذا كان من الواجب فرض منطقة حظر جوي يضمن فيها سلاح الجو الأمريكي حماية المدنيين في منطقة قرب الحدود التركية أم لا. آثر بعض السوريين الذين يعيشون في المنفى هذا التدخل العسكري الأجنبـي، لكن وبحسب القياديين الذين قابلتهم، الغالبية العظمى من السوريين ترفضه. وأثناء مقابلتي مع أحمد بقدونس، وهو ناشط في المجتمع المدني ورد ذكره في الفصل الأول، أشار إلى القياديين الذين يعيشون في المنفى حين قال لي: "من لم يعانِ لا يمكنه

أن يتكلم. فليقولوا ما يشاءون، ولكن عدد الذين يتفقون معهم قليل. أنا أعارض النموذج الليبي؛ فحتى مع منطقة حظر جوي سنظل ضعفاء" [427] .

أقرت لين، وهي ناشطة أخرى في المجتمع المدني كنت قد قابلتها سابقاً، بأن بعض الثوار يائسون إلى درجة أنهم يفضلون تدخلاً عسكرياً خارجياً. ولكنها أضافت أنها ورفاقها كانوا قد راقبوا بحذر تدخل القوى الغربية في ليبيا والعراق: "سيكون هناك ديكتاتور جديد في ليبيا. نحن لا نريد ديكتاتوراً جديداً تدعمه أمريكا" [428] .

لكن آراء ناشطي المجتمع المدني هؤلاء لا تحمل أي وزن في أروقة السلطة في واشنطن. وكان الجدل الوحيد بالنسبة إلى سوريا يدور حول التكتيكات وليس الأهداف؛ لأن الجميع في الولايات المتحدة كانوا متفقين بأنه يجب على أمريكا أن تسهم في إسقاط الأسد وأن تستبدله بنظام موالٍ لها في دمشق. لكنهم لم يتفقوا على طريقة الوصول إلى هذا الأمر. قال الصقور إن أوباما كان متردداً وضعيفاً، وإنه كان من واجبه أن يسلح الثوار المعتدلين في وقت أسرع، كما كان عليه أن يفرض منطقة الحظر الجوي. أما الحمائم فقالوا إن سياسات أوباما منطقية إذا فكرنا في الأوضاع الصعبة على الأرض، وإن إدارة أوباما قامت بتسليح الثوار المعتدلين بالفعل، كما أجبرت الأسد على تدمير أسلحته الكيميائية.

يعتقد بعض الأمريكيين أن التجمع الصناعي العسكري هو الذي يجرنا إلى الحروب، ووفقاً لهذه النظرية يتفق مصنعو الأسلحة مع جنرالات الجيش ليدخلوا حروباً تدر عليهم الكثير من الأرباح. قياديو الجيش هم "الصقور المحلقة عالياً"، وهم الذين يدعون إلى الحرب. بينما دبلوماسيو وزارة الخارجية يسجعون كالحمائم وهم يدعون إلى السلام. لكن الواقع مختلف عن هذا. فعادة، يكون الجيش أكثر الجهات حذراً بالنسبة إلى الدخول في الحرب. وقد عارض البنتاغون بصراحة إنشاء منطقة حظر جوي، أو أي تواجد عسكري مستمر في سوريا. وقال رئيس هيئة الأركان المشتركة الأمريكية مارتن ديمبسي إن فرض منطقة حظر جوية فعالة قد يحتاج إلى مشاركة سبعين ألف جندي أمريكي بسبب "النظام المضاد للطيران المتطور الذي تملكه سوريا". كما قال إن نشر هذا العدد الهائل من القوات ضروري لإبقاء قوات سوريا الجوية على الأرض بشكل دائم، ومنع الهجمات الانتقامية على قوات الولايات المتحدة. كما تفهّم الجنرالات أن آثار قصف سوريا ستكون محدودة ما لم يترافق هذا القصف مع غزو أمريكي شامل،

أو على الأقل مع وجود حلفاء موثوقين للولايات المتحدة على الأرض. صرح ديمبسي بأنه يدرك أنه ليس لدى الولايات المتحدة دعم كهذا: "أعتقد أن الجانب الذي نختاره يجب أن يكون مستعداً لتعزيز مصالحه ومصالحنا حين يتغير الميزان لمصلحته. لكن هذا غير وارد الآن" [429] .

يكمن أصل تردد القوات العسكرية الأمريكية في قصف سوريا في خبرتها أثناء حرب فييتنام. فقد كان تفوق الولايات المتحدة الأمريكية العسكري هائلاً في الهند الصينية، ولكنها خسرت الحرب رغم ذلك لأنه لم يكن لدى الجيش الأمريكي حلفاء يمكنه الوثوق بهم على الأرض، كما لم يكن الأمريكيون العاديون في أرض الوطن يدعمون هذه الحرب. حاول الجيش الأمريكي أن يصنع قوة عسكرية قادرة على مواجهة العدو في جنوب فييتنام، ولكنها سرعان ما انهارت حين انسحبت قوات الولايات المتحدة في آخر الحرب. ثم كررت الولايات المتحدة الغلطة نفسها مرتين في أفغانستان والعراق. القوات الأمريكية بطبيعة الحال مستعدة للدخول في الحرب، ولكن ما تريده هو التأكد من وجود حلفاء سوريين أقوياء يقومون "بتعزيز" المصالح الأمريكية؛ بحسب التعبير الدقيق الذي استخدمه الجنرال ديمبسي.

دعت وزارة الخارجية ووكالة الاستخبارات المركزية إلى مجموعة من التكتيكات الأخرى، فقالتا إنه يجب على الولايات المتحدة القيام بعمليات عسكرية "محدودة" في بداية الحرب. واعتقد أنصار هذا الرأي أن تسليح الثوار وفرض منطقة حظر جوي كفيلان بربح الحرب من دون أي خسائر أو تكاليف أمريكية تذكر. أعجبت الحلول العسكرية السريعة المسؤولين المدنيين في وزارة الخارجية، ولكنها وببساطة حلول لا تحقق النتائج المتوخاة منها. وقد فضّل مدير وكالة الاستخبارات المركزية ديفيد بتريوس ووزيرة الخارجية هيلاري كلينتون زيادة تدريب ميليشيات الثوار. وقالت كلينتون إنه على الولايات المتحدة "أن تستثمر في هذه اللعبة" [430] .

تعامل أوباما مع الخطة بحذر بعد أن رأى النتائج الكارثية للتدخل في ليبيا. كما أنه لم يرد أن ينجر إلى تدخل عسكري محدود في البداية تغرق فيه الولايات المتحدة أكثر فأكثر كي تتجنب الخسارة. ولكن، مع حلول آخر عام 2013، توصل الصقور والحمائم في الإدارة إلى إجماع: سيسرعون في عملية تسليح الثوار وتدريبهم من دون تدخل مباشر من الولايات المتحدة.

دار نقاش في الإدارة حول ما إذا كانت وزارة الدفاع هي التي ستجري التسليح والتدريب مباشرة أم لا. وقال بعض مسؤولي البيت الأبيض

إن الدعم العلني لإسقاط الأسد يشكل انتهاكاً للقانون الدولي، وكان بإمكان الولايات المتحدة أن تنهي هذا البرنامج غير الشرعي. عندها، بدلاً من ذلك، أوكلت إدارة أوباما وكالة الاستخبارات المركزية بالمهمة، وهكذا صار بإمكانها أن تدعي أنها على المستوى الرسمي غير متورطة في الهجوم على دولة ذات سيادة [431] .

دعا بعض المحافظين بين الديموقراطيين والجمهوريين إلى تدخل عسكري أكثر عداونية، ودعا جون مكين السيناتور الجمهوري عن ولاية أريزونا إلى إقامة منطقة حظر جوي، كما رسم محللان يمينيان خطة كهذه في مقالة في جريدة "وول ستريت جورنال". هذان المحللان هما جاك كين وهو نائب رئيس أركان سابق في الجيش الأمريكي، ودانييل بليتكا وهي محللة تعمل لدى معهد آميريكان إنتربرايز الذي يميل إلى المحافظين. جادل المحللان لصالح ضربات محدودة قد تتوسع إلى منطقة حظر جوي: "سلِّحوا وحدات الثوار المعتدلين الذين تختارهم وكالة الاستخبارات المركزية بصورايخ مضادة للطيران محمولة على الكتف... بإمكان القوات الأمريكية أن تستخدم الصواريخ الموجهة (كروز) وقاذفات الشبح ب-2، وستظل بعيدة عن متناول العدو". اعترف المحللان أن مدرجات الطيران قابلة للتصليح: "على هذه العمليات أن تبقى لفترة من الزمن لمنع عمليات التصليح" [432] .

قد يبدو تدخل عسكري محدود كهذا فكرة حسنة في واشنطن؛ لأنه على الأرجح لن يتطلب خسارة في أرواح الأمريكيين، ولن تفتقد الميزانية العسكرية الأمريكية المنتفخة أصلاً بضع بلايين من الدولارات - وهو المبلغ الذي يتطلبه تنفيذ هذه العملية - ولكنْ بغض النظر عن عدم أخلاقية شنّ حرب سيموت فيها عدد كبير من المدنيين لا محالة، فإن خطة كهذه ستفشل. لقد حاول الأمريكيون فعل شيء مشابه في ليبيا، ولكن إسقاط القذافي تطلب سبعة أشهر، وكانت نتيجته الأكثر بروزاً هي سقوط ليبيا بأيدي الميليشيات المتحاربة.

أدى الفشل في تطوير ائتلاف قابل للحياة بين أطراف المعارضة السورية، وعدم ميل عامة الشعب الأمريكي إلى دخول حرب أخرى إلى تعزيز الانقسامات في الحزب الجمهوري. فقد انتقد الليبرتاريون [433] والانعزاليون أوباما، وعارضوا خططه لضرب سوريا بعد حادثة الأسلحة الكيميائية، حتى إنهم تحدوا حزبهم الجمهوري وقيادات مجلس الشيوخ في رفضهم هذا.

يحافظ الكثير من الليبرتاريين على نظرة معارضة للحرب في الشرق

الأوسط. وقد كتب دوغ بانداو الباحث في معهد كاتو - وهو معهد ليبرتاري - والمساعد الخاص السابق للرئيس رونالد ريغان: "ماذا لو ساعدت الولايات المتحدة في قصف سوريا؟ لن تكون لواشنطن أي سيطرة على النتائج. ولكنْ إذا كانت النتيجة ازدياد عدم الاستقرار في المنطقة والإرهاب والصراع المدني الذي ستكون أوضح سماته أعمال القتل الانتقامية، والتطهير العرقي للعلويين، وإساءة معاملة الأقليات الأخرى، فستتحمل الولايات المتحدة المسؤولية المباشرة. وإذا تدخلت واشنطن فلن تلوم أحداً على النتائج إلا نفسها" [434] .

أما الانعزاليون اليمينيون فقد استخدموا أدبيات معادية للتدخل؛ للترويج لجدول أعمال عنصري وزينوفوبي (معادٍ للأجانب). تعود النـزعة الانعزالية في الولايات المتحدة إلى زمن بعيد (انظر إلى الفصل الثالث)، ويعارض دعاتها أي تورط سياسي أو عسكري أمريكي خارج النصف الغربي من الكرة الأرضية. وقد عارض الانعزاليون دخول الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية؛ مما شجع العدوان النازي بشكل غير مباشر. واليوم، يحمل أناس من أمثال المعلق السياسي بات بيوكانان راية الانعزالية. كان بيوكانان كاتب خطابات لثلاثة رؤساء أمريكيين، كما سعى مرتين إلى أن يصبح المرشح الجمهوري لمنصب رئاسة الولايات المتحدة.

جادل بيوكانان ضد قصف سوريا في أيلول 2013، وذلك باتهام الجيش الأمريكي بأنه مأجور من قبل الشيوخ العرب، فكتب في عمود صحفي: "... العرب الخليجيون الذين سمنوا من النفط الذي يبيعونه للمستهلكين الأمريكيين بسعر 110 دولارات للبرميل هم الذين سيدفعون ثمن صواريخ التوماهوك. هل انحدر بنا الحال إلى هذا الحد؟ هل أصبح جنود جيش الولايات المتحدة وبحارته وطياروه مرتزقة عندهم؟ هل صاروا هم "جنود إيسن" [435] النظام العالمي الجديد المأجورين للقيام بأعمال القتل الكبيرة...؟" [436] .

جادل بيوكانان على أساس شعبوي وعنصري، ولام الحكام العرب على ما هو في الواقع سياسة الشركات والقوات العسكرية الأمريكية، ولم يبدِ أي اهتمام بالشعب السوري الذي كان سيصبح ضحية العدوان الأمريكي في الوقت الذي أبرز فيه صورة عنصرية مغلوطة لطبقة غنية ومتنفذة من العرب. ذكرني كلامه بالطريقة التي لام بها الشعبويون اليمينيون أصحاب المصارف اليهود على بدء الحرب العالمية الثانية. وصلت النـزعة اليمينية الانعزالية إلى ذروتها في كلام أدلت به سارا بيلين، المرشحة الجمهورية

السابقة لمنصب نائب الرئيس الأمريكي، حين جمعت بين الشعبوية وكراهية أوباما والإسلاموفوبيا (الخوف العنصري من الإسلام): "[أقول لأوباما] اترك هذه البلاد الإسلامية المتطرفة... حيث يقف الجانبان وهما يذبحان بعضهما بعضاً ويصرخان "الله أكبر" على خط أحمر اعتباطي [تخطه الدماء]. أنا أقول: إلى أن يأتي الوقت الذي نحصل فيه على [رئيس] يعرف ما الذي يفعله فلنترك "الله" يرتب الأمر هناك" [437] !

كما أدت الأزمة السورية إلى بروز محافظين معارضين للتدخل؛ فقد ولدت أيضاً ليبراليين مطالبين بالتدخل! كاتب العمود الصحافي الشهير في صحيفة "نيويورك تايمز" توماس فريدمان أستاذ في فن إيجاد تبريرات ليبرالية للحرب. كان فريدمان أحد المدافعين الكبار عن احتلال العراق، حتى أثبتت هذه السياسة فشلها [438] ، ثم عاد ليفعل الشيء ذاته في سوريا. أجد أنه من المفيد أن نذكر بعض تفاصيل كلامه هنا:

أرى أننا إذا كنا نرغب في إنهاء الحرب الأهلية السورية وتوجيه سوريا نحو مسار الديمقراطية، فنحن بحاجة إلى قوة دولية تحتل الدولة بالكامل، وتؤمن الحدود، وتنـزع السلاح من كل الميليشيات، وإلى وسيط خارجي للانتقال إلى الديمقراطية. ستكون عملية مكلفة جدًا، وستستغرق وقتًا طويلاً، ولن تكون نتيجتها مضمونة. ولكن من دون وجود قائد سوري وطني يلعب دور المعالج وليس المفرق بين الطوائف، أرى أن أي إجراء - بخلاف محاولة أي قوة خارجية إعادة بناء سوريا من العدم - سيبوء بالفشل. ونظراً إلى عدم تطوع أي دولة للقيام بهذا الدور (وأنا بكل تأكيد لا أرشح الولايات المتحدة)، أخمن أن المعركة ستظل محتدمة في سوريا حتى تستنفد جميع الأطراف قواها [439] .

لقد نجح فريدمان باقتراح خطة مشينة لاحتلال إمبريالي، ومن ثم تراجع عنها بأناقة بلاغية يحسد عليها. من يقدر أصلاً على احتلال سوريا لفترة طويلة غير الولايات المتحدة، أو على الأقل إحدى القوى الأوروبية؟ لقد عاد ليستخدم المبدأ العنصري نفسه؛ عن كون السوريين والعرب غير قادرين على تطوير مجتمع لائق وكريم إلا بواسطة الاحتلال. ولكن، اسمح لي يا "توم"، ألم تنته هذه الحجة مع موت الاستعمار؟

قدم بعض الأمريكيين ذوو الأصول السورية والتقدميون حججاً أكثر تعقيداً بالنسبة إلى ضرورة التدخل الإنساني؛ فهم يشعرون بالغضب من التكتيكات التي يستخدمها نظام الأسد، ولديهم المبررات الكافية للشعور بهذا الغضب. فقد عمد الجيش السوري وبتأييد روسي كامل إلى محاصرة المناطق

التي يسيطر عليها الثوار، مانعاً دخول الغذاء والدواء إليها، كما منعت الخدمات الأساسية مثل المياه والكهرباء عن تلك المناطق. وبينما كان هدف هذه التكتيكات عزل الثوار، تُرِك المدنيون ليموتوا من الجوع والأمراض التي فتكت بهم. دعا بعض الميالين إلى اليسار إلى تدخل عسكري إنساني. وكتب داني بوستل ونادر هاشمي - وهما باحثان في مركز دراسات الشرق الأوسط في دنفر - مقالة في جريدة "نيويورك تايمز" قالا فيها إنه إذا لم يرفع نظام الأسد الحصار "فيجب إدخال قوة دولية خارجية لضمان المرور الآمن للغذاء والدواء إلى المدنيين السوريين الذين يعانون من المجاعة... يجب كسر هذا الحصار بأي وسيلة ممكنة" [440] .

ذكر بوستل وهاشمي أحد مبادئ الأمم المتحدة؛ وهو "مسؤولية الحماية" (Responsibility to Protect (R2P)) والتي عرّفاها بقولهما: "إنها المبدأ القائل إنه إذا فشلت الدولة في حماية الجماهير من الجرائم الجماعية - أو إذا كانت هي التي ترتكب هذه الجرائم - فعلى المجتمع الدولي التدخل لحماية الضحايا باستخدام جماعي للقوة بحسب تفويض من مجلس الأمن الدولي". واستدرك الكاتبان أنه من المرجح أن تستخدم روسيا حق الفيتو لمنع هذا التفويض في مجلس الأمن، ولذلك "إذا لم يكن بالإمكان استجماع قوة دولية فعلى الأقل يجب أن تتقدم بعض الدول وتنظم الثوار السوريين الذين لديهم توجهات ديموقراطية ليشكلوا القوة اللازمة على الأرض، مع تغطية جوية من البلدان المشاركة". وأوضح بوستل في مقال آخر أنه يعارض التدخل الأمريكي، قائلاً إن البلدان التي يمكنها المشاركة تشمل فرنسا وأستراليا والأردن ولوكسمبورغ. ثم أضاف أنه من دون تدخل دولي، سوف يلقى مئات آلاف السوريين حتفهم نتيجة الجوع [441] .

أحمل الكثير من الاحترام لبوستل وهاشمي اللذين فعلا الكثير لدعم الشعب السوري، وقبل ذلك لدعم المظاهرات الشعبية في إيران عام 2009، ولكنني على خلاف عميق مع مفهوم التدخل الإنساني من أساسه. وفي مقدمة هذا الكتاب، ناقش نعوم تشومسكي أصول مبدأ "مسؤولية الحماية". وهنا يجب أن نتساءل: أي البلاد لديها القوة العسكرية والإرادة السياسية بما يكفي لتشكل رأس الحربة في الهجوم على سوريا؟ بإمكاننا استبعاد لوكسمبورغ والأردن، كما أن أستراليا بعيدة جداً. هذا لا يدع أمامنا أي قوة فعالة إلا فرنسا، مع مساهمات رمزية من الدول الأخرى. لقد أرسلت فرنسا قوات عسكرية لتحارب في مستعمراتها السابقة في أفريقيا الوسطى من قبل، وقد ترغب في قيادة هجوم على سوريا على أساس أنها هي

أيضاً مستعمرة فرنسية سابقة.

أولاً، سيكون على فرنسا أن تشل سلاح الجو السوري؛ وذلك بقصف مدرجات الطيران والطائرات الحربية، ثم سيتوجب عليها أن تنـزل قوات مظلية إلى المدن المحاصرة لتسهيل وصول المساعدات - التي نفترض هنا أن الأمم المتحدة أو منظمات دولية أخرى قد أرسلتها - وبعد ذلك، عليها أن تصد هجمات الجيش النظامي السوري في بعض المناطق، وهجمات الثوار الإسلاميين المتطرفين في مناطق أخرى. وحتى لو افترضنا أن هذا ممكن الحدوث مع وقوع أقلّ عدد من الضحايا المدنيين، فهي عملية عسكرية في غاية الصعوبة. وإذا سقط عدد كبير من القتلى في صفوف القوات الفرنسية، أو إذا خسرت مقداراً كبيراً من المعدات فإن هذا سيعني الهزيمة. وبالنسبة إلى فرنسا، التدخل مع الهزيمة أسوأ بكثير من عدم التدخل أصلاً، ولذلك سيجد الجيش الفرنسي نفسه منذ البداية مجبراً على حشد قوات كبيرة. وقد رأينا من قبل أن البنتاغون قدر عدد الجنود الذين تحتاج إليهم هذه العملية بسبعين ألف جندي!

ولنفترض أيضاً أن أعجوبة حصلت، وتحقق كل ما ذكرناه من قبل بدون الكثير من أعمال العنف، فهل ستنسحب القوات الفرنسية؟ إذا انسحبت فسيتابع النظام السوري هجومه على المدنيين، وبقسوة ثأرية أشد من السابق؛ ولذلك ستجد القوات الفرنسية نفسها مضطرة إلى البقاء لمنع حدوث المزيد من الفظائع في حق المدنيين. وهنا ستجد فرنسا نفسها في حالة عسكرية كلاسيكية لمهمة تتجاوز أهدافها الأصلية، حيث سيكون أمامها واحد من خيارين صعبين: إما أن تبقي قواتها في سوريا إلى أجل غير مسمى، أو تسقط الأسد وتضع ثواراً موالين لفرنسا مكانه في السلطة. لا يوجد "تدخل إنساني" لا يؤدي في نهايته إلى "استبدال نظام حكم بآخر".

السيناريو الذي أصفه هنا لسوريا ليس محض تكهنات؛ فقد حصل بالفعل في ليبيا. إذ وجد المدنيون في بنغازي أنفسهم أمام هجوم شرس لقوات معمر القذافي، هذا رغم أنه كانت هناك مبالغة مقصودة في حجم المجازر متوقعة الحدوث نتيجة هذا الهجوم؛ فأصدر مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة قراراً يسمح بتدخل محدود لحماية أهالي بنغازي [442] . لكن الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا انتهكت نص القرار، وشنت حرباً استمرت سبعة أشهر، وعملت كقوة جوية للثوار الليبيين؛ إلى أن قتل الثوار القذافي في آخر الأمر. وبعد ذلك، وصل رئيس وزراء تدعمه القوى الغربية إلى السلطة، ولكنه لم يكن كفؤاً، فاستولت الميليشيات المتحاربة على البلد [443]

.

البروفيسور ستيفن زونس هو أستاذ العلوم السياسية والعلاقات الدولية في جامعة سان فرانسيسكو، ومنسق برنامج دراسات الشرق الأوسط فيها. عارض زونس بقوة التدخل الإنساني في ليبيا وسوريا، وأبدى ملاحظته في ما يتعلق بالتدخل الإنساني في ليبيا، وقال إنه أدى إلى نتائج عكسية؛ لأنه أعطى القوة "لجماعات منحازة فكرياً إلى تنظيم القاعدة؛ مثل تلك التي قتلت مسؤولي حكومة الولايات المتحدة؛ بمن في ذلك السفير الأمريكي" في آب 2012. أشار زونس إلى سوريا مضيفاً: "حتى إن تدخلاً خارجياً مباشراً وواسع النطاق لن يؤدي إلى انهيار النظام بسرعة" [444] .

لقد عرفتم انتقاداتي لمختلف المجموعات اليمينية واليسارية، وقد تتساءلون: برأيي، ما الذي يجب على الولايات المتحدة أن تفعله؟

أنا أعارض كل تدخل أجنبي في سوريا؛ سواء أكان من الولايات المتحدة أو روسيا أو إيران أو تركيا أو أي بلد آخر. وعلى الولايات المتحدة على وجه الخصوص أن توقف كل دعمها العسكري للثوار، وأن تنضمّ إلى دول أخرى في تقديم المساعدات الإنسانية للشعب السوري داخل سوريا وخارجها. ويجب أن يتم ذلك بشكل سلمي من دون استخدام قوة السلاح. ويمكن لكل من الولايات المتحدة وروسيا أن تلعبا دوراً إيجابياً في التوصل إلى حل دبلوماسي ربما؛ وذلك عن طريق الأمم المتحدة. ولكن حتى اللحظة، لم تثبت أي من الدولتين وجود مصداقية لديها للقيام بدور الوسيط العادل، وقد يجعل الصراع في أوكرانيا إمكانية التوصل إلى اتفاق دبلوماسي في سوريا أصعب وأصعب. ولكن في نهاية الأمر، لا مناص من التوصل إلى تسوية سياسية لإنهاء الحرب الأهلية.

أؤيد أيضاً برامج يساعد فيها الأمريكيون الشعب السوري بشكل مباشر، وأرى أنه ينبغي للنشاطات التي تجري بين الشعبين أن تشمل دعماً سياسياً للسوريين الذين يريدون إقامة نظام برلماني شامل. نشرت مجموعات مثل "لجنة أمريكا لخدمات الأصدقاء" [445] و"أصدقاء لأجل عالم بلا عنف" [446] أعمال ناشطين سوريين ناضلوا ضد كل من الأسد والثوار المتطرفين. تقدِّم مجموعات أخرى الغذاء والدواء والمساعدات الإنسانية للمدنيين في سوريا، وتمر المساعدات في بعض الأحيان عبر مناطق يسيطر عليها الثوار نتيجة وقف لإطلاق النار في هذه المناطق، وتمر في أحيانٍ أخرى عن طريق دول مجاورة مثل الأردن وتركيا. وتدعو هذه المجموعات إلى وقف مؤقت لإطلاق النار يتيح وصول المساعدات إلى المدنيين المحاصرين.

لكن، لن تصل الأزمة السورية إلى حلول حقيقية من دون تعاون روسي. ودور روسيا هو ما سنستكشفه الآن.

لامت إدارة أوباما روسيا على دعمها نظام الأسد منذ الأشهر الأولى للأزمة؛ مدعية أن أسلحة روسيا وتعنتها في مجلس الأمن هي التي أبقت الأسد في السلطة. وفي أحد تصاريحه النموذجية، عنّف وزير الخارجية الأمريكي جون كيري الروس لاستمرار دعمهم للأسد: "إنهم في الواقع يمكنون الأسد من المزايدة؛ مما يؤدي إلى مشكلة كبيرة" [447] .

لا شك في أن روسيا قد دعمت الأسد، ممّا مكّن النظام من ممارسة قمعه القاسي لشعبه، مع الحفاظ على النفوذ الروسي في المنطقة. فكما هو الحال مع الولايات المتحدة، لدى روسيا ما ترى أنه جزء من مصالحها القومية التي تخشى عليها. فلقد تحالف الاتحاد السوفييتي السابق مع سوريا في ستينيات القرن الماضي بسبب معاداتهما إسرائيل والسياسات الأمريكية في الشرق الأوسط. وكان هناك نوع من التقارب الأيديولوجي بين البعثيين السوريين؛ بأفكارهم القومية والمعادية للإمبريالية من ناحية، والقيادة الماركسية اللينينية في الاتحاد السوفييتي من ناحية أخرى. وقّعت الدولتان معاهدة عسكرية عام 1971 أسس الاتحاد السوفييتي بمقتضاها قاعدة عسكرية بحرية له في مدينة طرطوس. لم تتألف هذه القاعدة من أكثر من رصيف وبعض المرافق لإصلاح السفن، إلا أنها شكّلت القاعدة البحرية الوحيدة للاتحاد السوفييتي على البحر المتوسط.

تنامت الروابط العسكرية والاقتصادية عبر الزمن، وزوّد الاتحاد السوفييتي سوريا بالسلاح أثناء حربها مع إسرائيل عام 1973، كما دعمت القيادة السوفييتية القضية العربية، وانتقدت إسرائيل بشكل دوري في مجلس الأمن الدولي التابع للأمم المتحدة. انفصل حافظ الأسد عن محور موسكو لفترة قصيرة عام 1990، في الوقت الذي كان انهيار الاتحاد السوفييتي فيه قد أصبح محتماً؛ فانضم إلى التحالف الدولي الذي قادته الولايات المتحدة في حرب الخليج. كان الأسد يأمل أن يؤدي هذا التحالف الجديد مع الولايات المتحدة إلى عودة الجولان وحل القضية الفلسطينية، ولكن هذا لم يحصل قطّ، فوطدت سوريا تحالفها مع إيران، وأعادت بناء روابطها الحسنة مع روسيا.

ومع حلول السنين الأولى من القرن الحادي والعشرين، وافقت روسيا على إعفاء سوريا من ثلاثة أرباع ديونها خلال الفترة السوفييتية؛ أي ما يعادل حوالى 9.8 بلايين دولار من أصل 13.4 بليون دولار. ومع بداية

الثورة السورية، كانت لدى روسيا ما قيمته 20 بليون دولار من التجارة والاستثمار في سوريا. وقال يفغيني ساتانوفسكي رئيس معهد دراسات الشرق الأوسط في موسكو لمجلة "كريستيان سيانس مونيتور": "إن روسيا الآن بلد متوجه إلى الأعمال، ومن الواضح أن الحكومة الروسية تود حماية الاستثمارات التي وضعها رجال أعمالها في سوريا" [448] .

وقالت جريدة "موسكو تايمز" إن لدى الشركات الروسية استثمارات كبيرة في سوريا في قطاعات مثل البنية التحتية والسياحة والطاقة، كما أن الأسلحة التي تذهب إلى سوريا تشكل حوالى 10 في المئة من مجموع مبيعات الأسلحة الروسية. اشترى النظام السوري طيارات ميغ-29 المقاتلة، وصواريخ أرض-جو من طراز بانتسير، وأنظمة مدفعية، وأسلحة مضادة للدبابات. وقد استخدم الكثير من هذه الأسلحة في الهجوم على الثوار والمدنيين لاحقاً [449] . وقال مدير مركز تحليل تجارة السلاح العالمية في موسكو إيغور كوروتشينكو: "لقد ظلت سوريا حليفاً تقليدياً، ومستورداً للسلاح من روسيا. ولذلك، لدى روسيا نظرة مغايرة تماماً لآمال الغرب في إسقاط النظام الحاكم هناك. ولذلك أيضاً، قررت روسيا أن تضع ثقلها هناك، وذلك عن طريق تقديم الدعم السياسي والعسكري للنظام السوري. يعتقد القادة الروس أن هذه المسألة تتماهى مع المصالح القومية بعيدة المدى لروسيا نفسها" [450] .

وكذلك، كما فعل الأمريكيون، نظر القادة الروس إلى سوريا في سياق جيوسياسي. فبعد الانهيار المريع للاتحاد السوفييتي، وبعد مرور عقد كامل من الاضطرابات خلال تسعينيات القرن الماضي، قاد الرئيس فلاديمير بوتين حملته الرئاسية على أساس وعود بجعل روسيا قوية مجدداً. كانت روسيا تفقد نفوذها باستمرار؛ إذ انضمت بعض بلدان أوروبا الشرقية إلى حلف الناتو، أو أصبحت جزءاً من الاتحاد الأوروبي. وتخوّف القادة الروس على وجه الخصوص من ثورة الزهور في جورجيا، والثورة البرتقالية في أوكرانيا. وبينما ساند الغرب هاتين "الثورتين الملونتين"، معتبراً إياهما نضالاً من أجل الديموقراطية، قال القادة الروس إنهما تلاعبات غربية لزيادة حالة الضعف في روسيا.

اعتقد القادة الروس أن الثورة السورية قامت على الأساس نفسه. وكتب الخبير العسكري ألكساندر غولتس في جريدة "يشدنيفني جورنال" الإلكترونية: "توجد عند بوتين عقدة شك حقيقية من الثورتين الملونتين". إن ثورات كهذه هي "نتيجة مؤامرات غربية. الموقف [في روسيا] هو أننا لن

نخدع مرة أخرى" [451] .

اعتقد القادة الروس أيضاً أنهم تعرضوا للخداع في تصويت مجلس الأمن الدولي المتعلق بليبيا في آذار 2011؛ فقد امتنعت كل من روسيا والصين عن التصويت على هذا القرار المتعلق بإنشاء منطقة حظر جوي لحماية المدنيين في بنغازي. فقد اشترى القذافي ما قيمته البلايين من الأسلحة السوفييتية ثم الروسية، وكانت هناك علاقات مقربة بين البلدين. ولكن سقوط القذافي تسبب في خسائر روسية اقتصادية وسياسية وعسكرية كبيرة. وقد قال لي دبلوماسي روسي: "لقد ارتكبنا خطأً كبيراً أثناء التصويت على ليبيا، ولن نرتكبه مرة أخرى في سوريا" [452] .

في الأيام الأولى من الثورة، تخوف القادة الروس من ألّا يقدر الأسد على البقاء، ولكن مع حلول عام 2013، كانوا قد أرسلوا الكثير من السلاح إلى سوريا، وأعطوا نظام الأسد دعمهم السياسي الكامل. وقامت روسيا باستخدام حق الفيتو، أو هددت باستخدامه لنقض أي قرار في مجلس الأمن الدولي ينتقد سوريا. وقال جورجي ميرسكي الأستاذ والباحث في معهد الاقتصاد العالمي والعلاقات الدولية في موسكو: "نحن نرى أسباباً جدية تدفعنا للاعتقاد بثقة أن نظام الأسد سيبقى. وحتى إن تخلصوا منه في نهاية الأمر، فبإمكانه الصمود لعدد من السنين. لذا، لا تجد موسكو ضرورة ملحة لتغيير سياساتها" [453] .

من ناحية أخرى، ظلت قطر تدعم جماعة الإخوان المسلمين. لا يتجاوز عدد مواطني دولة قطر مئتي ألف نسمة، بالإضافة إلى حوالى مليوني أجنبي يعملون في مختلف القطاعات فيها. قطر بلد صغير يبرز كشبه جزيرة على حدود السعودية الشرقية. لم يلعب قادة البلد أي دور دولي هام حتى الفترة الأخيرة. وقبل ذلك، لم يكن البلد معروفاً إلا بكونه حليفاً ثابتاً للولايات المتحدة، وتحتوي أراضيه على قاعدة عسكرية هامة للجيش الأمريكي، وبكونه ثالث أكبر مصدر للغاز الطبيعي في العالم. ولكن، لعل أكثر ما اشتهرت به قطر هو كونها موطن قناة الجزيرة الإخبارية. دعمت قناة الجزيرة الربيع العربي بوضوح منذ بدايته عام 2011، كما ساندت جماعات الإخوان المسلمين في سوريا ومصر. وتمكن قادة قطر من أن يصبحوا لاعبين مهمين في المنطقة عن طريق مزيج من القدرة على الوصول إلى جماهير عريضة في العالم العربي بواسطة قناة الجزيرة، والثراء الفاحش.

ساندت تركيا جماعة الإخوان المسلمين المرتبطة مع حزب العدالة

والتنمية الحاكم في البلاد لبعض الوقت، فقد كانت للمجموعتين أصول مشتركة في الإسلام السياسي، كما كانت لدى المجموعتين أيديولوجية شعبوية متشابهة. لكن تركيا استاءت في نهاية الأمر من عجز الإخوان عن تحقيق أي نجاح يذكر، ونقلت دعمها إلى ثوار أكثر تشدداً.

وصل الانقسام الإقليمي إلى ذروته أثناء تطور الأحداث في مصر. ففي حزيران 2012، فاز الإخوان المسلمون في الانتخابات الرئاسية، وحازوا على الأغلبية في مجلس الشعب، وأصبح محمد مرسي القيادي في جماعة الإخوان رئيس مصر. وحين أحجم الغرب عن متابعة تمويل الحكومة المصرية، تعهدت قطر بتقديم مساعدات بقيمة 8 مليارات دولار. لكن الإخوان فشلوا في الوصول إلى حلول للمشاكل الاقتصادية الشديدة التي تعاني منها مصر، كما اتبع مرسي بعض السياسات الاستبدادية التي أغضبت عامة الشعب منه، فاندلعت مظاهرات حاشدة في حزيران وتموز من عام 2013 قام الجيش إثرها بعزل مرسي والاستيلاء على السلطة.

شجبت تركيا وقطر هذا التغيير واعتبرتاه انقلاباً عسكرياً. أما السعودية والولايات المتحدة وسوريا فقد أيّدت الجيش المصري لأنه أزاح الإخوان من السلطة. وفي تشرين الثاني 2013، خفّضت تركيا ومصر مستوى التمثيل الدبلوماسي بينهما. وازدادت الانقسامات الإقليمية مع حلول آذار 2014؛ حين سحبت السعودية والبحرين ومصر سفرائها من قطر. لم تزد المكائد والانقسامات بين القوى الأجنبية المختلفة الأزمة السورية إلا تعقيداً.

أثناء تأليفي هذا الكتاب، تنقلت بين واشنطن العاصمة وعشرة بلاد في الشرق الأوسط، وقابلت أثناء هذه الرحلات قياديين وثواراً ومحللين وأناساً عاديين من عامة الشعب. اتفق معظم هؤلاء على الحقائق الأساسية بالنسبة إلى الثورة السورية: وهي أن مظاهرات شعبية تلقائية اندلعت ضد الأسد كجزء من الإطار الأوسع للربيع العربي، وأن هذه المظاهرات قوبلت بقمع قاسٍ، فلجأت قوى المعارضة السورية إلى الثورة المسلحة. ولكن، كلما ازدادت فترة القتال ازداد مقدار تدخل القوى الأجنبية ونوعيته. فقد أرسلت روسيا كميات هائلة من الأسلحة، ووفرت غطاءً دبلوماسياً لأعمال الأسد القمعية. في حين أرسلت إيران أسلحة ومستشارين عسكريين، كما سهلت دخول حزب الله والميليشيات العراقية إلى البلد. أما الولايات المتحدة والسعودية وتركيا والإمارات العربية المتحدة وإسرائيل فكلها دعمت أطيافاً مختلفة من الثوار. فقد درّبت وكالة الاستخبارات المركزية بعض الثوار في بلاد متحالفة معها،

وعزّز تدفق المقاتلين الأجانب إلى سوريا صفوف الجماعات المرتبطة مع القاعدة، والثوار المتطرفين الآخرين؛ مما أدى إلى زيادة الأمور تعقيداً.

وفي الوقت الذي كتبت فيه هذه السطور، كانت الأزمة السورية تراوح مكانها في حالة من الجمود العسكري والسياسي؛ حيث لم يكن أي من الجانبين قوياً بما فيه الكفاية لينتصر على الآخر. كما تبدو القوى الأجنبية مصممة على الاستمرار بالقتال حتى آخر مواطن سوري. وكان المحللون الإسرائيليون أكثر من قابلت سلبية وقسوة - ولكنهم لم يكونوا الوحيدين في هذا المجال - إذ تمنوا أن تمتد الحرب إلى ما لا نهاية؛ حتى تشغل عقول العرب عن إسرائيل.

لكن الحرب السورية ستنتهي، فقد عانى لبنان من حرب أهلية فظيعة بين عامي 1976 و1990، ورغم حمامات الدم التي سالت أثناءها تمكن اللبنانيون من إنهاء تلك الحرب وإعادة بناء بلدهم. ويقدّم اتفاق الطائف الذي انتهت على أساسه الحرب الأهلية اللبنانية نقاطاً قد تنير الطريق أمام تسوية مستقبلية في سوريا. فقد دعا الاتفاق إلى وقف لإطلاق النار، وإلى تجريد كل الميليشيات من السلاح، وانسحاب كل القوات العسكرية الأجنبية من البلد، وإنشاء نظام برلماني يحفظ ويحمي حقوق الأقليات [454] . لم ينفذ هذا الاتفاق بشكل كامل قط، ولا يمكننا اعتبار لبنان نموذجاً صالحاً للاتباع، ولكن مثال لبنان يُظهر أن حرباً أهلية فظيعة يمكنها أن تنتهي في آخر الأمر؛ رغم التدخلات الأجنبية.

قالت لي القيادية الفلسطينية حنان عشراوي إن الفلسطينيين يتضامنون مع الشعب السوري، وهذا منطقي بالنسبة إليّ، فشعب سوريا مع تراثه الطويل في التسامح هو الذي سينتصر في نهاية الأمر.

الملحق الأول
السياسة السورية
والمصطلحات الخاصة بها

الجهات المعارضة للأسد:

حركة أحرار الشام الإسلامية: واحدة من ميليشيات الثوار الكبرى. تأسست عام 2011 على أيدي سجناء سياسيين سابقين متطرفين، وعملت بالدرجة الأولى في محافظة إدلب شمال غرب سوريا قرب الحدود التركية. تسعى هذه الحركة إلى إنشاء دولة إسلامية من دون انتخابات ديموقراطية أو نظام برلماني. وانضمت إلى مجموعات متطرفة أخرى لتشكل الجبهة الإسلامية.

تنظيم القاعدة: منظمة أنشأها أسامة بن لادن. تشظّى هذا التنظيم إلى عدد كبير من الجماعات المحلية من دون سيطرة مركزية. في سوريا، كان تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش) وجبهة النصرة مرتبطين مع تنظيم القاعدة في البداية. ومن السمات المميزة للجماعات المرتبطة مع القاعدة استعدادها للقيام بعمليات انتحارية ضد المدنيين، وقلة التسامح مع الأديان الأخرى، وقتل الثوار الذين يختلفون معها.

الجيش السوري الحر: تشكل في تموز 2011 من منشقين عن الجيش النظامي السوري. دعا إلى نظام برلماني يحفظ حقوق الأقليات، وتلقى الجيش الحر المال والمساعدات والأسلحة من الولايات المتحدة والسعودية وتركيا وقطر، ولكن مع آخر عام 2013 كان الجيش الحر يفقد أرضيته لصالح الثوار المتطرفين.

الجبهة الإسلامية: تشكلت في أيلول 2013 كائتلاف من مجموعات ثورية محافظة ومتطرفة تحت قيادة أحرار الشام. استثنت الجبهة الإسلامية الجماعات المرتبطة مع تنظيم القاعدة، وأصبحت السعودية الداعم الأكبر لها. رفض ميثاق الجبهة الإسلامية السورية النظام البرلماني التمثيلي قائلاً إن الحكم يجب أن يكون "بشرع الله الذي ارتضاه". ومع حلول أول عام 2014، برزت الجبهة كواحد من أقوى تحالفات الثوار.

الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش): أو تنظيم الدولة أو تنظيم الدولة الإسلامية؛ كما يسمى في بعض الأحيان. تشكّل هذا التنظيم أساساً تحت اسم "دولة العراق الإسلامية" - المعروف أيضاً باسم "تنظيم

القاعدة في بلاد الرافدين" - أثناء النـزاع الطائفي في العراق خلال عامي 2007-2008. بدأ التنظيم عمله تحت قيادة أبـي بكر البغدادي، وقام بإرسال مقاتليه إلى سوريا. وأعلن التنظيم عن وجوده في سوريا في نهاية الأمر، وغيّر اسمه إلى "داعش". في بداية عام 2014، تبرأت القاعدة من داعش نتيجة فئويته المتطرفة وهجماته على الجماعات الثورية الأخرى. وفي حزيران 2014، غيّر التنظيم اسمه إلى "الدولة الإسلامية"؛ معلناً عن قيام ما أسماه "خلافة إسلامية" في شمال سوريا وشمال العراق.

جبهة النصرة لأهل الشام: مجموعة مرتبطة مع تنظيم القاعدة، مع أنها تعمل بشكل مستقل. يقود أبو محمد الجولاني جبهة النصرة، وهو جهادي حارب كلاً من الولايات المتحدة وحكومة نوري المالكي في العراق. لا تدعم النصرة نظاماً برلمانياً، بل تدعو إلى نظام ديني يطبق تفسيراً متشدداً للشريعة الإسلامية. في كانون الأول 2012، صنفت الولايات المتحدة جبهة النصرة ضمن لائحة المنظمات الإرهابية؛ بسبب ارتباطاتها مع تنظيم القاعدة.

جيش الإسلام: تشكل في أيلول 2013 نتيجة اتحاد عشرات الميليشيات الأصغر حجماً، ومعظم عملياته في محيط مدينة دمشق. يقود زهران علوش جيش الإسلام، وقد شاركت هذه المجموعة مع جبهة النصرة في ارتكاب مجزرة راح ضحيتها عشرات المدنيين خارج مدينة دمشق في كانون الأول 2013.

الجهاديون: مصطلح مستحدث يشير إلى الثوار المتطرفين الذين يحاربون من أجل إقامة دولة إسلامية على أساس تفسير متشدد للشريعة الإسلامية، تحت قيادتهم هم، ومن دون الرجوع إلى انتخابات ديموقراطية أو نظام برلماني.

لجان التنسيق المحلية: مجموعات من الناشطين من المجتمع المدني والجماعات الدينية الذين توحدوا أثناء تنسيق المظاهرات الاحتجاجية في الأيام الأولى للثورة. كان لدى هذه اللجان تأييد شعبـي واسع، واستمر الكثير من أعضائها في تقديم الأعمال الإنسانية في بعض المناطق التي يسيطر عليها الثوار.

الإخوان المسلمون: منظمة سياسية تدعو إلى دولة إسلامية قائمة على الانتخابات الديموقراطية والنظام البرلماني. الإخوان المسلمون محافظون على المستوى الاجتماعي، ويدعمون الرأسمالية، ويقولون إنهم سيحترمون حقوق الأقليات. خلال عام 2012، شكل الإخوان ميليشيا سموها "الدرع" لديها روابط مقربة مع الإخوان المسلمين في مصر وحماس في غزة.

الائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة السورية: تشكل في تشرين الثاني 2012 كبديل عن المجلس الوطني السوري، وكان من المفترض أن يمثل ائتلافاً أوسع يشمل الأقليات الدينية والأكراد في سوريا - تم تزويد هذا الائتلاف بالمساعدات الأمريكية غير الفتاكة، ولكنه فشل في حشد تأييد واسع له داخل سوريا حتى منتصف عام 2014.

مجلس القيادة العسكرية العليا : تألف في كانون الأول 2012 كجهد لتوسيع قاعدة الجيش السوري الحر. تلقى هذا المجلس السلاح من الولايات المتحدة وحلفائها، ولكنه عجز عن اجتذاب الكثير من التأييد الشعبـي حتى منتصف عام 2014.

المجلس الوطني السوري: ائتلاف مدني معارض دعمته الولايات المتحدة وحلفاؤها. كان من المفترض لهذا المجلس أن يمثّل كامل المعارضة، ويتحول إلى القيادة المدنية للجيش السوري الحر، ولكنه عجز عن حشد أي قاعدة شعبية له في سوريا؛ فتمّ حله في تشرين الثاني 2012، واستبداله بالائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة السورية.

الجهات المؤيدة للأسد:

المخابرات: الشرطة السرية التابعة للحكومة السورية، والمسؤولة عن اعتقال المعارضين وتعذيبهم وقتلهم.

قوات الدفاع الوطنية: تشكلت في أواخر عام 2012، وهي مجموعة ميليشيات يتلقى أعضاؤها معاشات وبزات عسكرية وأسلحة من الحكومة. حين ينتصر الجيش السوري على الثوار في منطقة ما، يفترض بقوات الدفاع الوطني أن تحكم السيطرة عليها. ولكنها اتهمت بخطف المدنيين لقاء فدية، وبنشاطات إجرامية أخرى. ومع أواخر عام 2013، قدّر عدد المنتسبين إليها بمئة ألف شخص.

اللجان الشعبية: إنها محاولة لتنظيم "الشبيحة" وتحويلهم إلى ميليشيات موالية للأسد. تم إدراجها في قوات الدفاع الوطنية في أواخر عام 2012.

الشبيحة: كان الشبيحة الأوائل مهربين في غرب سوريا، ويعملون بالتعاون مع بعض المسؤولين الفاسدين في الحكومة. وحين بدأت الثورة، عمل الشبيحة مع القوى الأمنية وهاجموا المظاهرات السلمية، وأصبح مصطلح "الشبيحة" هو اللقب الذي يطلقه المعارضون على الموالين للنظام.

الأكراد:

الحزب الديموقراطي الكردي: وهو أكبر حزب في حكومة إقليم كردستان العراق، ويقوده مسعود برزاني. درب هذا الحزب مقاتلين أكراداً سوريين،

ولكن حتى منتصف عام 2014 لم يتم نشر هؤلاء المقاتلين.

المجلس الوطني الكردي: ائتلاف من المجموعات الكردية الرئيسة في سوريا مثل الحزب الديموقراطي الكردي، ولكنه لا يشمل حزب الاتحاد الديموقراطي.

حزب العمال الكردستاني: أسسه الثوري التركي عبد الله أوجلان مع مجموعة من الطلبة المتطرفين عام 1978 في الإقليم الكردي شرق تركيا. طالب حزب العمال الكردستاني بدولة كردستان مستقلة واشتراكية، ولكنه عاد ليطالب بالإدارة الذاتية داخل تركيا الرأسمالية.

حزب الاتحاد الديموقراطي: تشكّل حزب الاتحاد الديموقراطي عام 2003 كفرع سوري لحزب العمال الكردستاني، تحت قيادة صالح مسلم. ويقول حزب الاتحاد الديموقراطي إنه فرع مستقل، وليست لديه إلا ارتباطات أيديولوجية مع حزب العمال الكردستاني. بينما يقول منتقدو الحزب إنه وحزب العمال الكردستاني تحت سيطرة قيادة واحدة. برز حزب الاتحاد الديموقراطي كأقوى مجموعة بين الثوار الأكراد، وأحكم سيطرته على مناطق واسعة شمال سوريا مع بداية عام 2014.

المنظمات الخارجية

حركة فتح: هي الحزب القومي الفلسطيني الذي يسيطر على الضفة الغربية. أسس المرحوم ياسر عرفات هذه الحركة، وظلت على المستوى الرسمي حيادية في ما يتعلق بالحرب الأهلية السورية.

حركة حماس: فرع فلسطيني من جماعة الإخوان المسلمين في مصر، وتسيطر الآن على قطاع غزة. تحالفت مع الأسد في وقت ما، ولكنها أصبحت إلى جانب الثوار بعد بدء الثورة؛ حيث حولت مقرّها الأساسي إلى الدوحة، قطر.

حزب الله: ميليشيا وحزب سياسي مسلم شيعي في لبنان. لحزب الله علاقة وطيدة مع إيران، ويدعم نظام الأسد؛ حيث يحارب ما بين 6000-8000 من عناصره العسكريين في سوريا.

منظمة التحرير الفلسطينية: ائتلاف من كل المجموعات الفلسطينية باستثناء حماس. وفي الواقع، تقودها حركة فتح.

المجموعات والمصطلحات الدينية

العلويون: طائفة من الأقليات تفرعت عن الإسلام الشيعي في القرن الثامن الميلادي، وهم يؤلفون حوالى 10-12 في المئة من تعداد سوريا البالغ 23 مليون نسمة. تنتمي عائلة الأسد إلى الطائفة العلوية، وقد وضعت

أفراداً من الطائفة في المواقع العسكرية والاقتصادية الحساسة، ويحظى الأسد بدعم واسع من هذه الطائفة.

المسيحيون: يعود تاريخ المسيحيين في البلد إلى الوقت الذي كان فيه القديس بولس يعظ في دمشق خلال فترة حكم الإمبراطورية الرومانية. يوجد في سوريا مسيحيون كاثوليك وأرثوذكس، ويشكلون حوالى 10 في المئة من السكان، ويؤيد الكثيرون منهم نظام الأسد.

الدروز: مجموعة إثنية ودينية مستقلة تعيش في سوريا ولبنان، ويمارس أفرادها شكلاً خاصاً بهم من الإسلام. يرجع تاريخ تشكيل طائفتهم إلى القرن العاشر الميلادي، ويؤيد الكثيرون منهم نظام الأسد.

سلفي: تيار ديني سني برز في القرن التاسع عشر كردة فعل على الفلسفات الغربية. يمارس متبعو هذا المنهج تفسيراً متشدداً للإسلام، ولكنهم لا يخوضون بالضرورة في السياسة. غير أن بعض السلفيين انضموا إلى جماعات سياسية متطرفة.

الشيعة: مجموعة ترجع جذورها إلى القرن الأول من الدين الإسلامي. يتبع معظم شيعة سوريا المذهب "الاثنا عشري" الذي يتبعه شيعة إيران، وتوجد العديد من مزارات الشيعة في سوريا. ويؤيد غالبية الشيعة نظام الأسد.

الصوفية: منهاج روحي في الدين الإسلامي يعتمد على التعبد عن طريق الذكر والتأمل، وفي بعض الأحيان مع استخدام الإنشاد والموسيقى. تنظر الكثير من المجموعات المتطرفة إلى الصوفيين على أنهم ليسوا مسلمين حقيقيين، وقد هوجمت تجمعاتهم في مصر وأماكن أخرى.

السنة: كبرى الطوائف الإسلامية على الإطلاق. ويشكّل السنة حوالى 74 في المئة من سكان سوريا. وحين أطلق نظام الأسد صفة "التكفيريين" على سائر المسلمين، قال منتقدو الحكومة إن هذا أدى إلى تمييز ضد كل السنة. يوجد أقوى دعم للثوار بين الغالبية السنية في البلاد.

الملحق الثاني

الجدول الزمني في سوريا:

أهم التواريخ منذ الحرب العالمية الأولى

الحرب العالمية الأولى: 1914-1918

تموز 1914: بداية الحرب العالمية الأولى، حيث تحالفت بريطانيا وفرنسا وروسيا والولايات المتحدة ضد ألمانيا والإمبراطورية النمساوية الهنغارية والإمبراطورية العثمانية. وقد وعدت بريطانيا وفرنسا العرب بالاستقلال إذا ثاروا ضد الأتراك العثمانيين.

أيار 1916: وقّعت الحكومتان البريطانية والفرنسية اتفاقية سرية تقسم الشرق الأوسط الذي تسيطر عليه الإمبراطورية العثمانية إلى انتدابين بريطاني وفرنسي؛ مما شكل انتهاكاً فاضحاً لوعود الدولتين باستقلال العرب.

تشرين الثاني 1917: أصدرت الحكومة البريطانية وعد بلفور الذي وعد اليهود بوطن قومي لهم في فلسطين.

تشرين الأول 1918: أحكم الثوار العرب سيطرتهم على دمشق بدعم من القوات البريطانية. وانتخب العرب المؤتمر السوري الذي حكم سوريا قرابة عامين.

تشرين الثاني 1918: نهاية الحرب العالمية الأولى.

الانتداب الفرنسي: 1920-1946

تموز 1920: احتل الجيش الفرنسي دمشق بالتعاون مع البريطانيين. وبعد هزيمة الحكومة العربية المستقلة، مدت فرنسا سيطرتها إلى الأراضي التي تشكل لبنان وسوريا وإقليم هتاي (لواء الإسكندرون) في جنوب تركيا اليوم.

1920-1921: بدأت فرنسا باعتماد استراتيجية "فرق تسد" عبر إنشاء مناطق منفصلة للمسيحيين والعلويين والدروز.

آب 1925: اندلاع ثورة قومية سورية ضد الاحتلال الفرنسي استمرت لمدة عامين. سحقت فرنسا الثورة عن طريق استخدامها أحدث الأسلحة المتاحة لها؛ بما في ذلك قيامها بأولى الغارات الجوية المسجلة ضد المدنيين في التاريخ.

أيلول 1939: بداية الحرب العالمية الثانية.

حزيران 1940: احتلت ألمانيا فرنسا خلال الحرب العالمية الثانية،

وأنشأت حكومة فيشي التي سيطرت أيضاً على إمبراطورية فرنسا الاستعمارية.

تموز 1941: أحكمت قوات "فرنسا الحرة" والجيش البريطاني سيطرتهماعلى لبنان وفرنسا، ووعدت فرنسا الحرة العرب بالاستقلال، ولكن القائد الفرنسي الجنرال شارل ديغول تراجع عن ذلك بسرعة.

آب 1943: فازت الأحزاب القومية بالانتخابات النيابية في سوريا التي أجريت تحت حكم "فرنسا الحرة". انتخب السوريون شكري القوتلي المناهض للاحتلال الفرنسي رئيساً لهم.

كانون الثاني 1944: الإعلان عن سوريا جمهورية مستقلة، ولكن فرنسا ظلت القوة الاستعمارية المسيطرة مدعومةً بالقوات العسكرية الفرنسية.

أيار 1945: اندلاع مظاهرات حاشدة ضد فرنسا في دمشق، وشنّ الجيش الفرنسي هجمات جوية ومدفعية وحشية على المدينة؛ مما أدى إلى مقتل 400 مدني. لكن الحركة الوطنية أجبرت فرنسا على الاعتراف باستقلال سوريا.

أيار 1945: نهاية الحرب العالمية الثانية.

الاستقلال والسنوات الأولى للجمهورية: 1946-1966

نيسان 1946: انسحاب كامل القوات الفرنسية من سوريا؛ حظي البلد بالاستقلال الكامل.

نيسان 1947: أنشأ ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار حزب البعث العربي الاشتراكي؛ وهو حزب قومي يساري انتقد الإمبريالية والنخبة الحاكمة في سوريا.

أيار 1948: أعلنت إسرائيل الاستقلال عن بريطانيا، وهزمت القوات المسلحة العربية بما في ذلك الجيش السوري. اعتبر الإسرائيليون الحرب نصراً مؤزراً للشعب اليهودي، بينما سماه العرب النكبة. آذار 1949: أسهمت هزيمة سوريا على أيدي إسرائيل في حدوث انقلاب عسكري على الرئيس شكري القوتلي. حصلت ثلاثة انقلابات عسكرية خلال سنة واحدة.

آب 1955: إعادة انتخاب شكري القوتلي رئيساً للجمهورية.

تشرين الأول 1956: هاجمت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل مصر بعد أن أعلن الرئيس المصري جمال عبد الناصر تأميم قناة السويس. وقفت سوريا إلى جانب مصر.

شباط 1958: وضعت سوريا ومصر سياساتهما العروبية حيز التنفيذ؛ إذ توحد البلدان ليشكلا الجمهورية العربية المتحدة. وحلّ عبد الناصر الأحزاب السياسية السورية، مما أغضب البعثيين وغيرهم.

أيلول 1961: أخذت مجموعة من ضباط الجيش السوري الغاضبين من هيمنة عبد الناصر على السلطة بزمام السلطة، وانسحبوا من الجمهورية العربية المتحدة.

آذار 1963: وصل حزب البعث إلى السلطة بعد انقلاب عسكري، وعين أمين الحافظ رئيساً.

وصول الأسد إلى السلطة: 1966-2011

شباط 1966: أطاح الجناح العسكري من حزب البعث بسلطة القيادة المدنية، واعتقل القيادة اليسارية، وعيّن حافظ الأسد وزيراً للدفاع.

حزيران 1967: وضعت "حرب حزيران" أو "حرب الأيام الستة" إسرائيل في مواجهة عسكرية مع سوريا ومصر والأردن. احتلت إسرائيل القدس الشرقية والضفة الغربية لنهر الأردن من الأردن، وقطاع غزة وصحراء سيناء من مصر، والجولان من سوريا.

تشرين الثاني 1967: أصدر مجلس الأمن الدولي التابع للأمم المتحدة بالإجماع القرار 242 الذي دعا إلى إعادة كامل الأراضي العربية المحتلة في الحرب الأخيرة؛ بما في ذلك هضبة الجولان مقابل السلام بين إسرائيل والبلاد العربية.

تشرين الثاني 1970: وصل حافظ الأسد إلى السلطة في سوريا بعد انقلاب عسكري.

آذار 1971: أجرى حافظ الأسد استفتاء أصبح على أثره رئيساً للبلاد.

تشرين الأول 1973: بداية "حرب أكتوبر" بين مصر وسوريا من ناحية، وإسرائيل من ناحية أخرى. استرجعت سوريا جزءاً صغيراً من الجولان، ولكن ظلت معظم أراضيها بأيدي الإسرائيليين.

حزيران 1976: أجازت جامعة الدول العربية لسوريا إدخال قواتها إلى لبنان لإنهاء الحرب الأهلية الدائرة فيها. في البداية، وقفت سوريا إلى جانب القادة الموارنة المسيحيين.

آذار 1978: غزت إسرائيل لبنان، ومدت سيطرتها على جنوب لبنان وصولاً إلى نهر الليطاني في محاولة لإضعاف سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية.

حزيران 1979: هاجم متطرفون إسلاميون مدرسة المدفعية في حلب، مما أدى إلى مقتل 83 طالباً عسكرياً من الطائفة العلوية، وجرح العشرات.

حزيران 1980: نجا الأسد من محاولة اغتيال على يد عضو في جماعة الإخوان المسلمين حاول قتله بقنبلة يدوية. في اليوم التالي، قتلت القوات

السورية 600 من أعضاء الإخوان المسلمين والمعتقلين السياسيين الآخرين في سجن تدمر.

أيلول 1980: بداية الحرب العراقية-الإيرانية. وقفت سوريا إلى جانب إيران بسبب خلافاتها مع العراق برئاسة صدام حسين؛ والتي استمرت سنين طويلة.

كانون الأول 1981: ضمّت إسرائيل الجولان إليها، وذلك عن طريق نقل السلطة من الإدارة العسكرية إلى الإدارة المدنية.

شباط 1982: دعت جماعة الإخوان المسلمين في مدينة حماة إلى إضراب عام وثورة ضد الأسد. سحقت القوات العسكرية السورية الثورة؛ مما أدى إلى مقتل أكثر من عشرة آلاف شخص.

حزيران 1982: غزت إسرائيل لبنان مرة ثانية، وتكبد الجيش السوري خسائر كبيرة، ممّا اضطره إلى التراجع عن بعض الأماكن. في أيلول، وتحت إشراف إسرائيلي، قام لبنانيون مسيحيون يمينيون بارتكاب مجزرة في حق الفلسطينيين في مخيّمي صبرا وشاتيلا للاجئينأيار 1983: دعمت سوريا وليبيا أبو موسى المنشق عن منظمة التحرير الفلسطينية؛ في محاولة لتقسيم المنظمة، وإزاحة ياسر عرفات عن قيادتها. كما أنهت إسرائيل ولبنان القتال رسمياً، ولكن القوات الإسرائيلية والسورية بقيت في لبنان.

آب 1990: غزت العراق الكويت، وانضمت سوريا إلى تحالف حرب الخليج مرسلة 14,500 جندي للمشاركة في عملية عاصفة الصحراء ضد العراق.

تشرين الأول 1991: بداية محادثات السلام بين الإسرائيليين والفلسطينيين في مدريد مع مشاركة سورية. ناقشت سوريا وإسرائيل مسألة عودة الجولان.

كانون الثاني 1994: مقتل باسل الأسد - ابن حافظ الذي كان يهيئه لاستلام السلطة من بعده - في حادث سيارة. عودة بشار الأسد من دراسته في لندن ليحل محل باسل.

حزيران 2000: موت حافظ الأسد نتيجة أسباب طبيعية، وأصبح بشار الأسد رئيساً من بعده.

تشرين الثاني 2000: أطلق بشار الأسد سراح 600 معتقل سياسي؛ مما رفع الآمال بتسامح سياسي أكبر.

أيلول 2001: اعتقلت الحكومة أعضاء معارضين في مجلس الشعب وناشطين سياسيين آخرين؛ مشيرة إلى عودة الإجراءات القمعية.

آذار 2003: غزت الولايات المتحدة العراق واحتلته، ولكنها لم تجد أسلحة دمار شامل فيه؛ تلك الأسلحة التي كان وجودها المبرر الرئيس للحرب. وعارضت سوريا الحرب.

آذار 2004: ثار الأكراد في مدينة القامشلي الشمالية على الحكومة السورية، فقتلت القوى الأمنية العشرات، وأجبرت المئات على الهرب إلى كردستان العراق المجاورة.

أيار 2004: فرضت الولايات المتحدة عقوبات على سوريا بحجة أن نظام الأسد يدعم الإرهابيين والمتمردين في العراق.

شباط 2005: اغتيال رئيس الوزراء اللبناني السابق رفيق الحريري بتفجير في بيروت. اعتقد الكثيرون أن سوريا كانت مسؤولة عن الحادث؛ مما أدى إلى مظاهرات حاشدة في لبنان طالبت بانسحاب القوات السورية.

نيسان 2005: سحبت سوريا قواتها من لبنان، لكن بعض عناصر الاستخبارات بقيت في البلد.

أيلول 2006: مهاجمة متطرفين إسلاميين سفارة الولايات المتحدة في دمشق.

أيلول 2007: قصف طائرات إسرائيلية شمال سوريا، وادعاء إسرائيل أن سوريا تبني منشأة للأسلحة النووية هناك، بينما قالت سوريا إنها قاعدة عسكرية تقليدية.

تشرين أول 2008: هاجمت الطوافات الأمريكية موقع بناء بجانب السكرية في سوريا مدعية أنها قتلت إرهابياً عراقياً كبيراً. قتل الهجوم ستة عمال في المبنى.

أيار 2010: شددت الولايات المتحدة العقوبات الاقتصادية على سوريا بحجة أن الأسد يدعم الإرهاب في العراق ولبنان.

كانون الأول 2010: أشعل البائع المتجول محمد البوعزيزي النار في نفسه في تونس، مما أدى إلى مظاهرات ضخمة امتدت إلى عدة بلاد عربية في ما عرف بالربيع العربي.

كانون الثاني 2011: أدت المظاهرات الشعبية في تونس إلى الإطاحة بالديكتاتور زين العابدين بن علي.

كانون الأول 2011: أطاحت المظاهرات الحاشدة والإضرابات العامة بالحكومة المصرية التي يرأسها حسني مبارك، ولكن الجيش ظل محتفظاً بالسلطة.

شباط 2011: السماح قانونياً باستخدام موقعي فايسبوك ويوتيوب في

سوريا.

آذار 2011: اعتقال عدد من الأطفال الذين لم يبلغوا سن المراهقة بعد وتعذيبهم لكتابتهم شعارات ضد النظام على حائط المدرسة. واندلاع مظاهرات احتجاج على قسوة النظام في مدينة درعا جنوب البلد، وبعدها في دمشق. إعلان الأسد عن بعض التنازلات السياسية؛ مثل إطلاق سراح بعض المعتقلين السياسيين ورفع حالة الطوارئ عن البلد وإعطاء الأكراد الجنسية. أكّد الأسد أن الاحتجاجات مدعومة من إسرائيل والولايات المتحدة والسعودية.

نيسان 2011: تظاهر طلاب أكراد في مدينة القامشلي الشمالية. عارض الأكراد الأسد، لكنهم أبدوا شكوكهم في ما يتعلق بالمعارضة التي يقودها محافظون إسلاميون.

أيار 2011: مواجهة مظاهرات سلمية عموماً بالدبابات والذخيرة الحية في المدن الرئيسة؛ بما في ذلك ضواحي دمشق. ووافق الأسد على إعطاء المزيد من المعتقلين السياسيين عفواً عاماً.

حزيران 2011: حشد الحكومة عشرات آلاف المؤيدين الذين نشروا علماً سورياً عملاقاً. احتفظ الأسد بدعم الأقليات الدينية، وبعض السنة، والنخبة الاقتصادية، والجيش.

تموز 2011: التقاء بعض قياديي المعارضة في إسطنبول لتشكيل المجلس الوطني السوري؛ وهو مجموعة أملت في توحيد قوى المعارضة في الداخل والخارج. تم الإعلان عن المجلس رسمياً في آب.

تموز 2011: حضور سفير الولايات المتحدة روبرت فورد أثناء احتشاد شعبي معارض في حماة. الحكومة تحرِّض متظاهرين على الهجوم على سفارة الولايات المتحدة في دمشق. دعوة إدارة أوباما الأسد إلى التنحي.

تموز 2011: دعا مؤتمر للمعارضة في دمشق إلى تعددية حزبية وإصلاحات أخرى، وتم نقله مباشرة على القناة التلفزيونية الرسمية للدولة.

تموز 2011: إعلان سبعة جنود منشقين عن تشكيل الجيش السوري الحر.

تموز 2011: إقرار مجلس الشعب السوري قانوناً يسمح بتشكيل أحزاب أخرى، ولكن المعارضة انتقدت القانون لأن حزب البعث ظل الحزب القائد تحت الدستور. لم تكن لدى المعارضة الموالية أي سلطة في الواقع.

أيلول 2011: دعا بعض الثوار - ومنهم جماعة الإخوان المسلمين - الغربَ إلى فرض منطقة حظر جوي للمساعدة على إسقاط النظام.

تشرين الأول 2011: استخدام روسيا وجمهورية الصين الشعبية حق النقض (الفيتو) لمنع صدور قرار يدين سوريا في مجلس الأمن الدولي؛ لأنهما تخوّفتا من أن يكون القرار مقدمة لتدخل غربـي عسكري.

تشرين الثاني 2011: مهاجمة الجيش السوري الحر لقاعدة حرستا الجوية قرب دمشق؛ مما شكّل ضربة هامة لنظام الأسد.

تشرين الثاني 2011: تعليق جامعة الدول العربية عضويةَ سوريا، وفرض عقوبات اقتصادية عليها لأنها لم تلتزم بخطة السلام التي رسمتها الجامعة. وقال الأسد إن الجامعة تنفذ رغبات القوى الغربية.

كانون الأول 2011: فجّر الثوار مقرات حزب البعث وأهدافاً أخرى في دمشق. واستمرّت الهجمات والتفجيرات حتى الصيف التالي.

كانون الأول 2011: موافقة سوريا على السماح بزيارة يقوم بها وفد من جامعة الدول العربية، ولكن آلاف المحتجين المناهضين للأسد تظاهروا في حمص. علّقت الجامعة العربية مهمتها في كانون الثاني نتيجة مخاوف أمنية.

شباط 2012: الإعلان العلني عن تشكيل جبهة النصرة لأهل الشام المرتبطة مع تنظيم القاعدة.

آذار 2012: إقرار مجلس الأمن الدولي لخطة سلام مقترحة، وتعيين الأمين العام السابق للأمم المتحدة كوفي عنان مبعوثاً خاصاً للأمم المتحدة. إعلان الإخوان المسلمين عن دخولهم الصراع المسلح؛ مع أنهم كانوا ينظمون مجموعات مسلحة من قبل شكّلت ما عرف بهيئة درع الثورة كائتلاف عسكري، ولكنها فشلت في نيل الكثير من الدعم داخل سوريا.

أيار 2012: ارتكاب ميليشيا موالية للأسد مجزرة راح ضحيتها 108 قتلى، منهم 34 من النساء والأطفال في بلدة الحولا قرب حمص. سحبت الكثير من الدول سفراءها احتجاجاً على المجزرة. وأجرت الحكومة انتخابات نيابية شملت أحزاب المعارضة الموالية. وقال الثوار إن الانتخابات مجرد محاولة لإضفاء الشرعية على ديكتاتورية الأسد.

حزيران 2012: اعتراف وكالة الاستخبارات المركزية بأنها تمحص الميليشيات المسلحة حتى تتمكن السعودية وقطر من إرسال السلاح إليها. إسقاط الجيش السوري طيارة تركية حربية دخلت المجال الجوي السوري؛ زاد الحادث من حدة التوتر بين البلدين.

تموز 2012: قيام الجيش السوري الحر بعملية تفجير في مبنى للمخابرات في دمشق، وقد أدت العملية إلى مقتل عدد من كبار المسؤولين بمن فيهم صهر الأسد. ونشر الجيش السوري وقوى الأمن حواجز التفتيش

في أنحاء دمشق.

آب 2012: استقالة كوفي عنان من منصبه كمبعوث خاص للأمم المتحدة نتيجة إحباطه من عدم تقدم محادثات السلام. وتعيين كل من الأمم المتحدة وجامعة الدول العربـي الدبلوماسي الجزائري الأخضر الإبراهيمي مبعوثاً خاصاً بدلاً منه.

أيلول 2012: احتراق أجزاء كبيرة من سوق حلب الأثرية.

تشرين الثاني 2012: حل المجلس الوطني السوري بعد فشله في الحصول على تأييد داخل سوريا، وتشكيل أعضائه الائتلافَ الوطني لقوى الثورة والمعارضة السورية. رفضت جبهة النصرة والجماعات الإسلامية الأخرى الانضمام إلى الائتلاف.

كانون الأول 2012: تشكيل قادة الجيش الحر مجلسَ القيادة الأعلى؛ في محاولة لتنسيق عمل جميع الميليشيات في سوريا. ولكن مجلس القيادة الأعلى فشل في التحول إلى ائتلاف عريض للقوى على الأرض.

كانون الأول 2012: وضعت الولايات المتحدة جبهة النصرة على لائحة المنظمات الإرهابية؛ معللة ذلك بارتباطها مع تنظيم القاعدة.

كانون الأول: اعتراف الولايات المتحدة وبعض حلفائها بالائتلاف الوطني لقوى الثورة والمعارضة السورية كممثل شرعي للشعب السوري.

كانون الثاني 2013: هاجمت الطائرات الحربية الإسرائيلية مركز أبحاث عسكرية في دمشق؛ بحجة منع وصول حمولات من السلاح السوري إلى حزب الله في لبنان. قصفت مجموعات الثوار دمشق بالصواريخ وقذائف الهاون بشكل دوري، وكثيراً ما أصابت مناطق مدنية.

آذار 2013: استيلاء تحالف تألّف من الجيش السوري الحر والثوار الإسلاميين على الرقة عاصمة محافظة الرقة. وبدأ سلاح الجو السوري حملات قصف مكثفة على المناطق التي يسيطر عليها الثوار. تعرّض خان العسل لهجوم صغير بالأسلحة الكيميائية، ولام الثوار الأسد، بينما قالت الحكومة السورية إن الثوار هم الذين يقفون وراء الهجوم، وقدمت أدلة على ذلك إلى مفتشي الأمم المتحدة بعد الحادثة بأشهر.

نيسان 2013: غيّرت دولة العراق الإسلامية المرتبطة مع تنظيم القاعدة اسمها إلى الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش) معلنة عن نشاطاتها في سوريا.

أيار 2013: أكل أحد قادة الثوار ويدعى "أبو صقر" من كتائب الفاروق قلب جندي سوري إظهاراً لاحتقاره للحكومة؛ وقد أثار الفيديو

اشمئزازاً كبيراً. ارتكبت القوات الحكومية مجزرة بحق السنة في جوار بانياس، حيث قتلت الميليشيات الموالية للأسد أكثر من 300 شخص. وكاد هجوم بالقنابل يتسبب في اغتيال رئيس الوزراء وائل نادر الحلقي. شنّت إسرائيل غارتين جويتين منفصلتين على مستودع زعمت أنه يحتوي على صواريخ أرض-أرض متطورة وأسلحة أخرى.

حزيران 2013: استعاد الجيش السوري ومقاتلو حزب الله السيطرة على مدينة القصير في شمال غرب سوريا. واعتبرت الحكومة النصر نقطة تحول في الحرب، ولكن النصر لم يكن حاسماً. وفي مؤتمر للعلماء السنة في القاهرة، وقّع أكثر من مئة إمام بارز على إعلان للجهاد في سوريا.

تموز 2013: ازدياد النشاطات الوحشية لتنظيم داعش في الأجزاء التي يسيطر عليها من محافظة إدلب، بما في ذلك قطع رؤوس عدد من قادة الجيش السوري الحر. أبدى المدنيون في الرقة اعتراضهم على القمع الذي تمارسه داعش، وفرضهم تفسيرهم المتشدد للشريعة الإسلامية على أهل المدينة. هاجمت إسرائيل مستودع صواريخ في اللاذقية.

آب 2013: ادعاء داعش الفضل في الاستيلاء على قاعدة منغ الجوية شمال حلب بعد حصار دام تسعة أشهر.

آب 2013: قتل غاز السارين مئات المدنيين في المناطق التي يسيطر عليها الثوار بجانب الغوطة خارج دمشق، ولام الأسد الثوار. أعلن الرئيس أوباما عن خطة لضرب سوريا، ولكن الرأي العام أجبره على سحبها. ضغطت روسيا والولايات المتحدة على سوريا للتخلص من أسلحتها الكيميائية.

أيلول 2013: أكّد مفتشو الأمم المتحدة استخدامَ الأسلحة الكيميائية في الغوطة، من دون التصريح عن الجهة المسؤولة عن ذلك.

تشرين الثاني 2013: هاجم الثوار مرآب آليات عسكرية في حرستا شمال دمشق، حيث حفروا نفقاً تحت الأرض، وزرعوا قنابل تحت المبنى؛ مما أدى إلى مقتل 150 جندياً، وعدة ضباط رفيعي المستوى. وقصفت إسرائيل مجدداً مستودع الصواريخ الذي سبق لها أن قصفته في تموز.

تشرين الثاني 2013: شكّلت مجموعات رئيسة من الثوار الجبهة الإسلامية؛ بهدف إنشاء دولة إسلامية، مستثنية الثوار المرتبطين مع تنظيم القاعدة، بالإضافة إلى الجيش السوري الحر.

كانون الأول 2013: استولت الجبهة الإسلامية على الأسلحة والذخائر والمعدات من مستودعات الجيش السوري الحر في أطمة قرب الحدود التركية؛ في ما شكّل نكسة لجهود القوى الغربية. وعلّقت الولايات المتحدة

وبريطانيا المساعدات غير الفتاكة للثوار مؤقتاً.

كانون الثاني 2014: هاجمت النصرة والتوحيد ومجموعات أخرى من الثوار تنظيمَ داعش في الرقة؛ محررة عدداً من السجناء المدنيين والمقاتلين. كما اندلع القتال بين مجموعات من الثوار في حلب. وكشف تقرير موّلته قطر وقدّمه مصور شرطي منشق عن أن الحكومة قتلت وعذبت أكثر من 11000 شخص في سجون القوى الأمنية. بدأت محادثات جنيف 2 للسلام في سويسرا. رغب الغرب في مناقشة حكومة انتقالية، ولكن ممثلي الأسد أصروا فقط على مناقشة إرهاب الثوار. لم تتوصل الاجتماعات في سويسرا إلى أي نتائج ملموسة.

شباط 2014: إعلان أيمن الظواهري زعيم تنظيم القاعدة رسمياً عن تبرؤ التنظيم من داعش، وعن دعمه لجبهة النصرة. وبداية جولة ثالثة من المحادثات في جنيف من دون تقدم يذكر. شنت إسرائيل هجوماً آخر بالصواريخ قرب الحدود السورية اللبنانية.

آذار 2014: استيلاء القوات السورية وحزب الله على يبرود - وهي مدينة للثوار قرب لبنان - بعد هجوم استمر عدة أشهر.

نيسان 2014: استخدام غاز الكلورين في قرية كفر زيتا في محافظة حماة التي يسيطر عليها الثوار. ألقى كل جانب باللوم على الآخر في استخدام الأسلحة الكيميائية. وأصدرت هيئة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة تقريراً عن الاستخدام الممنهج للتعذيب من قبل الحكومة السورية، كما انتقدت حالات استخدم فيها الثوار المتطرفون التعذيب.

أيار 2014: تم التوصل إلى تسوية بعد مفاوضات أخلى الثوار بمقتضاها مدينة حمص القديمة. وادعت الحكومة تحقيق النصر في المدينة. واستقال المبعوث الخاص للأمم المتحدة وجامعة الدول العربية الأخضر الإبراهيمي، وقال إنه يجب على مجلس الأمن الدولي وقف تدفق السلاح إلى جميع الأطراف المتحاربة في سوريا. تقدّمت الولايات المتحدة ودول أخرى إلى مجلس الأمن الدولي بمسودة قرار يسمح للمحكمة الجنائية الدولية بملاحقة مرتكبي جرائم الحرب، لكن هذا الإجراء لم يشمل أي ملاحقة للولايات المتحدة أو إسرائيل بسبب أعمالهما في الجولان. وقد استخدمت روسيا والصين حق الفيتو لمنع تنفيذ القرار.

حزيران 2014: أجرت سوريا انتخابات رئاسية فاز بها الأسد بنسبة 88.7 في المئة. قال منتقدو الانتخابات إن لا قيمة لها. وسيطرت داعش على مساحات هائلة في شمال العراق؛ مما أعطاها المزيد من المصداقية في

سوريا أيضاً. كما أحكمت القوات الكردية سيطرتها على مدينة كركوك العراقية، وأكدت على حقها في دولة كردية مستقلة، واستمرّ القادة الأكراد في التفاوض مع حكومة بغداد.

كل الصور من ريس إرليخ ما لم يصرّح بمصدر آخر.

انتهى

---

[1] مقابلة أحمد بقدونس مع المؤلف، دمشق، 5 تشرين الأول 2011.

[2] مقابلة "لين" مع المؤلف، 5 تشرين الأول، دمشق.

[3] مقابلة عبدول سلمان مع المؤلف، أنطاكيا، تركيا، 10 آب 2012.

[4] Ben Hubbard, "Islamist Rebels Create Dilemma on Syria Policy," New York Times, April 27, 2013, ttp://www.nytimes.com/2013/04/28/world/middleeast/islamist-rebels-gains-in-syria-create-dilemma-for-us.html.

[5] مقابلة عمر مشوح مع المؤلف، إسطنبول، تركيا، 12 آب 2012.

[6] مقابلة الرئيس بشار الأسد مع المؤلف، دمشق، 11 حزيران 2006.

[7] مقابلة مترجم الحكومة السورية مع المؤلف، درعا، سوريا، 4 تشرين الأول 2011.

[8] إنديانا جونـز (Indiana Jones): شخص خيالي كان بطل مجموعة من الأفلام، وقد جسد شخصيته فيها الممثل الأمريكي هاريسون فورد. إنديانا جونـز في الأصل بروفيسور جامعي في علم الآثار خلال فترة الحرب العالمية الثانية، ولكنه يمر بمغامرات عديدة أثناء بحثه عن بعض الآثار؛ خصوصاً حين تصطدم عمليات بحثه بعمليات مماثلة تقوم بها مخابرات ألمانيا النازية. وقد اشتهر باعتماره قبعة تشبه قبعات رعاة البقر، وحمله سوطاً في يده ومسدساً إلى جانبه [ملاحظة المترجم].

[9] R. Perceval Graves, Lawrence of Arabia and His World (London: Thames and Hudson, 1976), p. 21.

[10] مقدمة ت. إ. لورنس لكتاب تشارلز دوتي " Travels in

Deserta Arabia "، انظر إلى موقع:
http://zineb-returns.blogspot.com/2012/05/te-lawrence-on-englishmen.html

[11] Lucy Ladikoff, “T. E. Lawrence: True and False (an Arab View),” http://.al-bushra.org/arabwrld/lawrance.htm.

[12] James Barr, Setting the Desert on Fire: T. E. Lawrence and Britain’s Secret War in Arabia 1916-1918 (New York: W. W. Norton, 2008), p. 25.

[13] المرجع السابق، ص 13.

[14] المرجع السابق، ص 29.

[15] T. E. Lawrence, Seven Pillars of Wisdom (London: Wordsworth Classics, 1997), p. 213.

[16] James Barr, A Line in the Sand: The Anglo-French Struggle for the Middle East, 1914-1948 (New York: W. W. Norton, 2012), p. 58.

[17] مقابلة مضر بركات مع المؤلف في دمشق، 15 تشرين الثاني 2013.

[18] أي تختص بمن يحمل لقب بارون؛ وهو أحد ألقاب نبلاء أوروبا (ملاحظة المترجم).

[19] Barr, Line in the Sand, p. 7.

[20] Sykes-Picot Agreement, http://wwi.lib.byu.edu/index.php/Sykes-Picot_Agreement”

هذا وقد اعتمدنا في ترجمة نص المعاهدة مع بعض التصرف على موقع:

http://ar.wikisource.org/wiki اتفاقية_سايكس_بيكو_1916

[21] Lawrence, Seven Pillars of Wisdom, p. 67.

[22] Barr, Line in the Sand, p. 22.

[23] المصدر السابق، ص 24.

[24] Josh Glancy, “Chaim Weizmann and How the Balfour Declaration Was Made in Manchester,” Jewish Chronicle Online, November 1, 2012,

http://thejc.com/lifestyle/lifestyle-features/89026/chaim-weizmann-and-how-

balfour-declaration-was-made-manchester.

[25] Barr, Line in the Sand, p. 27.

[26] المرجع السابق، ص 29.

[27] بار متسفا: حفل يهودي ديني يقام عند بلوغ الشاب اليهودي 13 من عمره، أي عندما يعتبر مكلفا بأداء جميع الفرائض المفروضة عليه حسب الشريعة اليهودية (الهالاخاه). هذا الحفل يتم الالتزام به في جميع الطوائف اليهودية، وهو شائع حتى لدى اليهود العلمانيين (ملاحظة المترجم، من موقع http://ar.wikipedia.org).

[28] يوجد نص وعد بلفور في الموقع التالي:

http://unispal.un.org/UNISPAL.NSF/0/E210CA73E38D9E1D052565FA00705C61.

[29] Doreen Ingrams, Palestine Papers 1917-1922: Seeds of Conflict (London: John Murray, 1972), p. 73.

[30] Neil Tweedie, "We Must Draw on Our Historians," Telegraph, August 1, 2012.

[31] Lawrence, Seven Pillars of Wisdom, p. 647.

[32] مقابلة الدكتور إيلي الهندي مع المؤلف، لبنان، 5 حزيران 2013.

[33] Julian Gorbach, "The Making of a 'Matinee Idol': Representations of Islam in Lowell Thomas's Lawrence of Arabia," p. 25, http://citation.allacademic.com//meta/p_mla_apa_research_citation/2/9/7/9/3/pages297935 / p. 297935-1.php.

[34] Clio Visualizing History, "The Show," http://www.cliohistory.org/thomas-lawrence/show /

[35] Lowell Thomas, With Lawrence in Arabia, 16th ed. (London: Hutchinson, n.d.), p. 46.

[36] المصدر السابق ، ص 61.

[37] Jeremy Wilson, "Lawrence of Arabia or T. E. Lawrence?" Military Times, http://telstudies.org/discussion/biography/wilson_lofa_or_tel.shtml

[38] Bill Swanson, ed., Encarta Book of Quotes (New

York: St. Martin’s Press, 2000), p. 550.

[39] James Barr, A Line in the Sand: The Anglo-French Struggle for the Middle East, 1914-1948 (New York: W. W. Norton, 2012), p. 62.

[40] “Agreement between Emir Feisal and Dr. Chaim Weizmann, January 3, 1919,” http://www.mideastweb.org/feisweiz.htm

[41] نص الملحق العربـي من صورة إلكترونية لنص الاتفاقية الأصلي من موقع:

http://im33.gulfup.com/c7jtQ.gif

(المترجم)

[42] Robert D. Kaplan, The Arabists: The Romance of an American Elite (New York: Free Press, 1993), pp. 70-72.

[43] “The King-Crane Commission Report, August 28, 1919,” http://www.gwpda.org/1918p/kncr.htm. Pages 7-8 list the response from various religious and ethnic groups.

[44] المصدر السابق، ص 9.

[45] المصدر السابق، ص 80.

[46] Barr, Line in the Sand, p. 94.

[47] الدكتور إيلي الهندي، مقابلة مع المؤلف، لبنان، 5 حزيران 2013.

[48] الدكتور مضر بركات، مقابلة مع المؤلف، دمشق ، 15 تشرين الثاني 2013.

[49] Barr, Line in the Sand, p. 120.

[50] Michael Provence, The Great Syrian Revolt and the Rise of Arab Nationalism (Austin: University of Texas Press, 2005) p. 63.

[51] المصدر السابق، ص 58.

النص العربـي للبيان: http://www.sultanalattrache.org/docDetails.php?dId=3

[52] المصدر السابق، ص 81-83.

النص العربـي للبيان: http://www.sultanalattrache.org/callToArms.php

[53] المصدر السابق، ص 42.

[54] بشر الليسا، مقابلة هاتفية مع المؤلف، 31 كانون الثاني 2014.

[55] الهندي، مقابلة مع المؤلف.

[56] Alison Pargeter, The Muslim Brotherhood: From Opposition to Power (London: Saqi Books, 2010), p. 21.

النص العربي مأخوذ من رسالة دعوتنا في طور جديد للإمام حسن البنا، نص الرسالة الكامل موجود في موقع:

http://www.ikhwanwiki.com/index.php?title=

رسالة_دعوتنا_في_طور_جديد

[57] الهندي، مقابلة مع المؤلف.

[58] Eugene Rogan, The Arabs: A History (New York: Basic Books, 2011), p. 246.

[59] Barr, Line in the Sand, p. 245.

[60] Joshua Landis, "Syria and the 1948 War in Palestine," in Rewriting the Palestine War: 1948 and the History of the Arab-Israeli Conflict, ed. Eugene Rogan and Avi Shlaim (Cambridge: Cambridge University Press, 2001), p. 178, http://faculty-staff.ou.edu/L/Joshua.M.Landis-1/Syria_1948.htm.

[61] Michael Oren, Power, Faith, and Fantasy: America in the Middle East, 1776 to the Present (New York: W. W. Norton, 2007), p. 525.

[62] Joel Perlmann, "The 1967 Census of the West Bank and Gaza Strip: A Digitized Version," Levy Institute, http://www.levyinstitute.org/pubs/1967_census/vol_1_intro_tab_d.pdf.

قدّر إحصاء سكاني إسرائيلي عدد فلسطينيي الضفة الغربية عام 1967 بنحو 954,378 نسمة. أما المصادر الفلسطينية فتقدر عددهم بمليوني نسمة .

[63] UN Security Council, "Text of UN Resolution 242, November 22, 1967," http://unispal.un.org/unispal.nsf/0/7D35E1F729DF491C852 56EE700686136.

[64] طالب إبراهيم، مقابلة مع المؤلف، دمشق، 7 حزيران 2006.

[65] محمد علي، مقابلة مع المؤلف، القنيطرة، سوريا، 16 حزيران 2006.

[66] CAMERA (Committee for Accuracy in Middle East Reporting in America), “Syria’s Quneitra Hoax,” May 10, 2001, http://www.camera.org/index.asp?x_article=49&x_context=3.

[67] UN General Assembly, Report of the Special Committee to Investigate Israeli Practices Affecting the Human Rights of the Population of the Occupied Territories (n.p.: UN General Assembly, November 29, 1974), http://www.refworld.org/cgi-bin/texis/vtx/rwmain ?docid=3b00f1c74

[68] سيناتور الولايات المتحدة جيمس أبو رزق، مقابلة مع المؤلف عبر البريد الإلكتروني، 13 تشرين الثاني 2013.

[69] إيلي الهندي، مقابلة مع المؤلف، لبنان، 5 حزيران 2013.

[70] Hugh Eakin and Alisa Roth, “Syria’s Refugees: The Catastrophe,” New York Review of Books, October 10, 2013, http://www.nybooks.com/articles/archives/2013/oct/10/syrias-refugees-catastrophe/.

[71] Oren, Power, Faith, and Fantasy, p. 524.

[72] Associated Press, “PLO Leader Who Opposed Arafat Dies in Damascus,” Times of Israel, January 29, 2013, http://www.timesofisrael.com/plo-leader-who-opposed-arafat-dies-in-damascus.

[73] Sean McBride et al., Israel in Lebanon: Report of the International Commission to Enquire into Reported Violations of International Law by Israel during Its Invasion of Lebanon (London: Ithaca Press, 1983).

[74] Oren, Power, Faith, and Fantasy, p. 553.

[75] Central Intelligence Agency, “Syria,” in CIA World Factbook, https://www.cia.gov/library/publications/the-world-factbook/geos/sy.html

كتبت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بأن الأكراد يشكلون 10 في المئة من سكان سوريا، ولكن الكثير من الأكراد يذهبون إلى أن النسبة

أقرب إلى 15 في المئة.

[76] Alison Pargeter, The Muslim Brotherhood: From Opposition to Power (London: Saqi Books, 2010), p. 77.

[77] المرجع السابق، ص 77-78.

[78] Robert Fisk, The Great War for Civilization: The Conquest of the Middle East New York: Alfred Knopf, 2005), p. 814.

انظر أيضاً:

Robert Fisk, Pity the Nation: The Abduction of Lebanon (New York: Nation Books, 2002), pp. 181-87.

[79] Fisk, Great War for Civilization, p. 815.

[80] "George Bush Sr. on War and Peace," On the Issues, http://www.ontheissues.org/celeb/George_Bush_Sr__War_+_Peace.htm (accessed March 10, 2014).

[81] نص خطاب القسم للرئيس بشار الأسد من أرشيف جريدة الديار بتاريخ 18-7-2000 ، ص 8-9 على موقع:

http://www.charlesayoub.com/more/729169

http://www.charlesayoub.com/more/729170

(المترجم).

وقد أشار المؤلف إلى المرجع التالي:

David W. Lesch, Syria: The Fall of the House of Assad (New Haven, CT: Yale University Press, 2012), p. 4.

[82] Tim Lister and Jamie Crawford, "Meet Syria's Wealthiest and Most Elusive Man," CNN, March 7, 2012, http://security.blogs.cnn.com/2012/03/07/meet-syrias-wealthiest-and-most-elusive-man/.

[83] Shaam News Network, "Protesters Burn Syriatel SIM Cards Owned by Rami Makhlouf," May 21, 2011, http://www.youtube.com/watch?v=r9Y5q2HnmaY.

[84] حمد، مقابلة مع المؤلف، دمشق، 16 حزيران 2006.

[85] Anne Barnard, "Syrian Officials Sound a Conciliatory

Note toward the Opposition," New York Times, October 6, 2013, http://www.nytimes.com/2013/10/07/world/middleeast/syrian-officials-sound-a-conciliatory-note-toward-the-opposition.html.

[86] أيمن عبد النور، مقابلة مع المؤلف، دمشق، 13 حزيران 2006.

[87] بشار الأسد، مقابلة مع المؤلف، دمشق، 14 حزيران 2006.

[88] نواف البشير، مقابلة مع المؤلف، 12 حزيران 2006.

[89] Canadian Government Publishing, Commission of Inquiry into the Actions of Canadian Officials in Relation to Maher Arar [Arar Commission], http://www.sirc-csars.gc.ca/pdfs/cm_arar_rec-eng.pdf.

[90] CBC News, "US Legislators Apologize to Maher Arar," October 18, 2007, http://www.cbc.ca/news/world/u-s-legislators-apologize-to-maher-|arar-1.680301.

[91] بشار الأسد، مقابلة مع المؤلف، دمشق، 14 حزيران 2006.

[92] Marlise Simons, "Fifth Suspect Is Indicted in 2005 Killing of Ex-Lebanese Premier," New York Times, October 10, 2013, http://www.nytimes.com/2013/10/11/world/middleeast/fifth-suspect-is-indicted-in-2005-killing-of-ex-lebanese-premier.html.

[93] البشير، مقابلة مع المؤلف.

[94] "Damascus Declaration in English," Syria Comment, November 1, 2005, http://faculty-staff.ou.edu/L/Joshua.M.Landis-1/syriablog/2005/11/damascus-declaration-in-english.htm.

[95] البشير، مقابلة مع المؤلف.

[96] بشار الأسد، مقابلة مع المؤلف، دمشق، 14 حزيران 2006.

[97] Bobbi Nodell, "New Estimates Give Updated Count of Iraq War Deaths between 2003 and 2011," University of Washington Health Sciences, October 15, 2013, http://www.eurekalert.org/pub_releases/2013-10/uow--neg101113.php

[98] Gilbert Burnham, Riyadh Lafta, Shannon Doocy, and

Les Roberts, “Mortality after the 2003 Invasion of Iraq: A Cross-Sectional Cluster Sample Survey,” Lancet 368, no. 9545 (2006): 1421-28.

[99] Paul Post, “Taking up 4,486 Flags for Slain Soldiers, but Holding on to Their Memory,” New York Times, May 28, 2012, http://www.nytimes.com/2012/05/29/nyregion/removing-4486-flags-for-slain-soldiers-but-keeping-their-memory.html.

[100] Reese Erlich and Peter Coyote, “The Murders at Al-Sukariya,” Vanity Fair Online, October 22, 2009, http://www.vanityfair.com/politics/features/2009/10/al-sukariya-200910.

[101] Lesch, Syria, p. 15.

[102] إبراهيم، مقابلة مع المؤلف.

[103] الدكتور محمود أغاسي، مقابلة مع المؤلف، دمشق، 13 حزيران 2013.

[104] بشير، مقابلة مع المؤلف.

[105] النص الكامل لمقابلة جريدة وول ستريت جورنال الأمريكية مع الرئيس بشار الأسد في 31 كانون الثاني 2011 من موقع حزب البعث الاشتراكي - قطر اليمن:

http://www.albaath-as-party.org/articles.php?id=214

(المترجم)

وقد أشار المؤلف إلى المرجع التالي:

Jay Solomon and Bill Spindle, “Syria Strongman: Time for Reform,” Wall Street Journal, January 31, 2011, http://online.wsj.com/news/articles/SB10001424052748704832704576114340735033236.

[106] Reese Erlich, “For Most Tunisians, Little Has Changed,” Global Post, April 29, 2012, http://www.globalpost.com/dispatch/news/regions/middle-east/120427/tunisia-economy-sidi-bouzid-arab-spring-protests.

[107] “Death Toll Rises as Syria Crackdown Continues,” Al Jazeera, May 1, 2011,

http://www.aljazeera.com/news/middleeast/2011/04/2011430174959835564.html.

[108] العبارة العربية مأخوذة من أرشيف جريدة الأخبار، انظر إلى موقع:

http://www.al-akhbar.com/node/179504

(المترجم) وقد أشار المؤلف إلى المرجع التالي:

Maciej Bartkowski and Mohja Kahf, "The Syrian Resistance: A Tale of Two Struggles," Open Democracy, September 23, 2013, http://opendemocracy.net/civilresistance/maciej-bartkowski-mohja-kahf/syrian-resistance-tale-of-two-struggles.

[109] Nada Bakri, "Draft Reform Law in Syria Fails to Mollify Protesters," New York Times, July 25, 2011, http://www.nytimes.com/2011/07/26/world/middleeast/26syria.html.

[110] المحافظ محمد خالد الهنوس، والمحامي العام الأول في المحافظة تيسير الصمادي، مقابلة مع المؤلف، درعا، سوريا، 4 تشرين الأول 2011.

[111] في الوقت الذي جرت فيه هذه المقابلات في تشرين الأول 2011، قدرت الأمم المتحدة أن عدد الضحايا المدنيين بلغ ثلاثة آلاف قتيل، وبلغ عدد الضحايا المدنيين والعسكريين مع حلول آذار 2011 أكثر من 140,000 قتيل.

[112] "محمود"، مقابلة مع المؤلف، دمشق، تشرين الأول، 2011.

[113] أحمد بقدونس، مقابلة مع المؤلف، 5 تشرين الأول 2011.

[114] "بشار"، مقابلة مع المؤلف، دمشق، تشرين الأول 2011.

[115] من دون اسم، مقابلة مع المؤلف، طرطوس، سوريا، 8 تشرين الأول 2011.

[116] يتقبل الكثير من الأمريكيين المحافظين مفهوم أن كل الإرهابيين مسلمون على أنه حقيقة. انظر مثلا:

Tanya Somanader, "Fox Host Brian Kilmeade Says 'All Terrorists Are Muslim' in Defense of O'Reilly's 'Muslims Killed Us' Remark," Think Progress, October 15, 2010, http://thinkprogress.org/media/2010/10/15/124417/kilmeade-muslim-

terrorists/.

[117] Reese Erlich, Conversations with Terrorists: Middle East Leaders on Politics, Violence, and Empire (Sausalito, CA: PoliPoint Press, 2010), p. 6.

[118] Aron Lund, "Struggling to Adapt: The Muslim Brotherhood in a New Syria," Carnegie Endowment for International Peace, May 7, 2013, http://carnegieendowment.org/2013/05/07/struggling-to-adapt-muslim-brotherhood-in-new-syria/g2qm.

[119] المصدر السابق.

[120] Alison Pargeter, The Muslim Brotherhood: From Opposition to Power (London: Saqi Books, 2010), p. 101.

[121] عمر مشوح، مقابلة مع المؤلف، إسطنبول، 12 آب، 2012.

[122] ميرال بيوردا، مقابلة مع المؤلف، أنطاكية، تركيا، 8 آب 2012.

[123] "بشار"، مقابلة مع المؤلف.

[124] Michael R. Gordon, Mark Landler, and Anne Barnard, "US Suspends Nonlethal Aid to Syria Rebels," New York Times, December 11, 2013, http://www.nytimes.com/2013/12/12/world/middleeast/us-suspends-nonlethal-aid-to-syrian-rebels-in-north.html/.

[125] Senator John McCain, "Statement by Sen. John McCain concerning the Grave Situation in Syria," June 8, 2013, http://www.mccain.senate.gov/public/index.cfm/press-releases?ID=259635e5-f898-046e-4c63-3cf88c4c523f.

[126] Elizabeth O'Bagy, "The Free Syrian Army," Middle East Security Report 9, March 2013.

[127] Ghaith Abdul-Ahad, "How to Start a Battalion (in Five Easy Lessons)," London Review of Books, February 21, 2013.

[128] Hassan Hassan, "The Army of Islam Is Winning in Syria and That's Not Necessarily a Bad Thing," Foreign Policy, October 1, 2013,

http://www.foreignpolicy.com/articles/2013/10/01/the_army_of_islam_is_winning_in_syria.

[129] "Syria: Jaysh Al-Islam Rejects Geneva II Conference," Asharq Al-Awsat, November 12, 2013, http://www.aawsat.net/2013/11/article55322150.

[130] نص خطاب الشيخ زهران علوش في موقع YouTube على الرابط التالي:

http://www.youtube.com/watch?v=k3zMYiHgNAo

(المترجم) وقد أشار المؤلف إلى المصدر التالي:

John Hudson, "US Weighing Closer Ties with Hardline Islamists in Syria," Foreign Policy, December 17, 2013, http://thecable.foreignpolicy.com/posts/2013/12/16/us_weighing_closer_ties_with_hardline_islamists_in_syria#sthash.b9QyA3KZ.dpuf.

[131] Joshua Landis, "Who Are Syria's Big Five Insurgent Leaders?" Syria Comment, October 1, 2013, http://www.joshualandis.com/blog/biggest-powerful-militia-leaders-syria.

[132] "Islamists Kill 15 Alawite and Druze Civilians in Syria—Activists," Reuters, December 12, 2013, http://www.reuters.com/article/2013/12/12/us-syria-crisis-adra-idUSBRE9BB0PM20131212.

[133] Lund, "Struggling to Adapt.".

[134] نص الميثاق كاملاً على موقع:

https://docs.google.com/document/d/1fACS9tltlmZDmomlB1ZtiJLZaAckWOT0yhtRwoskgIE/edit

(المترجم) وقد أشار المؤلف إلى المرجع التالي:

Hudson, "US Weighing Closer Ties with Hardline Islamists in Syria."

[135] Anne Barnard, "Jihadist Leader Envisions an Islamic State in Syria,"New York Times, December 19, 2013, http://www.nytimes.com/2013/12/20/world/middleeast/jihadist-leader-envisions-an-islamic-state-in-syria.html.

[136] Syria’s Rebels: 20 Things You Need to Know,” CNN, September 7, 2013, http://www.ozarksfirst.com/story/syrias-rebels-20-things-you-need-to-know/d/story/zm3cWsQD3UC54FnSi8LOtQ.

[137] Aron Lund, “Major Salafi Faction Criticizes Jabhat al-Nosra,” Syria Comment, May 4, 2013, http://www.joshualandis.com/blog/major-salafi-faction-criticizes-jabhat-al-nosra/.

[138] مقاطع من الإعلان في موقع:

http://aljumhuriya.net/13498

(المترجم) أشار المؤلف إلى المرجع التالي:

“Iraqi al-Qaeda and Syrian Group ‘Merge,’” Al Jazeera, April 9, 2013, http://www.aljazeera.com/news/middleeast/2013/04/201349194856244589.html.

[139] Ben Hubbard, “Al Qaeda Cuts Ties with Jihadist Group in Syria Involved in Rebel Infighting,” New York Times, February 4, 2014, http://www.nytimes.com/2014/02/04/world/middleeast/syria.html.

[140] Liz Sly, “Syrian Rebel Leader Says Any American Strike on Regime Targets Should Be ‘Powerful,’” Washington Post, September 4, 2013, http://www.washingtonpost.com/world/middle_east/syrian-rebels-say-any-american-strike-on-regime-targets-should-be-powerful/2013/09/04/fa1784ea-15a2-11e3-961c-f22d3aaf19ab_story.html.

[141] “Government Assessment of the Syrian Government’s Use of Chemical Weapons on August 21, 2013,” Office of the Press Secretary, the White House, August 30, 2013, http://www.whitehouse.gov/the-press-office/2013/08/30/government-assessment-syrian-government-s-use-chemical-weapons-august-21.

[142] “Syria: John Kerry’s Statement in Full,” Telegraph, August 30, 2013,

http://www.telegraph.co.uk/news/worldnews/middleeast/syria/10277442/Syria-John-Kerrys-statement-in-full.html.

[143] Rick Gladstone and C. J. Chivers, "UN Implicates Syria in Using Chemical Arms," New York Times, September 16, 2013, http://www.nytimes.com/2013/09/17/world/europe/syria-united-nations.html.

[144] C. J. Chivers, "Data in Gas Attack Points to Assad's Top Forces," New York Times, September 17, 2013, http://www.nytimes.com/2013/09/18/world/middleeast/un-data-on-gas-attack-points-to-assads-top-forces.html

[145] "Syria: Thousands Suffering Neurotoxic Symptoms Treated in Hospitals Supported by MSF," Doctors Without Borders, August 24, 2013, http://www.doctorswithoutborders.org/article/syria-thousands-suffering-neurotoxic-symptoms-treated-hospitals-supported-msf.

[146] David E. Sanger and Eric Schmitt, "Allies' Intelligence Differs on Details, but Still Points to Assad Forces," New York Times, September 3, 2013, http://www.nytimes.com/2013/09/04/world/middleeast/allies-intelligence-on-syria-all-points-to-assad-forces.html.

[147] Zeina Karam and Kimberly Dozier, "Lingering Doubts over Syria Gas Attack Evidence," Associated Press, September 9, 2013, http://news.yahoo.com/lingering-doubts-over-syria-gas-attack-evidence-072755287.html.

[148] Gwyn Winfield, "Modern Warfare," CBRNe World, February 2014, http://www.cbrneworld.com/news/ake_sellstrom_interview_now_available#axzz30rhCd2Ky.

[149] Adam Entous, Nour Malas, and Rima Abushakra, "As Syrian Chemical Attack Loomed, Missteps Doomed Civilians,"

Wall Street Journal, November 22,2013, http://online.wsj.com/news/articles/ SB10001424052702303914304579194203188283242.

[150] Seymour M. Hersh, "Whose Sarin?" London Review of Books, December 19, 2013, zttp://www.lrb.co.uk/v35/n24/seymour-m-hersh/whose-sarin.

[151] كما ظهر في فيديو المؤتمر الصحافي الذي أجراه مفتشو الأسلحة الكيميائية، تبدأ ملاحظات سيلستروم في الدقيقة 15:55 من الفيديو، انظر إلى:

http://www.youtube.com/watch?v=5CFn9pWNKeI

[152] Winfield, "Modern Warfare."

[153] Richard Lloyd and Theodore A. Postol, "Possible Implications of Faulty US Technical Intelligence in the Damascus Nerve Agent Attack of August 21, 2013," Document Cloud, January 14, 2014, https://www.documentcloud.org/documents/1006045-possible-implications-of-bad-intelligence.html.

[154] C. J. Chivers, "New Study Refines View of Sarin Attack in Syria," New York Times, December 28, 2013, http://www.nytimes.com/2013/12/29/world/middleeast/new-study-refines-view-of-sarin-attack-in-syria.html.

[155] Robert Fisk, "Gas Missiles 'Were Not Sold to Syria,'" Independent, September 22, 2013, http://www.independent.co.uk/voices/comment/gas-missiles-were-not-sold-to-syria-8831792.html.

[156] Eliot Higgins, "Sy Hersh's Chemical Misfire," Foreign Policy, December 9, 2013, http://www.foreignpolicy.com/articles/2013/12/09/sy_hershs_chemical_ misfire.

[157] المركب الطليعي (Precursor) في الكيمياء هو مركب كيميائي يشارك في التفاعل الكيميائي لتكوين مركب آخر. من موقع : http://ar.wikipedia.org/wiki مركب_طليعي (المترجم).

[158] Centers for Disease Control and Prevention, “Facts about Sarin,” http://www.bt.cdc.gov/agent/sarin/basics/facts.asp.

[159] Dr. Yasuo Seto, “The Sarin Gas Attack in Japan and the Related Forensic Investigation,” Organization for the Prohibition of Chemical Weapons, June 1, 2001, http://www.opcw.org/news/article/the-sarin-gas-attack-in-japan-and-the-related-forensic-investigation/.

[160] Dan Kaszeta, “Industrial and Economic Aspects of Sarin: Why Poor Quality Is Not an Indicator of Non-state Manufacture,” Brown Moses Blog, November 6, 2013, http://brown-moses.blogspot.com/2013/11/industrial-and-economic-aspects-of.html.

[161] الدكتور بسام بركات، مقابلة مع المؤلف، دمشق، 15 كانون الثاني 2013.

[162] “United Nations Mission to Investigate Allegations of the Use of Chemical Weapons in the Syrian Arab Republic,” December 12, 2013, https://unoda-web.s3.amazonaws.com/wp-content/uploads/2013/12/report.pdf.

[163] سيرغي باستانوف، مقابلة هاتفية مع المؤلف، جنيف، 14 شباط 2014.

[164] Reuters, “Syrian Rebels May Have Used Sarin,” New York Times, May 5, 2013, http://www.nytimes.com/2013/05/06/world/middleeast/syrian-rebels-may-have-used-sarin.html.

يمكن مشاهدة جزء من المقابلة معها على الرابط التالي:
http://www.youtube.com/watch?v=yQPMqsxpHSE.

[165] Reuters, “Turkey Arrests 12 in Raids on ‘Terrorist’ Organization,” May 30, 2013, http://www.reuters.com/article/2013/05/30/us-syria-crisis-turkey-idUSBRE94T0YO20130530.

[166] “Iraq Claims Foiling al-Qaeda Nerve-Gas Plot,” Al

Jazeera, June 2, 2013, http://www.aljazeera.com/news/middleeast/2013/06/20136117362322130.html.

[167] F. Michael Maloof, “Classified Document Shows Deadly Weapon Found in Home of Arrested Islamists,” WorldNetDaily, September 11, 2013, http://www.wnd.com/2013/09/u-s-military-confirms-rebels-had-Sarin/.

[168] انظر إلى موجز عن حياة مايكل معلوف في موقع معهد الدراسات السياسية الأمريكية (Institute for Policy Studies (IPS)) على الموقع التالي:

http://rightweb.irc-online.org/profile/maloof_f_michael.

[169] Maloof, “Classified Document Shows Deadly Weapon Found in Home of Arrested Islamists.”

[170] Hersh, “Whose Sarin?”

[171] المصدر السابق.

[172] Eliot Higgins, “Responses to the Final UN Report into the Use of Chemical Weapons in Syria—Part 2,” Brown Moses Blog, December 14, 2013, http://brown-moses.blogspot.com/2013/12/responses-to-final-un-report-into-use_14.html.

[173] الدكتور بسام بركات، مقابلة مع المؤلف.

[174] وزير العدل السوري نجم الأحمد، مقابلة مع المؤلف، دمشق، 16 تشرين الثاني 2013.

[175] Higgins, “Responses to the Final UN Report into the Use of Chemical Weapons in Syria.”

[176] دان كاسزيتا، مقابلة هاتفية مع المؤلف، لندن، 18 شباط 2014.

[177] الوزير نجم الأحمد، مقابلة مع المؤلف.

[178] الدكتور بسام بركات، مقابلة مع المؤلف.

[179] جوشوا لانديس، مقابلة مع المؤلف، 11 كانون الأول 2013.

[180] “Syrian Forces May Have Used Gas Without Assad’s Permission,” Reuters, September 13, 2013,

http://www.reuters.com/article/2013/09/08/us-syria-crisis-germany-idUSBRE98707B20130908.

[181] Gareth Porter, "New Data Raise Further Doubt on Official View of August 21 Gas Attack in Syria," Truthout, April 29, 2014, http://truth-out.org/news/item/23368-new-data-raise-further-doubt-on-official-view-of-aug-21-gas-attack-in-syria.

[182] Ernesto Londoño and Greg Miller, "CIA Begins Delivering Weapons to Syrian Rebels," Washington Post, September 12, 2013, http://www.washingtonpost.com/world/national-security/cia-begins-weapons-delivery-to-syrian-rebels/2013/09/11/9fcf2ed8-1b0c-11e3-a628-7e6dde8f889d_story.html

[183] Reese Erlich, "From Surrender Monkey to Closest Ally," Common Dreams, September 1, 2013, https://www.commondreams.org/view/2013/09/01-0.

[184] Oliver Holmes, "Syria Lets UN Inspect Gas Attack Site, Washington Says Too Late," Reuters, August 25, 2013, http://in.reuters.com/article/2013/08/25/syria-crisis-idINDEE97M0C620130825.

[185] Mark Landler and Eric Schmitt, "White House Says Syria Has Used Chemical Arms," New York Times, April 25, 2013, http://www.nytimes.com/2013/04/26/world/middleeast/us-says-it-suspects-assad-used-chemical-weapons.html?pagewanted=all.

[186] الترجمة العربية منقولة بتصرف بسيط من موقع:
http://www.alkalimaonline.com/article.php?id=171579
(المترجم). وقد أشار المؤلف إلى المرجع التالي:

Harriet Alexander, "Syria: If Bashar al-Assad Hands Over Chemical Weapons, We Will Not Attack, Says John Kerry," Telegraph, September 9, 2013, http://www.telegraph.co.uk/news/worldnews/middleeast/syria/10295638/

Syria-If-Bashar-al-Assad-hands-over-chemical-weapons-we-will-not-attack-says-John-Kerry.html.

[187] William R. Polk, "Reflections on the Syrian Chemical Weapons Issue and the Possibility of Ending the Civil War," Syria Comment, September 15, 2013, http://www.joshualandis.com/blog/syrian-chemical-weapons-possibility-ending-civil-war-william-r-polk/.

[188] Bob Kesling, "Lessons from US Arms Destruction," Wall Street Journal, September 12, 2013, http://online.wsj.com/news/articles/SB20001424127887324549004579069561052663626.

[189] Nicholas Blanford, "Hezbollah Marks Major Triumph as Qusayr Tips Back into Assad Camp," Christian Science Monitor, June 5, 2013, http://www.csmonitor.com/World/Middle-East/2013/0605/Hezbollah-marks-major-triumph-as-Qusayr-tips-back-into-Assad-camp.

[190] الحاج غسان، مقابلة مع المؤلف، الهرمل، لبنان، 7 حزيران، 2013.

[191] Sarah Birke, "How al-Qaeda Changed the Syrian War," New York Review of Books, December 27, 2013, http://www.nybooks.com/blogs/nyrblog/2013/dec/27/how-al-qaeda-changed-syrian-war/.

[192] Chris Looney, "Al-Qaeda's Governance Strategy in Raqqa," Syria Comment, December 8, 2013, http://www.joshualandis.com/blog/al-qaedas-governance-strategy-raqqa-chris-looney/.

[193] Mohammed al-Attar, "Al Raqqa: The Reality of the Military Brigades, the Administration of the Liberated City and the Revolutions to Come," Republic GS, September 16, 2013, http://therepublicgs.net/2013/09/16/al-raqqa-the-reality-of-the-military-brigades-the-administration-of-the-liberated-city-and-the-revolutions-to-come/.

[194] Birke, “How al-Qaeda Changed the Syrian War.”

[195] Michael R. Gordon, Mark Landler, and Anne Barnard, “US Suspends Nonlethal Aid to Syria Rebels,” New York Times, December 11, 2013, http://www.nytimes.com/2013/12/12/world/middleeast/us-suspends-nonlethal-aid-to-syrian-rebels-in-north.html.

[196] Adam Entous and Rima Abushakra, “Moderate Syrian Rebels Try to Recover after Islamists Take Over Headquarters. US Changes Account of Commander Fleeing Syria to Turkey during Incursion,” Wall Street Journal, December 12, 2013, http://online.wsj.com/news/articles/SB10001424052702303293604579254162228246876.

[197] Associated Press, “Syrian Rebels Name New Military Commander,” Washington Post, February 17, 2014, http://www.washingtonpost.com/world/middle_east/syria-says-us-created-negative-climate-in-geneva/2014/02/16/d19b6128-977d-11e3-ae45-458927ccedb6_story.html

[198] Ben Hubbard and Karam Shoumali, “Top Military Body against Syria’s Assad Is in Chaos, Undermining Fight,” New York Times, February 23, 2014, http://www.nytimes.com/2014/02/24/world/middleeast/top-military-body-against-syrias-assad-is-in-chaos-undermining-fight.html.

[199] John Hudson, “US Weighing Closer Ties with Hardline Islamists in Syria,” Foreign Policy, December 17, 2013, http://thecable.foreignpolicy.com/posts/2013/12/16/us_weighing_closer_ties_with_hardline_islamists_in_syria#sthash.b9QyA3KZ.dpuf.

[200] Anne Barnard and Nick Cumming-Bruce, “Syrian Rebels Sketch Peace Plan That Omits Demand for Assad’s Ouster,” New York Times, February 12, 2014, http://www.nytimes.com/2014/02/13/world/middleeast/syria.html.

[201] Maria Abi-Habib and Stacy Meichtry, “Saudis Agree

to Provide Syrian Rebels with Mobile Antiaircraft Missiles," Wall Street Journal, February 14, 2014, http://online.wsj.com/news/articles/SB10001424052702304703804579382974196840680.

[202] لين، مقابلة مع المؤلف، دمشق، تشرين الثاني، 2013.

[203] الدكتور بسام بركات، مقابلة مع المؤلف، دمشق، 14 تشرين الثاني 2013.

[204] Kourosh Ziabari, "Sharmine Narwani: Syrian Opposition Is Not United and Cohesive," Fars News, December 9, 2013, http://english.farsnews.com/newstext.aspx?nn=13920916001486.

[205] David W. Lesch, Syria: The Fall of the House of Assad (New Haven, CT: Yale University Press, 2012), p. 52.

[206] المطران ارماش نالبنديان، مقابلة مع المؤلف، دمشق، 14 تشرين الثاني 2013.

[207] علاء إبراهيم، مقابلة مع المؤلف، دمشق، 17 تشرين الثاني 2013.

[208] فراس ديب، مقابلة مع المؤلف، طرطوس، سوريا، 8 تشرين الأول، 2011.

[209] شفيقة ديب، مقابلة مع المؤلف، طرطوس، سوريا، 9 تشرين الأول، 2011.

[210] محمود ديب، مقابلة مع المؤلف، طرطوس، سوريا، 9 تشرين الأول، 2011.

[211] وفاء ديب، مقابلة مع المؤلف، طرطوس، سوريا، تشرين الأول 2011.

[212] Aboud Dandachi, "Observations of a Homsi Living in Tartous," Syria Comment, January 21, 2014, http://www.joshualandis.com/blog/observations-homsi-living-tartous/

[213] "Poorest Countries in the Middle East," Aneki, http://www.aneki.com/poorest_middle_east.htm.

[214] نبيل السمان، مقابلة مع المؤلف، دمشق، 5 تشرين الأول 2011.

[215] بثينة شعبان، مقابلة مع المؤلف، 5 تشرين الأول 2011.

[216] الدكتور نبيل طعمة، مقابلة مع المؤلف، دمشق، 3 تشرين الأول 2011.

[217] الدكتور نبيل سكر، مقابلة مع المؤلف، 5 تشرين الأول 2011.

[218] الدكتور بسام بركات، مقابلة مع المؤلف، دمشق، 4 تشرين الثاني 2013.

[219] Jason Samenow, "Drought and Syria: Manmade Climate Change or Just Climate?" Washington Post, September 9, 2013, http://www.washingtonpost.com/blogs/capital-weather-gang/wp/2013/09/09/drought-and-syria-manmade-climate-change-or-just-climate.

[220] US Energy Information Administration, "Syria," February 18, 2014, http://www.eia.gov/countries/cab.cfm?fips=SY.

[221] World Bank, "Country and Region Specific Forecasts and Data," http://www.worldbank.org/en/publication/global-economic-prospects/data?variable=NYGDPMKTPKDZ&region=MNA.

[222] رنا عيسى، مقابلة مع المؤلف، دمشق، 6 تشرين الأول 2011.

[223] صاحب متجر من دون اسم، مقابلة مع المؤلف، دمشق، تشرين الأول 2011.

[224] هاكوب، مقابلة مع المؤلف، دمشق، تشرين الثاني 2013.

[225] Loveday Morris, "Syrian Islamist Rebels Kill and Kidnap Hundreds of Civilians, Rights Group Says," Washington Post, October 10, 2013, http://www.washingtonpost.com/world/middle_east/syrian-islamist-rebels-killed-or-kidnapped-hundreds-of-civilians-rights-goup-says/2013/10/10/9ceaac8a-31e9-11e3-9c68-1cf643210300_story.html.

[226] للمزيد عن الإبادة الجماعية التي تعرض لها الأرمن انظر إلى:
"Armenian Genocide," Armenian National Institute, http://www.armenian-genocide.org/genocide.html.

[227] نالبنديان، مقابلة مع المؤلف.

[228] الأب سيمون فضول، مقابلة مع المؤلف، بيروت، 31 أيار 2013.

[229] نالبنديان، مقابلة مع المؤلف.

[230] هاكوب، مقابلة مع المؤلف.

[231] الشيخ عبد السلام الحراش، مقابلة مع المؤلف، 14 تشرين الثاني 2013.

[232] هاكوب، مقابلة مع المؤلف.

[233] نالبنديان، مقابلة مع المؤلف.

[234] هاكوب، مقابلة مع المؤلف.

[235] نالبنديان، مقابلة مع المؤلف.

[236] أميرة حنا، مقابلة مع المؤلف، دمشق، 17 تشرين الثاني 2013.

[237] نالبنديان، مقابلة مع المؤلف.

[238] انظر إلى:

http://newspaper.annahar.com/article/88524-

- بيلاي-تتهم-الأسد-بالتورط-في-جرائم-حرب-جهاديون-نقلوا- 12 -راهبة-سورية-ولبنانية من

(المترجم)، وقد أشار المؤلف إلى المصدر التالي:

Nick Cumming-Bruce, “Top UN Rights Official Links Assad to Crimes in Syria,” New York Times, December 2, 2013, http://www.nytimes.com/2013/12/03/world/middleeast/top-un-rights-official-links-assad-to-crimes-in-syria.html.

[239] مريم، مقابلة مع المؤلف، زحلة، لبنان، أيار 2013.

[240] سيادة المطران عصام درويش، مقابلة مع المؤلف، زحلة، لبنان، 31 أيار 2013.

[241] جوزيف، مقابلة مع المؤلف، زحلة، لبنان 31 أيار 2013.

[242] للحصول على أرقام محدثة في ما يتعلق بعدد اللاجئين السوريين في لبنان انظر إلى موقع المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين:

http://data.unhcr.org/syrianrefugees/country.php?id=122.

[243] للحصول على أرقام محدثة لمجموع اللاجئين السوريين انظر إلى موقع المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين:

http://data.unhcr.org/syrianrefugees/regional.php.

[244] النائب الدكتور باسم الشاب، مقابلة مع المؤلف، بيروت، 4 حزيران 2013.

[245] الدكتور إيلي الهندي، مقابلة مع المؤلف، لبنان، 5 حزيران

.2013

[246] الأب فضول، مقابلة مع المؤلف.

[247] الدكتور الهندي، مقابلة مع المؤلف.

[248] من دون اسم، مقابلة مع المؤلف، سوريا، تشرين الأول 2011.

[249] Hugh Macleod and Annasofie Flamand, "Syria: Brutally Violent Shabiha Militia Member Tells It Like It Is," Global Post, June 15, 2012, http://www.globalpost.com/dispatch/news/regions/middle-east/syria/120614/syria-shabiha-thug-assad-mafia-guns-smuggling-violence-houla.

[250] المصدر السابق.

[251] Michael Jansen "Russia and Iran Must Stop Enabling Syrian Government to Remain in Power, Warns Kerry," Irish Times, February 18, 2014, http://www.irishtimes.com/news/world/middle-east/russia-and-iran-must-stop-enabling-syrian-government-remain-in-power-warns-kerry-1.1694963

[252] إبراهيم، مقابلة مع المؤلف.

[253] Peter Beaumont, "Syria: Massacres of Sunni Families Reported in Assad's Heartland," Observer, May 4, 2013, http://www.theguardian.com/world/2013/may/04/syrian-sunni-families-die-in-assads-heartland

[254] Anne Barnard and Hania Mourtada, "An Atrocity in Syria, with No Victim Too Small," New York Times, May 15, 2013, http://www.nytimes.com/2013/05/15/world/middleeast/grisly-killings-in-syrian-towns-dim-hopes-for-peace-talks.html.

[255] Stephanie Nebehay, "Syrian Forces behind Last May's Banias Massacres as Government and Rebels Committed War Crimes, UN Reports," Reuters, September 11, 2013, http://www.huffingtonpost.com/2013/09/11/syria-banias-massacres_n_3906350.html.

[256] إبراهيم، مقابلة مع المؤلف.

[257] "لين"، مقابلة مع المؤلف.

[258] للمزيد من التفاصيل عن الحركة الخضراء في إيران انظر إلى:
Reese Erlich, Conversations with Terrorists: Middle East Leaders on Politics, Violence, and Empire (Sausalito, CA: PoliPoint Press, 2010), p. 93.

[259] Jubin Goodarzi, "Iran and Syria," in The Iran Primer, United States Institute of Peace, http://iranprimer.usip.org/resource/iran-and-syria.

[260] James Zogby, "The Rise and Fall of Iran in Arab and Muslim Eyes—A New Poll," Wilson Center, March 5, 2013, http://www.wilsoncenter.org/event/the-rise-fall-iran-arab-and-muslim-eyes-new-poll

[261] Mohsen Milani, "Why Tehran Won't Abandon Assad(ism)," Washington Quarterly, December 1, 2013.

[262] المصدر السابق. هذا ولم أجد في المراجع كلمة السيد حسن نصر الله التي يشير إليها المؤلف.

[263] المصدر السابق.

[264] حسين رويوران، مقابلة مع المؤلف، طهران، 11 حزيران 2013.

[265] Under Secretary of State for Political Affairs Wendy Sherman, "Testimony before the US Senate," May 15, 2013, http://www.foreign.senate.gov/imo/media/doc/Sherman_Testimony.pdf.

[266] البروفيسور فؤاد إيزدي، مقابلة مع المؤلف، طهران، 13 حزيران 2013.

[267] المصدر السابق .

[268] Alex Vatanka, "Syria Drives Wedge between Turkey and Iran," Middle East Institute, May 16, 2012, http://www.mei.edu/content/Syria-drives-wedge-between-turkey-and-iran.

[269] إيزدي، مقابلة مع المؤلف.

[270] بالنسبة إلى بعض ما ورد في كلمة الرئيس محمود أحمدي نجاد، انظر إلى:

http://www.aljazeera.net/home/print/f6451603-4dff-4ca1-9c10-1227

41d17 432/e4ad96af-fb5e-4840-b7af-84a0e0167d83

(المترجم). هذا وقد أشار المؤلف إلى المرجع التالي:

Robert F. Worth, “Effort to Rebrand Arab Spring Backfires in Iran,” New York Times, February 2, 2012, http://www.nytimes.com/2012/02/03/world/middleeast/effort-to-rebrand-arab-spring-backfires-in-iran.html.

[271] المصدر السابق (المؤلف).

[272] سيد محمد حسيني، مقابلة مع المؤلف، طهران، 12 حزيران 2013.

[273] إيزدي، مقابلة مع المؤلف.

[274] رويوران، مقابلة مع المؤلف.

[275] فادي برهان، مقابلة مع المؤلف، طهران، 12 حزيران 2013.

[276] انظر إلى:

http://www.aljoumhouria.com/epaper/view/59152/601

والترجمة الحرفية لما ذكره المؤلف عن كلام جعفري هي: "إن مشاركة الخبرات وتقديم أي مشورة تسهم في الدفاع عن سوريا مدعاة لفخر الجمهورية الإسلامية الإيرانية". لكنني لم أجده في المراجع العربية التي أشارت إلى المؤتمر الصحفي الذي قال فيه جعفري هذا الكلام، وقد أشار المؤلف إلى المرجع التالي:

Farnaz Fassihi and Jay Solomon, “Top Iranian Official Acknowledges Military Role in Syria,” Wall Street Journal, September 16, 2012, http://online.wsj.com/news/articles/SB10000872396390443720204578000482831419570.

[277] Farnaz Fassihi, Jay Solomon, and Sam Dagher, “Shiite Militiamen from across the Arab World Train at a Base near Tehran to Do Battle in Syria,” Wall Street Journal, September 16, 2013, http://online.wsj.com/article/SB10001424127887323864604579067382861808984.htm

[278] المصدر السابق.

[279] “Iran to Sign Oil Deal with Iraq while Friendship

Pipeline Still Underway," Albawaba Business, July 21, 2013, http://www.albawaba.com/business/iran-gas-export-iraq-508114.

[280] عباس عبدي، مقابلة مع المؤلف، طهران، 14 حزيران 2014.

[281] انظر إلى:

http://www.alquds.com/news/article/view/id/459753 .

(المترجم) وقد أشار المؤلف إلى أنه اعتمد على تسجيلات بأجهزة الهاتف الخليوي لخطاب رفسنجاني، 31 آب 2013، كما أشار إلى وجود نص الخطاب باللغة الفارسية على الموقع التالي:

www.bloghnews.com/news/21183.

[282] Alireza Nader, "What to Do Now? Iran Torn on Syria," Iran Primer, US Institute of Peace, http://iranprimer.usip.org/blog/2013/sep/11/what-do-now-iran-torn-syria.

[283] Reese Erlich, The Iran Agenda: The Real Story of U.S. Policy and the Middle East Crisis (Sausalito, CA: PoliPoint Press, 2007), p. 28.

[284] Sherman, "Testimony before the US Senate."

[285] Karen DeYoung and Scott Wilson, "Goal of Iran Sanctions Is Regime Collapse, US Official Says," Washington Post, January 10, 2012, http://www.washingtonpost.com/world/national-security/goal-of-iran-sanctions-is-regime-collapse-us-official-says/2012/01/10/gIQA0KJsoP_story.html/washingtonpost.com.

[286] "يوسف عبدي"، مقابلة مع المؤلف، طهران، 9 حزيران 2013.

[287] طاهرة كريمي، مقابلة مع المؤلف، طهران، 9 حزيران 2013.

[288] الدكتور خداداد اسنارشاري، مقابلة مع المؤلف، طهران، 10 حزيران 2013.

[289] Siamak Namazi, "Sanctions and Medical Supply Shortages in Iran," Wilson Center study, February 2013, http://www.wilsoncenter.org/publication/sanctions-and-medical-supply-shortages-iran.

[290] قادر دائمي أقدم، مقابلة مع المؤلف، طهران 10 حزيران 2013.

[291] محمد صادق جنان صفت، مقابلة مع المؤلف، طهران، 10 حزيران 2013.

[292] المصدر السابق.

[293] عباس، مقابلة مع المؤلف، إيران، حزيران 2013.

[294] الترجمة العربية لمقال روحاني من جريدة الغد الأردنية عدد 27 كانون الأول 2013، انظر إلى:

https://www.alghad.com/articles/565348-ما-الذي-تريده-إيران؟ ?s=4874bac27731222d5ae49755d8dd24d6

(المترجم). هذا وقد أشار المؤلف إلى المرجع التالي:

Hassan Rouhani, "What Iran Wants in 2014," Project-Syndicate, January 8, 2014, http://www.project-syndicate.org/commentary/hassan-rouhani-on-iran-s-new-moderation.

[295] AIPAC, "Congress Must Act to Ensure Iranian Compliance," AIPAC, January 14, 2014, http://www.aipac.org/~/media/Publications/Policy%20and%20Politics/AIPAC%20Analyses/Issue%20Memos/2014/AIPAC%20Memo%20%20Congress%20Must%20Act%20to%20Ensure%20Iranian%20Compliance.pdf.

[296] Scott Stewart, "The Covert Intelligence War against Iran," Security Weekly, STRATFOR, December 8, 2011, http://www.stratfor.com/weekly/covert-intelligence-war-against-iran.

[297] Erlich, Iran Agenda, pp. 17-18.

[298] سيد محمد ماراندي، مقابلة مع المؤلف، طهران، 12 حزيران 2013.

[299] Reza Marashi and Trita Parsi, "The Wrong Path to Peace with Iran," CNN, December 31, 2013, http://edition.cnn.com/2013/12/31/opinion/marashi-parsi-iran-peace/index.html.

المجلس الأمريكي الإيراني الوطني أكبر تجمع سياسي للأمريكيين ذوي الأصول الإيرانية، ويحبذ وجود علاقات دبلوماسية طبيعية مع إيران.

[300] Thomas Erdbrink, "President-Elect of Iran Says He

Will Engage with the West," New York Times, June 29, 2013, http://www.nytimes.com/2013/06/30/world/middleeast/president-elect-of-iran-says-he-will-engage-with-the-west.html.

[301] إيزدي، مقابلة مع المؤلف.

[302] Robin Wright, "Iran's Foreign Minister Says Sanctions Would Kill Nuclear Deal," Time, December 9, 2013, http://world.time.com/2013/12/09/exclusive-irans-foreign-minister-says-sanctions-would-kill-nuclear-deal/.

[303] Mehdi Khalaji, "Syria as a Spoiler in Iran's Foreign Policy," Washington Institute, August 27, 2013, http://washin.st/18YcyLw.

[304] بارخودان بالو، مقابلة مع المؤلف، مخيم مقبلة، إقليم كردستان، العراق، 15 أيلول 2011.

[305] "The Peace Treaty of Sevres," HR-Net, Section III, Article 64, www.hri.org/docs/sevres.

[306] Mufid Abdulla, "Mahabad—The First Independent Kurdish Republic," Kurdistan Times, June 12, 2011, http://kurdistantribune.com/2011/mahabad-first-independent-kurdish-republic/.

[307] المصدر السابق.

[308] Jordil Tejel, Syria's Kurds: History, Politics, and Society (London: Rutledge Group, 2009), p. 48.

[309] Human Rights Watch, "Syria: The Silenced Kurds," October 1996.

[310] Becky Lee Katz, "Turkey: Kurdish Teenager Convicted as Terrorist for Attending Demonstration," Los Angeles Times, July 10, 2010, http://latimesblogs.latimes.com/babylonbeyond/2010/07/convicted-of-terrorism-a-young-kurdish-girl-is-serving-her-seven-year-and-nine-month-prison-sentence-in-turkeys-prison-e.html.

[311] Reese Erlich, "Brad Pitt and the Girl Guerrillas," Mother Jones, March/April 2007,

www.motherjones.com/politics/2007/03/brad-pitt-and-girl-guerrillas.

[312] نساء من حزب العمال الكردستاني من دون أسماء، مقابلة مع المؤلف، معسكر جبل قنديل، إقليم كردستان، العراق، 26 تشرين الثاني 2006.

[313] Soner Cagaptay, "Arab Spring Heats up Kurdish Issue," Washington Institute, March 2012, http://www.washingtoninstitute.org/policy-analysis/view/arab-spring-heats-up-kurdish-issue.

[314] Abdullah Ocalan, Prison Writings: The Roots of Civilisation (London: Pluto Press 2007), p. 243.

[315] "The Kurdish Democratic Union Party," Carnegie Middle East Center, March 1, 2012, http://carnegie-mec.org/publications/?fa=48526.

[316] "KNC Leader: Syrian Kurds Are Disappointed by PYD's Actions," Rudlaw online news, July 1, 2012.

[317] "كان مد" مقابلة مع المؤلف، إربيل، إقليم كردستان، العراق، 11 أيلول 2011.

[318] Tejel, Syria's Kurds, p. 50.

[319] "Annual Human Rights Report 2008," UK Foreign and Commonwealth Office, p. 167.

[320] الرئيس بشار الأسد، مقابلة مع المؤلف، دمشق، 14 حزيران 2006.

[321] "Syria's Assad Grants Nationality to Hasaka Kurds," BBC, April 7, 2011, http://www.bbc.co.uk/news/world-middle-east-12995174.

[322] Christian Sinclair and Sirwan Kajjo, "The Evolution of Kurdish Politics in Syria," Middle East Research and Information Project, August 31, 2011, www.merip.org/mero/mero083111.

[323] بالو، مقابلة مع المؤلف.

[324] Tejel, Syria's Kurds, p. 116.

[325] "Factbox: Why Small Producer Syria Matters to Oil

Markets," Reuters, August 27 2013, www.reuters.com/article/2013/08/27/us-syria-oil-factbox-idUSBRE97Q0JW20130827.

[326] Stanley Reed, "Iraqi Government and Kurdistan at Odds over Oil Production," New York Times, November 14, 2012, http://www.nytimes.com/2012/11/15/business/global/delicate-balancing-act-for-western-oil-firms-in-iraq.html.

[327] Julian Borger and Mona Mahmood, "EU Decision to Lift Syrian Oil Sanctions Boosts Jihadist Groups," Guardian, May 19, 2013, http://www.theguardian.com/world/2013/may/19/eu-syria-oil-jihadist-al-qaida.

[328] "كيوان رشيد"، مقابلة مع المؤلف، إربيل، إقليم كردستان، العراق، 13 أيلول 2011.

[329] محمد أمين فرحو، مقابلة مع المؤلف، إربيل، إقليم كردستان، العراق، 11 أيلول 2011.

[330] حسن صالح، مقابلة مع المؤلف، إربيل، إقليم كردستان، العراق، 10 أيلول 2011.

[331] "Interview with Syrian Kurdish Politician Mish'al at-Tammo," Kurdwatch, July 21, 2011, www.ekurd.net/mismas/articles/misc 2011/7/syriakurd342.htm.

[332] المصدر السابق.

[333] Farnaz Fassihi, "Kurds Look beyond Assad, with Dream of Autonomy," Wall Street Journal, September 29, 2011, http://online.wsj.com/news/articles/SB10001424053111904491704576572114191429564.

[334] "Interview with Syrian Kurdish Politician Mish'al at-Tammo," Kurdwatch.

[335] "Iraqi Kurds Blame Syria for the Death of Kurdish Figure Mish'al Tammo," CNN, October 11, 2011, www.ekurd.net/mismas/articles/misc 2011/10/syriakurd367.htm.

[336] "كان مد" مقابلة مع المؤلف.

[337] "Liberated Kurdish Cities in Syrian Kurdistan Move into Next Phase," Rudlaw, July 25, 2012, http://www.ekurd.net/mismas/articles/misc2012/7/syriakurd554.htm.

[338] فلاديمير فان فيلغنبرغ، مقابلة مع المؤلف عبر البريد الإلكتروني، 25 أيلول 2013.

[339] المقابلة موجودة على الرابط التالي:

http://www.youtube.com/watch?v=uNbq2C0SAvc

(المترجم)، هذا وقد أشار المؤلف إلى المصدر التالي:

"Mr. Saleh Mohammed the Head of the Democratic Union Party Said in an Interview with *Al Jazeera* ," official PYD website in English, www.pydrojava.net/en/index.php?option=com_content&view=article&id=94:mr-saleh-mohammed-the-head-of-the-democratic-union-party-said-in-an-interview-with-al-jazeera&catid=34:news&Itemid=53.

[340] Mustafa Karasu, "The Third Way in Syria," Official PKK, www.pkk online.com/en/index.php?sys=article&artID=196.

[341] "Davutoğlu Says Turkey Not against Kurdish Autonomy in Post-AssadSyria," Today's Zaman, August 29, 2012, www.todayszaman.com/news-289023-davutoglu-says-turkey-not-against-kurdish-autonomy-in-post-assad-syria.html.

[342] المصدر السابق.

[343] Ben Hubbard, "Kurdish Struggle Blurs Syria's Battle Lines," New York Times, August 1, 2013, http://www.nytimes.com/2013/08/02/world/middleeast/syria.html.

[344] Erika Solomon, "Special Report: Amid Syria's Violence, Kurds Carve out Autonomy," Reuters, January 23, 2014, http://www.reuters.com/article/2014/01/22/us-syria-kurdistan-specialreport-idUSBREA0L17320140122.

[345] "Interview: Rights Official Speaks of Situation in Rojava, PYD Challenges," Rudlaw, March 2, 2014,

http://rudaw.net/english/interview/02032014.

[346] Solomon, “Special Report.”

[347] سابا، مقابلة مع المؤلف، زحلة، لبنان، 31 أيار 2013.

[348] Tracy Shelton, “Kurds in Syria: A Struggle within a Struggle,” Global Post, March 25, 2013, www.globalpost.com/dispatch/news/regions/middle-east/syria/130324/kurdish-forces-syria-war-third-party.

[349] المصدر السابق.

[350] C. J. Chivers, “Defying Common View, Some Syrian Kurds Fight Assad,” New York Times, January 22, 2013, http://www.nytimes.com/2013/01/23/world/middleeast/some-syrian-kurds-resist-assad-defying-conventional-views.html.

[351] “Rebels Team up with Nusra Jihadists against Syria Kurds,” Middle East Online, August 12, 2013, www.middle-east-online.com/english/?id=60674.

[352] لرؤية النص الكامل للبيان المشترك انظر إلى:

http://syrianarmyfree.com/vb/showthread.php?t=52791&page=13

(المترجم).

[353] نص البيان العربـي من المرجع السابق، أما المؤلف فقد أشار إلى المرجع التالي:

“Among the Kurds,” Syria Comment, August 2, 2013, www.joshualandis.com/blog/problems-for-syrians-in egypt/.

[354] عمر مشوح، مقابلة مع المؤلف، إسطنبول، 8 آب 2012.

[355] Emrah Ulker, “US Warns Kurdish Autonomy in Syria Could Be Slippery Slope,” Today’s Zaman, July 30, 2012, www.todayszaman.com/news-288108-us-warns-kurdish-autonomy-in-syria-could-be-slippery-slope.html.

[356] سبقت الإشارة إلى هذا الطقس في الفصل الثاني (المترجم).

[357] Chris McGreal, “Revealed: How Israel Offered to Sell South Africa Nuclear Weapons,” Guardian, May 23, 2010, www.theguardian.com/world/2010/may/23/israel-south-africa-nuclear-

weapons. See also: “How Israel Helped Apartheid South Africa Build Nuclear Weapons,” War in Context, April 5, 2013, http://warincontext.org/2013/04/05/how-israel-helped-apartheid-south-africa-build-nuclear-weapons.

[358] في عام 1993، وكجزء من عملية السلام التي توِّجت بمعاهدة أوسلو، اعترفت إسرائيل بمنظمة التحرير الفلسطينية وحقوق الفلسطينيين بدولة خاصة بهم، بينما اعترفت منظمة التحرير بدولة إسرائيل. وبعد سنين طويلة، أصر رئيس الوزراء الإسرائيلي أنه يجب على الفلسطينيين أن يعترفوا بيهودية دولة إسرائيل. (المؤلف)

Hussein Ibish, “Should the Palestinians Recognize Israel as a Jewish State? Foreign Policy, May 25, 2011, www.foreignpolicy.com/articles/2011/05/25/should_the_palestinians_recognize_israel_as_a_jewish_state.

[359] يقول السوريون إن "مرتفعات الجولان" تسمية خاطئة؛ لأن المنطقة تتألف من تلال يقع بعضها حتى تحت المناطق الإسرائيلية. بينما يقول الإسرائيليون إن "مرتفعات الجولان" تسمية دقيقة؛ لأنها في موقع استراتيجي يشرف على كامل إسرائيل. وفي هذا الفصل سأستخدم مصطلح "الجولان" المحايد من دون أي إشارة أخرى. (المؤلف)

[360] مريم عجمي، مقابلة مع المؤلف، الجولان، 23 تشرين الأول 2013.

[361] عقبة أبو شاهين، مقابلة مع المؤلف، الجولان، 23 تشرين الأول 2013.

[362] الدكتور علي أبو عواد، مقابلة مع المؤلف، الجولان، 23 تشرين أول 2013.

[363] إيال زيسر، مقابلة مع المؤلف، تل أبيب، 22 تشرين الأول 2013.

[364] مارك هيلر، مقابلة مع المؤلف، تل أبيب، 22 تشرين الأول 2013.

[365] “Barak: End of Syria’s Assad Would Be ‘a Blessing for the Middle East,’” Haaretz, December 11, 2011, http://www.haaretz.com/news/diplomacy-defense/barak-end-of-syria-s-assad-would-be-a-blessing-for-the-middle-east-1.400850.

[366] "Senior Member of the SMC Defects to ISIS and Details Foreign Involvementin the Opposition," Brown Moses Blog, December 2, 2013, http://brown-moses.blogspot.com/2013/12/senior-member-of-smc-defects-to-isis_2.html.

[367] Associated Press, "Israel Sends Humanitarian Aid to Syria," New York Times, December 3, 2013, http://www.nytimes.com/2013/12/04/world/middleeast/israel-sends-humanitarian-aid-to-syria.html.

[368] Anne Barnard, Michael R. Gordon, and Jodi Rudoren, "Israel Targeted Iranian Missiles in Syria Attack," New York Times, May 4, 2013, http://www.nytimes.com/2013/05/05/world/middleeast/israel-syria.html.

[369] Anne Barnard, "Syria Condemns Israeli Assault near Damascus," New York Times, May 5, 2013, http://www.nytimes.com/2013/05/06/world/middleeast/after-strikes-in-syria-concerns-about-an-escalation-of-fighting.html.

[370] Michael R. Gordon, "Some Syria Missiles Eluded Israeli Strike, Officials Say," New York Times, July 31, 2013, http://www.nytimes.com/2013/08/01/world/middleeast/syrian-missiles-were-moved-before-israeli-strike-officials-say.html.

[371] Anne Barnard, "Israeli Warplanes Strike near the Border of Syria and Lebanon," New York Times, February 24, 2013, http://www.nytimes.com/2014/02/25/world/middleeast/israeli-warplanes-strike-near-the-border-of-syria-and-lebanon.html.

[372] Herb Keinon, "Israel Wanted Assad Gone since Start of Syria Civil War," Jerusalem Post, September 17, 2013, http://washingtonpac.com/Articles%20of%20Interest/israel_wanted_assad_gone_since_s.htm.

[373] Jodi Rudoren, "Israel Backs Limited Strike against Syria," New York Times, September 5, 2013,

http://www.nytimes.com/2013/09/06/world/middleeast/israel-backs-limited-strike-against-syria.html.

[374] Jodi Rudoren and Isabel Kershner, “Lobbying Group for Israel to Press Congress on Syria,” *New York Times* , September 9, 2013, http://www.nytimes.com/2013/09/10/world/middleeast/lobbying-group-for-israel-to-press-congress-on-syria.html.

[375] انظر إلى موقع آيباك:

AIPAC, “Our Mission,” AIPAC home page, http://www.aipac.org/about/mission.

[376] Mark Landler, “Pro-Israel Group Finds Its Momentum Blunted,” New York Times, February 3, 2014, http://www.nytimes.com/2014/02/04/world/middleeast/potent-pro-israel-group-finds-its-momentum-blunted.html.

[377] مصطفى البرغوثي، مقابلة مع المؤلف، رام الله، الضفة الغربية، 24 تشرين الأول 2013.

[378] Ron Kampeas, “Coalition Brings Together Groups Opposing New Iran Sanctions,” Jewish Telegraphic Agency, January 28, 2014, http://www.jta.org/2014/01/28/news-opinion/politics/coalition-brings-together-groups-opposing-new-iran-sanctions.

[379] Chemi Shalev, “Israel, Saudi Sheikhs and Congress Isolated in World Arena,” Haaretz, November 24, 2013, http://www.haaretz.com/blogs/west-of-eden/.premium-1.559850.

[380] UN Security Council Resolution 242, November 22, 1967,
http://unispal.un.org/unispal.nsf/0/
7D35E1F729DF491C85256EE700686136.

[381] لنص القرار انظر إلى:

http://ar.wikisource.org/wiki/ قرار_مجلس_الأمن_497

وقد اعتمدت هذا المصدر لأن المصدر الذي أشار إليه المؤلف - وهو موقع ونظام معلومات الأمم المتحدة بشأن قضية فلسطين

(يونيسبال) - لا يحتوي على الوثيقة العربية للقرار (المترجم)، والمصدر الذي أشار إليه المؤلف هو:

United Nations Resolution 497, December 17, 1981, http://unispal.un.org/UNISPAL.NSF/0/73D6B4C70D1A92B7852560DF0064F101.

[382] "Golan Heights Profile," BBC, May 21, 2013, http://www.bbc.com/news/world-middle-east-14724842.

[383] هيلر، مقابلة مع المؤلف.

[384] David W. Lesch, Syria: The Fall of the House of Assad (New Haven, CT: Yale University Press, 2012), p. 36.

[385] Jay Solomon and Bill Spindle, "Syria Strongman: Time for 'Reform,'" Wall Street Journal, January 31, 2011, http://online.wsj.com/article/SB20001424052748704832704576114340735033236.html.

[386] Shimon Shiffer, "Netanyahu Agreed to Full Golan Heights Withdrawal," Y Net News, October 12, 2012, http://www.ynetnews.com/articles/0,7340,L-4291337,00.html.

[387] هيلر، مقابلة مع المؤلف.

[388] النص الكامل لترجمة المقال على الموقع التالي:

http://www.alquds.co.uk/?p=308130

(المترجم). هذا وقد أشار المؤلف إلى المصدر التالي:

Zvi Hauser, "No Peace without the Golan," Haaretz, December 13, 2013, http://www.haaretz.com/opinion/.premium-1.563291.

[389] حنان عشراوي، مقابلة مع المؤلف، رام الله، 24 تشرين الأول 2013.

[390] البرغوثي، مقابلة مع المؤلف.

[391] عشراوي، مقابلة مع المؤلف.

[392] زياد الظاظا، مقابلة مع المؤلف، مدينة غزة، 8 حزيران، 2011.

[393] "Preliminary Statement of the NDI/Carter Center International Observer Delegation to the Palestinian Legislative

Council Elections," Carter Center, January 26, 2006, https://www.cartercenter.org/news/documents/doc2283.html.

[394] خالد مشعل، مقابلة مع المؤلف، دمشق، 18 كانون الأول 2008.

[395] Robert Tait, "Iran Cuts Hamas Funding over Syria," Telegraph, May 31, 2013, http://www.telegraph.co.uk/news/worldnews/middleeast/palestinianauthority/10091629/Iran-cuts-Hamas-funding-over-Syria.html.

[396] المصدر السابق.

[397] Rick Gladstone, "Large Truck Bomb Reported to Kill 60 Syrian Troops," New York Times, June 17, 2013, http://www.nytimes.com/2013/06/18/world/middleeast/large-truck-bomb-reported-to-kill-60-syrian-troops.html.

[398] "Palestinian Public Opinion Poll No. 45," Palestine Center for Policy and Survey Research, September 30, 2012, http://pcpsr.org/survey /polls/2012/p45e.pdf.

[399] البروفيسور أسعد غانم، مقابلة مع المؤلف عبر البريد الإلكتروني، 16 تشرين الأول 2013. أجري استطلاع الرأي عام 2012.

[400] Naela Kahil, "Syria War Polarizes West Bank Palestinians," Al-Monitor, September 13, 2013, http://www.al-monitor.com/pulse/originals/2013/09/syria-war-palestinians-baath.html.

[401] البرغوثي، مقابلة مع المؤلف.

[402] Bruce Stokes, "Little International Support for Arming Syria Rebels," Pew Research Center, May 2, 2013, http://www.pewglobal.org /2013/05/02/little-international-support-for-arming-syria-rebels/.

[403] Khaled Abu Toameh, "Rival Palestinian Factions Hamas, Fatah Unite against Western Attack on Syria," Jerusalem Post, August 29,2013, http://www.jpost.com/Middle-East/Palestinians-Hamas-Fatah-voice-opposition-for-Western-attack-on-Syria-324709.

[404] المصدر السابق.

[405] زيسر، مقابلة مع المؤلف.

[406] البرغوثي، مقابلة مع المؤلف.

[407] حي قديم في واشنطن العاصمة تقع فيه وزارة الخارجية. [المترجم]

[408] متحدث باسم وزارة الخارجية الأمريكية، مقابلة مع المؤلف، واشنطن العاصمة، 16 نيسان 2012.

[409] مصدر وزارة الخارجية الأمريكية "كاثي"، مقابلة مع المؤلف، واشنطن العاصمة، نيسان 2012.

[410] المتحدث باسم وزارة الخارجية الأمريكية، مقابلة مع المؤلف.

[411] "Clinton: SNC No Longer Leads Syrian Opposition," Voice of America, October 31, 2012, http://www.voanews.com/content/brahimi-seeks-chinese-support-for-syria-solution/1536429.html.

[412] "كاثي"، مقابلة مع المؤلف.

[413] المتحدث الرسمي باسم وزارة الخارجية، مقابلة مع المؤلف.

[414] بيتر فان بيورِن، مقابلة مع المؤلف، واشنطن العاصمة، 17 نيسان 2012.

[415] هنري بريخت، مقابلة مع المؤلف، واشنطن العاصمة، 16 نيسان 2012.

[416] النص الكامل للخطاب على الموقع التالي:

http://www.voltairenet.org/article180372.html

(المترجم). هذا وقد أشار المؤلف إلى المصدر التالي:

"Remarks by President Obama in Address to the United Nations General Assembly," September 24, 2013, http://www.whitehouse.gov/the-press-office/2013/09/24/remarks-president-obama-address-united-nations-general-assembly.

[417] John J. Mearsheimer, "American Unhinged," National Interest, January-February 2014, http://nationalinterest.org/article/america-unhinged-9639.

[418] خطاب أوباما أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، 2013 على الموقع التالي:

http://www.voltairenet.org/article180372.html

(المترجم). هذا وقد أشار المؤلف إلى المصدر التالي:

"Remarks by President Obama in Address to the United Nations General Assembly," September 24, 2013, http://www.whitehouse.gov/the-press-office/2013/09/24/remarks-president-obama-address-united-nations-general-assembly.

[419] Jonathan Watts, "NSA Accused of Spying on Brazilian Oil Company Petrobras," Guardian, September 9, 2013, http://www.theguardian.com/world/2013/sep/09/nsa-spying-brazil-oil-petrobras.

[420] "Snowden: NSA Conducts Industrial Espionage Too," CBS News, January 26, 2014, http://www.cbsnews.com/news/snowden-nsa-conducts-industrial-espionage-too/E.

[421] Mearsheimer, "American Unhinged."

[422] Sammy Ketz, "Moscow Rejects Saudi Offer to Drop Assad for Arms Deal," Agence France Press, August 8, 2013, http://www.google.com/hostednews/afp/article/ALeqM5jhPTvibpnk98IR09Amuc5QzWQsIQ?docId=CNG.c0b07c0fd43690568ae07ab83f87f608.6d1&hl=en.

[423] Pepe Escobar, "Syria's Pipelineistan War," Al Jazeera, August 6, 2012, http://www.aljazeera.com/indepth/opinion/2012/08/201285133440424621.html.

[424] Nafeez Ahmad, "Syria Intervention Plan Fueled by Oil Interests, Not Chemical Weapon Concern," Guardian, August 30, 2013, http://www.theguardian.com/environment/earth-insight/2013/aug/30/syria-chemical-attack-war-intervention-oil-gas-energy-pipelines.

[425] Rhonda Roumani, "Four Armed Men Attack US Embassy in Damascus," Washington Post, September 13, 2006, http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2006/09/12/

AR2006091200345.html.

[426] انظر إلى:

http://www.alquds.com/news/article/view/id/288456

(المترجم). هذا وقد أشار المؤلف إلى المصدر التالي:

Peter Grier, “Why It Took so Long for Obama to Say Syria’s Assad Must Go,” Christian Science Monitor, August 18, 2011, http://www.csmonitor.com/USA/Foreign-Policy/2011/0818/Why-it-took-so-long-for-Obama-to-say-Syria-s-Assad-must-go.

[427] أحمد بقدونس، مقابلة مع المؤلف، دمشق، 5 تشرين الأول 2011.

[428] "لين"، مقابلة مع المؤلف، دمشق، تشرين الأول 2011.

[429] أنظر:

http://www.al-akhbar.com/node/190445

(المترجم)، هذا وقد أشار المؤلف إلى المصدر التالي:

Thom Shanker, “General Says Syrian Rebels Aren’t Ready to Take Power,” New York Times, August 21, 2013, http://www.nytimes.com/2013/08/22/world/middleeast/general-says-syrian-rebels-arent-ready-to-take-power.html.

[430] Mark Mazzetti, Robert F. Worth, and Michael R. Gordon, “Obama’s Uncertain Path amid Syria Bloodshed,” New York Times, October 22, 2013,http://www.nytimes.com/2013/10/23/world/middleeast/obamas-uncertain-path-amid-syria-bloodshed.html.

[431] المصدر السابق.

[432] Jack Keane and Danielle Pletka, “How to Stop Assad’s Slaughter,” Wall Street Journal, May 23, 2013, http://online.wsj.com/news/articles/SB10001424127887323744604578477203521015598.

[433] الليبرتارية - ويسميها البعض "مذهب مؤيدي مبادئ الحرية" - هي المذهب السياسي الفلسفي الذي من أولوياته الحفاظ على الحرية الفردية، ويدعو إلى التحرر وإزالة القيود المفروضة على الفرد من قبل

الدولة والمجتمع كالعادات والتقاليد، وتقليص حجمها قدر المستطاع. كما يعارض الليبرتاريون "تدخّل الحكومة في الاقتصاد (عدا عن منع المؤسسات التجارية أو الصناعية من الاشتراك في الإكراه أو الاحتيال)" وبعضهم يعارض "أنواع الضرائب كافة" إلا أن معظمهم "يؤيدون فقط ما يكفي من الضرائب التي يعتقدون أنها ضرورية لحماية حريّة الفرد. انظر إلى:
http://ar.wikipedia.org/wiki/ليبرتارية (المترجم).

[434] Doug Bandow, "Choosing between Two Evils in Syria," Cato Institute, August 6, 2012, http://www.cato.org/publications/commentary/choosing-between-two-evils-syria.

[435] جنود إيسن (بالإنجليزية: Hessian) (بالألمانية: Hessen) جنود ألمان في القرن الثامن عشر، عينت الإمبراطورية البريطانية ما يقارب ثلاثين ألف جندي منهم، وقد خدموا في ثلاث عشرة مستعمرة خلال حرب الاستقلال الأمريكية. نصفهم أتوا من مقاطعة إيسن في ألمانيا، والباقون أتوا من مناطق ألمانية مجاورة. في سياق الخدمة المدنية البريطانية كانوا يستخدمون لقب جنود إيسن، بينما كان الأمريكيون يسمونهم مرتزقة. انظر إلى:
http://ar.wikipedia.org/wiki/جنود_إيسن (المترجم).

[436] Pat Buchanan, "Syria: Just Whose War Is It?" WorldNetDaily, September 5, 2013, http://www.wnd.com/2013/09/just-whose-war-is-this

[437] Arlette Saenz, "Let Allah Sort It Out," ABC News, June 15, 2013, http://news.yahoo.com/sarah-palin-u-decision-syria-let-allah-sort-182044264--abc-news-politics.html.

[438] Thomas L. Friedman, "A War for Oil?" New York Times, January 5, 2003, http://www.nytimes.com/2003/01/05/opinion/a-war-for-oil.html.

[439] النص المترجم بالكامل لمقال فريدمان على الرابط التالي:

http://archive.aawsat.com/leader.asp?article=728064&issueno=12583#.VQRM746UeAY

(المترجم)، هذا وقد أشار المؤلف إلى المصدر التالي:

Thomas L. Friedman, "This Ain't Yogurt," New York Times, May 5, 2013, http://www.nytimes.com/2013/05/05/opinion/sunday/friedman-this-aint-yogurt.html.

[440] Danny Postel and Nader Hashemi, "Use Force to Save Starving Syrians," New York Times, February 10, 2014, http://www.nytimes.com/2014/02/11/opinion/use-force-to-save-starving-syrians.html.

[441] Danny Postel, "Syria, Russia, and What Can Be Done: Some Questions for Bob Dreyfuss," Nation, February 24, 2014, http://www.thenation.com/article/178517/syria-russia-and-what-can-be-done-some-questions-bob-dreyfuss.

[442] "Security Council Approves 'No-Fly Zone' over Libya, Authorizing 'All Necessary' Measures to Protect Civilians, by Vote of 10 in Favour with 5 Abstentions," UN Security Council, March 17, 2011, https://www.un.org/News/Press/docs/2011/sc10200.doc.htm.

[443] Reese Erlich, "Militias Become Power Centers in Libya," Progressive, September 2012, http://www.progressive.org/libya_militias.html.

[444] Stephen Zunes, "Despite Horrific Repression, the U.S. Should Stay out of Syria," Foreign Policy in Focus, May 15, 2013, http://fpif.org/despite_horrific_repression_the_us_should_stay_out_of_syria/

[445] "War in Syria," American Friends Service Committee, May 10, 2013, http://www.afsc.org/story/war-syria.

[446] Friends for a NonViolent World homepage: http://www.fnvw.org/index.asp?SEC=F2DC5E79-EB52-4C39-BA7A-A80ACCF39803&Type=B_BASIC

[447] Michael R. Gordon, David E. Sanger, and Eric Schmitt, “Russia Scolded as US Weighs Syria Options,” New York Times, February 17, 2014, http://www.nytimes.com/2014/02/18/world/middleeast/russia-is-scolded-as-us-weighs-syria-options.html

[448] Nicholas Blanford and Fred Weir, “Why Russia Is Blocking International Action against Syria,” Christian Science Monitor, September 19, 2011, http://www.csmonitor.com/World/Middle-East/2011/0919/Why-Russia-is-blocking-international-action-against-Syria.

[449] Howard Amos, “Billions of Dollars of Russian Business Suffers along with Syria,” Moscow Times, September 2, 2011, http://www.themoscowtimes.com/business/article/billions-of-dollars-of-russian-business-suffers-along-with-syria/443078.html.

[450] Fred Weir, “Why Russia Is Willing to Sell Arms to Syria,” Christian Science Monitor, January 19, 2012, http://www.csmonitor.com/World/Europe/2012/0119/Why-Russia-is-willing-to-sell-arms-to-Syria.

[451] المصدر السابق.

[452] دبلوماسي روسي، مقابلة مع المؤلف، تشرين الثاني 2013.

[453] Blanford and Weir, “Why Russia Is Blocking International Action against Syria.”

[454] Reese Erlich, “Do Lebanon’s Taif Accords Offer Lessons for Syrian Peace?” Global Post, August 2, 2013, http://www.globalpost.com/dispatch/news/regions/middle-east/lebanon/130801/syria-peace-lebanon-taif-accords.